

محمد عرموش

عِندَمَا حَكَمُوا مِصر

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

عندما حكموا مصر

محمد عرموش

عن الكتاب..

هذا الكتاب يؤكد لنا أننا نعيش في وطن لا يمكن مقارنته بأي بقعة أخرى على وجه الأرض وهذا بشهادة شخصيات غير عادية على مر التاريخ وهذه الشهادة ترجموها لأفعال وإجراءات على الأرض وليس مجرد شهادة للتاريخ وهكذا يمكن القول أنه لا يشعر بقيمة الأوطان الغير عادية على مر التاريخ إلا قادة غير عاديون مثل صانع الحلي والمجوهرات الخبير الذي يقدر الجواهر والأحجار الكريمة مهما علاها التراب أو اختفت وسط الرمال ولم يلحظها أحد فينفض عنها التراب فتخطف الأبصار ويدرك الناس حقيقتها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مقدمة

هذا الكتاب يلقي الضوء على أبرز القادة في تاريخ مصر من المصريين وغير المصريين ويوضح كيف تميَّزوا عن غيرهم من حكام مصر وفرضوا أنفسهم على كتب التاريخ وكيف تعاملوا مع مصر كوطن مميز له طبيعة خاصة يختلف عن باقي الولايات التي حكمها بعضهم فقد سيطروا على إمبراطوريات شاسعة تحتوي على العديد من الدول وتزخر بالكثير من الشعوب والقوميات ولكن كانت لمصر معاملة خاصة دائمًا فقد شاهدوا فيها ما لم يشاهدوه في غيرها وأيقنوا أنها دولة غير عادية وأنها تمتلك من المقومات والإمكانيات ما لا تمتلكه معظم الدول وبها شعب يتميز بالكثير من الصفات التي تؤهله للعمل والإنتاج وتحقيق الأمجاد والانتصارات وله طبيعة خاصة به وحده، ولهذه الدولة مفتاح شخصية على حد تعبير الكاتب والمؤرِّخ الكبير جمال بدوي حيث قال (وضعوا أيديهم على مفتاح شخصيتها فباحت لهم بسرها وجعلت منهم حكامًا يلهج بذكرهم التاريخ)[1]

ويوضح هذا الكتاب أيضًا طبيعة هؤلاء القادة وكيف أنهم أشخاص غير عاديين ويشتركون في العديد من الصفات على اختلاف جنسياتهم ودياناتهم وتوجهاتهم وبيئاتهم التي نشؤوا فيها قبل حكمهم لمصر وكيف أن الأوطان المميزة لا يشعر بقيمتها سوى القادة المميزون.

وقد لا يشعر البعض بقيمة الشيء إلا عندما يلاحظ اهتمام شخص مميز به فيتساءل عن سر اهتمام هذا الشخص بهذا الشيء ويبدأ في إعادة تأمله

وفحصه حتي يدرك حقيقته فيهتم به أيضًا، فهذا الكتاب سوف يوضح كيف اهتم عظماء التاريخ بمصر وأدركوا أهميتها وتعاملوا معها بشكل مختلف وبالتالي سيوضح لمن لا يعرف قيمة مصر الكثير عن هذا الوطن الذي قال عنه نابليون أنه الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد على وجه الأرض مثله.

وهذا الكتاب لن يركِّز فقط على ما قاله بعض هؤلاء القادة عن مصر ولكنه سيركز أيضًا على مافعلوه على أرض الواقع لأن الإلمام بالأفعال بلا شك سيكون أكثر تأثيرًا في تكوين صورة حقيقية عن مصر من الإلمام بالأقوال فالأفعال عادةً تكون أكثر إقناعًا من الأقوال.

وسوف يتضمن هذا الكتاب إن شاء الله عدة فصول تبدأ بالطبع بالحديث عن طبيعة القادة البارزين بشكل عام وبعض ما كُتِب عنهم وكذلك طبيعة الشعب المصري وبعض ما كُتِب عنه وسيكون ذلك في الفصل الأول من هذا الكتاب ثم الحديث عن مصر وبعض ما كُتِب عنها في الفصل الثاني أما الفصل الثالث فيصف ما يحدث عندما تلتقي الشخصيات الغير عادية بوطن غير عادي ثم يتناول الفصل الرابع موجزًا عامًا لجميع الدول والإمبراطوريات التي حكمت مصر على مرِّ التاريخ سواء دول قامت في مصر أو أخضعت مصر كولاية تابعة لها وكيف أن المصريين لم يحكموا مصر لمدة حوالي 2294 سنة تقريبًا ثم تتناول الفصول التالية تباعًا أبرز القادة في كل عصر من العصور منذ العصر الفرعوني بحيث يتم تخصيص فصل لكل عصر على حدا يبدأ بموجز عام وفكرة مبسطة عنه ثم الشخصيات البارزة فيه[2]، أما الخاتمة فتلقي الضوء على الاختيار الصعب الذي كان يتحتم على القادة الغير مصريين اختياره عند حضورهم إلى مصر، فهل يختار القائد أن يعود إلى عاصمة ملكه ويترك واليًا

على مصر مع اتخاذ بعض الإجراءات والضمانات في مصر قبل عودته، أم يتخذ مصر عاصمة لملكه ويترك وطنه الذي نشأ فيه وهو ما فعله العديد من القادة على مر التاريخ من أمثال أبوفيس[3] وشاشنق الأول[4] وبعنخي[5] وبطليموس الأول وأحمد بن طولون وأبو بكر الإخشيد والمعز لدين الله الفاطمي وصلاح الدين الأيوبي وسلاطين المماليك ومحمد علي باشا كما سنرى إن شاء الله

ويطيب لي أن أذكر في هذه المقدمة موقف تاريخي قد يوضِّح ويغني عن الكثير من الكلام والوصف وهو موقف طريف حدث في مصر في عصر الخليفة العباسي المأمون وهذا الموقف يدل على مكانة مصر وجمالها وحضارتها كما يدل أيضًا علي مكانة بغداد عاصمة العباسيين وجمالها وحضارتها في ذلك الوقت، فعندما حضر الخليفة المأمون إلي مصر لم تعجبه كثيرًا عندما قارنها ببغداد فقال لمن معه ما معناه (لعن الله فرعون حيث قال: ﴿ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[6] (فلو رأى بغداد وجمالها ما كان ليقول ذلك عن مصر) فقال له صاحبه يا أمير المؤمنين ألم تقرأ قول الله تعالى ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾[7] (فما ظنك بشيء دمره الله هذا بقيته)[8]

وهناك العديد من المواقف التي يتضمنها هذا الكتاب توضح للقارئ مدى روعة هذا البلد الذي ذكره المولى عز وجل في كتابه الكريم ووصفه بالمقام الكريم عند خروج بني إسرائيل ووراءهم فرعون وجنوده ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ *وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾[9]

محمد عرموش

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول

فكرة عامة عن طبيعة الشخصيات البارزة وطبيعة الشعب المصري

كم شخص عادي تواجد على الأرض؟

كم شخص عادي تواجد على الأرض؟ لا أحد يستطيع الإجابة، فإذا حاولنا أن نحسب عدد الشخصيات العادية التي تواجدت على الأرض من عهد آدم عليه السلام حتى اليوم لن نستطيع بل أعتقد أنه من المستحيل فالله وحده عز وجل هو الذي يعلم (لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿94﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿95﴾)[10]

أما إذا حاولنا أن نحسب عدد الشخصيات الغير عادية التي وردت في تاريخ البشرية فسوف نستطيع لأن الشخصيات البارزة قد فرضت نفسها على كتب التاريخ لأنها بمشيئة الله غيَّرت وجه التاريخ ويأتي في مقدمتهم بالطبع الرسل والأنبياء ثم أشهر الخلفاء والقادة والزعماء والسلاطين والملوك وغيرهم من الذين نستطيع أن نحسب عددهم بل ولدينا معلومات كثيرة عنهم وعن السيرة الذاتية لكل منهم وإنجازاتهم وانتصاراتهم وأهم الأحداث التي كانوا سببًا في حدوثها ولقد كتب عن هؤلاء العديد من المؤرخين والمفكرين والأدباء وغيرهم.

الناظر في التاريخ لا يلمح إلا الشخصيات البارزة:

فمثلًا يقول الكاتب علي أدهم في كتابه الرائع صقر قريش (إذا ابتعد المسافر عن مدينة أخذت تظهر له من بعيد الأمكنة العالية منها وكلما أوغل في الابتعاد وأمعن في السير صار لا يرى إلا أكثر الأمكنة إصعادًا في الجو كذلك الناظر في التاريخ كلما ابتعدت به قافلة الزمن لا يلمح إلا الشخصيات البارزة)[11] فمن المؤكد أنه كان يعيش في نفس توقيت حياة هؤلاء القادة العديد من الشخصيات ولكننا لا نعرفهم حاليًا فمثلًا في عصر الملك مينا موحد القطرين كان هناك العديد من الشخصيات بل وصفوة القوم كما يقال في كافة المجالات ثم استمر ذكرهم مع مينا لمدة معينة ثم بعد فترة ما ظل الناس يتذكرون مينا ومعه مثلًا عشرين من حاشيته وكبار رجال دولته ثم بعد فترة أطول أصبح الناس يتذكرون مينا ومعه خمسة فقط من أشهر رجال دولته وهكذا، أما الآن فلا أحد يعرف سوى مينا فقط وأنه موحد القطرين، إلا إذا كان هناك متخصص في الآثار والتاريخ الفرعوني فقد يعرف شخصيات عاشت في زمن مينا من مقابرهم وآثارهم التي تم اكتشافها أو سيتم في يوم ما، أما جميع المصريين حاليًا فيعرفون اسم الملك مينا جيدًا، وإذا عدنا إلى الكتاب الممتع صقر قريش للكاتب علي أدهم سنجده قد ذكر أوصافًا أخرى لهذا النوع من القادة حتى أنه كتب ما قاله أحد الأشخاص في الأندلس لرسول عبد الرحمن الأموي الملقب بصقر قريش، وأعتذر عزيزي القارئ لك بسبب اللفظ الذي ذكره كما اعتذر كاتبه لأن هذا الشخص قال عن هؤلاء: أنه إذا بال أحدهم في وادي لغرق من فيه، ولعله تعبير يحمل من المبالغة ما لا يطاق.

يُقدمون نحو أهدافهم في ثقة المشاهد:

فلا شك أن لدى هؤلاء القادة البارزين جميعًا القدرة على التأثير في جموع الجماهير والشعوب وأهدافهم واضحة أمامهم تمامًا ويسيرون في اتجاهها بلا تردد ومن أفضل ما قرأت عن طبيعة رؤية القادة لأهدافهم كتاب مدهش اسمه (من هدي القرآن) للأستاذ أمين الخولي رحمه الله وهو عبارة عن أحاديث إذاعية تم طباعتها بعد ذلك في كتاب ويتحدث أمين الخولي عن القادة الرسل بشكل عام مستمدًا من كتاب الله عز وجل الهدي القرآني الذي يوضح طبيعة القادة الرسل فيقول الكاتب (إنما القادة أصحاب الرسالات قوم عَمر الإيمان أفئدتهم وغَمر اليقين أرواحهم فهم يتمثلون أهدافهم التي يسعون إليها مجسمة محققة لا يساورهم في ذلك شك ولا تخالج أنفسهم ريبة وهم لهذا يقدمون نحوها في ثقة المشاهد لا يثني عزمهم عما يطلبون أي شيء لأنه دانٍ منهم وعلى منال أيديهم في رأي العين فكل صعب عند الناس هو عندهم هين وكل عسير على الناس هو عليهم يسير...)[12] هكذا تحدث عنهم أمين الخولي وهو محق بكل تأكيد لأنك لو تأمَّلت ما كان يهدف إليه أحد القادة البارزين ستجد من حوله لا يتخيلون إمكانية تحقيق ما يريده ويعتبرون أنها أحلام بينما هو يراها بالفعل محققة أمامه ويتقدم نحوها وسط ذهول جميع من حوله إلى أن يتأكدوا بالفعل ويشاهدون بأعينهم ما كانوا يعتبرونه أحلام قد تحقق والطريف أنهم هم الذين حققوه تحت قيادته.

المتغير الوحيد:

والمدهش حقًا أن المتغير الوحيد في أي فترة من التاريخ هو ظهور هذا الشخص على مسرح الأحداث فقط، فلم يحدث أي جديد في أي شيء، فهو نفس الشعب ونفس الأرض ونفس النهر ونفس الإمكانيات والبيئة، وكل ما

حدث أن ظهر منتوحتب الثاني أو بطليموس الأول أو ابن طولون أو محمد علي، على سبيل المثال لا الحصر، فأنت ترى الأمور والأحداث تسير في اتجاه معين ثم تغير اتجاهها بمشيئة الله على يد أحد هؤلاء، فكأن القدر أو إن شئت فقل أن القدر بالفعل يضع شخص معين بمواصفات معينة في مكان معين و زمان معين وله طموح وعزيمة وإرادة ليغير مجرى الأحداث تمامًا ولا يشك لحظة في عدم حدوث ما يريد لأنه كما ذكرنا يراه محققًا بالفعل.

المُلك بيد الله سبحانه وتعالى:

وكل دولة من الدول قامت على أكتاف أحد هؤلاء وكل هذا طبعًا بمشيئة الله سبحانه وتعالى وتحضرني هنا أبيات من الشعر كتبها أبو العتاهية في مدح أحد خلفاء بني العباس بعد أن استقرت له الخلافة

أتته الخلافةُ مقهورةٌ

تكاد تجرجر أذيالها

فلم تكُ تصلحُ إلا لهُ

ولم يكُ يصلحُ إلا لها

ولو ذهبت لأميرٍ سواهُ

لزلزلت الأرضُ زلزالها

إنها إرادة الله أن تصل الخلافة إلى هذا الأمير ومن المستحيل أن تذهب لغيره، فمن كان مقدر له أن يصل للحكم بمشيئة الله ليكون سببًا لأحداث أرادها الله عز وجل فمن المستحيل أن يصل للحكم غيره، وقد يسلط الله بعض الحكام على بعض الشعوب وقد يهبه لمؤمن وقد يهبه لكافر ومثال ذلك الملك الذي كان على عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام كما في الآية الكريمة ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ ﴾[13] فتأمل معي الآية الكريمة في الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ستجد أن المولى عز وجل أعطى الملك لهذا الملك الكافر (آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ) وبالتالي لن ينازعه فيه أحد لأنها إرادة الله سبحانه وتعالى، فقد يحصل على الملك المؤمن وقد يحصل عليه الكافر بل وليس الكافر العادي فقط إذا جاز التعبير بل شديد الكفر والمدعي الألوهية والعياذ بالله، ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[14]، ومن الأمثلة شديدة الوضوح أيضًا أن فرعون كان له مُلك مصر وقد ذكر المولى عز وجل قصة فرعون مع سيدنا موسى عليه السلام في أكثر من موضع بالقرآن الكريم فعندما قرر فرعون مثلًا أن يقهر بني إسرائيل ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾[15]، ورد على لسان سيدنا موسي تعليقًا على ما قاله فرعون ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[16]ومن هنا يتضح أن سيدنا موسى عليه السلام يعلم جيدًا أن الأرض لله يورثها من يشاء وأن الملك في ذلك الوقت كان لفرعون

بمشيئة الله وعلى المؤمنين أن يصبروا على قضاء الله لأن العاقبة للمتقين في النهاية هذا والله أعلى وأعلم.

ملوك أقوياء يخلفهم ملوك ضعفاء:

ولو تأملنا أي أسرة حاكمة من التي حكمت مصر سنجدها تبدأ بأحد هؤلاء الرجال من مؤسسي الدول ثم يتولي الحكم بعده أكبر أبنائه مثلًا أو أكبر أفراد العائلة من بعده وقد عاصر بالطبع تأسيس الدولة ثم بعد ذلك يموت ويتولى الحفيد الذي ولد وفي فمه ملعقة من الذهب وهو أمير ابن أمير ولم يعاصر الكفاح والنضال ويتصور أن ما هو فيه أمر واقع وقد يحيا حياة الترف والرفاهية ويدمر كل ما صنعه أجداده وهناك العديد من الأمثلة على ملوك أقوياء خلفهم ملوك ضعفاء سنجدها بكثرة في التاريخ وطبعًا الآباء لهم دور كبير في إعداد الأبناء للقيام بدورهم خير قيام وهم السبب الرئيس فيما سيصير عليه أبناءهم بعدهم فمثلًا الملك فيليب ملك مقدونيا قام بإعداد ابنه الإسكندر الأكبر الشهير ليتولى الحكم من بعده بل إنه قد جعل أرسطو شخصيًا معلمًا له بالإضافة إلى التدريب على القتال بمعرفة أفضل القادة المتخصصين وما إلى ذلك من الأمور التي يحتاجها القائد ليصبح على مستوى الأحداث، وسنجد في تاريخ مصر الكثير من الأسرات الحاكمة التي بدأت بملوك وقادة على أعلى مستوى ثم تدهورت الأحوال بعد ذلك كما حدث مثلًا في عصر الأسرة 18 الفرعونية وفي عصر البطالمة وفي عصر الدولة الطولونية والدولة الإخشيدية وعصر المماليك بل إن أسرة محمد علي نفسها أكبر دليل على ذلك فقد بدأت بداية قوية على يد مؤسسها محمد علي باشا الذي اقتبس من الغرب أصول الحضارة وليس مظاهرها وقشرتها الخارجية

فلما تولى الحكم أبناؤه بدأت تسوء الأمور في مصر ووصل بها الحال أن تورط أبناؤه في الديون وتقليد الغرب في مظاهر الحضارة فقط حتى وقعت مصر تحت الاحتلال البريطاني، وقد وصف الكاتب الساخر الكبير محمود السعدني أولاد محمد علي وصفًا ساخرًا حيث قال في كتابه الممتع (مصر من تاني) ما يلي: (ترك - محمد علي باشا - وراءه حكامًا دون المسئولية جهلة ومتعاظمين وعلى درجة عالية من التفاهة و رأوا أن محمد علي أضاع حياته في ما لا يجدي وقضى العمر في ما لا ينفع وأن الحاكم الفذ هو الذي يستمتع بالسلطة ويهنأ بالسلطان ومر سعيد وعباس ومصر في حالة أكثر انحطاطًا مما كانت عليه أيام المماليك فأغلقت المصانع أبوابها وتحول الجيش إلي أداة للزينة أيام التشريفة ووقت خروج المحمل وفي تشييع جنازات العظماء، ثم جاء الخديوي إسماعيل وهو رجل طموح ولكنه في الوقت نفسه كان يحسب حساباته بدقة ولقد رأى أن محمد علي تعرض للهلاك عندما خرج يتحدى الغرب ولذلك قرر أن يهادن الغرب –وما دام الغرب قويًا فلابد من أن يكون السبب هو نمط الحياة التي يحياها الغرب فقرر أن يتحول بمصر إلى الحضارة الغربية، وهنا أخطأ إسماعيل في الحساب لأنه لم يدرك أن الحضارة ليست عملية تجميل فحسب – ولذلك سنراه يغرق في الديون حتى أذنيه ليجعل من القاهرة قطعة من أوروبا ولقد نجح إسماعيل في ذلك بالفعل، شق الشوارع والميادين وبث النافورات والتماثيل وأقام المتاحف والمعارض ومد الجسور على النيل وشيد القصور الملكية على أرقى هندسة العصر وافتتح دارًا للأوبرا ودارًا للتمثيل وألف مجلسًا للشورى وجعل من اللغة الفرنسية لغة رسمية للصالونات والنوادي في عاصمة مصر، ولكن بصره لم يمتد إلى أبعد من القاهرة وعينه لم تلحظ وجود فلاحين يعيشون في الريف عيشة أكثر تعاسة

من عيشة الكلاب، فلم يكن الريف في نظره إلا مخزنًا للطعام، ومستودعًا للبشر المستعدين دائمًا للخدمة والصبر!!)[17]، ونفهم مما سبق أن أبناء وأحفاد محمد علي باشا باستثناء أكبر أبنائه إبراهيم باشا قد نشؤوا نشأة لم تؤهلهم إلى حد ما ليكونوا مثل محمد علي في علو همته وقدرته على تحديد الأولويات واستغلال الإمكانيات، وقد يسوقنا هذا للحديث عن الحرمان من الرفاهية وأثره في نشأة وإعداد الملوك بشكل عام.

هل الحرمان من الرفاهية أحد وسائل إعداد الحكام؟

كان الملوك قديمًا يحرصون على تدريب أبنائهم على الرماية وركوب الخيل والسباحة واستخدام الأسلحة المختلفة وكانت رحلات الصيد من أهم وسائل تقوية الأبناء ورفع مستواهم في التحمل والصبر فهو يخرج في رحلة الصيد متعرضًا للعديد من الأخطار سواء الخاصة بأحوال الطقس من حر شديد أو برد قارص وقد ينام في أي مكان ويتعرض لمقابلة حيوانات مفترسة أو زواحف قاتلة، وبالطبع كان الملوك يرسلون من يتابع هؤلاء الأبناء وينقذهم من هذه المخاطر ولكن هذا الوسط عمومًا الذي يتواجد فيه الأبناء كفيل بأن يجعله صلبًا ويتحمل قسوة العيش ويشتد عوده بعيدًا عن قصور وحدائق أبيه مما يجعله بالتأكيد مستعدًا لتولي شئون الحكم، وحتي في العصر الحديث إذا لم تتوفر فرصة الصيد بهذا الأسلوب فإن ما تبقى من ملوك هذا العصر يلحقون أبناءهم بالكليات العسكرية حيث يتعلمون الانضباط فالطعام بمواعيد والنوم بمواعيد والتدريب الشاق بعيدًا عن الرفاهية، فالحرمان يفجر الطاقات الكامنة في الأبناء بل وفي الشعوب أيضًا فالشعب عندما يتم حرمانه من بعض ما يحتاجه مما يلزمه للحياة ستجده يحاول أن ينتجه بطريقة أو بأخرى،

وكما يقال الحاجة أم الاختراع، فإذا قمت بحل جميع مشاكل أبنائك بنفسك دون أن تتركهم يحاولون سوف تقتل فيهم الطاقات الكامنة.

ومن أفضل الأمثلة على فوائد الحرمان ما يقوم به الفلاح عندما يتوقف لفترة عن ري بعض أنواع المحاصيل مما يؤدي إلى تمدد جذورها في كل مكان بحثًا عن الماء فتزيد مساحة الامتصاص لديها، وبعد فترة يقوم بعملية الري والتسميد فيغذي النبات بكمية أكبر من السماد التي يمتصها كلها لزيادة مساحة الامتصاص لديه، أما إذا وجد النبات المياه قريبة دائمًا فلن يحتاج إلي مد جذوره إلى أي مكان فيظل محتفظًا بمساحة امتصاص صغيرة وبالتالي لن يحصل على سماد كثير فينعكس ذلك على الثمار، كذلك البشر أيضًا إذا لم يتعرضوا للحرمان فلن يحتاج أحد منهم الطاقات الكامنة بداخله.

وحتى لا نظلم محمد علي باشا في هذا الشأن تجدر الإشارة أنه كان حريصًا على تربية أبنائه تربية عسكرية ولكن أحفاده بعد ذلك لم يكن مسئولًا عن تربيتهم فضاع استقلال مصر على أيديهم وسوف أذكر قصة سعيد باشا مع قناة السويس لتوضح الكثير من الأمور.

سعيد باشا والمكرونة وقناة السويس:

كان " محمد سعيد باشا " في صباه يميل إلى البدانة وكان أبوه "محمد علي باشا" حريصًا على تربية أبنائه على الحياة العسكرية والنشأة الرياضية، فكان يحتم على الصبي " محمد سعيد " أن يسبح ويعدو كل يوم مسافات طويلة، ويأمر له بالقليل من الطعام الذي لا يسمن ولا يشبع، وكان " ماثيو دليسبس" والد " فرديناند" صديقًا لمحمد علي، يحبه من عهد وساطته عند الباب العالي

في اختياره للأريكة المصرية، وكان يأذن لأبنائه في زيارة القنصل لتوثيق عُرى المودة وإتقان اللغة الفرنسية[18]، فكان محمد سعيد يجد في دار القنصل شبعه من المكرونة التي كان شغوفًا بأكلها، وكان صحبته لفرديناند الصغير خير شفيع للمهندس الفرنسي فيما بعد لاستجابه رجائه " الخاص بحفر قناة السويس " بعد طول تردد فيه على أيام أبيه.

واتفق أيضًا أن فرديناند دليسبس هذا كانت تربطه بالإمبراطورة " أوجيني " صلة قرابة ومودة، فلولا المكرونة وهذه المصادقة التي ربطت بين دليسبس وبلاط فرنسا لما استطاع الرجل أن ينجح حيث أخفق غيره، ولحبط العمل كله بعد الشروع فيه لولا اليد القوية التي كانت تنقذه من ورطة بعد ورطة في بلاط باريس، إلا أن دليسبس قد استخدم كل ما في جعبته من الوسائل لإقناع سعيد باشا بفوائد مشروع قناة السويس، - والجدير بالذكر أن جميع المحاولات لإقناع محمد علي باشا بحفر قناة السويس باءت بالفشل لعلم محمد علي أن هذه القناة قد تجر إلى مصر أطماع الدول الكبري، ولم يتم إقرار المشروع إلا في عهد سعيد باشا ثم تم افتتاحها في عهد الخديوي اسماعيل ثم تم احتلال مصر في عهد الخديوي توفيق، وهكذا ضاع استقلال مصر على يد أحد أحفاد محمد علي باشا، فمحمد علي وأمثاله من القادة البارزين في تاريخ مصر صنعوا حضارات وأقاموا دولًا وإمبراطوريات وعُرفوا كرجال دولة كيف يستغلون إمكانيات مصر وإمكانيات هذا الشعب الذي ربما لا يعرفها عن نفسه كما قال أحد علماء الحملة الفرنسية على مصر في كتاب وصف مصر وهو يصف الشعب المصري وهذا الوصف سنورده هنا كأول وصف للشعب المصري في هذا الفصل ثم سنستعرض معًا بعض ما كُتِب عن طبيعة هذا الشعب من وجهات نظر مختلفة.

بعض ما ورد في كتاب وصف مصر عن طبيعة الشعب المصري:

(يوجد في مصر - شأنها في ذلك شأن بقية بلدان الشرق - خليط مضطرب من العادات والتقاليد، تعود إلى أصول متنوعة، وتنتج عن أسباب كثيرة، وهل كان يمكن للأمر أن يكون على نحو آخر في بلد يمكن القول بأن كافة الأمم قد اختلطت فيه؟ فالعادات إذن تتنوع بنفس الطريقة التي تشكلت بها فئات السكان، بمختلف أديانهم وأصولهم، ولا يمكنك أن تكشف ما يعتمل في نفس المصريين عن طريق ملامحهم، فصورة الوجه ليست مرآة لأفكارهم، فشكلهم الخارجي في كل ظروف حياتهم يكاد يكون هو نفسه، إذ يحتفظون في ملامحهم بنفس الحيدة وعدم التأثر، سواء حين تأكلهم الهموم أو يعضهم الندم أو كانوا في سعادة عارمة، وسواء كانت تحطمهم تقلبات غير منتظرة أو كانت تنهشهم الغيرة والأحقاد، أو يغلون في داخلهم من الغضب، أو يتحرقون للانتقام، فليس ثمة مطلقًا فعل منعكس: احمرار في الوجه أو شحوب مفاجئ، يستطيع أن يشي بصراع تلك العواطف العديدة التي تهزهم، ويمكننا أن نلتمس أسبابًا عديدة لهذا الجمود المذهل في الملامح، قد لا يكون الطقس بعيدًا عن هذه الحالة، ومع ذلك فإن الأسباب الرئيسية لذلك تكمن بالتأكيد في شكل التربية، وفي الاعتقاد بالقضاء والقدر المنتشر بين كافة الناس، كما تعود في النهاية إلى تعودهم أن يكونوا على الدوام عرضة لنزوات الطغاة الذين يعم ظلمهم البلاد، ففي كل يوم تنشأ أخطاء وبشاعات جديدة، تصبح الغفلة معها بالنسبة للمصريين – والشرقيين عمومًا – نوعًا من الحيلة لمواجهة هذا العسف، فعندما يُعاقب الإنسان على حركة أو بسبب نظرة أو أحيانًا لمجرد الاشتباه، كما لو كان ارتكب جريمة، فإنه يصبح وقد اكتسب مقدرة عميقة علي الاستيعاب والتمثل بحيث تصبح هذه الأمور الجائرة حالات

عادية، لذا فلا ينبغي علينا أن نبحث عن مصدر آخر لأسباب هذا النوع من التسليم المستعذب للألم الذي يميز الشرقيين على وجه العموم، فالشكاوى والصيحات أمور لا فائدة منها أمام إرادة الطغاة، ويعرف المصري كيف يمشي وقد أغضبه الألم، وكيف يموت تحت عصا القواس دون أن يقول كلمة، فهذه إرادة الله، والله أكبر والله غفور، وتلك فقط هي الكلمات التي تأتي على لسانه عندما يبلغه نبأ نجاح لم يكن يأمله، وهي نفسها التي تفلت منه عندما يبلغه نبأ كارثة كبرى ألمت به.

ويبدو خمول المصريين الملتصقين بمدنهم أمرًا بالغ التناقض مع تقاليدنا، حتى لنظنهم في البداية بلهاء أو معتوهين، فتحركاتهم و أحاديثهم و أبسط حركاتهم بل ومسراتهم، كل ذلك يشي بعدم اكتراث مذهل.

وبرغم ذلك فتحت هذا القناع من السلبية البادية على ملامحهم يكمن خيال ملتهب، وسوف يكون من الظلم أن ننكر عليهم كل حساسية، فعادة الصمت تجعل أحاسيسهم على العكس – وحيث يمكنهم بذلك تركيزها – أكثر حدة، كما أنها تعطي لأرواحهم دفعات من النشاط تجعلهم في بعض الأحيان قادرين على الإتيان بأفعال بالغة الجرأة، وفضلًا على ذلك فإن الفكر يكسب بعمق ما كان يمكن أن يفقده لو كانت الروح متوقدة، إن ملكة الانتباه، والقدرة على التذكر تذهب إلى أبعد مدى عند هؤلاء الناس الذين نخالهم غارقين في بلادة مطلقة إن كل شيء في هذا الشعب يقدم صورة من التناقض الواضح مع عاداتنا نحن الأوروبيين، وهذا الاختلاف بلا جدال من صنع الطقس ومن صنع الأنظمة المدنية، والمعتقدات الدينية كذلك، كما أن غيبة القانون تكاد تشل مختلف ضروب الصناعة.

ومن جهة أخري يمكن القول بأن كل فروع الصناعة بلا استثناء فريسة للاستبداد، وفي نفس الوقت فإن التجارة مزدهرة، وليس ذلك لأنها تلقى تشجيعًا من الحكومة، ولكن أن موقع مصر وثراء منتجاتها يهيئان للتجارة معينًا لا ينضب، وهذه الحرفة هي المجال الوحيد الذي يمكن أن يعد المصري بمستقبل زاهر، فهي تقوده إلى الثروة في بعض الأحيان، وهي – في هذا الصدد – الحسنة الوحيدة التي بقيت لهم، حيث إن صفتهم كمواطنين قد أغلقت أمامهم طرق المجد والمراكز الكبري في وطنهم.

انظروا إذن إلى أي حد تضاءل سكان واحدة من أجمل بقاع الأرض تحت هذه السيطرة الأجنبية وغير المشروعة؟ إن الكوارث التي تنال منهم اليوم سوف تظل تثقل عليهم، طالما ظلت هذه العصا الغليظة لمستغليهم غير الجديرين تدور عليهم، ولسوف يظل المصري عبدًا بائسًا سلبيًا خاملًا تدور به دوامات الشك دون أن يفكر في وضعه المحزن، ولربما تكون بلادته تلك هبة من القدر، إذ بفضلها لن يعذبه على الإطلاق ذلك الإحساس بالآلام والمخاطر التي تهدده بلا انقطاع)[19].

ولنتأمل معًا كلمات جي دي شابرول أحد علماء الحملة الفرنسية الذين قاموا بتحليل عميق لشخصية الإنسان المصري والتي وردت بالجزء الأول من موسوعة وصف مصر ترجمة زهير الشايب حيث كتب بالنص ما يلي:

(وهذا يبرهن على ما سبق أن قلناه من أن إصلاح مساوئ نظام الحكم سوف يؤدي – بسهولة فائقة – إلى أن يرد لهذا الشعب كل الفضائل التي فقدها، بل التي لا يظنها هو نفسه كامنة فيه، كما أن ذلك سوف يوقظ فيه كل مشاعر النبل والهمة، وعظمة الروح التي خنقتها إلى حين تلك الأنظمة الشيطانية

التي يرزح تحت نيرها، إذ تعمل هذه الأنظمة الخبيثة علي تدمير أخلاقيات الأفراد بشكل محزن)[20]، ما سبق كان وصف الشعب المصري أثناء الحملة الفرنسية أما الآن فقد تغير بعض الشيء.

العاطفيون:

ربما أهم ما يميز المصريين كما أراهم حاليًا أنهم شعب عاطفي إلى أبعد الحدود، فلا يجب أن تسأل المصري عن رأيه في موضوع ما أو في شخص ما ولكن يمكنك أن تسأله عن مشاعره تجاه هذا الموضوع أو ذلك الشخص، فالمصري لا يؤيد ولا يعارض ولكنه يحب ويكره فإذا أحب نسي أو تناسى أي إساءة ممن يحب.

والعاطفة قد تكون مشكلة كبيرة جدًا في بعض المجتمعات فهي قد تضع شخصًا في غير مكانه الصحيح وقد تزيح أيضًا شخصًا من المكان الذي يناسبه فلا مكان هنا للقياس المنطقي بل المشاعر وحدها هي التي تتحكم وتأمر بل لا أريد أن أبالغ وأقول أن العاطفة قد تطيح أيضًا بالفطرة السوية.

فإذا فكر مجتمع عاطفي مثلًا في ممارسة الحياة السياسية على الطريقة الديمقراطية فإن الأحزاب التي سيشكلها المجتمع ستتلخص في أشخاص فهذا حزب فلان وهذا حزب علان فاجتماع الناس لن يكون حول مبادئ للحزب بل حول شخص يحبونه فنحن كما يقول الدكتور جمال حمدان في كتابه الممتع شخصية مصر ألفنا أن نكون رعايا لا مواطنين،فنحن نحب الشخص الذي نثق به ونلتف حوله وترنوا إليه أبصارنا وتتعلق به آمالنا وقلوبنا وننتظر توجيهاته لنفعل أشياء نستطيع أن نفعلها بدون توجيهات ولكننا دائمًا

نحتاجها ونحتاجه، وقد يحب الشعب المصري بعض ظالميه من الحكام لأنه شعب ودود وعاطفي ويتأثر بطول العشرة حتى مع من يسيء إليه.

أما العاطفة الوطنية أي حبنا للوطن فقد يصل بنا إلى نتائج لن أستطيع أن أصفها كما وصفها المفكر الكبير د /جمال حمدان في كتابه الموسوعي الممتع شخصية مصر وتحديدًا في الجزء الأول حيث يقول:

(فنحن كشعب – لابد لنا بصراحة أن نعترف – لا نحب فقط أن نمجد أنفسنا بحق وبغير حق، ولكننا أيضًا نحب أن نسمع عن أنفسنا ما يريضينا ويعجبنا أو يرضي إعجابنا بذاتنا الوطنية وبشخصيتنا القومية، بل إننا لنكره أشد الكره أن نسمع عن عيوبنا وشوائبنا، ونرفض بإباء أن نواجهها أو نُواجه بها، ولا تكاد توجد فضيلة أو ميزة على وجه الأرض إلا وننسبها إلى أنفسنا ونلصقها بها، وأيما رذيلة أو عيب فينا – إن هي وجدت على الإطلاق – فلا محل لها لدينا من الإعراب أو الاعتراف، وإن اعترفنا بها على مضض و استثناء فلها عندنا العذر الجاهز والمبرر والحجة المُقنعة أو المُقنّعة،، ومن طريف ما يلاحظ في هذا الصدد أننا، حين نرجع مثلًا فيما نكتب عن أنفسنا إلى كتابات الرحالة والمؤرخين العرب في العصور الوسطي أو الكتاب الأجانب المعاصرين ننتخب منها فقط تلك الإشارات الطيبة والمرضية ونحشدها حشدًا كفضائل مصر[21] مهملين ببساطة شديدة كل الإشارات العكسية أو المعاكسة التي أوردها الكاتب نفسه والتي قد تكون أضعاف الأولى كمًا وكيفًا، ليس هذا فحسب أو ليت هذا فحسب فما أكثر بعد ذلك ما نقلب عيوبنا عن عمد إلي مزايا ونقائصنا إلي محاسن، بل أسوأ من ذلك قد نتباهي ونتفاخر بعيوبنا وسلبياتنا ذاتها، ويبدو عمومًا أننا كلما زاد جهلنا بمصر كلما زاد تعصبنا لها، بل

الملاحظ أننا كلما ازدادت أحوالنا سوءًا وتدهورًا كلما زاد تفاخرنا بمجدنا وعظمتنا والكلام لازال للدكتور جمال حمدان: أيًا ما كان، فنحن معجبون بأنفسنا أكثر مما ينبغي وإلى درجة تتجاوز الكبرياء الصحي إلى الكبر المرضي، ونحن نتلذذ بممارسة عبادة الذات في نرجسية تتجاوز العزة الوطنية المتزنة السمحاء إلى النعرة الشوفينية الساذجة البلهاء أو الهوجاء، وبديهي أن هذا الشعور يرجع في حالتنا إلى ميراث القرون والأجيال الكاتمة الكئيبة من الاستعمار والتبعية والاستبداد والمذلة والتخلف والفقر، ومن هنا جميعًا تبدو الهوة هائلة والتناقض فاحشًا إلى حد السخرية بين واقعنا وحقيقتنا وبين ادعاءاتنا وطنطناتنا.

والكلام لازال للدكتور جمال حمدان: حتى عن مستقبل مصر نحن إما متفائلون بإسراف يدعو إلى السخرية والإشفاق أو متشائمون إلى حد متطرف قابض للنفس، ففي النظر إلى مستقبلنا نلاحظ غالبًا أن هناك من جهة خطر المتفائلين إما بسذاجة أو بخبث شديد أولئك الذين يفضلون خداع النفس لراحة البال علي مواجهة الحقيقة المرة (في عينها)، ومن جهة أخري خطر المتشائمين المنذرين الذين أفقدهم التوتر حس النسبية الصحيح هم أيضًا، باختصار مصر إما بخير دائمًا، أو في خطر أبدًا، وكلا الحكمين لا يرى أو يضع الحقائق في حجمها الطبيعي السليم[22].

خصائص الشخصية المصرية:

وقد أورد أيضًا الدكتور جمال حمدان في كتابه الممتع شخصية مصر قائمة بخصائص الشخصية المصرية.

وذكر أنها (قائمة مربكة بقدر ما هي مقلقة فادحة، ولكن بصفة عامة على أية حال فلعل هناك شبه اتفاق على بعض خصائص أساسية تعد أركان أو أقطاب تلك الشخصية، أولها دائمًا التدين، وثانيها حتمًا المحافظة، وثالثها باستمرار الاعتدال، ورابعها غالبًا الواقعية، وخامسها أحيانًا السلبية، وبهذا الشكل تبدو السلسلة كمتوالية تنازلية إلى حد ما، تتدرج نسبيًا من الموجب إلي السالب أو من القوة إلى الضعف، وبذا أيضًا تتابع منطقيًا فيما بينها، بحيث تؤدي كل واحدة منها إلى تاليتها، التي تترتب بدورها على كل سابقاتها، وفيما عدا هذا، فلأن خاصية الاعتدال بالذات تمثل نقطة الوسط والارتكاز بين تلك الخصائص والنواة النووية في قلبها، فلعل لنا من قبيل اليسر والتبسيط الأكاديمي أن نتخذ منها المظلة الجامعة والعنوان الرئيسي العريض الشامل لها جميعًا

فأما التدين إذا أردنا تفصيل ما أجملنا، فسمة مصرية أصيلة وقديمة قدم الأديان، بل سابقة هي للأديان، ولعلها هي التي منحت المصري قوة داخلية ومقاومة خارجية وصلابة غير عادية ضد الكثير من الأخطار والمحن والمآسي التي تعرض لها عبر التاريخ، سياسية كانت أو اجتماعية، خارجية أو داخلية، من استعمار الغزاة أو قهر الطغاة، غير أن هذه الخاصية –يخشى البعض- كانت أيضًا مهربًا إلى حد ما من الصدام مع تلك الأخطار والتحديات، ومن ثم قد في النهاية تفضي بنا إلى خاصية السلبية وتؤكد تشخيصها.

ومهما يكن، فإن التدين والنزوع الديني إذا جاز أن يرد في دوافعه إلى الزراعة طبيعة الحضارة الزراعية، على الأقل جزئيًا، فلعله أن يكون بدوره دافعًا جزئيًا مثلها وبجانبها إلي الصبر والدأب والجلد والتحمل، وهي الصفات التي تبدو

عريقة القدم والجذور في التاريخ المصري، ويكاد يجمع الكل بلا تردد على التصاقها الشديد بالإنسان المصري عامة والفلاح المصري خاصة.

أما المحافظة، بل والمحافظة الشديدة كما يشدد العقاد، فتعني أن المصري مقيم على القديم والتراث والتقاليد والموروثات، ولا يقبل الجديد بسهولة، وهذا يعني بدوره أنه تقليدي مقلد، غير ثوري غير مجدد، بل إنه –عند العقاد أيضًا- إذا ثار على الإطلاق فإنما ليحافظ على القديم والموروث، أي أنه – للغرابة والدهشة، وبصيغة نقيض النقيض – ثوري من أجل المحافظة

ومن المحافظة وعدم الثورية، على أية حال خطوة قصيرة ومنطقية إلى الاستقرار، فالاستقرار نتيجة المحافظة ولكنه بالمقابل يعود فيدعمها، ومن هذه الحلقة المفرغة أو اللولب الصاعد يتحقق الاستمرار إلى أبعد حد وينتفي التغير إلى حد بعيد، وهكذا تنتهي الدائرة مرة أخري لتعود بنا حيث بدأنا بالمحافظة على القديم وعدم التجديد... إلخ.

وإذا كان ثمة من مصل مضاد نوعًا لهذه المحافظة المستمرة أو الاستمرار في المحافظة، المستمرة أو الاستمرارية في المحافظة، فهو الاعتدال، وإن كان هذا نفسه غير بعيد عن المحافظة، إن لم يكن حقًا امتدادًا مباشرًا لها، فالاعتدال المغروس المركوز في طبيعة المصري، أيًا كان أصله، فيبتعد به عن التطرف الشديد يمينًا ويسارًا، يبتعد به ضمنًا وديالكتيكيًا ولحسن الحظ عن التطرف في المحافظة، بذلك يوفر له هامشًا معقولًا من المرونة والتلاؤم والتغيير والحيوية، التي تضمن له على أقل تقدير القدرة على التطور البطيء، التطور خطوة خطوة بالجرعات الصغيرة، وبالتالي تضمن له البقاء الطويل على المدى البعيد.

وأخيرًا وبحكم الاعتدال كان المصري العادي أو المتوسط أميل في الغالب إلى الوداعة والهدوء والدماثة والبشاشة، وإلى الشخصية الاجتماعية الودودة، السلسة السهلة المنطلقة extrovert غير المنغلقة أو المعقدة، كما كان أجنح إلى التعاون منه إلى التنافس، وفي الوقت نفسه أبعد شيء عن العنف والقسوة والدموية والمزاج الحمراوي الدموي.

ومن الاعتدال بعد هذا نقلة لا شك قصيرة ومباشرة إلي الواقعية، فالانسان المصري رجل عملي، علمته البيئة والتجربة، أي الجغرافيا والتاريخ، احترام الواقع والالتصاق به وعدم الانفصال عنه أو التناقض معه، فهو إلا في القليل النادر لا يهرب من الواقع سواء بالتدين المفرط (الدروشة) أو بأحلام اليقظة والتمني المجنحة (الغيبيات) أكثر كثيرا مما يتصادم معه ويتحداه، وهو من ثم مطيع بالضرورة، أكثر مما هو متمرد بالطبع، فإذا ما عجز عن تغيير الواقع فإنه في العادة أو في النهاية يخضع له ويرضخ للأمر الواقع، إلا أنه حينئذ قد يسخر منه للتعويض والتنفيس.

من هنا تأتي شهرته الداوية في السخرية التعويضية والتعويض بالتعريض بالواقع دون التعرض له، وهو بدوره التناقض الخفيف الذي أفضى به في نظر البعض إلى الشخصية الفهلوية smart التي تعوض عن عجزها العملي بالتذاكي المفرط smartig واصطناع اللامبالاة أو ادعاء الحلم والتخفي وراء العقل والتعقل، والنموذج المثالي أو التقليدي في ذلك هو علاقة الفلاح المصري بالسلطة والحكومة، فهو يكرهها ويخشاها منذ قال الجبرتي (والمصري يكره الحكام في كل صورة حتى أدناها) إلى أن حدد العقاد علاقته بالحكومة كعلاقة عداوة مريبة، لكنه مع ذلك يقبل بها وقد يتملقها، إلا أنه حتمًا

يسخر منها ويتندر بها سرًا وعلنًا. ولقد يعود بنا هذا السلوك أو التصرف الواقعي إلى صفة الاعتدال كنوع من الإفراط في العقل، إلا أنه أدعى وأفضى إلى السلبية كالنتج النهائي لكل الخصائص السابقة وكالحلقة الأخيرة في سلسلتها المترابطة المتداعية، فالمحصلة النهائية لتلك المتوالية التنازلية من التدين إلى المحافظة إلى الاعتدال إلى الواقعية إنما هي منطقيًا شخصية سلبية نوعًا أكثر منها إيجابية جدًا.

فهو –المصري العادي أو المتوسط- في الأعم الأغلب وفي أغلب الآراء يتجنب الصدام ويتحاشاه لاسيما في المواقف العدائية وبالتالي يؤثر السلامة على المواجهة والسلام على الصراع.

تلك في عجالة سريعة مقتضبة ولكنها مركزة الخصائص الرئيسية الخمس التي تميز الشخصية المصرية في أغلب الآراء، وإن جادل أو عدَّل البعض في بعضها أو كلها بدرجات متفاوتة، ثم اختلفوا أكثر في تقييمها وتأويلها سلبًا أو إيجابًا وقوة أو ضعفًا، بحيث سنجد دائمًا في الحساب الختامي الرأي المضاد والحكم ونقيضه وفي النهاية الصورة الوردية والصورة القاتمة)[23]، هذا ما كتبه د جمال حمدان وننتقل الآن إلى ما كتبه العقاد عن طبيعة المصري.

الطبيعة المصرية في أوهام الناس طبقًا لما كتب الأستاذ العقاد:

طبيعة المصري موضع دراسات كثيرة جنسية ونفسية واجتماعية وسياسية يقوم كثير منها على الإشاعة والغرض وقليل منها على التحقيق والإنصاف، وليس ذلك لغموض أو تعقيد فيها فإن هذه الطبيعة واضحة سهلة ليس في الأمم العريقة كافة –فيما نعتقد- أمة أوضح منها و أسلس ولكنها قد احتجبت

طويلًا لما أحاط بها من أقاويل الأمم المنافسة لها أو الموتورة منها، وقد طال عهد مصر بمراس المنافسين والجيران الموتورين وطال إعراضها عما يصمونها به ويفترونه عليها، حتى وقر في الأذهان وأصبح التعرض له بالتفنيد والتصحيح كالتعرض للحقائق المقررة والوقائع المكررة تبدو عليه شبهة الغرض والمحاباة من حيث لا تبدو على تلك الأقاويل المفتراة، ونحن نرجع إلى الصفات الكثيرة التي تواترت بها أقاويل الأمم الناقمة أو الأمم الحاسدة فنستعرضها صفة صفة ونحاول أن نجد فيها ما يقنع السامع أو ينفي عنه الشك والتردد فلا نجد بينها صفة واحدة تطرق الأذهان من ناحية الإقناع، ولا نعجب لشيء عجبنا من سرعة الأكاذيب في النفاذ إلى الآذان وسرعة الأوهام بعد ذلك في الاستقرار بالأخلاد حتى إذا جاء دور التفنيد والتصحيح كان العجب الأكبر أن تلك الأخلاد التي استقبلت الأوهام بالإذعان والاستسلام تنقلب فجأة من السلاسة والهوادة إلى التصعب والتشدد في وجه الحقيقة، كأنما الأوهام صديق مسالم ينزل بها نزول النصير المأمون الجوانب المحمود العواقب، أما الحقيقة فهي عدو مهاجم يدك الحصون ويبدل المعالم ولا يطرق العقول أبدًا دون أن تلتفت له وتثور عليه.

ورأس الأكاذيب علي الطبيعة المصرية أنها طبيعة أمة لا تحكم نفسها بنفسها ولا تبال غارة الأجنبي عليها، فمن من أعداء المصريين يشك في هذه الأكذوبة؟ أو يكلف نفسه وهو يقذفهم بها أن يضاهي بينهم وبين غيرهم ليعلم مقدار الشبه في هذه الخلة بينهم وبين أبناء الأمم الأخرى؟

علي أنها كما قلنا رأس الأكاذيب وأيسرها تفنيدًا عند النظر القريب فضلًا عن النظر البعيد.

فليس شأن المصريين في هذه الخلة بمخالف لشأن الأمم كافة في العصور القديمة إذ هي كلها مزيج من غالب ومغلوب وأصلاء وغرباء، لا تدري من أحقهم بوصف الوطني ومن أحقهم بوصف الدخيل، إذا مضى عليهم جيلان أو بضعة أجيال،ولقد كانت هذه الأمم جميعًا لا تبالي من يحكمها من أبناء البلاد أو غير أبناء البلاد، لأنها كانت منهوبة مظلومة على كلتا الحالتين، وكانت تطيق الحاكم حتى يجاوز بها حد الطاقة فتثور عليه وتمالئ أعداءه، وقد أبطأت الإنسانية طويلًا قبل أن تخترع الديمقراطية أو الفكرة الوطنية، وقد أصيبت جميع الأمم بما أصيب به المصريون من جراء هذا الإبطاء الذي لا ذنب فيه على أحد[24]

ما سبق كانت رؤية العقاد لطبيعة الأمة المصرية، وإليك ما كتبه جمال بدوي عن أكذوبة الاستبداد الشرقي، ولعلك عزيزي القارئ تحاول المقارنة بين ما كتبه علماء الحملة الفرنسية وما كتبه جمال حمدان والعقاد وجمال بدوي مع حفظ الألقاب وتحاول أن تكون بنفسك فكرة عامة عن طبيعة هذا الشعب وطبيعة من حكموه والظروف التي مر بها على مر التاريخ.

أكذوبة الاستبداد الشرقي:

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ جمال بدوي في كتابه الممتع (في محراب الفكر) ما ملخصه:

هل صحيح أن الطغيان داء شرقي متوطن مثل البلهارسيا والانكلستوما، وأن شعوب الشرق على خلاف الشعوب الأوروبية يتقبَّلون الطغيان بدون شكوي أو تذمر لأنهم – في رأي أرسطو – مهيئون بطبيعتهم لأن يكونوا عبيدًا، وأن

الرق بالنسبة لهم نافع بقدر ما هو عادل، إن هذه المقولات التي أطلقها أرسطو في القرن الرابع قبل الميلاد جرت مجرى الحقيقة المؤكدة لدى فلاسفة الفكر السياسي حتى مشارف العصر الحديث والأعجب أن ترى أصداءها على ألسنة مفكري الديموقراطية المحدثين مثل مونتسكيو الذي انتهي إلى أن الاستبداد نظام طبيعي بالنسبة للشرق لكنه غريب وخطر على الغرب، وأن الحكومة المعتدلة هي أصلح ما يكون للعالم المسيحي الغربي بينما الحكومة المستبدة هي أصلح ما يكون للعالم الإسلامي، وبذلك انشطر العالم في نظر فلاسفة الغرب إلى قسمين، قسم شرقي مهيأ بحكم طبيعته لأن يحكم حكمًا استبداديًا لأنه في مرتبة الحيوانات أو العبيد، وقسم غربي له أنظمة سياسية خاصة تجعل طبيعة الاستبداد أمرًا صعبًا، فإلى أي مدى يمكن قبول هذه الأقوال التي انتقلت إلينا عبر المؤثرات الثقافية التي جعلت منها مسلمات لا تقبل النقض أو النقد واستقبلتها تربتنا العقلية عن رضا دون إدراك لمخاطرها على وجودنا الإنساني وما تزرعه في نفوسنا من يأس وإحباط واستسلام إلى الواقع واعتبار الاستبداد قدرًا مقدورًا لا فكاك منه شأن العلل الوراثية.

نحن الشرقيين لا ننكر أن مجتمعاتنا القديمة عانت في بعض مراحلها التاريخية من حكم الطغيان ولكن من قال أن الشعوب الأوروبية في عهودها القديمة والوسيطة والحديثة أيضًا لم تتعرض لحكم الطغيان؟ ولم تعان من القهر والاستبداد مثلما عانينا؟ إن الحقيقة العلمية والتاريخية تشهد بأن الطغيان داء إنساني يفرض نفسه عندما تتهيأ له ظروف تاريخية معينة، مثل الأنفلونزا تصيب الإنسان إذا تعرض لتيارات الهواء بصرف النظر عن كونه مصريًا أو ألمانيًا أو أستراليًا وليس من الحقائق العلمية في شيء أن يكون

الطغيان حكرًا على الشعوب الشرقية (المتخلفة) وأن تبرأ منه الشعوب البيضاء (المتحضرة) لأن الحضارة الغربية في قمة ازدهارها لم تمنع ظهور أشد طغاة العصر الحديث من أمثال هتلر وموسيليني وستالين وسالازار، ولكنها النظرة العنصرية الخبيثة التي صاغت الفكر الأوروبي منذ عصر أفلاطون وأرسطو حتى عصر هيجل وماركس.

نعم نحن نعترف بأن الطغيان في الشرق أقدم منه في الغرب لسبب تاريخي لا دخل لنا فيه وهو أن الشرق أقدم وأعرق وأسبق.

ففي مصر قامت أول حكومة مركزية في التاريخ بينما كانت الجزر اليونانية في طور الطفولة فكان من الطبيعي أن تعرف مصر الأنظمة السياسية وأن تنحرف هذه الأنظمة إلى ممارسة الطغيان، فلما بلغت المدن اليونانية مرحلة البلوغ والنضج تطورت أنظمتها السياسية وسرى عليها ما سرى على دول الشرق، وعرفت اليونان الطغيان مثلما عرفته مصر ظهر فيها ما يعرف في التاريخ باسم عصر طغاة الإغريق الذي يبدأ باعتلاء الطاغية كبسليوس عرش مدينة كورنثة عام 650 قبل الميلاد وخلال قرن ونصف قرن من الزمان اكتوت المدن اليونانية بنار نخبة من عتاة الطغاة، بل إن فقهاء اللغة يعودون بلفظ طاغية إلى جذور إغريقية، ومعني ذلك أن اليونان التي تزهو على العالم بأنها مهد الديمقراطية لم تسلم من جحيم الطغيان شأنها في ذلك شأن مصر وغيرها من بلاد الحضارات القديمة وظهر فيها جيل من الطغاة قبل ثلاثة قرون من ظهور أرسطو الذي دفعه التعصب العنصري إلى جعل الطغيان صناعة شرقية بحتة، وسار على دربه المؤرخون الذين كتبوا عن الإسكندر الأكبر تلميذ أرسطو فقالوا إنه لم يكتسب صفة الطغيان إلا بعد أن جاء

الشرق فرضع الطغيان من منابعه الأصلية وزعموا أن الفاتح المقدوني ظل يتمادى في طغيانه حتى جعل من نفسه إلهًا متأثرًا بفكرة تأليه الحاكم في مصر ونسي هؤلاء المؤرخون أن فكرة تأليه الإسكندر نشأت معه منذ ولادته وأن أمه أوليمبياس غرست في عقله أنه ليس ابن فيليب المقدوني ولكنه ابن الإله زيوس كبير آلهة اليونان، فلما جاء الإسكندر إلى مصر فاتحًا وقع في حبائل كهنة آمون الذين خدعوه وأفهموه أنه ابن الإله أمون.

الدكتور جمال حمدان في كتابه الجليل شخصية مصر في البداية لم ينكر أن الطغيان أو الاستبداد هو النغمة الحزينة في تاريخ مصر وأسوأ خط في دراما الشعب المصري ولكنه لا يلبث أن يتساءل هل هذا يعبِّر عن حقيقة شخصية مصر الاجتماعية الكامنة؟ أهو يعني صفة موروثة أم مكتسبة خالدة أم عارضة؟ ثم هل تنفرد به مصر أم يشاركها فيه غيرها؟

ويجيب الدكتور جمال حمدان بأن ظاهرة الطغيان التعسة لم تقتصر على مصر لا انفردت مصر بها سواء في الماضي البعيد أو القريب فإن الإمبراطوريات الاستبدادية في التاريخ القديم تفوق الحصر: بابل وآشور وفارس وفينيقيا، الهند والصين وكل حضارات العالم الجديد...إلخ، أما اليونان وروما التي جعل البعض منها أسطورة الديمقراطية ومنبع الحرية فقد كانت على العكس تمامًا مثالًا بشعًا للاستبداد والظلم والتعذيب بل كانت مجتمعات العبودية الكلاسيكية وفي الإمبراطورية الرومانية بالذات كان الإمبراطور الطاغية – قيصر- يؤله كفرعون في مصر ولم يكن أقل منه طغيانًا وبطشًا أما أوروبا في العصور الوسطي فقد كان المجتمع الإقطاعي نظامًا استبداديًا سافرًا وكان الفلاح الأوروبي قنأ يعني عبدًا، أي أن الرجل الأوروبي كان أسوأ

حالًا وحظًا من الإنسان المصري سواء في العصور القديمة أو الوسطي وحتى بالنسبة للرقيق الذي لم ينتشر في مصر نسبيًا مثلما انتشر بأوروبا فقد كان يعامل برفق نوعًا إذا ما قيس بنظيره الأوروبي.

ويرى د/ جمال حمدان أن الاستبداد أو الطغيان حقيقة عرفتها معظم البلاد في معظم العصور على اختلاف بيئاتها والفروق بين البشر أقل بكثير من التشابه الأساسي بل لقد كان تاريخ العالم حتى وقت قريب هو في الواقع الحكم المطلق والاستبداد بصورة أو بأخرى وأن ما عرفته مصر في أغلب تاريخها من الطغيان إنما كان للأسف روح العصر وليس لحسن الحظ روح المكان وهو إذا كان قد طال في مصر بعد أن كان صفي في أوروبا مثلًا لعدة قرون فذلك بفعل الاستعمار الدخيل الآتي من أوروبا نفسها[25].

وبعد أن استعرضنا بعض ما كُتِب عن الشعب المصري ومن وجهات نظر مختلفة ابتداءً من علماء الحملة الفرنسية ثم د/ جمال حمدان والأستاذ العقاد والأستاذ جمال بدوي، بقي لنا أن نلقي نظرة على ما كتبه المؤرخ البريطاني ستانلي لين بول[26] في كتابه الممتع سيرة القاهرة حتى تزداد الصورة وضوحًا.

المؤرخ ستانلي لين بول ووصفه الممتع لاحتفال المصريين بمولد سيدنا الحسين سنة 1882 م:

حيث كتب ما ملخصه:ومهما يقال عنَّا معشر الإنجليز من أننا نكون مكتئبين على الدوام أثناء لهونا، فإنه حتى ذلك الجمهور الذي اعتاد أن يشاهد مسرحيات إبسن سوف يقف مدهوشًا أمام تلك الاحتفالات الإسلامية، فعلى

حين لا توحي أعيادنا الدينية بأي مرح للرجل الإنجليزي العابس، تجد الرجل القاهري يتمتع بأعياده الدينية إلى أقصى الحدود بالطريقة الرزينة الهادئة المعروفة، وتلك الأعياد جد كثيرة، والمولد في القاهرة ليس احتفالًا يستغرق يومًا واحدًا وإنما قد يمتد في بعض الأحيان إلى تسعة أيام، وكل سائح زار القاهرة لابد أن يعرف بعض هذه الأعياد، من ذلك الاحتفال بالكسوة الشريفة ومرور المحمل بقافلة الحجاج إلى مكة، هذه المشاهد جديرة بأن يراها كل منا، إذا تصادف وقوعها في موسم السياحة، فالسنة الهجرية لا تزال تسير وفقًا للتقويم الذي يعتمد على القمر، فهذا التقويم من شأنه أن يتغير فيغير معه الأعياد كلما دار الفلك دورته، والواقع أنه قد يندر أن يمر أسبوع واحد دون أن يكون هناك عيد أو احتفال، والحسين مما لا شك فيه ينال حقًا من الاحترام والتبجيل في القاهرة، والاحتفال بمولده من المشاهد التي يسر لها السائح الأوروبي كثيرًا، فليس هناك في الواقع أبهج ولا أروع من تلك المناظر التي نشاهدها في شوارع القاهرة وأسواقها في ليلة الحسين الكبرى.

والشيء الغريب حقًا أنه في إحدى ليالي الشتاء وبعد موقعة التل الكبير، حينما كنت واقفًا –لأن الركوب كان إذ ذاك متعذرًا- وسط جمع محتشد غفير في شارع الموسكي، وجاهدت لأشق طريقي إلى ذلك الزقاق الذي يؤدي إلى بيت القاضي ومسجد الحسين، أقول إنه من الغريب حقًا أنني لم ألاحظ هناك أية روح سيئة أو تعصب، على الرغم من وجود كثير من الأوروبيين الذين كانوا يجتالون في الطرقات البهيجة المزدانة بالأنوار في ليلة عيد، ولكنك بدلًا من هذا كنت تجد النساء الإنجليزيات يتخللن الأسواق، والضباط الإنجليز والسائحين يختلطون بالجمهور، بل إنهم بلغوا في بعض الأحيان أبواب الجامع المقدس نفسه دون أن يمسهم أحد أو يبدي لهم أدنى مضايقة بل أقل

ملاحظة، وفي بعض الأحيان قد تشاهد سيدة مصرية وهي تدعو بعض الأجانب وتطلب منه أن يصلي على النبي وقد تذهل السيدة المصرية حينما يجيبها بقوله اللهم صلِّ عليه، على أنه إذا لم يعرف ذلك الأجنبي كيف يجيب عن مثل هذه الأسئلة إجابة صحيحة، فلن ينتج عن ذلك ضرر على الإطلاق، فإن طيبة القلب والطبيعة السمحة التي توحي بها مثل تلك الأعياد مما ينسي ذكرى الحرب، ومن المؤكد أنه لا يمكن أن يكون هناك جمهور إنجليزي يعتمد عليه ويوثق به أن يستطيع أن يسلك مثل هذا المسلك البديع مع وجود أقلية غير مرغوب فيها معه، ولما انحرفت في أحد أزقة خان الخليلي الكبير كان ذلك المنظر يشبه إحدى صور ألف ليلة وليلة، وإذا خرجنا من الخان وجدنا أناسًا كثيرين يتدفقون إلى جامع الحسين، وعلى قيد بضع خطوات نرى بعض الرجال يدخلون إحدى الخيام وأحد المهرجين وهو يقوم بالتقليد في صورة تبعث على المرح وفي سرادق آخر نجد القراجوز فنجد أفرادًا قد أخذهم المرح حتى لتكاد جوانبهم تنفجر من كثرة الضحك، وهم مهما رأوا، وأينما ساروا، ومهما قابلوا، من الناس ومهما يكن فقرهم وهمومهم الخاصة كل ذلك لا يمكن أن ينال من طبيعتهم المرحة في ليلة الحسين المباركة، ولعل أول ما يتميز به الجمهور المصري أنه يمكن تسليته في سهولة تامة، فإن أبسط المناظر وأقدم النكات تبعث فيه المرح والسرور[27]، ويكفي أن تجعل الأوروبي المدقق يأسف على ضبطه نفسه ليرى كيف أن هؤلاء البسطاء يدخل المرح قلوبهم من أقل شيء[28]

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني

بعض مما كُتِب عن مصر

في هذا الفصل سنستعرض معًا ما استطعت تجميعه من فقرات من بعض الكتب التي تتناول الحديث عن مصر من وجهات نظر مختلفة وبأساليب مختلفة ومتباينة ولكن معظمها يصف فضائل مصر بأسلوب الكاتب، ويختلف أسلوب الكاتب طبقًا لطبيعة العصر الذي عاش فيه وبيئته ومشاربه الفكرية وتوجهاته وآرائه فكل فقرة لها مذاق خاص إذا جاز التعبير، وأرجو أن تستمتع بهذه الكتابات وتتأملها جيدًا كما استمتعت أنا بها.

من مقدمة كتاب المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور:

الكتاب تأليف محمد بن أحمد بن إياس الحنفي المصري حيث يقول غفر الله له ولوالديه وأحسن إليهما وإليه:

اعلم - وفقك الله – أن مصر من أجلِّ البلاد قدرًا، قال تعالى مخبرًا عن فرعون (أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون) وأما بالإشارة والإيماء فمنها قوله تعالى (كم تركوا من جنات وعيون، وزروع ومقام كريم) يعني مصر، وأما ما ورد فيها من الأخبار النبوية فمنها قوله صلَّى الله عليه وسلم (إذا فتح الله عليكم بعدي مصر فاتخذوا منها جندًا كثيفًا فذلك الجند خير أجناد الأرض، لأنهم في رباط إلى يوم القيامة)، قال أبو الريحان: ولد بمصر من الأنبياء موسى وهارون عليهما السلام، وولد بها يوشع بن نون

ودخل إليها عيسى بن مريم وأقام بقرية بالصعيد، ودخل مصر من الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام، ويعقوب ويوسف والأسباط وأرمياء، ودخل إليها دانيال ولقمان الحكيم عليهم السلام، ودفن بها من العلماء جماعة كثيرة كما سيأتي ذلك في مواضعه، وكان من أهلها مؤمن آل فرعون الذي أثنى الله تعالى عليه في القرآن، ومنهم آسية إمرأة فرعون التي أخبر الله تعالى عنها في كتابه، قال مساعد الغوثي في كتاب طبقات الأمم: ليس في بلد أعجوبة إلا وفي مصر مثلها أو أعجب منها وقال كعب الأحبار رضي الله عنه: من أراد أن ينظر إلى شبه جنة الفردوس فلينظر إلى أرض مصر، قيل قبل طلوع الشمس في زمن ربيعها إذا اطردت أنهارها، وغردت أطيارها، وأينعت أزهارها وقد قال القائل في المعني:

ما مثل مصر في زمان ربيعها

لصفاء ماء واعتلال نسيم

أقسمت ما تحوي البلاد نظيرها

لما نظرت إلى جمال وسيم

وقال المسعودي (إن كل قرية من قري مصر تصلح أن تكون مدينة على انفرادها) وقد قال الله تعالى في حق قرى مصر (وابعث في المدائن حاشرين)، وقال القضاعي (لم يكن في الأرض ملك أعظم من ملك مصر، ولو ضرب بينها وبين سائر قريى الدنيا سور لاستغنى أهلها بما فيها عن سائر البلاد، ولو زرعت كلها لوفت بخراج الدنيا بأسرها)

وقد قيل عن مصر:

كل وقت بمصر أمر عجيب

نحن منه في السعد كالأغنياء

ذهب حيث ذهبنا، ودر

حيث درنا وفضة في الفضاء

وقال الوردي رحمه الله:

ديار مصر هي الدنيا وساكنها

هم الأنام فقابلها بتقبيل

يا من يباهي ببغداد ودجلتها

مصر مقدمة والشرح للنيل[29]

القاهرة مدينة يسكنها التاريخ:

وفي مقدمة كتابه الرائع (القاهرة رحلة في المكان والزمان) كتب المؤلف عرفه عبده علي ما ملخصه:

عبقرية المكان وعطاء التاريخ شكلا موضع الجلال وموطن الجمال للقاهرة التي ظلت منذ نشأتها مصدرًا للإشعاع الحضاري والتجدد الثقافي، فتبوأت

مكانتها كأهم مراكز الحياة السياسية والاقتصادية والدينية والثقافية في العالم الإسلامي، وقد تفردت القاهرة، بين مدن العالم بما تزخر به من تراث حضاري إنساني شكل طوقًا بديعًا على صدرها بتنوع ووفرة آثارها وقيمتها التاريخية تمثل العصور المتعاقبة والمتصلة للتاريخ الإسلامي إلى تأسيس مصر الحديثة في عصر محمد علي باشا ثم عصر إسماعيل العظيم، وقاهرة الشرق لا حد لروعتها وما استطاع الزمان أن يطمس طابعها وجلالها، وكم بهرت رحالة وأدباء وفنانين وشعراء ومؤرخين بما حبتها الطبيعة وما أضفاه عليها التاريخ من عراقة، وما ارتفع على أرضها من آيات الفن.

مدينة يسكنها التاريخ، شوارعها حكايات وبيوتها وسراياتها ومساجدها مشربيات على تاريخ حافل مثير.

وللقاهرة في نفوس المصريين خاصة والعرب عامة إيقاع شجي ونغم يحمل في طياته شتى أنواع الألم والحسرة على ماضٍ جميلٍ يكاد يندثر، وكم شغفت بالتجوال بين شوارعها وحواريها وأسواقها وميادينها، وأطوف بين معالمها، وبعض الزمان يتعلق بأحجار المباني وكل حجر يحمل بصمات فنان، أسوار، أبراج، بوابات مساجد، مآذن تطاول االسماء في إيحاء عميق، وأخرى تتراءى كأطياف من بعيد وأسبلة وحمامات ووكالات وحدائق ومتاحف وبيوت وقصور، ديكورات لمشاهد صنعت التاريخ، أمثلة رائعة للجمال تحكي في صمت قصة آلاف الفنانين بناة الحضارة، وأسرع الطرف عجبًا أتحسس بنظرات رفيقة جدران عتيقة تراكم عليها الزمان لعلها تجلو لي سرًا من أسرار القاهرة، لا يزال ماء الذهب يسطع ببهجة أيامه الغابرة، وحيث سجل حياة مدينتنا، مرصع بأسماء كثير من العظماء الذين تركوا أثرًا عند كل موقع،

ويأخذني انطباع سحري يوحي بما كان عليه الحال في سالف الزمان، وما بين صخب الزحام وروائح التوابل والعطور وتناغم الألوان والظلال تمضي المشاهد وكأنها الرؤي ويتشعب الحديث عبر مسالك الزمان والمكان ويبقي تراث القاهرة حيًا في الثقافة والتقاليد الموروثة وفي شواهد المجد والعز القديم، وما أروع ما قاله الأديب الفرنسي أندريه مالرو: مصر هي التي اخترعت الخلود، و انظروا إلى العمارة[30]

السبق الحضاري ملمح أساسي في شخصية مصر:

عن هذا الموضوع كتب د /جمال حمدان ما يلي: إنها البلد الوحيد الذي يلتقي فيه نهر النيل بالبحر المتوسط، الأول بالطول والثاني بالعرض، الأول بعد رحلة سحيقة شاقة مفعمة بالأخطار والمخاطر وبالعقبات والسدود، الجيولوجية والمناخية والنباتية والطبوغرافية والهيدروليجية، كل منها كان يمكن وحده أن يشتته يجهضه يقطع عليه الطريق ولكنه يجتازها جميعًا بإلحاح ثم بنجاح – لمصر يجتازها، والثاني يصلنا في أقصي نهايته ونهاية مطافه، الأول أوسط أنهار الدنيا موقعًا وأطولها وأعظمها، والثاني أوسط بحار الدنيا، سيد البحار وأعرقها، إنه لقاء الأكفاء والأنداد والأفذاذ جغرافيًا، أبو الأنهار وأبو البحار، مهد الفلاحة ومدرسة الملاحة، نهر الحضارة وبحر التاريخ، أو نهر التاريخ وبحر الحضارة سيان، وبهذا اللقاء مع التحام القارتين وتقارب البحرين فكأنها كل أصابع الطبيعة تشير إلى مصر، وكأن خطة علوية عظمي قد رتبها الجغرافي الأعظم لتجعل منها قطبًا جغرافيًا أعظم في العالم القديم، فكانت حضارة مصر النيل الفرعونية، الحضارة الأولى في التاريخ، الرائدة المشعل، وسواء كانت صدفة سعيدة أو نتيجة حتمية، فتلك ملحمة جغرافية ترجمت إلى

ملحمة حضارية، سواء أكانت هذه الحضارة البكر الخلاقة من خلق النيل المعلم، أو الفلاح المصري الملهم، فإنها ثمرة الزواج الموفق السعيد بين أبي الأنهار وأم الدنيا وفي جميع الأحوال، فإن مصر هي واسطة كتاب الجغرافيا تحولت إلى فاتحة كتاب التاريخ، وفي جميع الأحوال أيضًا، فإن السبق الحضاري ملمح أساسي بلا نقاش في شخصية مصر، وأخيرًا وليس آخرًا فلقد أبدت هذه الحضارة استمرارية نادرة فعمرت بصلابة وتماسك آلاف السنين[31]

عمرو بن العاص يصف مصر لأمير المؤمنين:

قال بعض المؤرخين: إنه لما استقر عمرو بن العاص رضي الله عنه على ولاية مصر كتب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن صِف لي مصر فكتب إليه:

ورد كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه يسألني عن مصر، اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء، وشجرة خضراء، طولها شهر، وعرضها عشر (أيام)، يكنفها جبل أغبر، ورمل أعفر، يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ميمون الروحات، تجري فيه الزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر، له أوان يدر حلابه، ويكثر فيه دبابه، تمده عيون الأرض وينابيعها حتى إذا ما اصلخم (اشتد) عجاجه وتعظمت أمواجه، فاض على جانبيه فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا في صغار المراكب، وخفاف القوارب، فإذا تكامل في زيادته، نكص على عقبيه كأول ما بدأ في جريته، وطما في درته، (زيادته وفيضه)، فعند ذلك يحرثون بطون الأرض ويبذرون بها الحب، يرجون بذلك النماء من الرب، فإذا أحدق الزرع وأشرق، سقاه الندى وغذَّاه من تحته الثرى، فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء، إذا هي عنبرة سوداء، فإذا هي زمردة خضراء، فإذا هي ديباجة رقشاء فتبارك الله الخالق لما يشاء، فلما

ورد الكتاب على عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لله درك يابن العاص، لقد وصفت لي خبرًا كأنني أشاهده[32]

ومما قيل أيضًا عن فضائل مصر ما يلي:

من شاهد الأرض وأقطارها

والناس أنواعًا و أجناسًا

ولا رأى مصـــــــر ولا أهلـــها

فما رأى الدنيا ولا رأى النـــــاس،

فهي أم البلاد وهي أم المجاهدين والعباد قهرت قاهرتها الأمم ووصلت بركاتها إلى العرب والعجم.

هي بلاد كريمة التربة، مؤنسة لذوي الغربة فكم لمصر و أهلها من فضائل، ومزايا، وكم لها من تاريخ في الإسلام وخفايا منذ أن وطئتها أقدام الأنبياء الطاهرين ومشت عليها أقدام المرسلين المكرمين والصحابة المجاهدين.إذا ذكرت المصريين ذكرت الكعبة والبيت الحرام فإن عمر رضي الله تعالى عنه، أرسل إلى عامله في مصر أن يصنع كسوة للكعبة المشرفة، فصنعت الكسوة من عهد عمر رضي الله عنه وظلت كسوة الكعبة تصنع في مصر سنة تلو سنة حتى مرت أكثر من ألف سنة وكسوة الكعبة ترسل من مصر إلى مكة ولم يتوقف ذلك إلا قبل قرابة المائة سنة.إذا ذكرت المصريين ذكرت الحجاج والمعتمرين فإن البعثة الطبية المصرية كانت في الحج لسنوات طويلة هي

أبرز ماينفع الحجاج في علاجهم يأتون من أقطار الدنيا لأجل أن يلتقوا بهذه البعثة المصرية..إذا ذكرت المصريين، إذا ذكرت الدفاع عن فلسطين وذكرت الجهاد والمجاهدين فصلاح الدين أقام بمصر،وكثير من قواده منها و أبرز المعارك مع اليهود قادها مصريون..إذا ذكرت المصريين ذكرت أمنا هاجر، ومارية القبطيه ذكرت أخوال رسولنا،و أصهار نبينا فمصر هي كوكبة العصر، وكتيبة النصر وديوان القصر، أم الحضارة و أم المهارة ومنطلق الجدارة..أرض العزة و بلاد القطن، ذكر الله تعالى مصر في القرآن وبين الله جل وعلا اسمها صريحًا في أربعة مواضع في كتابه، تشريفًا لها وتكريمًا فقال الله جل وعلا ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ﴾ يوسف:21.وقال سبحانه ﴿ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ﴾ يوسف:99وقال جل وعلا ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ يونس:87.وقال تعالى قاصًا عن فرعون لما قال ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ الزخرف:51ليس هذا فقط بل أشار الله تعالى إلى مصر ولم يصرح باسمها في 30 موضعًا في القرآن كقوله جل وعلا ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ﴾ [القصص:15] يعني:مصر. وقوله جل وعلا ﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف:109] إلى آخر هذه المواضع.إن مصر هي الأرض الطيبة التي قال الله تعالى عنها لما طهَّرها الله تعالى من فرعون وقومه مدح الله تعالى مصر فقال﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿25﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿26﴾﴾ الدخان إن مصر فيها خزائن الأرض بشهادة ربنا جل وعلا لما قال ليوسف عليه السلام﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ يوسف. 55 ولم يذكر الله تعالى قصة نهر في القرآن إلا نهر النيل قال جل وعلا: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا

رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[القصص:7] يعني في نيل مصر.وفي مصر الوادي المقدس طوى، وفيها الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام، وفيها الجبل الذي تجلَّى الله سبحانه إليه فانهد الجبل دكا،وهي مبوَّء الصدق الذي قال الله تعالى عنه﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ [يونس:93] وفي أرضها يجري نهر النيل المبارك الذي ينبع من أصله من الجنة: [قال عليه الصلاة والسلام، النيل وسيحان وجيحان والفرات من انهار الجنة] رواه مسلم.وفي أرض مصر الربوة التي أوى إليها عيسى عليه السلام وأمه قال جل وعلا ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: 50] وعلى أرض مصر ضرب موسى عليه السلام بعصاه فانفلق الحجر له ماءً وانشق البحر فكان كل فرق كالطود العظيم.نعم إنها مصر.. إذا أردت القرآن وتجويده فالتفت إلى مصر..إذا أردت اللغة والفصاحة فإنك تنتهي إلى مصر..إذا أردت الأخلاق الحسنة وحلاوة اللسان وحلاوة التلاوة والقرآن فالتفت لزامًا إلى مصر..فهي ليست بلدًا عاديًا، فمصر بلد عظيم القدر جليل الجناب أشار الله تعالى لكبر مصر، وأشار لعظم مساحتها فقال جلَّ وعلا ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿53﴾﴾ [الشعراء]. وهذا يدل على كثرة مدنها ولعظم قدر مصر..ومنذ القديم افتخر فرعون أنه يملكها دون غيرها فقال كما حكا الله جلَّ وعلا عنه﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ [الزخرف:51].قال عمرو بن العاص رحمه الله ورضي عنه قال:[ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة] يعني أن كل بلاد الإسلام في كفة، وإن الذي يلي على مصر يكون أخذ الكفة الأخرى.وقال سعيد ابن هلال إن مصر أم البلاد وغوث العباد، إن مصر مصورة في كتب الأوائل وقد مدت إليها سائر المدن يدها تستطعمها وذلك لأن خيراتها كانت تفيض على تلك البلدان] قال الجاحظ: [

إن أهل مصر يستغنون بما فيها من خيرات عن كل بلد حتى لو ضرب بينها وبين بلاد الدنيا بسور ما ضرَّهم].

مصر أرض الشفاء:

عن هذا الموضوع كتب الكاتب الكبير أنيس منصور في كتابه الممتع (من نفسي) ما يلي:

الحكيم بقراط كان ينصح الناس بالسفر إلى مصر للعلاج، والحكيم جالينوس أيضًا، والمؤرخ هيرودوت لم ينس أن صحَّته تحسنت عندما جاء إلى مصر وقال:إن العجائب التي في مصر قد أنعشت روحه، والشمس قد أذابت الصلابة في عضلاته، والفراعنة هم أول من عرف أن الرطوبة الموجودة في الجو هي التي تفسد أجسام الموتي، ولذلك كانوا يضعون الجثث في أماكن جافة بعيدة عن الرطوبة الموجودة في الهواء، فأقاموا مقابرهم في الصحراء وفي جنوب مصر، والفراعنة هم أول من نصح المريض بأن يبعد عن البيت والأسرة ومكان العمل ويذهب إلى الجنوب حيث الهدوء والدفء والجفاف وصفاء السماء، والطب الحديث يؤكد أن حكمة الفراعنة صادقة وأطباء السويد الذين جاءوا إلى مصر في رحلات للعلاج السياحي يرون أن مصر كلها، وليس جنوب مصر فقط،، هي أحسن مكان للعلاج من أمراض الشيخوخة والروماتزم واضطراب الدورة الدموية وكثير من الأمراض الجلدية، ومنذ أيام قرأت تقريرًا لبعض أطباء السويد يؤكدون فيه أن عشرات من المرضي من السويد والنرويج وفنلندا والدنمارك بعض المرضى جاء إلى مصر لا يقوى على المشي وبعد أيام استمتع بركوب الخيل إلى جوار الهرم، وبعض المرضي كان لا يقوى على الجلوس على مقعد له عجلات، وبعد أيام كان يساعد المرضى

الجدد في الجلوس على هذا المقعد ويدفعهم إلى الأمام، كل هذا قرأته، ولولا أنني قرأت ذلك ما صدقته، وزارني الدكتور مورسنج أحد المشرفين على السياحة العلاجية وقلت له إن أسوان لم تكن تعرف الرطوبة ولا السحب ولا المطر وهي الآن أصبحت معتدلة الجو مثل الإسكندرية، فهل هذه الرطوبة تعوق العلاج؟

وأكد لي الدكتور مورسنج بالأرقام والتقارير الطبية أيضًا أن أسوان تشفي العليل، وأن هناك سرًا أو سحرًا إشعاعيًا في جنوب مصر وشمالها، وأن هذا السر جعل مصر هي أصح بلد في العالم كله لعلاج كل الأمراض التي يشكو منها أهل السويد والنرويج وكل الدول الشمالية (وطلبت إليه أن يعيد هذه الجملة، وأعادها بهدوء وبساطة كمن يقول أن 2 زائد 2 يساوي 4).

وشعرت بالارتياح وتمنيت أن أجد نفسي في أسوان بسرعة وأن أُعرض نفسي لهذا السحر الإشعاعي الذي عرفه المؤرخ هيرودوت ولم يعرف اسمه، ولما سألني الدكتور مورسنج عن الأمراض التي أشكو منها وسوف تشفيها أسوان قلت: مرض واحد اسمه القاهرة[33]

مصر أول إمبراطورية في التاريخ:

من كتاب مختارات من شخصية مصر للدكتور جمال حمدان حيث كتب ما ملخصه:

السؤال الأول هو: لماذا أول إمبراطورية؟ من الواضح أن عوامل الطبيعة، عوامل الموضع والموقع، تتضافر هنا لتمنح مصر ثقلًا غير عادي من البداية،

والموضع الجغرافي كما قلنا هو البيئة الطبيعية المحلية داخل مصر نفسها – شكلها وطبيعتها ووزنها، فهي كواحة فيضية تستقطب حول النهر قد تجانست بشريًا وتوحدت سياسيًا منذ البداية وعلمتها دورة النهر النظام والقانون ثم منحتها زراعة الري (قاعدة أرضية) تعد بمقياس العصر ضخمة هائلة، قوة إنتاجية سخية، واكتفاء ذاتي تقريبًا وقوة بشرية نادرة قوامها الكثافة لا المساحة، وعلى ضوء إمكانيات الري الحوضي يمكن أن نقدر قوة تحمل مصر بالسكان طوال العصور القديمة هذه بنحو 12 مليون، مع احتمالات خطأ معقولة، وحول هذا كله كانت الصحراء (الرحم الجغرافي) الذي ولد فيه هذا الموضع في الأول، ثم (الدرقة) الطبيعية التي حمته جميعًا بعد ذلك، إن أولى الإمبراطوريات في التاريخ –رغم فولتير وإمبراطورية المناخ- هي إمبراطورية النيل، فإذا أرسلنا النظر عبر الصحراء رأينا أننا إنما نقف في واسطة العقد في كل معني، فحولنا منتثرًا في كل الجهات شتيت من شعوب وجماعات ضئيلة الحجم والوزن ضعيفة الموارد والتنظيم والحقيقة أن مصر طوال الجزء الأكبر من تاريخها القديم، كما كانت النواة النووية لمنطقة حضارية بكاملها، هي معظم العالم المعروف حينئذ، كانت أيضًا من الناحية الاستراتيجية النواة النووية لمنطقة قوة عالمية لا تكاد تختلف في الامتداد والأبعاد بلغة ماكيندر كان الشرق القديم هو (هارتلاند) العصور القديمة ومصر محور ارتكازه PIVOT AREA، بهذا كله كانت مصر القمة والقلب معًا، القمة موضعًا والقلب موقعًا، وبفضل هذا الأخير كان من السهل عليها أن تمد زراعيها بعيدًا يمينًا ويسارًا وشمالًا وجنوبًا، من الناحية الأخرى كان طبيعيًا أن يغري ثراء مصر وخصبها بعض هذه الأطراف الفقيرة إما في تسللات متلصصة أو في مغامرات تشنجية، لا تخرج في مجموعها عن طمع من جانب الرمل في

الطين، أو الرعاة في الزراع، وبهذا أصبحت أرض التخوم بالنسبة لمصر هي أرض المعركة، والمعركة التأديبية أساسًا، بينما لا يقل نطاق الأمان من حولها عن الشرق الأوسط تقريبًا ومن هنا توسعت الإمبراطورية إلى حدودها القصوى كلما أمكنها ذلك، لا كاستعمار بالمعني المفهوم وإنما لنشر السلام المصري، بل إننا لنستطيع أن نزعم بقليل من خشية أن الإمبراطورية المصرية كانت في جوهرها وفي معني ما (إمبراطورية دفاعية) أساسًا حتمتها –كما سنرى- ظروف الصراع الإقليمي والاستراتيجية العريضة في الشرق القديم[34]

مصر: جسم بشري واحد ووحيد، ووسط جغرافي أحادي بالتأكيد، ونهر سائد وفريد:

عن هذا الموضوع كتب د /جمال حمدان ما يلي: ومن هذا جميعًا نرى أن الوحدة التاريخية التي لم تنقطع والتي كانت جزئيًا ثمرة للتجانس البشري قد ضاعفت بدورها من هذا التجانس، حتى قل أن نجد شعبًا متماثلًا في ملامحه الجسمية والنفسية، في مزاجه وتقاليده، باختصار في (طابعه القومي) كالشعب المصري، ولربما زدنا هذه الحقيقة وضوحًا إذا ما وضعناها موضع المقارنة مع بلاد أو شعوب أخرى مجاورة في الشرق العربي مثلًا عبر العصور الطوال كما في يومنا هذا، نجد أن سوريا تمتاز في كل نواحي حياتها وكيانها بمعادلة إقليمية أساسية تعد مفتاحًا لكل أعماق شخصيتها: إنها تتألف من عدد كبير من الوحدات الضئيلة: في الأرض والطبوغرافيا، في العروق والسلالات، في اللهجات والاتجاهات، في الطوائف والملل، حتى في المدن والواحات، إنها في ذلك كله كومة مفككة من الأحجار الصغيرة وأكاد أقول من حصى

وتراب، والعراق أكثر تجانسًا وتماسكًا، فهو بنهريه وبيئتيه الطبيعيتين السهل والجبل...إلخ، أقرب إلي الثنائية التركيبية – إلى حجرين كبيرين نوعًا أما مصر في هذه المتتالية التصاعدية فتأتي على القمة، فهي حجر واحد monolith، وحجر ضخم عند ذلك megalith، فهنا جسم بشري واحد ووحيد، ووسط جغرافي أحادي بالتأكيد، ونهر سائد وفريد، وهي لذلك كله أبعد ما تكون عن التنافر الداخلي، أو التخلخل التركيبي، ومنه تستمد ثقلًا ووقعًا، وقوة اندفاع فرضت نفسها على تاريخ المنطقة[35]

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

عندما تلتقي الشخصيات الغير عادية بوطن غير عادي

هل البيئة الفيضية هي مفتاح الشخصية:

ذكرنا ما قاله الأستاذ جمال بدوي عن أن هؤلاء القادة قد وضعوا أيديهم على مفتاح شخصيتها فباحت لهم بسرها، فهل ممكن أن يكون مفتاح شخصيتها هو ما قاله الدكتور جمال حمدان عن البيئة الفيضية وأثرها في طبيعة الحكم في مصر حيث كتب ما ملخصه:

(الحقيقة الكبري في كيان مصر هي أنها بيئة فيضية، لا تعتمد على المطر في حياتها، وإنما على ماء النهر، وقوامها هو زراعة الري،ومن هنا بالدقة يبدأ كل الفرق في حياة المجتمع النهري وطبيعته، ففي البلاد التي تعيش على الأمطار مباشرةً يختزل المجهود البشري إلى حده الأدنى، فبعد قليل من إعداد الأرض والبذر، يتوقف العمل أو يكاد حتى الحصاد، وبين هذا وذاك فليس هناك من يحفر الترع والمصارف أو يقيم الجسور والسدود وأهم من هذا كله أن ليس هناك من يمكنه أن يحبس عنك المطر أو أن يتحكم في توزيعه، من هنا فقد تكون الطبيعة سيدة الفلاح ولكن الفلاح بعد ذلك سيد نفسه، أما في بيئة الري فالأمر مختلف كل الاختلاف، لابد من مجهود بشري ضخم أي لابد من شبكة غطائية كثيفة من الترع من كل مقياس ابتداء من قنوات الحمل وقنوات التغذية إلى مساقي الحقول حتى تزرع، ثم ما جدوي تلك الشبكة إذا لم

تسيطر على أعناقها و رؤوسها بالنواظم والقناطر والسدود؟ أعني أي جدوى فيها بغير ضبط النهر؟

وأكثر من هذا ما جدوى الجميع بغير ضبط الناس؟ إن زراعة الري إذا تركت بلا ضابط يمكن أن تضيع مصالح الناس المائية في مواجهة بعضها البعض مواجهة متعارضة دموية، ذلك أن كل من يقيم على أعلى الماء يستطيع أن يسيء استعماله إما بالإسراف أو بحبسه تمامًا عمن يقع أسفله أي أن كل حوض علوي يستطيع أن يتحكم في حياة أو موت كل حوض سفلي وكل من يقع على أفواه الترع يستطيع أن يهدد حقوق المياه لمن يقع على نهايات الترع، كذلك يمكن للمحاباة والتحيز أن تسخو بالماء لمن تريد وتقبضه عمن تريد، المحصلة إذن واضحة: بغير ضبط النهر يتحول النيل النبيل إلى شلال حطم جارف، وبغير ضبط الناس يتحول توزيع الماء إلى عملية دموية ويسيطر على الحقول قانون الغاب والأدغال، في ظل هذا الإطار الطبيعي يصبح التنظيم الاجتماعي شرطًا أساسيًا للحياة ويتحتم علي الجميع أن يتنازل طواعية عن كثير من حريته ليخضع لسلطة عامة أعلي توزع العدل والماء بين الجميع، سلطة عامة أقوي بكثير مما يمكن أن تتطلبه بيئة لا تعتمد علي نهر فيضي في حياتها، وبذلك لا تكون الطبيعة وحدها سيدة الفلاح، وإنما بين الاثنين يضيف الري سيدًا آخر هو الحاكم، فإذا ما التفتنا إلى مصر القديمة بصورتها الفرعونية فستجابهنا هذه الملامح، ملامح المجتمع الهيدرولوجي إلى حد نادر المثال، فقد عد فرعون ضلعًا أساسيًا في مثلث الإنتاج إلى جانب الضلعين الطبيعيين الماء والشمس هذا عن الحكومة أما عن المجتمع فهو أساسًا مجتمع تعاوني منظم - - وهنا نجد في القرية المصرية في صميم

تركيبها وسيكولوجيتها وزراعتها قدرًا كبيرًا متوطنًا ومتأصلًا من التعاونية والمشاركة التلقائية، فهي خلية بشرية متلاصقة متلاحمة)[36]

ومما سبق يتضح دور الحاكم في مصر، فليس من المستغرب أن أول حكومة في التاريخ كانت في مصر كما يوضح د /جمال حمدان في موضع آخر من كتابه القاهرة حيث كتب ما يلي: (فالبيئة كما رأينا فيضية، والمجتمع مجتمع هيدرولوجي، ولهذا أصبح الري مرادفًا للتنظيم، والتنظيم المركزي، الذي يخضع فيه الجميع طواعية لسلطة عامة مطلقة. وإن كان هذا من أقوي عوامل ظهور الوحدة السياسية المبكرة في مصر.

كما أنه علم الشعب "أن" النظام أساس الحضارة، إلا أن هذا أيضًا بدأ دور الحكومة الطاغي وأرسي نواة الموظفين الثقيلة، وأصبحت البيروقراطية المركزية عنصرًا أصيلًا في مركب الحضارة المصرية، بل ثقلًا عنيدًا في موكبها. أصبحت مصر مجتمعًا حكوميًا كما نقول، فالحكومة وحدها هي التي تملك زمام المبادرة وإمكانيات العمل، العمل الكبير علي أية حال، وقد كان لهذا قيمته في بعض المراحل، ولو أنه ربما خلق في جميعها شيئًا من روح التواكل والتكاسل والسلبية وخنق ملكات المبادأة وحوافز التلقائية في السكان.

وهنا، مرة أخرى، نجد أن الحكومة المركزية الأولى في التاريخ ليست ميزة صافية بلا شوائب ولا كانت مكسبًا بلا ثمن، والذي يتعمق تاريخ مصر الاجتماعي ستروعه ولا شك تلك البيروقراطية العاتية التي تمتد على طوله بغير انقطاع، حتى لتشكل نغمة دالة عليه وملمحًا أساسيًا آخر من ملامحه، فالبيروقراطية في مصر قديمة قدم الحضارة الفرعونية، مع الأهرام تبدأ،

وفيها تتلخص، ويكفي بعدها أن نرى صور كبار الموظفين على النقوش والآثار القديمة وأن نعرف أخبارهم المتواترة في البرديات والسجلات العديدة حتي ندرك خطورة الدور الذي لعبته الهيئة البيروقراطية في القديم، بل إن شئت رمزًا بليغًا، ففي النحت تجده ابتداء من تمثال الكاتب حتى تمثال شيخ البلد فهذه جميعًا نصب تذكارية وتاريخ محفوظ أو محفور للبيروقراطية الفرعونية الثقيلة)[37]

(ومن هنا يمكن القول أن الشعب المصري يحتاج أو احتاج حاكمًا قويًا علي طول تاريخه، وحاجة الشعب إلى هذا الحاكم القوي تفوق كثيرًا حاجة هذا الحاكم للشعب، وهناك تناسب طردي بين قوة الحاكم و إحساس الشعب بالأمن، فكلما كان الحاكم قويًا كلما شعر الشعب بالأمن، فهو دائمًا يحتاج إلى المبادرة من أعلى، ودائمًا ينتظر ما سيحدث لا ما سيصنعه هو، فهو لا يصنع شيئًا من تلقاء نفسه بل عليه أن يتلقى التوجيهات من أعلى، من حاكم ترنو إليه الأبصار وتتعلق به الآمال، وإذا تأملنا الآثار الفرعونية في طول البلاد وعرضها سنجد أن أروعها و أكثرها تم بناءها في فترات السيطرة الكاملة للحكومة المركزية في ثلاث دول القديمة والوسطى والحديثة ولن نجد آثارًا بهذه الروعة في فترات الاضمحلال خلال العصر الفرعوني، فلم تحدث إنجازات معمارية يمكن مقارنتها بما حدث في هذه الدول الثلاث)[38]

الإنجازات الكبيرة مرتبطة بالحكام وكذلك الإخفاقات أيضًا:

بل إذا تركنا العصر الفرعوني واستعرضنا عصر البطالمة ثم العصر الروماني في مصر سنجد الإنجازات تتحقق في فترات حكم الأقوياء فقط، وحتي بعد فتح مصر وانضمامها إلى العالم الإسلامي سنجد أن رغبة الحاكم في حدوث

أي أعمال ضخمة تكون هي المحركة للأحداث، لأن المبادرة تأتي من أعلى غالبًا، فتأمل وراجع معظم الإنشاءات والمشروعات الكبرى في تاريخ مصر منذ عصر الفراعنة كالأهرامات والمعابد قديمًا والأعمال المعمارية الضخمة في العصر المملوكي وعصر أسرة محمد علي وحفر قناة السويس وبناء السد العالي وكذلك الانتصارات الكبري في تاريخ مصر، وحتى الهزائم والانكسارات والإخفاقات ستجد أن المحرك للأحداث غالبًا لا يكون الشعب، بالرغم من أن الشعب هو الذي يصنع كل هذا ولكن ليس من تلقاء نفسه في معظم الأحوال.

وعن انعدام دور الشعب في اتخاذ القرار في مصر قديمًا واستمراره أيضًا علي طول التاريخ كتب الدكتور جمال حمدان في إطار حديثه عن الاستمرارية والانقطاع في مصر.

بعض ما كتبه د جمال حمدان عن الاستمرارية والانقطاع في مصر:

حيث كتب في الجزء الرابع من كتابه شخصية مصر – دراسة في عبقرية المكان - الصادر عن دار الهلال في الباب العاشر تحت عنوان (آفاق الزمان وأبعاد المكان) وبالفصل الثاني والأربعين، تحت عنوان الاستمرارية والانقطاع، من صفحة 604 وما بعدها: (فعلى طرفي النقيض الأقصى والمطلق من مصر الاقتصادية، وعلى خلاف مصر الاجتماعية، إلى حد بعيد، لم تكد مصر السياسية تتغير أو تعرف التغير، فهي إن لم تكن بعيدة تمامًا عن التغير فإنها بلا نزاع آخر وأقل ما يتغير في مصر، إنها قمة الاستمرارية والثوابت وقاع الانقطاع والمتغيرات في مصر، لكنها للأسف والأسى بالطبع أسوأ استمرارية وشر الثوابت على وجه اليقين والإطلاق، ذلك أنها النقطة السوداء والشوهاء

في الاستمرارية المصرية جميعًا، مثلما هي الوحيدة التي لم تعرف الانقطاع أو التغير قبل العصر الحديث وبعده، إنها الاستمرارية السلبية بامتياز، مثلما هي قمة سلبيات الاستمرارية بيقين، والسؤال ببساطة هل تغيرت مصر المعاصرة عن مصر الحديثة، والحديثة عن القديمة، في قضية التركيب الاجتماعي – السياسي ونظام الحكم والسلطة، وإلي أي حد؟، التغير الجوهري في الشكل، أما الجوهر فلم يكد يتغير، وهذا الجوهر هو الطغيان الشرقي، الطغيان الفرعوني، بكل أعمدته التقليدية، فهو الخط المستمر والقاسم المشترك الأعظم، الذي يجري خلال تاريخ مصر كله منذ مينا - المتغير الوحيد هو الشكل- فقديمًا كان الفلاحون عبيد فرعون ثم عبيد السلطان، وحديثًا فإذا لم نكن قد صرنا حقًا أو نوعًا عبيد – فنحن يقينًا مازلنا بين فراعنة وفلاحين، ورعايا لا مواطنين، وبمزيد من التوضيح، فنحن في مصر الحديثة قد بدأنا حياتنا النيابية العصرية بالأخذ بالنموذج الغربي الديموقراطي البورجوازي الليبرالي المتعدد الأحزاب، بل وذلك منذ وقت مبكر نسبيًا تحت – الخديو اسماعيل – وقبل كثير من الدول الأخرى، غير أن ذلك لم يكن للأسف إلا كقشرة وطلاء وواجهة ديموقراطية شكلية بحتة لخلفية اجتماعية محض إقطاعية طبقية رجعية، ولأرضية استبدادية غاشمة من الحكم المطلق والطغيان المعهود، فالحرية كلمة مستوردة لم تدخل قاموس السياسة المصرية إلا منذ الطهطاوي والمثل الفرنسي، ولكن كاسم لا كفعل، فالقاعدة الأصولية في مصر، والتي لا تزال مرعية بأمانة - - هي أن كل من يختلف مع الحاكم فهو خائن بطريقة أو بأخرى، أو على الأقل فإنه هو الحقد الذي لم يجد له قط علاجًا، ذلك أن الرأي – كالقوة وكالفعل – ملك للحاكم فقط وحكر عليه وحده، أما المعارضة فلم تعرفها مصر منذ الفرعونية - إلا رمزًا وإلا شكلًا

والرأي الآخر لم يوجد إلا في نفس صاحبه فقط - من هنا جميعًا فإن هذه الديموقراطية البرلمانية المستوردة ليست إلا غلافًا جذابًا وقناعًا براقًا للديكتاتورية الأصيلة والأصلية، لذا يمكننا – والديموقراطية أكثر شيء نسبية إن لم تكن أكثر شيء مطاطًا – أن نسميها بحق الديموقراطية الشرقية كمرادف محلي أو عصري للطغيان الشرقي ويمكنك أيضًا أن تسميها ديموقراطية العالم الثالث - وما هي إلا الغراب يقلد مشية الطاووس - وكما في دول الشرق الأوسط والعالم المتخلف ليس ثمة شيء في سياسة مصر الخارجية اسمه الشعب من الوجهة العملية، ولا أوهام في هذا أو انفعال، فصناعة السياسة الخارجية وتشكيلها وتوجيهها هي عمليًا و واقعيًا بغض النظر عن الشكليات السطحية المموهة حكر لرجل واحد هو الحاكم - وأنه حاكم مطلق خارجيًا كما هو داخليًا، ولا يكاد يوجد حاكم في العالم القديم أو الحديث ينفرد بوضع سياسة بلده الخارجية كحاكم مصر، وقد عبر بعض المعلقين الأمريكيين مؤخرًا علي هذه الظاهرة بقولهم إن السياسة الخارجية في هذا الجزء من العالم سياسة شخصية أساسًا، الدور الشخصي للحاكم هو الدور المحوري إن لم يكن الأوحد فيها، وفي هذا بالدقة تكمن جذور المأساة العظمي، فمكان مصر ومكانتها الدولية كقوة سياسية، انتصارها وهزيمتها مصيرها وبقاؤها..إلخ كل أولئك بين يدي شخص واحد، لقد تغيرت مصر الحديثة والمعاصرة في جميع نواحي الحضارة المادية واللامادية والحياة الاقتصادية والاجتماعية بدرجات متفاوتات، وذلك على الأقل بحكم العصر والحضارة الحديثة المعدية، تمامًا مثلما تغير كل العالم الثالث ولربما تفوقت مصر في مدى هذا التغيير، غير أنها من أسف لم تكد تتغير من ناحية نظام الحكم، ففي هذا لا جديد تحت الشمس -)[39]

عندما يفهم الحاكم طبيعة الشعب:

مما سبق يتضح أنه ربما يكون القاسم المشترك بين جميع القادة البارزين في تاريخ مصر هو فهمهم لطبيعة شخصية مصر وخصائص الشخصية المصرية وبالتالي استغلوا إمكانيات مصر الاستغلال الأمثل ودفعوا الشعب المصري لتحقيق العديد من الإنجازات وإن كان السبب والدافع فيما حققوه يختلف من حاكم إلى آخر فقد يكون السبب تحقيق مجد شخصي وطموحات شخصية وقد يكون السبب تحقيق مصلحة شعب مصر والأمة ابتغاء لمرضاة الله سبحانه وتعالى وقد يكون رفع مستوى إنتاجها لتخدم مصالح دولة كبرى هي جزء منها كما كانت مثلًا مصر في فترة من الفترات هي مصدر القمح للإمبراطورية الرومانية، كما أنها كانت كولاية إسلامية من أهم وأغنى الولايات التي تهتم بها الخلافة الإسلامية، وكلنا يذكر ما كتبه المؤرخون عن المجاعة التي حدثت في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وكيف قامت مصر بإنقاذ الموقف.

قال ابن عبد الحكم: حدثنا عبد الله بن صالح وغيره، عن الليث بن سعد، أن الناس بالمدينة أصابهم جهد شديد في خلافة عمر عام الرمادة، فكتب إلى عمرو بن العاص وهو بمصر: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص: سلام عليك، أما بعد: فلعمري يا عمرو ما تبالي إذا شبعت أنت ومن معك، أن أهلك أنا ومن معي، فيا غوثاه، ثم يا غوثاه، يردد قوله، فكتب إليه عمرو بن العاص:لعبد الله عمر أمير المؤمنين، من عمرو بن العاص، أما بعد فيالبيك، ثم يالبيك، قد بعثت إليك بعير أولها عندك وآخرها عندي، والسلام

عليك ورحمة الله، فبعث إليه بعير عظيمة، فكان أولها بالمدينة و آخرها بمصر، يتبع بعضها بعضًا، فلما قدمت على عمر وسع بها على الناس[40]

ماذا يحدث إذا فهم الحاكم طبيعة مصر وشعبها ولم يفهم الموقف الدولي؟:

لكي يكون حاكم مصر حاكمًا متميزًا ومن القادة البارزين في تاريخ مصر وسيتضمن هذا الكتاب معلومات عنه وعن عصره لابد أن يكون مُلمًا بالموقف الدولي وليس بطبيعة الشعب المصري وحسب، وخير ما قرأته عن تأثير جهل الحكام بالموقف الدولي على مصر وشعبها ما كتبه الكاتب الكبير يحيى حقي في كتابه الممتع صفحات من تاريخ مصر، حيث كتب تحت عنوان (وجهة نظر قابلة للتصحيح) ما ملخصه:

السؤال الذي يتردد في خاطري وأنا أقرأ تاريخ مصر الحديث هو عن مدى إلمام قادتها بالموقف الدولي، فإن الجهل به كان – فيما أعتقد – سبب وقوعهم في أخطاء كثيرة وإصابتهم بخيبة أمل من جنس واحد، مرة بعد مرة دون أن يتعظوا، لم يتمثل الجهل المطبق بالموقف الدولي كما تمثل في إبراهيم بك ومراد بك حينما ظهر أسطول نلسون أمام الشواطئ المصرية وأرسل إليهما يقول إنه يطارد أسطول نابليون الذي أبحر لغزو مصر، لم يسأل أحد من هو نابليون؟ ولماذا يريد غزو مصر؟ ولماذا تطارده حضرتك؟

قالا له إن مصر كنانة الله في أرضه وهي منيعة لأنها من بلاد الدولة العلية، حسباها زعقة أو كرشة بين اثنين من العصبجية لا شأن لمصر بهما، ومع أن مصلحة المماليك توحدت ومصلحة إنجلترا في صد عدوان فرنسا على مصر، فإن مراد بك وزميله لم يحاولا أن يلعبا ورقة نلسون ضد نابليون، كانا يجهلان

كل الجهل الصراع القائم بين إنجلترا وفرنسا، وعاد نلسون من حيث أتى دون أن يظفر بإنسان يفهم عنه، ليس في الجبرتي أي دليل على أن مصر أدركت أن سبب غزو نابليون لأرضها هو –قبل كل شيء- لكسر شكيمة إنجلترا في أوروبا والمحيطات كذلك لم ينطق نابليون للمصريين بكلمة واحدة تعينهم علي فهم الموقف الدولي ودور مصر فيه، لعله وجدهم دون مستوي الفهم، هناك كتب في التاريخ عنوانها (لو أن.....)، فمن الجائز أن يكون من بين فصولها محاولة الإجابة على السؤال الآتي: (ماذا كان سيحدث لو أن مراد بك وزميله سمحا لنلسون بانتظار نابليون أمام شواطئ مصر بحيث يتم تحطيم أسطول نابليون في موقعة أبو قير قبل الغزو لا بعده؟)، لك أن تتخيل ما تشاء فإني لا أحب هذه التخمينات لأنها سفسطة فارغة،من الخطأ إطلاق وصف (القادة) على إبراهيم بك ومراد بك، لم يكن كل منهما في حقيقة الأمر إلا شيخ منصر همه السلب والنهب وامتلاء جوفه وخزائنه، فليس بعجيب عليهما هذا الجهل المطبق بالموقف الدولي ودور مصر فيه.

ننتقل الآن إلى محمد علي، لا يمكن لعصامي مثله الجمع بين طغيان الشخصية وشدة الدهاء إلا أن يكون –رغم أميته- (رجل دولة) بالمعني الحديث لهذا التعبير، أراد من أول يوم أن يستأثر هو وأبناؤه بحكم مصر لأنه أحبها كما يحب الأكول البطني أكلة شهية، هي جنته في الأرض ينعم بها قبل أن يأذن له سيدنا رضوان بدخول جنة السماء، علمي علمك، فكان لابد له أن يفهم سياسة الباب العالي في استنبول وهي في ذاتها عقدة العقد، وأن يظل متسمعًا لكل همس يدور في سراي (خولمة باغجة) أو (يلديز) وعن طريق سياسة الباب العالي نفذ محمد علي إلي فهم الموقف الدولي في أوروبا، من الممكن الدفاع عن الرأي القائل أن محمد علي لم يفهم هذا الموقف الدولي

حق الفهم وأنه ظل حبيس أُفقه المحلي الدائر حول محور (رأس التين-خولمة باغجة) لعل السبب أن أطماعه كانت أقوى من ذكائه، والطمع يعمي ويصم

فقد أخطأ في تقدير أن أوروبا ستقف مكتوفة الأيدي تشهده ينشئ إمبراطورية عربية تغير على الدولة العثمانية فإما أن تحتلها وإما أن تقص جناحها على الأقل وتنتزع منها الخلافة، وأخطأ في تقدير مدى مساعدة فرنسا له حسبها أنها –وهي مرضعته- ستقف إلى جانبه على طول الخط، لم يفهم أن تركة الرجل المريض (الدولة العثمانية) معدة للتوزيع على دول أوروبا لا على بلاد أسيا وأفريقيا، كلها في نظر أوروبا بلاد نيام نيام، وأن أوروبا وإن اختلفت فهي متفقة على منع قيام دولة عظيمة في هذا الموقع الذي تحتله مصر.

فلما توغل إبراهيم باشا في الأناضول وأصبح قاب قوسين أو أدنى من استانبول اشتركت أوروبا –في مقدمتها فرنسا- في توجيه إنذارها لمحمد علي بالرجوع إلى جحره والانكماش فيه، وكان تحطيم أسطول مصر غدرًا في موقعة نافارين مثلًا آخر على اتحاد أوروبا وفي مقدمتها فرنسا على كبح جماح مصر.

من السهل ربط خيبة أمل محمد علي ببوادر إصابته بالجنون، لا شك أن الإنذار الأوروبي كان صدمة شديدة له، والجاهل لا العالم هو الذي يصاب بمثل هذه الصدمة حين يستيقظ على الحقيقة المرة التي كانت خافية عليه.

ومن الجائز الدفاع عن الرأي المضاد القائل أن محمد علي لم يكن غرًا حتى يتصور أنه يستطيع إقامة إمبراطورية بمشهد من أوروبا التفسير المعقول

لسياسته هو أنه أراد أن تكثر في يده أوراق اللعب ولو ضحى في سبيل ذلك بالجيوش والأساطيل كل هذه الأوراق لا تلزمه ولا يطمع في الربح منها إلا ورقة واحدة، وإنما لابد له أن يحتال لامتلاكها ليساوم بها فيتنازل عنها جميعًا من أجل استبقاء هذه الورقة الواحدة في يده، إنها ورقة استيلائه على عرش مصر حقًا له ولذريته من بعده، إذا كان محمد علي قد انسحب من الحجاز واليمن وسوريا والأناضول وإذا كان أسطوله قد تحطم فإن هذا كله كان الثمن الذي لابد من دفعه لحصوله على عرش مصر كان محمد علي يعلم هذا الثمن وكان مستعدًا لدفعه ومما يؤيد هذا الرأي أن مودته ومودة خلفائه من بعده لفرنسا لم تتغير رغم كل الذي فعلته.

وإذا جئنا لعرابي وجدناه هو أيضًا لسوء الحظ غير مُلم بالموقف الدولي الإلمام الواجب لرجل مثله يقود أمته وسط الأعاصير ليس هناك دليل قاطع على أنه فهم سياسة إنجلترا نحو قناة السويس وكيف تحولت من معارضتها إلى الطمع فيها ثم إلى اتخاذ العدة للاستيلاء عليها، لم يمد بصره إلى أوروبا ليعرف كيف تقف من إنجلترا إذا أزمعت غزو مصر منفردة، لم يحاول البحث عن نصير حتى لو حكم من أول الأمر أن لا نصير له،كان ينبغي أن يكون مُلمًا كل الإلمام بالموقف الداخلي في فرنسا ليزن بميزان صحيح قيمة وعد دي ليسبس له بأن انجلترا لن تخرق حياد القناة من أجل ذلك وقع في خطأ عسكري جسيم هو عدوله عن ردمها.

لم تجد إنجلترا في عرابي خصمًا ذا دهاء يجيد المناورة، بل رجلًا طيبًا يؤمن بأن الاعتداء جريمة وبأن الشجاعة تغلب المدفع، فلما وقعت النكبة فسرها بأنها من تصاريف القدر، ولم يتزلزل اعتقاده في أنه قام بواجبه في الدفاع

عن كرامة شعبه وحقوق بلاده، وإذا كانت حكمته موضع درس فإن إخلاصه فوق الشبهات.

وفي السنوات الأولى للاحتلال البريطاني نسيت مصر الدرس الذي تلقاه محمد علي ثم عرابي على يد فرنسا وتعلقت آمال بعض قادتها من جديد بهذه الصديقة التي تعد ثم تخلف بل قد تنحاز للعدو، حسب هؤلاء القادة أن الوعود المعسولة في الخطب الرنانة والاجتماعات الخاصة لها قيمة المعاهدات الرسمية.

أما الوفد المصري فقد أدرك من الموقف الدولي القدر الضئيل الذي يلزمه فلم يتلكأ في تحويل قضية مصر عن النطاق الدولي المأمول إلى علاقة ثنائية بينها وبين إنجلترا فشد الرحال إلى لندن للمفاوضة، بعد أن وجد جميع أبواب مؤتمر الصلح مغلقة في وجهه، بعض رسائله أعيدت إليه دون أن تُفتح.

وقد أصيبت مصر بخيبة أمل قاسية جاءت هذه المرة من أمريكا لا من فرنسا، هتفنا في المظاهرات إلى أن بحت الأصوات بحياة ويلسون وميثاقه المؤلف من 14 نقطة، من بينها نقطة تعترف بحق كل شعب في تقرير مصيره، فإذا بنا نعلم ذات يوم أن أمريكا اعترفت بالحماية البريطانية، إنني لا أنسى إلى اليوم سخونة وجهنا في ذلك اليوم من أثر تلك الصفعة، وقد كنا نكون في منجى من الإحساس بهذه الصفعة المؤلمة لو أن أحد بصرنا بحقيقة هامة كثيرًا ما غابت عن قادة أفريقيا وآسيا وهي أن القانون الدولي موضوع لمصلحة دول حضارة أوروبا الغربية وحدها، إن ويلسون حين نادى بحق كل شعب في تقرير مصيره كان لا يقصد شعوب آسيا وأفريقيا بل شعوب أوروبا - - إنه لم يخن مصر، بل مصر هي التي أساءت فهمه[41]

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع

موجز عام لجميع الدول والإمبراطوريات التي حكمت مصر على مر التاريخ

في هذا الفصل سنستعرض معًا جميع الدول التي حكمت مصر من الفراعنة إلى عصر أسرة محمد علي وهو ليس موضوع هذا الكتاب وإنما موضوع الكتاب هو أبرز القادة في تاريخ مصر لأن هناك العديد من الكتب التي أوردت حكام مصر على مر التاريخ مثل موسوعة حكام مصر للدكتور ناصر الأنصاري وكتاب هؤلاء حكموا مصر للأستاذ حمدي عثمان وغيرها من الكتب الإحصائية الممتعة، وبالتالي سيكون هذا الفصل مجرد فكرة عامة عن الدول التي خضعت مصر لحكمها سواء قامت في مصر أو كانت مصر ولاية تابعة لها.

لم يحكم المصريون مصر لمدة 2294 سنة:

يعرف الكثيرون أن المصريين قد استعادوا حكم مصر بعد ثورة يوليو سنة 1952م وبالتحديد بعد حوالي سنة كاملة من قيام الثورة حيث تم إنهاء حكم أسرة محمد علي وإعلان الجمهورية سنة 1953 م

ولكن قد لا يعرف البعض متى كانت آخر مرة حكم فيها المصريون مصر قبل هذا التاريخ، ويمكن اعتبار أن الملك نقطانب الثاني (نختنبو الثاني) هو آخر حاكم مصري حكم مصر، وهو آخر ملك من ملوك الأسرة الثلاثين الفرعونية التي تعتبر آخر أسرة فرعونية في التاريخ المصري، وقد انتهي حكم هذا

الفرعون الأخير على يد الفرس حوالي سنة 341 قبل الميلاد[42]، وليس معنى هذا أن العصر الفرعوني نفسه كان خاليًا من الحكام الغير مصريين فقد حكم مصر خلال العصر الفرعوني على فترات متباعدة الهكسوس والليبيون والنوبيون والآشوريون والفرس سواء بالاحتلال المباشر أو بالهجرات السلمية الكثيفة ولكن كان المصريون يحررون مصر ويعودون للحكم في كل مرة خلال العصر الفرعوني، ولكن الذي طرد الفرس عندما أعادوا احتلال مصر لم يكن المصريين هذه المرة، بل طردهم الإسكندر المقدوني الشهير حوالي سنة 332 ق م وتلاه في حكم مصر أسرة البطالمة ثم تبع البطالمة الاحتلال الروماني لمصر سنة 30 قبل الميلاد ثم تعرضت مصر لغزو فارسي في أواخر حكم الرومان سنة 618 م ثم استعادها الرومان مرة أخرى سنة 627م، إلى أن تم فتح مصر سنة 640م أثناء الاحتلال الروماني لها، وكان فتح مصر في عهد دولة الراشدين ثم تلتها الدولة الأموية فالعباسية ثم تأسست في مصر الدولة الطولونية سنة 868م ثم الإخشيدية سنة 935م ثم حكم مصر الفاطميون سنة 969م وتلاهم الأيوبيون سنة 1171م، ثم دولة المماليك البحرية سنة 1250م ثم المماليك البرجية سنة 1382م، ثم الحكم العثماني لمصر سنة 1517م ثم جاءت الحملة الفرنسية سنة 1798م لمدة ثلاث سنوات، ثم حكم مصر محمد علي باشا وأسرته من سنة 1805م وقد قامت بريطانيا باحتلال مصر خلال عصر أسرة محمد علي حوالي سبعين سنة من سنة 1882م، ثم انتهى حكم أسرة محمد علي بعد قيام ثورة يوليو 1952، وبالتالي لم يجلس على عرش مصر حاكم مصري منذ عهد نقطانب الثاني إلا بعد قيام ثورة يوليو، أي منذ سنة 341 قبل الميلاد إلي سنة 1953 م وبالتالي تكون المدة بالكامل 2294 سنة كاملة

ملاحظات على حكام مصر: أولًا جميع تواريخ العصر الفرعوني تقريبية وغير مؤكدة، وفترة حكم الروم تنقسم إلى فترتين دولة عاصمتها روما والدولة الثانية بيزنطة- القسطنطينية وتسمى الدولة البيزنطية، أما الفترات المكتوبة بجوار كل دولة فهي فترات سيطرتها على مصر بشكل خاص وليس فترات استمرارها كدولة بشكل عام فمثلًا دولة الراشدين حكمت مصر من عهد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وليس من بدايتها.

لماذا لم يحكم المصريون مصر كل هذه الفترة؟:

يجب أن نتوقف قليلًا لنعرف رأي المؤرخ الكبير جمال بدوي حيث يتساءل ويقول (هل صحيح أن المصريين خانعون أذلاء يصفقون لكل طاغية ويهللون لكل مستبد ولا يميلون إلى مقاومة الظالمين ويتركون هذه المهمة إلى القوي الغيبية إلي أن تدركهم رحمة السماء؟)[43] ويجيب الأستاذ جمال بدوي علي هذا التساؤل بأن هذه التهمة لا أساس لها من الصحة بل أشاعها عن المصريين الاستعمار ونشرها وروج لها كتاب الغرب الموالين لبلادهم وحكوماتهم ويقول أيضاً (والقارئ المدقق للتاريخ يكتشف أن المصريين لم يكفوا عن مقاومة الظالمين، ولم يقصروا في مقاومة الغزاة – ثورات كثيرة قامت في العصور الفرعونية المتأخرة عندما وقعت مصر تحت حكم أجانب تسللوا إليها عن طريق الهجرة والإستيطان ثم انقضوا عليها عندما حرموا على أبناء البلاد دخول الجيش وجعلوه مقصورًا على المرتزقة الأجانب – ماذا تنتظر من شعب أعزل يتكون جيشه من المرتزقة والمغامرين الذين لا تربطهم بالبلاد حمية الإنتماء أو صلة الدم أو اللغة أو الدين؟ وسيظل حكام مصر منذ الإغريق والرومان والعرب والترك والشركس يحرصون على إبعاد المصريين عن

الجيش إلى أن يأمر محمد علي فيكسر القاعدة[44])[45]، ومن أفضل الأمثلة على حرص القادة الغرباء على تحريم التجنيد على المصريين ما حدث في معركة رفح في عصر البطالمة فهذه المعركة قد ألهبت حماس المصريين وبث فيهم الروح مرة أخري وهي قصة تستحق أن تروي وتبدأ القصة بحرص حكام مصر في بداية عصر البطالمة علي عدم تجنيد المصريين في جيش دولتهم، فكان اعتمادهم على المقدونيين والإغريق (اليونانيين) فقط في الحروب، وكانوا يكتفون من المصريين بخدمة الجيش البطلمي من الناحية الإدارية فقط ونقل ما يحتاجه أثناء الحروب

وكان مغزى ذلك واضحًا، حيث أن ابتعاد المصريين عن القتال بشكل عام يفقدهم روح المقاومة، ونجح بطليموس الأول وتلاه بطليموس الثاني في تكوين جيش بطلمي قوي بدون مصريين واستطاعا تحقيق جميع أهداف دولة البطالمة باستخدام هذا الجيش، وعندما جلس على عرش مصر بطليموس الثالث لم يكن يعتمد على القتال في تحقيق أهدافه حيث كان داهية سياسية وكان أعداءه في الخارج مشغولين بالمشاكل والثورات الداخلية في بلادهم والتي كانت تحدث بسببه هو شخصيًا، ويقول عنه د سيد الناصري (وبذلك نجح بطليموس الثالث عن طريق الذكاء والدبلوماسية أن يحفظ توازن القوى وهو جالس في قصره بالإسكندرية لكنه حرص في نفس الوقت علي دعم مركزه في الداخل أي عند المصريين ويعتبر بطليموس الثالث من أعظم البطالمة اعتدالًا واتزانًا)[46] وبعد وفاة الملك بطليموس الثالث تولي ابنه بطليموس الرابع فيلوباتور وقد حكم مصر ما يقرب من 16 سنة أي من حوالي سنة 221 قبل الميلاد إلى سنة 205 قبل الميلاد ويعتبر عهده بداية النهاية لدولة البطالمة، وكانت الممالك الإغريقية الأخرى تتطلع للنيل من الإمبراطورية

المصرية البطلمية وخاصة مملكة السليوكيين بآسيا الصغري، ففي عهد بطليموس الرابع تقدمت جيوش الدولة السليوكية نحو الشام واستطاعت إخضاع سوريا وفلسطين وأصبحت تدق أبواب مصر نفسها، و كان الجيش البطالمي في حالة يرثى لها عندما وصل بطليموس الرابع للحكم، وذلك لأن بطليموس الثالث أهمله بعض الشيء لاعتماده على الدبلوماسية التي حقق بها ما يمكن تحقيقه بالجيوش، وبالتالي اضطر بطليموس الرابع أن يجند حوالي عشرين ألف مقاتل مصري مع الجنود الإغريق ليدافع عن ملكه، وحدثت المعركة الشهيرة في التاريخ باسم معركة رفح سنة 217 ق م، التي أبرزت معدن ابن وادي النيل بالانتصار الساحق على القوات السليوكية، الأمر الذي جعل الملك السليوكي يعترف بالسيادة المصرية علي سوريا، وذلك نصر اشتاقت إليه نفوس المصريين منذ أيام الفراعنة، فمنذ ذلك التاريخ حدثت الصحوة الكبرى للمصرييين في عصر البطالمة، وبالتالي واجه البطالمة بعد ذلك ثورات عنيفة في البلاد لم تكن لتحدث قبل تجنيد المصريين، وكأنه كما يقال في الأمثال الشعبية قام بتحضير عفريت ولم يتمكن من صرفه، وهذه القصة توضح مدى خطورة تجنيد المصريين بالنسبة للحكام الغرباء عن مصر فهي مغامرة كبرى ولكن قد يضطر إليها الحاكم في ظروف خاصة جدًا

تأملات في صراع الدول الكبري في المنطقة وعلاقة مصر بهذا الصراع:

سنبدأ في استعراض هذا الصراع، مع تلخيص سريع جدًا، وبدون الخوض في التفاصيل لنحاول معرفة دور مصر في هذا الصراع سواء كان لها دور إيجابي أو دور سلبي أو بتعبير آخر فاعل أم مفعول به.

وقد بدأ هذا الصراع تقريبًا منذ أيام الفراعنة علي المنطقة التي تسمى حاليًا منطقة الشرق الأوسط أو العالم القديم في ذلك الوقت، وكانت الإمبراطورية المصرية الضخمة التي أسسها الملك تحتمس الثالث حوالي سنة 1458 ق م[47] في الأسرة 18 كانت أول إمبراطورية في المنطقة، وتغلب العنصر المصري على باقي العناصر في العالم القديم، وأصبح المصريون هم سادة العالم في زمن تحتمس الثالث، وعلى فكرة قد تكون كلمة الشرق الأوسط غير متداولة بعد ذلك طبقًا لتوزيع مراكز الثقل في العالم فالقوى العظمي هي التي تحدد الجغرافيا وتحدد الشرق والغرب ويتم انتساب أي موقع في العالم بالنسبة لمكان أكبر قوة في العالم، ففي زمن تحتمس الثالث لم تكن مصر شرق أوسط، ولكن حاليًا عندما تكون أكبر قوة في العالم في أقصى الغرب، فلابد أن يتحول العالم كله إلى شرق فنقول شرق وشرق أقصى وشرق أدنى وشرق أوسط، كما لو جاء شخص مهم جدًا ودخل وجلس في دار عرض مسرحي، وجلس على أحد الأجناب، فسوف يذكر كل شخص في هذه القاعة مكانه بالنسبة للشخصية المهمة فيقول أنا كنت أجلس خلفه ويقول الآخر أنا كنت أجلس على يمينه بمسافة كذا، ولن ينسب أحد مكانه إلى خشبة المسرح وهو المكان الطبيعي الذي يجب أن نصف موقعنا بالنسبه له، فالقوة العظمي وحدها هي التي تحدد الجغرافيا بل والتاريخ أيضًا فالعصور التي تسميها بعض الدول بالعصور الوسطي كانت بالنسبة لدول أخرى أزهي العصور ولكن عندما تكون عصور وسطى للكبار فلابد أن تكون كذلك رغم أنف الصغار، والقوى العظمى تحدد أيضًا القانون ومن يخالفها لا يخالف القوى العظمى و إنما يخالف القانون

فكان المصريون أيام تحتمس الثالث يسيطرون علي كل شيء تقريبًا وكان النفوذ المصري في مناطق عديدة في العالم سواء بشكل مباشر واحتلال عسكري نافذ أو بشكل غير مباشر بتقديم هدايا للفرعون من الدول المختلفة حتي لا يطالها غضبه ويصل إليها جيشه وكانت طيبة في زمنه عاصمة للعالم القديم، تتدفق إليها كل خيرات العالم وسوف نذكر ذلك إن شاء الله عند الحديث عن الملك تحتمس الثالث كواحد من أبرز القادة.

تعاقب القوي العظمي بعد الإمبراطورية المصرية:

وتحولت مصر إلى ولاية تابعة للفرس عندما أصبحت الدولة الفارسية أقوى دولة في العالم بظهور الملك قورش العظيم ومن بعده الملك قمبيز وهكذا تحول الفرس إلى سادة العالم وتغلب العنصر الفارسي على باقي العناصر كما كانت أيام المصريين في زمن تحتمس الثالث وقد أسس الفرس في مصر أسرة حاكمة جديدة وهي الأسرة السابعة والعشرين من سنة 525 ق م إلى سنة 404 ق م[48] واستمرت الدولة الفارسية تسيطر على العالم القديم وتفرض هيمنتها إلى أن ظهر على مسرح الأحداث الملك فيليب المقدوني الذي تحالف مع الإغريق لإسقاط الدولة الفارسية ومن بعده ابنه الإسكندر الأكبر الشهير الذي استطاع بالفعل القضاء على دولة الفرس وأسس دولته وانتشرت الحضارة الإغريقية في العالم وفرضت هيمنتها وأصبح هناك سادة جدد للعالم بفكر وحضارة خاصة بهم وأصبحوا يحددون القانون أي أصبحوا هم القانون وقد انتهت دولة الإسكندر بوفاته فلم يتمكن من تأسيس دولة تستمر لذريته من بعده ولكن استمرت الحضارة الإغريقية مسيطرة وحكم مصر البطالمة من بعده فأصبحت دولة الإسكندر والبطالمة حلقة من حلقات تاريخ

مصر وحكم مصر البطالمة من سنة 333 ق م تقريبًا وإلي سنة 30 ق م وهو التاريخ الذي تحولت فيه مصر إلى ولاية رومانية عندما دخلها الإمبراطور الروماني أوكتافيوس أغسطس منتصراً سنة 30 قبل الميلاد وكان الرومان قد سيطروا علي العالم وأصبحوا قوة لا يستهان بها في العالم، وهكذا أصبح الرومان هم سادة العالم وأصبحت روما هي التي تضع القانون ويتدفق إليها القمح المصري بل يتدفق إليها خيرات العالم إلى أن صعدت مرة أخرى دولة الفرس على مسرح الأحداث في العالم ونافست دولة الروم وكان الفرس والروم أقوى دولتين في العالم، وكان بينهما صراع مسلح وحروب طاحنة وكانت مصر ضحية دائمًا وسط هذا الصراع وحدث أن انتصر الفرس على الروم وسيطروا على مصر لفترة من الزمن ثم استعادها الروم مرة أخرى[49]، واستمر الصراع في المنطقة بين القوي العظمي كما ذكرت وكان الصراع يتسم بغلبة أحد العناصر على باقي العناصر، وعندما يتغلب عنصر على عنصر يكون هو السيد والآخر هو العبد وكان هذا المنطق هو السائد، فمرة يكون المصريون هم الأسياد ومرة يكون الفرس ومرة يكون الإغريق ومرة يكون الروم وهكذا فيخضع الجميع للعنصر الغالب الذي يتحكم في كل شيء طبقًا لرؤيته وفكره وحضارته، ومن المستحيل أن يتحول العبد إلى سيد، فمثلًا إذا كان الروم يحكمون مصر فليس من الممكن أن يتناول المصري عقاقير طبية معينة وينتظر قليلًا فيجد نفسه قد تحول إلي مواطن روماني، هذا مستحيل فهو عبد للرومان مهما فعل كما كان سيد العالم القديم أيام تحتمس الثالث عندما كانت القومية المصرية تسيطر علي باقي القوميات في العالم، ثم تتابعت القوميات المسيطرة إلى أن تزعمت القومية الرومانية والقومية الفارسية العالم كله.

العرب لم يؤسسوا دولة عربية:

ظل الوضع في العالم كما ذكرت إلى أن ظهر الإسلام في بلاد العرب وظهرت قومية جديدة لم تكن معروفة من قبل ذابت فيها جميع القوميات وهي القومية الإسلامية فكان في جيوش المسلمين صهيب الرومي وخالد العربي وبلال الحبشي وسلمان الفارسي، فأتاحت الدولة الإسلامية لجميع الجنسيات الفرصة لتصدر المشهد في الدولة، لأن العرب لم يؤسسوا دولة عربية، ولم يكن الموضوع غلبة عنصر على عنصر، فلم يصبح العنصر العربي هو العنصر الغالب بل قام بتأسيس الدولة فقط وتصدر العرب المشهد بها لفترة من الزمن ثم أزاح العرب عن الصدارة جنسيات أخرى تصدرت العالم الإسلامي، فنجد سلاطين وقادة وملوك ووزراء وعلماء غير عرب يتصدرون المشهد في الدولة كصلاح الدين الأيوبي وباقي سلاطين الأكراد وأحمد ابن طولون وأبو بكر الإخشيد وسيف الدين قطز والظاهر بيبرس وقلاوون وباقي سلاطين المماليك ومحمد الفاتح وسليم الأول وباقي السلاطين الأتراك ومحمد علي باشا وغيره من الجنسيات المختلفة، لذلك نجد العديد من الدول والقوى العظمى تأسست في ظل الدولة الإسلامية التي تجمعها القومية الإسلامية فقط، بل تتكون هذه الدولة من العديد والعديد من القوميات المختلفة التي اندمجت في القومية الإسلامية وكانت الدول الإسلامية تسقط بعضها بعضًا منذ الدولة الأموية والعباسية وهكذا، فكانت تأتي دولة جديدة على أنقاض الدولة السابقة لها ولكن على نفس الأسس ونفس القومية، فكانت الدولة الجديدة عادةً تشعر أنها تستطيع تحمل مسئولية العالم الإسلامي بشكل أفضل من الدولة القائمة، فمثلًا قامت دولة المماليك البحرية بعد الدولة الأيوبية، ثم قامت دولة المماليك البرجية، وعندما شعرت الدولة

العثمانية أن دولة المماليك في طريقها للانهيار ودب فيها الفساد ولم تعد قادرة علي تحمل مسئولية العالم الإسلامي قامت الدولة العثمانية بالقضاء عليها وسيطرت علي العالم الإسلامي، بل إن محمد علي باشا شعر بنفس الشيء بعد ذلك وقرر القضاء على الدولة العثمانية ليتولي هو قيادة العالم الإسلامي ليصبح حلقة من حلقات تاريخ الدولة الإسلامية ولكن حدث شيء آخر

بريطانيا العظمي وفرنسا واتفاقية سايكس بيكو:

عندما ظهرت قوة بريطانيا وفرنسا علي مسرح الأحداث في العالم كانوا يتعاملون معًا بغباء شديد ودخلوا في صراع مسلح إلي أن اكتشفوا شيئًا أفضل وهو أن يتعاونا معًا ضد الدولة العثمانية التي كانت قد ورثت كل الدول الإسلامية السابقة فكانت آخر دولة إسلامية كبرى في المنطقة مرهوبة الجانب ولكن كان قد دبَّ فيها الضعف والفساد وكان الطبيعي هو أن يقضي عليها محمد علي باشا ليتكرر كان يحدث من قبل وتأتي دولة محمد علي قوية ناهضة فتية وتقود العالم الإسلامي وتتحمل مسئوليته وترث كل الدول السابقة ولكن هذا لم يحدث فقد قررت كل من بريطانيا وفرنسا دعم محمد علي ليكسر شوكة الدولة العثمانية ثم وقفوا بجوار الدولة العثمانية ضد محمد علي فقد كان أمامهم دولتان تحملان القومية الإسلامية دولة محمد علي الناهضة والدولة العثمانية التي تحمل أسباب السقوط وتمضي نحوه فقرروا الوقوف مع الدولة العجوز ضد الدولة الشابة إذا جاز التعبير حتى لا يظهر مارد جديد في المنطقة كما ظهر من قبل على مر التاريخ في صورة دول إسلامية قوية لا تسمح لهم بالاقتراب من المنطقة وكانت كل محاولات الاقتراب

تفشل عندما تصطدم بالقومية الإسلامية، فقامت كل من بريطانيا وفرنسا بتفتيت الدولة العثمانية إلى عدة قوميات وساعدت كل قومية على حدا وقامت بتنميتها وكان أهم ثلاث قوميات في الدولة العثمانية هي القومية التركية والقومية المصرية والقومية العربية، وحتى لا يختلفا معًا على تقسيم الخريطة العثمانية بعد القضاء عليها اتفقتا على توزيع الغنائم قبل الحصول عليها.

ومن هنا كانت اتفاقية سايكس بيكو والتي بمقتضاها تمَّ رسم خريطة ذات حدود جديدة للمنطقة وهكذا دخلت المنطقة تحت قيادة سادة جدد وفرضت المصالح البريطانية والفرنسية نفسها على منطقة الشرق الأوسط وانتشرت القوات البريطانية والفرنسية بدلًا من القوات العثمانية وعندما قامت الثورة العرابية في مصر قام الإنجليز بالتدخل لصالح الخديوي توفيق وتم القبض على الزعيم أحمد عرابي قائد الثورة والتنكيل برجالها وتخيل توفيق أنه بذلك حافظ على عرشه وعرش أسرة محمد علي باشا الكبير ولكنه سرعان ما اكتشف أنه قد فقد السيطرة على البلاد وأصبح المندوب السامي البريطاني هو كل شيء في مصر.

استقلال مصر عن الخلافة ووضعها تحت الحماية البريطانية:

ثم قامت بريطانيا بعد ذلك بفصل مصر عن الدولة العثمانية بإعلان حاكم مصر من أسرة محمد علي سلطانًا بدلًا من لقب خديوي وهو السلطان حسين كامل وتمَّ عزل الخديوي عباس حلمي الثاني الوالي الأخير والطريف أن عباس حلمي هو آخر والي تابع لخليفة حكم مصر فإذا كان عمرو بن العاص هو أول والي تابع لخليفة حكم مصر فإن عباس حلمي الثاني هو

الوالي الأخير وبذلك ولأول مرة منذ فتح مصر تستقل مصر تمامًا عن الخلافة، وحتى عندما استقل بها ابن طولون والإخشيد كانت تابعة ولو بشكل رمزي للخلافة، وقد يقول القائل ما الفرق فمصر في الحالتين تحت الاحتلال البريطاني سواء كان حاكمها خديوي أو حاكمها سلطان، ولكن هناك فرق كبير بين أن تغتصب غرفة ضمن وحدة سكنية وأن تحول هذه الغرفة إلى وحدة سكنية مستقلة ذات باب مستقل ومطبخ وحمام فأنت عندما تغادرها وستغادرها بالتأكيد في يوم من الأيام ستصبحان وحدتان مستقلتان ولن تعود وحدة واحدة إلى أن يشاء الله، ثم قامت ثورة 1919 ضد الاحتلال البريطاني وتواصل الكفاح ضد الإنجليز سواء على المستوى السياسي بزعامة سعد باشا زغلول أو على مستوى المقاومة الشعبية التي كان لها تأثير أقوى بكثير من تأثير النشاط السياسي فقد أفقدت المقاومة توازن الإنجليز وجعلتهم ينتظرون الموت عند كل ناصية وقد وضح الدكتور حسين مؤنس دور المقاومة الشعبية وقارن بين تأثيرها وتأثير العمل السياسي في كتابه الممتع دراسات في ثورة 1919 فوجد أنها كانت أشد تأثيرًا مما جعل الإنجليز يُصدِرون من جانب واحد ما يسمى بتصريح 28 فبراير سنة 1922 الذي أعطى مصر بعض امتيازات الحكم مع ضمان احتفاظ بريطانيا بمصالحها وقامت بتحميل الحكومة المصرية مسئولية الأمن الداخلي لتصبح المواجهة بين المصريين بعضهم مع بعض ويأمن الإنجليز على حياتهم حتى أنهم انسحبوا من جميع المدن المصرية واستقروا في قاعدة عسكرية كبيرة في منطقة قناة السويس بعد معاهدة سنة 1936 ولكن لم ينعموا بالأمان هناك أيضًا حيث واصل الفدائيون أعمال الهجوم على المعسكرات البريطانية في منطقة القناة حتى أن الإنجليز قاموا بطرد الشرطة المصرية من هناك لإحساسهم

بأنها لا تقوم بدورها ضد الأعمال الفدائية وكانت وقعة 25يناير 1952 التي أصبحت عيدًا للشرطة المصرية بعد ذلك، واستمرت المنطقة بكل ما فيها من خيرات وموارد تخدم المصالح البريطانية الفرنسية ومن في ركابهما إلى أن حاولت دول أخرى السيطرة على الأمور في العالم فكانت الحرب العالمية الثانية التي أسفرت عن تراجع دور قوى عظمى وصعود دور قوى عظمى جديدة.

اختلال ميزان القوي في العالم:

بريطانيا أيام توفيق تختلف عن بريطانيا أيام فاروق، تعتبر هذه العبارة إيجاز وتعبير عما حدث في هذه المرحلة من تاريخ مصر فقد تراجع دور بريطانيا وفرنسا بعد الحرب العالمية الثانية وصعدت قوى جديدة هي الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي، وعندما قامت حركة الجيش المصري في يوليو سنة 1952 (ثورة يوليو) حاول الملك فاروق أن يستعين بالقوات البريطانية لإحباطها كما هو مدرج بالوثائق البريطانية التي تم الإفراج عنها مؤخرًا ونشرها الكاتب الكبير محسن محمد في كتابه الممتع سقط النظام في أربعة أيام ثورة يوليو بالوثائق السرية، ومن هذا الكتاب يتضح أن الولايات المتحدة الأمريكية رفضت تدخل بريطانيا لإحباط حركة الجيش المصري في يوليو 1952 في إشارة واضحة إلى انتهاء دور بريطانيا في المنطقة وبمرور الوقت بدأ انسحاب القوات البريطانية والفرنسية من منطقة الشرق الأوسط وكان فشل العدوان الثلاثي سنة 1956 أكبر دليل على تراجع دور بريطانيا وفرنسا فقد كانت آخر محاولة للتدخل في المنطقة عسكريًا حيث أدرك الجميع أن للعالم سادة جدد فما فعله توفيق مع الثورة العرابية لم يتمكن فاروق أن

يفعله مع ثورة يوليو لأن بريطانيا أيام توفيق تختلف تمامًا عن بريطانيا أيام فاروق فكان اختلال ميزان القوى في العالم من أهم عوامل نجاح ثورة يوليو 1952.

عدم الانحياز:

ولكن لم تفعل القوتان الجديدتان ما فعلته بريطانيا وفرنسا فلم يحدث اتفاق بينهما ودخلا فيما يسمى بالحرب الباردة وكان على كل الدول أن تحدد موقفها هل ستقف مع المعسكر الشرقي أم المعسكر الغربي وهنا تم تأسيس حركة عدم الانحياز التي كان للزعيم المصري جمال عبد الناصر الدور الأساسي في تأسيسها حتى لا يؤثر هذا الصراع بين الكبار على الدول الصغيرة، وربما كان هذا الخلاف بين الكبار في صالح باقي الدول حيث انشغلت القوى العظمى بعضها ببعض فكانت فرصة ذهبية للدول الأخرى للنهوض والتفرغ للبناء كما فعلت ألمانيا واليابان ودول شرق آسيا والهند وباكستان وغيرهم فقد استغلوا الحرب الباردة وصراع القوى العظمى لمصلحة أوطانهم فقاموا ببناء الإنسان وتعليمه ومن ثم بناء الدول والارتقاء بها، ولا شك أن اتفاق القوى العظمى يؤثر بالسلب على الدول الصغيرة كما حدث بين بريطانيا وفرنسا من قبل عندما وقعتا اتفاقية سايكس بيكو الشهيرة، أما عندما اختلفت القوتان الجديدتان كان هذا متسع لباقي الدول للنهوض وإعادة البناء بل والحروب أيضًا فيما بينها في وجود توازن دولي يحفظ ميزان القوي فتجد كل قوة عظمى منهما تدعم بشكل أو آخر إحدى الدولتين المتحاربتين لمجرد أن القوة العظمى الأخرى تدعم الطرف الآخر لحفظ التوازن في القوى، والاحتفاظ بالهيمنة والسيطرة وفرض المصالح،

فإذا انهارت إحدى هاتين القوتين فلن يكون هناك معنى لعدم الانحياز ولن تتمكن أي دولة صغيرة من تحقيق مصالحها الخاصة فسوف يرتبط مصيرها بمصالح القوة العظمى الوحيدة في العالم.

ولمزيد من توضيح معني تبادل الأدوار في العالم الإسلامي وتعدد الدول التي قامت على نفس مبادئ الدول السابقة لها إلى أن سقطت آخر دولة إسلامية وهي الدولة العثمانية ومنع قيام من يحل محلها وهي دولة محمد علي، سنلقي نظرة على ما كتبه د جمال حمدان علي ما أسماه السيولة السياسية.

السيولة السياسية في تاريخ العالم الإسلامي وخصائص شخصية مصر الاستراتيجية الكامنة:

وإليك بعض ما كتب د جمال حمدان عن هذا الموضوع:

(فرغم أن مصر ستفقد استقلالها مرات طوالًا في العصور الوسطى لإمبراطوريات أو خلافات واسعة، فكثيرًا ما سنجابه بها تتحرك في الميدان الدولي كقوة لها وزنها الخاص، ولا ينقصها الحكم الذاتي، أو قد تفقد استقلالها لأسرة حاكمة أجنبية، ولكنها من داخل تلك الأسرة تتصرف كدولة مستقلة دولة داخل الدولة كما قد نقول وتبرز فيها من جديد خصائص شخصيتها الاستراتيجية الكامنة ولا مفر لنا لهذا من أن نعد مسألة السيادة أو التبعية في تاريخ مصر الإسلامية مسألة نسبية أو خاصة تستلزم الاستدراك أو التحفظ في الحكم.

والواقع أن العصر الإسلامي الوسيط عمومًا يمتاز سياسيًا بخاصية فريدة، بدونها قد نخطئ فهم الخريطة السياسية كلها، تلك هي " السيولة السياسية " غير العادية فلقد كان العصر عصر الدين، عصر القومية الدينية، وكان الإسلام هو العقيدة والعصبية، والجنس والجنسية، والوطن والوطنية جميعًا، وكان روح العصر أن ينتقل المسلمون بحرية وبلا قيود داخل دار الإسلام أو الكومونولث الإسلامي، كذلك غلبت فكرة الوطن المحلي على الوطن الإقليمي فكان المسلم ينسب إلى بلدته أكثر مما ينسب إلى بلده، فيقال البغدادي، أو البصري أو السامرائي ولا يقال العراقي، ويقال الدمشقي أو الحلبي أو الطرابلسي، أو المقدسي ولا يقال السوري، والقاهري أو السكندري لا المصري، والقابسي، الوهراني، والفاسي، لا المغربي وهكذا.

أما من الناحية السياسية فلم تكن الوحدات الجغرافية الإقليمية بنواتها الطبيعية المحددة، ولا كانت فكرة الوطن والوطنية بمعنى القومية الحديث والولاء الضيق، ظاهرة متبلورة أو جامدة، بل كانت غير واضحة متميعة داخل فكرة الوطن الإسلامي الكبير ومتداخلة معها بصورة شبه هلامية، بالتالي كان العالم الإسلامي وعاء ضخمًا أو هيكلًا أخيرًا تقوم فيه الدول المختلفة وتتعدد، وتتنافس وتتصارع، ولكنها أساسًا تقوم على أصل أو أساس شخصي أو أسري بحت – أي حكومة عائلة بعينها- أو حاكم بعينه في الاعتبار الأول، ولقد تستقر على نواة إقليم جغرافي كامل، أو محدد بعينه أو أكثر ولكنها ممكن دائمًا أن تنتقل أو تتمدد إلى أيما أبعاد أقليمية جغرافية يستطيع أن تصل إليها نفس تلك الأسرة الحاكمة بلا تحديد سوى قوتها السياسية وطاقتها التوسعية، وبلا أي عائق أو حرج قومي ما بقيت في إطار الوطن الإسلامي الكبير نفسه، بعبارة أخرى للدول السياسية الإسلامية أبعاد أو مستويات ثلاثة تتداخل وتترجرج

بسهولة وبلا تحديد واضح فهي على المستوى القاعدي حكومات شخصية، ودول شخصية، وإمبراطوريات شخصية ابتداء وانتهاء، وهي على المستوي الجغرافي لا ترتبط بنواة إقليمية إلا عشوائيًا وكما اتفق، وهي على المستوى الأعلى والنهائي لا ترتبط إلا بحدود العالم الإسلامي الكبير نفسه، أخيرًا إنها باختصار شديد دول شخصية لا جغرافية، من هنا كان الحكام يتحركون من قطر إلى قطر أو يفتحون أو يضمون قطرًا من قطر دون حساسيات إقليمية أو قومية حادة ودون أي مدلول أو محمول استعماري. الاستثناء الوحيد – وبعنف وضراوة عند ذلك – كان في حالة الكفار من وثنيين أو غير مسلمين كالتتار والصليبيين ويبدو أن الظاهرة نفسها وبرمتها كانت تسود داخل أوروبا المسيحية المعاصرة حيث كان الجرمان يحكمون في إيطاليا أو إنجلترا، أو الفرنسيون في ألمانيا، أو الأسبان في هولندا... إلخ، ليس هذا فحسب، الأكثر منه، وما قد يبدو لنا اليوم الأغرب، أن هذه الدول، تمامًا مثلما سلم البطالسة أنفسهم من قبل للرومان، كثيرًا ما كانت تسلم نفسها بنفسها لبعضها البعض، ربما بكثير من الصراع السياسي والصدام العسكري، ولكن بغير حساسيات قومية حادة تستثار أو تتراكم، وبلا نعرات إقليمية تثلم أو تمتهن[50]، وإنما الأقوي والأقدر على المحافظة على الإسلام والعصبية الإسلامية في وجه الخطر الأجنبي، أي الكفار "كالتتار والصليبيين" هو ببساطة الذي يُدال إليه وربما يُستدعى استدعاء من جانب المُدال منه لكي يقوم بالمهمة المقدسة التي تعلو على الطرفين جميعًا)[51]، وهكذا ببساطة شديدة لخص د/ جمال حمدان في أسلوب رائع معنى السيولة السياسية التي كان يتَّسم بها العالم الإسلامي في ذلك الوقت، وكيف قامت دول عديدة في ظل هذا العالم الكبير وجدير بالذكر أن مصر كانت من أهم الأقاليم التي تأسست بها عدة دول

كبرى في ظل الخلافة الإسلامية كالدولة الطولونية والإخشيدية والمملوكية وكانت لها استقلال سياسي عن الخلافة وهي تابعة له في نفس الوقت ولكي نتعرف أكثر على مفهوم الاستقلال في العالم الإسلامي في ذلك الوقت سننتقل إلى توضيح الدكتور محمود الحويري في كتابه الممتع مصر في العصور الوسطى.

الاستقلال في المصطلح الإسلامي:

ويوضح الدكتور محمود الحويري مفهوم هذا النوع من الاستقلال فيقول (الواقع أن الاستقلال في المصطلح الإسلامي يختلف عما نفهمه في الوقت الحاضر من تحقيق السيادة الخارجية، بمعنى ألا يكون على الدولة نفوذ غير نفوذ أبنائها، وأن هذا الاستقلال لا يشوبه أي تدخل في شئون الدولة الداخلية أو أي قيد على مكانتها في المجتمع الدولي، أما في العصور الوسطى، فإن العالم الإسلامي كان يؤلف وحدة روحية ووحدة سياسية برئاسة الخليفة إمام المسلمين، وكان الناس لا يعترفون بحكم لا يعترف به خليفة، ولا ينظرون إلى من يغفل أمر الخلافة إلا نظرتهم إلى الخوارج الذين يشذون عن رأي الجماعة، وللوالي أن يعطي نفسه من السلطات الداخلية ما طاب له، وله أن يورث الحكم لأولاده على الصورة التي يراها، وليس عليه إلا أن يعترف بالخليفة إمامًا للمسلمين ويعترف به الخليفة حاكمًا شرعيًا على البلاد التي يحوزها، ومن هنا ينبغي أن نضع في الاعتبار أنه لم يكن من الممكن أن يستقل أحمد بن طولون بمصر نهائيًا عن الخلافة العباسية، وبمعنى آخر كان ظهور الدولة الطولونية في مصر يمثل انتقالاً من عصر التبعية المطلقة إلى عصر الاستقلال بالصورة التي عرفناها)[52]، ومن ثم لم يعد للخليفة العباسي

أي نفوذ سياسي في مصر فيما عدا أنها اكتفت بذكر اسمه في الخطبة ونقشه على السكة، كما دأبت مصر على إرسال جزء من الخراج إلى بغداد عن طواعية، تعبيرًا عن انتمائها الديني للإسلام الذي يجسده الخليفة من ناحية، وكدليل ارتباط تقوم عليه وحدة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها كانت جميع الدول المستقلة في العالم الإسلامي تحرص عليه من ناحية أخرى[53]

أخلاق الشعوب وأخلاق الدول:

هل هناك فرق بين أخلاق الشعوب وأخلاق الدول؟ أو يمكن إعادة السؤال بطريقة أخرى، هل الضوابط والقيم والمبادئ التي تحكم العلاقات بين الأفراد كالصدق والأمانة والشفافية والإيثار وما إلى ذلك من الصفات الجميلة، هل يمكن أن تنطبق على العلاقات بين الدول بعضها ببعض، أم أن المصالح القومية لكل دولة تفرض نفسها على علاقاتها مع باقي دول العالم فقد تكذب وتماطل وتجند العملاء وتتآمر بل وقد تعلن الحرب أيضًا وخاصة فيما يتعلق بأمنها القومي، فلا مكان هنا للمبادئ وإنما تتحكم المصالح دائمًا أو غالبًا.

الكبار يفضلون التعامل مع الأفراد:

الطريف أن الدول الكبري التي طالما تتحدث عن الديموقراطية واحترام إرادة الشعوب تنسى كل هذا عندما يتعلق الأمر بمصالحها، فهي تفضل التعامل مع الأنظمة الديكتاتورية لتضمن لها تحقيق مصالحها أما إرادة الشعوب فحتمًا ستتعارض مع مصالحها أو على الأقل ستطالب شعوب هذه الدول بحقوقها المشروعة عند كل تعامل مع الدول الكبري أما الأنظمة

الديكتاتورية فهي أقل كلفة في التعامل فمصالحها مقدمة على مصالح شعوبها ومصالحها مرتبطة عادةً بمصالح الدول العظمى بل ليس مصالحها فقط بل وجودها من الأساس في السلطة مرتبط بالدول الكبري، ومن السهل أن ترضي شخصًا واحدًا عن أن ترضي شعبًا كاملًا فتحقيق رغبات فرد أهون كثيرًا من تحقيق إرادة شعب.

المطرقة والسندان:

تعيش بعض شعوب العالم الثالث أو معظمها بين المطرقة والسندان، وهما قوتان تعتمد كل واحدة منهما على الأخرى في وجودها واستمرارها، وهما قوى المؤامرات الخارجية وقوى الاستبداد الداخلي وهما حقيقتان لا يمكن تجاهلهما أو التهوين من شأن أي منهما فمن المستحيل أن تنجح المؤامرة من الخارج في إثارة أي شعب على النظام الحاكم إلا إذا كان هذا الشعب يعاني من الاستبداد الداخلي، وكذلك من الصعب جدًا أن يجد الاستبداد الداخلي مبررًا لوجوده واستمراره دون أن يحذر الشعب من وجود مؤامرة خارجية قد تؤدي إلى ضياع هذا الشعب، والطريف أن كلاهما صادق بالفعل فكلاهما حقيقة لا مفر منها، ويكون الشعب بين مطرقة الاستبداد الداخلي وسندان المؤامرة الخارجية فيستسلم لأحدهما وغالبًا ما يكون تمسكه بالاستبداد الداخلي كأهون الخيارين الذي أحلاهما مر، وخاصة عندما يرى تأثير ما حدث لمن اختار الاختيار الثاني فيجد دولًا تحولت إلى أطلال وشعوبًا تحولوا إلى لاجئين

والآن عزيزي القارئ حان الوقت للحديث عن أبرز القادة في تاريخ مصر اعتبارًا من الفصل القادم إن شاء الله وأعتذر لتأخير ذلك ولكن كل ما سبق

من كتابات تتناول طبيعة الشخصيات البارزة وطبيعة الشعب المصري وعن مصر نفسها وتطور الصراع على حكمها وحكم المنطقة بأثرها، كل هذه المعلومات التي نقلتها عن كتب متنوعة ومن وجهات نظر مختلفة كانت فيما أعتقد مدخلًا مهمًا نحتاجه للحديث عن أبرز القادة عندما حكموا مصر، وبقي أن نؤكد أيضًا أن الأقوياء في هذا العالم عندما يتحركون أو حتى يستعدون للتحرك فإن العالم كله يكتم أنفاسه ويرصد تحركاتهم، وعندما يتحدثون أو يدلون بتصريحات فإن الضعفاء يحللون هذه التصريحات، أما الضعفاء فلا يهتم أحد بما يقولون أو إلى أين يتجهون وكما قال شاعر النيل حافظ إبراهيم على لسان الدول القوية التي تلتهم الدول الضعيفة:

قَد مَلَأنا البَرَّ مِن أَشلائِهِم

فَدَعوهُم يَملَئوا الدُنيا كَلاما

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

أبرز القادة في العصر الفرعوني

معلومات مختصرة عن ملخص العصر الفرعوني:

ينقسم العصر الفرعوني إلى ثلاثة عصور رئيسية: عصر الدولة القديمة - عصر الدولة الوسطى - عصر الدولة الحديثة، وتسبق هذه العصور الثلاثة عصر يسمى بالعصر العتيق ويلي كل عصر من هذه العصور فترة اضمحلال، الاضمحلال الأول بين الدولة القديمة والدولة الوسطى، والاضمحلال الثاني بين الدولة الوسطى والدولة الحديثة، والاضمحلال الأخير في نهاية الدولة الحديثة ونهاية العصر الفرعوني بالكامل.

وقد قام المؤرخ المصري القديم (مانيتون) بحصر عدد الأسر في العصر الفرعوني، فذكر أنه مكون من ثلاثين أسرة فرعونية، موزعة على العصور الفرعونية المختلفة، والأسرة الفرعونية تعني عائلة حكمت مصر فترة معينة وتبدأ بمؤسس لهذه الأسرة ثم يتبعه ويليه أبناؤه ثم أحفاده حتى يظهر مؤسس آخر لأسرة جديدة وهكذا.

ويختلف عدد ملوك كل أسرة عن الأخرى في أغلب الأحيان فمثلًا عدد ملوك الأسرة الثامنة عشرة عبارة عن 14 ملك وعدد ملوك الأسرة الرابعة عبارة عن سبعة ملوك بينما تكونت الأسرة الثامنة والعشرون من ملك واحد فقط.

وعادةً ما ينتهي حكم أي أسرة لعدة أسباب أهمها هو انتهاء نسل الذكور في هذه الأسرة فيأتي مؤسس جديد لأسرة جديدة، ويشترط أن يتزوج إحدى أميرات الأسرة الملكية السابقة حتى تجري الدماء الملكية في عروق أبنائه فيكتسب شرعية الحكم لأسرته، وفيما يلي توزيع عدد الأسرات على العصور المختلفة:

العصر العتيق (عصر تأسيس الدولة): يتكون من أسرتين فقط (الأولى والثانية) من حوالي سنة 3100 قبل الميلاد إلى حوالي سنة 2690 ق م، وأشهر ملوك هذا العصر هو الملك مينا موحد القطرين والفرعون الأول في الأسرة الأولى

الدولة القديمة (عصر بناة الأهرام): من الأسرة الثالثة إلى الأسرة السادسة من حوالي سنة 2690 ق م إلى حوالي سنة 2180 ق م وأشهر ملوك هذا العصر الملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة وصاحب الهرم المدرج بسقارة والملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة وكذلك خوفو وخفرع ومنقرع أشهر ملوك الأسرة الرابعة وأصحاب الأهرامات الثلاثة بالجيزة.

الاضمحلال الأول (عمت الفوضي البلاد): من الأسرة السابعة إلى الأسرة العاشرة من حوالي سنة 2180 ق م إلى حوالي سنة 2060 ق م.

الدولة الوسطي (عصر الاهتمام بالسياسة الخارجية): يتكون من الأسرة الحادية عشرة والأسرة الثانية عشرة فقط من سنة 2060 ق م إلى سنة 1710 ق م وأشهر ملوك هذا العصر ملوك الأسرة 11 (منتوحتب) الأول والثاني وهكذا وملوك الأسرة 12 (أمنمحات وسنوسرت) الأول والثاني وهكذا

الاضمحلال الثاني (تخلله احتلال الهكسوس لمصر): من الأسرة 15 إلى الأسرة 17 من سنة 1710 ق م إلى سنة 1560 ق م و أشهر ملوك هذا العصر الملك سقنن رع والملك كامس الذين كافحوا الهكسوس ولم يتمكنوا من طردهم.

الدولة الحديثة (عصر الإمبراطورية المصرية):من الأسرة 18 إلى الأسرة 20 من سنة 1580 ق م إلى سنة 1085 ق م وأشهر ملوك هذا العصر الملك أحمس الأول وهو أول ملوك الأسرة 18 وطارد الهكسوس، ومن أشهر ملوك هذا العصر ملوك الأسرة 18 بشكل عام مثل الملكة حتشبسوت والملك تحتمس الثالث مؤسس الإمبراطورية المصرية والملك أمنحوتب الرابع (إخناتون) والملك توت عنخ آمون والملك حور محب وأشهر ملوك الأسرة 19 الملك سيتي الأول والملك رمسيس الثاني والملك مرنبتاحو أشهر ملوك الأسرة 20 الملك رمسيس الثالث

الاضمحلال الأخير (نهاية الفراعنة وتخلله حكم مصر ملوك ليبيين ونوبيين وآشوريين وفرس على فترات مختلفة): من الأسرة 21 إلى الأسرة 30 من سنة 1085 ق م إلى سنة 341 ق م وأشهر ملوك هذا العصر الملك شاشنق الأول وهو مصري من أصل ليبي وهو مؤسس الأسرة 22 ومن أشهر ملوك هذا العصر أيضًا الملك بعنخي وهو مصري نوبي مؤسس الأسرة 25، والملك بسماتيك الأول مؤسس الأسرة 26، أما الملك (نقطانب الثاني) ويطلق عليه أيضًا اسم (نخت نبف) الثاني أو (نختنبو) الثاني فهو آخر ملك في الأسرة الثلاثين الفرعونية أي أنه آخر فرعون مصري تقريبًا[54]

الملك مينا الفرعون[55] الأول والأسرة الأولى:

يُعد الملك مينا أول شخصية بارزة في تاريخ مصر بل إن مصر لم تصبح دولة موحدة إلا في عهده فهو كما نعلم جميعًا موحد القطرين وهو الملك الأول في الأسرة الأولى الفرعونية وهو الملك (مني)[56] مؤسس الدولة والجد الأكبر لجميع ملوك الفراعنة تقريبًا

ويقول عنه سليم حسن أنه قد كانت له مهابة في قلوب الفراعنة الذين خلفوه حتى أنهم ألهوه بعد موته وبقيت عبادته زمنًا طويلًا حتى أنه بعد عشرين قرنًا من وفاته وجد تمثاله محمول في مقدمة كل تماثيل الملوك الآخرين في احتفال ديني في عهد رمسيس الثالث في معبده[57] ويقول سليم حسن أن ملوك الأسرة الأولى يبلغ عددهم سبعة فقط واستمروا نحو 200 سنة من سنة 3200 ق م إلى سنة 3000 ق م[58] والملك مينا قد وضع أساس متين لكل من جاء بعده من الفراعنة فالنظام الحكومي والإداري الذي كانت تسير عليه البلاد في عهده بقي نحو 3000 سنة[59] لم يطرأ عليه تغيير إلا نادرًا، وقد وردت عدة أسماء للفرعون الأول موحد القطرين منها (مني = مينا= منا = نعرمر = نارمر) كما ورد في تاريخ مانيتون[60] وبردية تورين[61]وقائمة أبيدوس بأن الفرعون الأول هو "مني" بمعني الخالد أو المثبت (أما كلمة فرعون فقد أتت من اللفظ المصري القديم "برعو" أي القصر العظيم) ونرى في الصورة لوحة شهيرة للملك مينا أثناء القتال والتاج المزدوج

واللوحة توضح معاركه لتوحيد القطرين، وظهوره بتاج الوجه القبلي على أحد أوجه اللوحة وبتاج الوجه البحري على الوجه الآخر، عثر عليها العالم البريطاني كويبل في هيراكونبوليس بالقرب من إدفو وهي من حجر الشيست الأخضر. تعتبر لوحة نارمر من أول اللوحات التاريخية، كتبت ورسمت في عهد الفرعون نارمر الذي وحد الوجهين المصريين، أولًا الوجه الأول: في أعلى اللوحة نجد وجهان لامرأة لها أذني وقرني بقرة وهي الإلهة حتحور وبين والوجهين نجد واجهة القصر "السِرخ" ونقش بداخله اسم نعرمر.

في الصورة أسفلها نجد الفرعون مصورًا بحجم كبير يلبس تاج مصر العليا(الجنوبية)الأبيض ويمسك بيده سلاحه ليضرب به أحد أعدائه الشماليين (التي تميزه باروكة الشماليين)، وخلف الملك حامل صندل الملك ومعه وعاء من الماء. وأمام الملك نجد الإله حورس في هيئة الصقر وهو يقدم للملك رأس أسير وجسمه عبارة عن علامة الأرض عند المصريين القدماء ويخرج منها -نبات البردى -أي دليل على أنها أرض الشمال ومعنى ذلك أن حورس يقدم للملك أرض الدلتا ليحكمها ويبسط عليها نفوذه.بعد ذلك نجد في أسفل اللوحة اثنان من الأعداء يهربان وبجوار كل منهما اسم مقاطعته (بوتو وسايس) كل منهما ينظر ورائه دليلًا على قوة ما يهربان منه، وبجوارهما رسما لحصنهما الذي استولى عليه نارمر.

ثانيًا الوجه الثاني: نجد أولًا في أعلى الصورة المنحوتة نفس وجهى المعبودة حتحور وبينهما السِرخ.

أسفلها منظر يصور انتهاء الحرب ويمشى الملك في موكب النصر المتجه لمعبد مدينة بوتو المقدسة، وهنا يلبس الملك التاج الأحمر تاج الدلتا وورائه

حامل الصندل وأمام الملك كبير وزرائه وفوقه كلمة "سات” يعني وزير، وأمام الوزير حملة الأعلام. ومن الأعلام نستنتج أن مصر القديمة كانت أول من يكوِّن حكومة مركزية في التاريخ، حيث يرجع تاريخ تلك اللوحة وهذا الحدث إلى 3100 سنة قبل الميلاد. ونجد على أقصى اليمين مجموعة من الأسرى مقطعة رقابهم وموضوعة بين أقدامهم ونرى أن جميع الأسرى أقدامهم مواجهة لبعضها ما عدا اثنين منهم، وذلك تمييزًا لهما ويعتقد أنهما قائدين من الشمال.أسفل هذا المشهد نجد صورة لحيوانين خرافيين متشابكة الأعناق ليشكلوا بؤرة الصلاية لطحن كحل الملك وفى نهاية اللوحة نجد الملك مصوّرًا على هيئة "ثور” قوي دليلًا على قوته يدمر أحد حصون الأعداء ويطأ بقدمه أحد الأعداء

وإذا قمنا بالتعليق على هذه اللوحة سنجد أنه من الواضح أن الملك كان يقاتل بشراسة وعنف لم تشهده البلاد من قبل وقد قام بالتمثيل بالجثث ووضع رأس كل قتيل بين ساقيه، وهي رسالة لكل من تسول له نفسه أن يفكر في عصيان الملك ولقد وضع مينا القوانين والقواعد التي ستطبق على عصره وما بعده من عصور ويجب أن نتذكر أن هؤلاء القتلى هم من أهل مصر أيضًا ولكنهم كانوا يعيشون في الشمال أي في الوجه البحري أي أنهم ليسوا من دولة معادية لمصر بل هم نصف مصر الشمالي والطريف أنه قد قامت حروب طاحنة بين شمال وجنوب الولايات المتحدة الأمريكية في العصر الحديث حتى أصبحت علي الحالة التي عليها الآن، فهل الحروب لتوحيد الدولة أمر حتمي حدث في عدة أماكن من العالم القديم و الحديث؟

على أي حال لقد وضع مينا القانون فأنت إذا خالفت مينا فأنت لا تخالف شخص الملك مينا بل إنك تخالف القانون وسيصبح هذا هو الطبيعي والدائم في مصر بعد ذلك فالحاكم هو القانون بل هو مصر نفسها فإذا أسأت له أو انتقدته فأنت تسيء إلى مصر وتنتقدها فمصر ستصبح هي حاكمها، فهل كان مينا نتيجة طبيعية لمجتمع البيئة الفيضية كما وضحه د /جمال حمدان عندما أكد أن الري قد أضاف سيد آخر للفلاح بالإضافة للطبيعة.

وهذا الملك الذي فرض نفسه علي كتاب التاريخ المصري بل افتتح هذا الكتاب كأول ديكتاتور مؤله على عرش مصر وأول شخصية بارزة لدى المصريين الذين قدسوه قديمًا واحترموه حديثًا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الملك زوسر[62] مؤسس الأسرة الثالثة الفرعونية:

الشخصية البارزة الثانية التي سنتحدث عنها في هذا الفصل هو الملك زوسر.

حكم مصر من حوالي سنة 2630 ق م إلى سنة 2611 ق م، واسمه الأصلي هو نثرخت أما كلمة زوسر فأصلها لقب منحه له المصريون فيما بعد وهو – جسر- أي المقدس، (بالرغم من أن الملك زوسر كان على الأرجح ابنًا لآخر ملوك الأسرة الثانية فقد اعتبره القدماء مؤسسًا لأسرة مالكة جديدة وهي الأسرة الثالثة)[63]، (وليس من شك في أن أهم الآثار التي وصلت إلينا من عصر الأسرة الثالثة هي تلك المجموعة الهرمية التي أمر الملك جسر "زوسر" ببنائها بسقارة - - ومن الطريف أن الملك زوسر قبل أن يبدأ في بناء مجموعته الجنائزية في سقارة سار علي نهج من سبقوه من ملوك الأسرتين

الأولى والثانية فبنى مقبرته الأولى على شكل مصطبة كبيرة الحجم وهي من الطوب اللَّبن- - أما مقبرته الثانية بسقارة ونقصد بذلك الهرم المدرج فقد ترك تشييدها لوزيره الشاب أيمحتب وهو المهندس الذي استخدم الحجر على نطاق واسع لأول مرة - - وقد خلد هذا البناء الضخم مهندسه أيمحتب)[64]، (وأثبتت الأبحاث الحديثة وما تعرى وتهدم من بعض أجزاء الهرم "هرم سقارة المدرج" أنه بُني على أساس تصميمات مختلفة -وأصبحت قاعدة الهرم بعد كل هذه التعديلات 121 متر من الشرق إلى الغرب و 109 مترًا من الشمال إلى الجنوب وارتفاع الهرم يصل إلى 59.64 متر - وغير هذا فهناك العديد من الممرات والغرف التي حفرت في الصخر الطبيعي تحت بناء الهرم وتشعبت في اتجاهات مختلفة بأطوال متباينة وعلى أعماق مختلفة ووجد بها عشرات الآلاف من الأواني الحجرية الضخمة ويعتقد بأن عددها يزيد على 30000 إناء من المرمر والجرانيت والديوريت والشستوهي تمثل الإتقان الذي وصلت إليه صناعة الأواني في عصر الملك جسر وقد زينت إحدى جدران هذه الغرف بثلاثة أبواب وهمية مثل عليها الملك زوسر يقوم بطقوس عيد السد[65] يصاحبه اسمه وألقابه)[66]

(كانت فترة حكم زوسر لمصر فترة زاهرة ولكن منذ وفاته حتى آخر أيام الأسرة لم يخلفه على العرش من نستطيع أن نقارنه به، ويذكر مانيتون أسماء ثمانية ملوك حكموا في هذه الأسرة بينما لا نجد في ثبت أبيدوس إلا أسماء ستة ملوك فقط، أما بردية تورين المهشمة فلم تحفظ لنا غير خمسة أسماء)[67].

(وكانت فترة حكم الأسرة الثالثة مائة سنة على الأرجح وقد بدأت بعهد زاهر وهو عهد زوسر ولكن سرعان ما توقفت تلك النهضة ولم تتابع تقدمها على الصورة التي كنا نتوقعها، فقد رأينا كيف عرفت مصر تشييد الهرم المدرج، ومضت عشرات السنين بعد ذلك فلم تخط الخطوة التالية وهي معرفة بناء الهرم الكامل – ظلت مصر نحو أربعمائة سنة وهي تبني مقابر ملوكها في الأسرتين الأولى والثانية على شكل مصاطب مستطيلة الشكل حتى ولد معماري نابغ وهو إيمحوتب فارتفع بقبر الملك وجعل منه هرمًا مدرجًا وظل تجديد إيمحوتب مثلًا أعلى مدة تقرب من قرن كامل حتى انتهت أيام الأسرة الثالثة وبدأت الأسرة الرابعة)[68]

(أما الملك حوني آخر ملوك هذه الأسرة فقد حكم 24 سنة ويذكر نقش يحمل اسمه في جزيرة الفنتين أنه أقام عند الجندل الأول حصنًا ليؤمن حدود مصر الجنوبية وهذا النقش هو الإشارة الوحيدة للأحداث السياسية التي تمت في عهده كما بدأ خلال فترة حكمه ببناء هرمه في ميدوم " 75 كم جنوب القاهرة " ولكنه مات قبل أن يتمه، فأكمله الملك سنفرو أول ملوك الأسرة الرابعة)[69]أما صورة تمثال الملك زوسر و الموضحة والذي تم العثور عليه في السرداب الواقع إلى أقصى الشرق من معبده الجنائزي بمنطقة سقارة والتمثال من الحجر الجيري الأبيض ويمثل الملك بحجمه الطبيعي بالتقريب بقامة ممدودة، جالسًا في وضع هادئ مستقر واضعًا يده اليسري على ركبته واليمنى على صدره، ولكي نتخيل مدى التطور الذي حدث في بناء المقبرة سنلقي نظرة على ما كُتِب عن المقابر قبل عصر الملك زوسر.

مقابر أشراف الدولة القديمة:

(أطلق عمال الحفائر على مقابر الأشراف التي ترجع لعصر الدولة القديمة عندما كان يشرف عليها ماريت[70] في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي اسم مصطبة، وقد وافق ماريت على هذه التسمية وذلك عندما رأى الشبه بين المصطبة والجزء العلوي لمقابر الأشراف في الدولة القديمة والمصطبة هي نهاية المطاف الذي وصل إليه المصري لحماية جثمانه، وذلك لضمان الحياة في العالم الآخر، ففي بداية الأسرة الثالثة بدأ الأفراد من كبار رجال الدولة الاهتمام بالبناء العلوي لمقبرتهم، فأصبحت الكومة الترابية أو كومة الرمل والحصى والتي كانت تكوم فوق حفرة الدفن تكسي باللبن، وبتوسيع حجرة الدفن، ازداد حجم البناء العلوي للمقبرة، وامتد وتحول من كومة إلى بناء مستطيل لكي يشمل حجرة الدفن وما يحيط بها من حجرات جانبية خصصت للأثاث الجنائزي، وهنا برزت الصعوبة الأولى التي واجهت المصري القديم الذي بذل كل ما في وسعه لكي ينتهي من تشييد مقبرته في حياته[71]، إذ لاحظ أنه كلما كبر حجم البناء العلوي زادت صعوبة الانتهاء من بنائه بعد الانتهاء من مراسيم دفن صاحب المقبرة الذي كان غالبًا ما يباشر العمل فيها في حياته، ولهذا كانت رغبة المصري القديم أن يتم بناء المقبرة في حياته، فهداه تفكيره إلى عمل المدخل الموصل إلى حجرة الدفن على شكل أحدور خارج البناء العلوي لكي يسحب عليه الجثمان ليستقر في حجرة الدفن، ثم يسد مدخل الحجرة بكتلة من الحجر ويملأ المنحدر بالرمال، وبهذه الطريقة استطاع المصري أن ينتهي من البناء العلوي دون حاجة لانتظار الانتهاء من مراسيم الدفن - أما عن العناصر الضرورية في الدولة القديمة لإعداد مصطبة يعتبرها المصري كاملة لضمان مستقبله في العالم الآخر فهي في رأي "عالم الآثار" ديفز كما يأتي:1 اللوحة المشكلة على هيئة باب " أي

الباب الوهمي " وهذه غالبًا ما تحمل رسم المتوفى داخلًا وخارجًا أو تمثاله، وعادة تكون حافلة بالدعوات 2 تمثال وأسماء وألقاب المتوفى 3 قائمة بأصناف الطعام والشراب تشمل نحو مائة صنف إذا كانت كاملة 4 صورة المتوفى جالسًا أمام مائدة غنية بالطعام 5 مواكب الخدم تحمل الزاد، ومناظر ذبح الحيوانات للطعام 6 النصوص التي تتحول بواسطتها المأكولات المصورة إلى حقيقة 7 صورة زوجة المتوفى وأسرته والحيوانات الأليفة، والخدم المقربين لضمان مصاحبتهم له في حياته الجديدة)[72]

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة الفرعونية:

أسس الملك سنفرو[73] الأسرة الرابعة - ويرى مانيتون أنه حكم 29 سنة وبردية تورين 24 عامًا كما نعرف من حجر بالرمو[74]أنه قام ببعثات حربية إلى بلاد النوبة وأحضر معه من هناك 7000 أسير، 200000 رأسًا من الماشية وبعد ذلك اتجه إلى ليبيا وانتصر عليها وعاد منها ومعه 11000 أسير و 131 ألف رأس من الماشية، كما يذكر حجر بالرمو أيضًا أنه أرسل أسطولًا بحريًا إلى لبنان لإحضار أخشاب الأرز)[75]

وكان سنفرو متزوجًا من الأميرة حتب حرس ابنة الملك حوني آخر ملوك الأسرة الثالثة والتي كانت تحمل بحكم دمها الملكي حق وراثة العرش وأنجب منها ابنه خوفو الملك الشهير وكان نظام وراثة الحكم إذا انقطع نسل الذكور من الأسرة المالكة فإن الملك الجديد لا بد أن يتزوج من إحدى بنات البيت الملكي السابق حتى يجري الدم الفرعوني في عروق أبنائه كما فعل سنفرو مع ابنة الملك حوني ولقد أكمل الملك سنفرو هرم الملك حوني في ميدوم

بالفيوم وشيد لنفسه هرمين في دهشور، الأول يسمى الهرم المنكسر الأضلاع ويبلغ ارتفاعه 101.15 متر ويبدو أنه الحلقة التالية لتقدم فكرة بناء المقبرة الملكية بعد المصطبة المدرجة الخاصة بالملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة، والهرم المنكسر عبارة عن قاعدة ضخمة عالية بنيت جوانبها بزاوية 54.14 درجة وفوق هذه القاعدة بني القسم الثاني بزاوية قدرها 43.21 درجة ونتج عن تغيير الزاوية ذلك الهرم المنكسر الأضلاع، أما طول ضلع قاعدته المربعة فهو 188.6 مترًا، ويمتاز هذا الهرم عن جميع أهرام مصر بأن له مدخلين، مدخل في الجهة الشمالية والآخر في الواجهة الغربية، كما يمتاز أيضًا بأن الكساء الخارجي له لا يزال على حالته الأولي، وإلى الشمال من هذا الهرم على بعد لا يقل عن 2 كم نجد الهرم الثاني لسنفرو والذي يعتبر أول هرم حقيقي في تاريخ العمارة المصرية ويبلغ ارتفاعه حوالي 99 مترًا وطول ضلع قاعدته حوالي 220 مترًا، وضمن آثار الملك سنفرو وجدت قائمة كاملة لأغلب الأقاليم المصرية في ذلك الوقت فيما تعتبر أول وثيقة لتقسيمات مصر الإدارية في عصر يرجع إلى أكثر من 2500 سنة قبل الميلاد، وإذا تكلمنا عن الملك سنفرو سنجد أن عصره امتلأ بحوادث كثيرة منها الحملة البحرية التي أرسلها إلى المواني السورية وعادت هذه الحملة بحوالي أربعين سفينة محملة بالأخشاب التي تستخدم في البناء وتمَّ قطعها من غابات لبنان[76]

ويبدو أن الملك سنفرو كان ملكًا جادًا لأن سليم حسن كتب عنه ما يلي بالحرف الواحد: (وكانت مصر في عهد هذا الفرعون مملكة متحدة ثابتة الأركان)[77]، وعندما كان يتنقل في أرجاء قصره أو خارجه كان لزامًا علي رعيته أن يركعوا أمام جلالته ويقبلوا التراب الذي تحت قدميه على حد تعبير سليم حسن وبعد وفاته كان القبر الذي يضم رفاته موضع تقديس وكانت

حاشيته وعظماء البلاد في عهده تدفن حول قبره أو بالقرب منه حتى يقدموا له خدماتهم في الدار الآخرة بنفس الولاء والإخلاص، أما عن سبب عدم وجود آثار تخص بيوت وقصور الفراعنة فيقول سليم حسن (وقد كان للآلهة في هذا الزمن السحيق معابد من حجر على حين أن الملك كان يسكن في مأوى بسيط من الطوب اللبن أو من طين النيل المجفف في الشمس ولم يكن لأحد الحق في أن يسكن في مساكن من الحجر إلا الموتى لأنهم كانوا يعدون كالآلهة)[78]

والأسرة الرابعة تعتبر بشكل عام أشهر أسرة فرعونية في العصر القديم، وهم بحق بناة الأهرام، وهذه الأسرة مكونة من سبعة ملوك أولهم الملك سنفرو مؤسس الأسرة، وكان سنفرو متزوج من بنت الملك حوني آخر ملوك الأسرة الثالثة وأنجب منها ابنه خوفو الملك الشهير، وبعد أن مات سنفرو جاء الملك خوفو للحكم وأيًا كان السبب الرئيس لبنائه هذا الهرم العملاق[79] وأيًا كانت ظروف حكمه إلا أن الهرم الموجود حاليًا باسمه يعتبر من عجائب الدنيا بالفعل فيكفي أن أذكر لك بعض الحقائق عن هذا الهرم لتعرف حجم العمل الذي تم فيه رغم أن فترة حكم خوفو لم تتجاوز العشرين عامًا مما يدل على أن فن الإدارة وتنظيم الأعمال كان متقدمًا في عهده لإنجاز هذا العمل الضخم في توقيت قصير نسبيًا، ويبلغ طول قاعدة الهرم 227.5 مترًا وارتفاعه حوالي 137 مترًا وعدد أحجاره تقريبًا مليونين وثلاثمائة ألف حجر ومتوسط وزن الحجر الواحد حوالي 2.5 طن يعني وزن الهرم بالكامل ستة ملايين طن تقريبًا وحجمه 2.5 مليون متر مكعب[80] وبالرغم إن خوفو كان يريد أن يكون هذا الهرم المقر الأبدي لجثمانه إلا أن حلمه لم يتحقق وقد تم اقتحام حجرة الدفن في عهد الثورة التي كانت في نهاية الأسرة السادسة الفرعونية لأن

حجرة الدفن الخاصة بالملك خوفو خالية تمامًا وعليها آثار تخريب واضحة من مخلفات الأسرة السادسة تقريبًا ويقول سليم حسن عن الملك خوفو (و ربما يتوهم البعض أن بناء الهرم الأكبر قد شغل خوفو عن باقي أعمال ملكه ولكن الواقع أننا نجد له آثارًا باقية في مدن ملكه وقد ترك خوفو اسمه منقوشًا في مناجم النحاس والفيروز في شبه جزيرة سيناء)[81]

(والظاهر أن بعد وفاة خوفو قامت منازعات على الملك إذ نجد في قوائم الملوك التي وصلت إلينا أن الملك الذي خلف خوفو هو ددف رع ولكن بعض العلماء ينكرون ذلك وقد استمر في الحكم مدة ثمانية أعوام)[82]

وهذه الصراعات استمرت حتى في عصر خفرع صاحب الهرم المعروف باسمه في الجيزة حيث أن خفرع لم تكن بيده مطلق الصلاحيات في الحكم أو بمعني أصح سلطاته كانت غير كاملة على مصر بسبب هذه الصراعات مع أبناء ددف رع أخوه ومع كل هذه الصراعات استطاع بعزيمة فولاذية بناء هرمه الفخم بجوار هرم خوفو وقد أنجب خفرع 16 فرد من الذكور والإناث وفي الغالب أن الفرعون منقرع أحد هؤلاء وقد خلف أبوه في الحكم وبنى هرمه الصغير بجوار هرم خوفو وهرم خفرع كما نعلم جميعاً، وإذا تحدثنا عن الملك منكاورع (فلم تستطع الآثار المصرية المعروفة لدينا الآن أن تعطينا الشيء الكثير عن حياة الملك منكاورع وإن تغلبت الذكري الطيبة عند الحديث عنه في العصور المتأخرة - بعكس ما اتصف به والده خعفرع وجده خوفو من قوة واستبداد - والاحتمال كبير في صدق هذه الرواية لسبب بسيط هو أن بناء مثل هذين الهرمين الكبيرين وما يتبعهما من معابد للملكين خوفو وخعفرع لا شك حملا الدولة ما لا تستطيع من الناحيتين الاقتصادية

والاجتماعية - - ويقع هرم منكاورع في الركن الجنوبي من الهضبة ويبلغ ارتفاعه الآن 62 مترًا " كان 66.5 مترًا" وطول ضلع قاعدته 108.5 مترًا - وعلى الرغم من أن فترة حكم منكاورع قد تزيد عن 18 عامًا فإنه لم يستطع أن يتم تشييد هرمه الصغير وما يتبعه من معابد فأكملها له ابنه شبسكاف - ولم يقم شبسكاف بتشييد هرم له في الجيزة واتخذ منطقة سقارة جبانة له وقام في جنوبها بتشييد تابوت ضخم مستطيل (100×75 مترًا وارتفاع 18 مترًا) بُني من الحجر الرملي- وهو المعروف الآن بمصطبة فرعون ويبدو أن نفوذ كهنة الشمس ازداد و ازداد معه قوة وسيطرة الإله رع في هليوبوليس ومن أهم الأسباب التي سمحت لهم بتحقيق هذه السياسة أن ملوك الأسرة الرابعة بعد الملك خعفرع كانوا ملوكًا ضعافًا فاستطاع هؤلاء الكهنة أن يفرضوا سيادتهم ويسقطوا الأسرة الرابعة وجعلوا بعد ذلك الإله رع إله الدولة وقللوا من أهمية الإله حورس[83] الذي كان يهيمن على مصر قبل ذلك كإله للدولة)[84]

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الملك منتوحتب الثاني وبداية الدولة الوسطى الفرعونية:

كانت مصر على موعد مع منتوحتب الثاني لينتشلها من فوضى عصر الاضمحلال الأول وقد استمر الاضمحلال من الأسرة السابعة إلى العاشرة وكانت الأسرتين السابعة والثامنة تحكمان مصر من (منف) أما التاسعة والعاشرة فمن (إهناسيا) وكلاهما في الوجه البحري في شمال مصر وكانت الأقاليم والمقاطعات شبه مستقلة عن الحكومة المركزية.

ثم بدأ يزيد نفوذ أسرة جديدة في الجنوب، وكان عميد هذه العائلة حاكم لهذه المنطقة وكان اسمه (إنيو تف)، وظل هذا الرجل وكل من جاء بعده في هذه العائلة على خلاف واضح مع ملوك الأسرة العاشرة في إهناسيا بل وقد وقعت بعض الحروب بين الطرفين وقد تم توسيع نطاق حكم هذه العائلة الحاكمة حتى شمل خمسة أقاليم في جنوب مصر وكان هذا في عهد (إنيوتف الثاني) الذي حكم طيبة لمدة خمسين عامًا[85] ثم تلاه في هذه العائلة إنيوتف الثالث ثم (منتو حوتب الأول)

ثم (منتو حوتب الثاني)، وهنا يتوقف التاريخ ويغير مجراه.

لأن منتو حوتب الثاني لم يحكم الجنوب فحسب مثل سابقيه وجدوده ولكنه استطاع الإطاحة بملوك الشمال الضعفاء في إهناسيا ويحكم مصر بالكامل ويوحدها ليصبح مؤسس الأسرة الحادية عشرة بل مؤسس الدولة الوسطى بالكامل،، وكان ذلك حوالي سنة 2052 ق م.

ويقول عنه شيخ الأثريين أحمد فخري[86] في كتابه الرائع مصر الفرعونية:

(ولهذا يرى بعض المؤرخين اعتبار من سبقه من ملوك هذه الأسرة والتسعة أعوام الأولى من حكمه وقتًا معاصرًا للأسرة العاشرة وأن الأسرة الحادية عشرة تبدأ من هذا التاريخ فقط، لكن الإنصاف في البحث يحتم علينا اعتبار أيام الأسرة الحادية عشرة منذ عهد إنيوتف الأكبر أي قبل ذلك باثنين وثمانين عامًا)[87].

وتعتبر الأسرتين 11، 12 هما الدولة الوسطي التي استعاد فيها الفراعنة أمجادهم مرة أخرى قبل أن يدخلوا في عصر الاضمحلال الثاني ويقول أحمد فخري.

(وما من شك في أن أكثر ملوك الدولة الوسطى لم يكونوا عتاة أو متجبرين في الأرض بل نعرف عن أكثرهم أنهم كانوا فخورين بعدلهم بين الناس وسهرهم علي رعايتهم ولهذا سرعان ما اطمأن الناس إلى حكامهم وتركوا أمر سعادتهم بين أيديهم)[88] والصورة لتمثال الملك منتو حتب الثاني، وهذا الاسم يعني (الإله منتو راضي) ويعتبر الإله منتو هو إله الحرب عند الفراعنة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الملك امنمحات الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة الفرعونية:

لم يكن امنمحات إلا رجلًا عصاميًا من الشعب رفعه ذكاؤه وجده إلى المكان الذي يستحقه وكان من بين أساليب رده على خصومه كتابة البردية المعروفة باسم تنبؤات نفرتي المحفوظة الآن في متحف لينتجراد والتي أطنبت في وصف ما سيحل بمصر من فوضى وأن إنقاذها سيتم على يدي ملك سيأتي من الجنوب يسمى أميني " امنمحات" ابن امرأة من النوبة ويولد في الصعيد سيهزم الأسيويون أمام مذابحه ويقع الليبيون صرعي أمام لهيبه، ولم يكن المقصود من كتابة تلك البردية إلا الترويج بين الشعب لهذا الحاكم الجديد ومحاولة إقناع الناس بأن اختياره لإنقاذ مصر أمر أرادته الآلهة منذ أبعد الأزمنة،وطالت الأيام بأمنمحات حتى وصل حكمه إلى ثلاثين عامًا ولم يقدر له أن يموت وهو في شيخوخته ميتة هادئة بل مات غيلة وهو في قصره، إذ انتهز أعداؤه فرصة غياب ابنه وولى عهده وشريكه في الملك سنوسرت، في حملة

على ليبيا ودبَّروا مقتله – ونعرف بعض التفاصيل عن تلك النهاية من برديتين إحداهما من بردية شخص يسمى سنوهي، أما البردية الثانية فهي معروفة باسم نصائح أمنمحات لابنه وقد كتبت دون شك بعد موت الملك وكأنها على لسانه من العالم الآخر يتحدث فيها إلى ابنه ويوصيه كيف يسوس الملك - - وكانت من أحب الموضوعات الأدبية إلى قلوب المصريين في الدولة الحديثة من الأسرة 18 حتى الأسرة 20 وكانت موضع دراسة كثير من العلماء.

(وتمتاز الأسرة الثانية عشرة بما أنتجه صانعوا الحلي وبخاصة لأميرات البيت المالك إذ جمعت تلك الحلي بين الدقة المتناهية في الصناعة والذوق الفني الرفيع)[89] كما يمتاز هذا العصر بنشاط دبلوماسي كبير وعلاقات واسعة مع دول الجوار، كما اهتمت هذه الأسرة بالجنوب وقامت بتعيين حاكم مصري جنوب الشلال الثالث وأقامت حصنًا ومخزنًا كبيرًا للتجار هناك كما أقامت هذه الأسرة مشاريع للري واهتمت بالزراعة وبنهر النيل اهتمام خاص كما ازدهر في عهد هذه الأسرة الأدب والفن[90]

كما تمتاز هذه الأسرة عامةً بأنها نزلت قليلًا عن السلطة القدسية التي كانت لملوك الدولة القديمة، وتقربت إلى الشعب بإقامتها منار العدل، وبالعديد من الإصلاحات والأعمال الإقتصادية والعمرانية التي زادت من رخاء الشعب، وقد استمر حكم هذه الأسرة ما يقرب من مائتي عام، تقدمت البلاد تقدمًا عظيمًا في شتى النواحي، وكانت مصر في عهدها أقوى دولة في المنطقة، وكان الملك سنوسرت الأول ثاني ملوك هذه الأسرة، وقد أقام مسلة شهيرة باقية إلى الآن (بالمطرية) ويبلغ ارتفاعها 66 قدمًا، وهي قطعة واحدة من الجرانيت الأحمر، وقد أقامها في مدخل المعبد والمدرسة الجامعة اللذين بناهما في

عين شمس (التي يسميها اليونانيون هليوبوليس) – مدينة أون - وهي أقدم مسلة قائمة في مكانها الأصلي، ويقول الدكتور أحمد بدوي في كتابه (موكب الشمس ج2 صفحة 130) إن مسلة عين شمس إحدى خمس مسلات مازالت في مكانها الأصلي وأما باقي مسلات الفراعنة فقد نقلها الضعف والهوى السياسي إلى ما وراء البحار إلى لندن وباريس ونيويورك وروما واستانبول وفي روما وحدها مسلات تسع[91].

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الملك أمنمحات الثالث:

حكم أمنمحات الثالث مصر وقد سمي باسم ني ماعت رع ويعتبره المؤرخون من أعظم من حكموا مصر، ودام حكمه خمسًا وأربعين سنة مرت على مصر في هدوء وسلام ومُلئت بالمشاريع الكبري العمرانية

كان أعظمها بطبيعة الحال نظام الري الذي ابتكره للوجه البحري بأن اتخذ من منخفض إقليم الفيوم الذي ينخفض في بعض أجزائه عن البحر بـ 129 قدمًا خزانًا للماء حيث لا تزال بحيرة قارون آية على ذلك فشيدوا على الفتحة في سلسلة الجبال التي تربط وادي النيل بمنخفض الفيوم سدًا عظيمًا – سد اللاهون- فنشأت هذه البحيرة الهائلة في التاريخ التي عرفت باسم بحيرة موريس والتي كانت تمد النيل بعد ذلك بالماء خلال فترة التحاريق أشبه بخزان أسوان أو السد العالي في عصرنا الحديث، وبهذا ضرب عدة عصافير بحجر واحد، فهو أنقذ الفيوم من الغرق الذي كانت تتعرض له كل عام، واستصلح أراضي زراعية قام باستغلالها بالفعل ومد النيل بالماء أيام التحاريق، ومن الأعمال العمرانية العظيمة التي تنسب إلى امنمحات الثالث،

القصر العظيم الذي أطلق عليه اليونانيون اسم قصر اللابيرانت – قصر التيه – وكان طوله يبلغ ألف قدم وعرضه ثمانمائة وقد استعمل معهدًا دينيًا وإداريًا،وقد وصف هيرودوت هذين الأثرين ونعني بهما بحيرة موريس وقصر اللابيرانت، فقد رآهما رؤيا العيان ووصف ما رأى عامة وسجل انبهاره كما ورد في كتاب هيرودوت يتحدث عن مصر لمحمد صقر خفاجة: إن اللابيرانت عمل يعجز عن وصفه البيان، إذ لو قدر لامرئ أن يجمع معرضًا للمباني والآثار الفنية التي شيدها اليونانيون لبدت عملًا أقل من هذه اللابيرانت.

ثم ينتقل هيرودوت للتحدث عن بحيرة موريس فيقول:ومع أن اللابيرانت على هذه الدرجة من العظمة، لكن البحيرة المسماة ببحيرة موريس والتي بنى اللابيرانت بالقرب منها تثير إعجابًا أشد، وراح هيرودوت يسجل أبعاد الخزان العظيم وكيف يصل إليها الماء من النيل لمدة ستة أشهر ثم يرجع منها إلى النيل مدة ستة أشهر ثانية، وهي القناة المعروفة اليوم باسم بحر يوسف، كما تحدث هيرودوت عن تمثالين لأمنمحات الثالث، وفترة حكم أمنمحات الثالث حل فيها النعيم والأمن والسكينة على البلاد، حتى ترنَّم القوم بالفرعون قائلين:أنه يكسو القطرين جنة خضراء أكبر من النيل العظيم، لقد زاد القطرين قوة، كيف لا وهو نفس الحياة المرطب للأنوف، هو الذي يوزع الخيرات على تابعيه، هو المغذي لخلفائه، هو الفداء وفي فمه الخير[92]، ويتضح بالصورة رأس تمثال للملك امنمحات الثالث متواجدة حاليًا بمتحف اللوفر بفرنسا

ومن المواقف التاريخية التي حدثت في عهد هذه الأسرة وتحديدًا في عهد الملك سنوسرت الثالث أبحرت السفن المصرية في الجرانيت وذلك عندما

قرر الملك سنوسرت الثالث 1874-1855 ق.م. إجراء أعمال حربية في النوبة لتأمين حدود مصر الجنوبية وجد عقبة كبيرة أمام سفن الأسطول، فشق لأسطوله طريقًا بين صخور الشلال الأول، وأنشأ مهندسوه هذا الطريق المائي في أصعب مناطق الشلال الجرانيتية لمسافة مائتين وستين قدمًا بعرض أربعة وثلاثين قدمًا وعمق ستة وعشرين قدمًا، وحمل على النوبة عدة حملات وطدت فيها السلطة المصرية، وشيد حصنين متقابلين في آخر الحدود الجنوبية للدولة على شاطئ النيل، ولا تزال آثار هذين الحصنين باقية الآن تشهد لمصر في تلك الأوقات بالبراعة الحربية والكفاية في اختيار مواقع الدفاع الحصينة، والمقدرة على تشييد الحصون المنيعة، وكان سنوسرت الثالث من ملوك الأسرة الثانية عشرة الفرعونية بالدولة الوسطى، وقد نصب لوحته المشهورة التي يتحدث فيها إلى المصريين عن الكفاح الوطني ويحثهم عليه، وفيما يلي بعض ما جاء في لوحة الملك حيث قال:

(ولقد جعلت تخوم بلادي أبعد مما وصل إليه أجدادي، وزدت في مساحتها على ما ورثته، وإني ملك يقول وينفذ، وما يختلج في فؤادي تفعله يدي، وإني طموح إلى السيطرة، وقوى أحرز الفوز، ولست بالرجل الذي يرضى بالتقاعس عندما يعتدي عليه، أهاجم من يهاجمني حسبما تقتضيه الأحوال فإن الرجل الذي يركن إلى الدعة بعد الهجوم عليه يقوي قلب العدو، والشجاعة هي مضاء العزيمة)[93]

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الملك أحمس الأول:

بدأت الأسرة السابعة عشرة الكفاح ضد الهكسوس وكان سقنن رع بطل من أبطال هذا الكفاح وتلاه ابنه كامس ثم توج أحمس هذا الكفاح بانتصار كاسح على الهكسوس وطردهم من مصر للأبد وبالرغم من أنه أخو الملك كامس وابن سقنن رع فإن المؤرخ المصري القديم وضعه على رأس عائلة جديدة[94] وكانت فترة حكمه 24 سنة[95] وهكذا تم اعتبار الملك أحمس الأول أول ملوك الأسرة الثامنة[96] عشرة الفرعونية وبدأ عصر جديد هو عصر الدولة الحديثة الفرعونية ويتميز عصر هذه العائلة بأن النساء أصبح لهن دور كبير في البلاد وأول شخصية نسائية لمعت في هذه الأسرة هي الملكة (تتي – شري) وهي أم سقنن رع وجدة أحمس الأول وكان لها دور على ما يبدو في إشعال روح القتال ضد الهكسوس في أبنائها وأحفادها وكانت محبوبة من الجميع وقد ظل أحمس وفيًا لذكري جدته إلى آخر سنة في عمره حيث أقام لها مقبرة وكتب عنها لوحة خالدة وكانت هناك سيدة أخرى اسمها (إعح حوتب) وكان لها دور كبير في الحرب ضد الهكسوس وهي أم الملك أحمس[97] أما السيدة الثالثة فكانت (أحمس نفرتاري) وهي أخت أحمس وكامس وقد تزوجت من كامس ثم من أحمس[98] بعد موت كامس وكلمة أحمس تعني (ولد القمر)[99]، أما إذا تحدثنا عن البطل الأول في الكفاح ضد الهكسوس وهو الملك سقنن رع فهو أحد ملوك الأسرة 17 الفرعونية وعاصر احتلال الهكسوس لمصر وكان حاكمًا قويًا في طيبة بالوجه القبلي، بينما كان الملك أبوفيس ملك الهكسوس يحكم في أواريس بالوجه البحري، ويحصل على الضريبة من أجزاء مصر المختلفة، وقد أرسل أبوفيس للملك سقنن رع رسولًا يوضح له أن أصوات أفراس النهر في طيبة تقلق نومه وهو في قصره في مدينة أواريس بالوجه البحري ويطلب منه إسكاتها، كما يطلب منه أيضًا ضرورة عبادة الإله سوتخ بدلًا من تعبده

للإله آمون رع وقد كانت هذه الشرارة الأولى والسبب المباش للحرب ضد الهكسوس، وقد بدأ سقنن رع رحلة الكفاح ضد الهكسوس لتحرير مصر وتطهير أرضها من ذلك المستعمر الغاصب، ولكن شاءت الأقدار أن يتوفى الملك سقنن رع متأثرًا بجراح في جمجمته نتيجة لحرب التحرير التي خاضها دون أن يتم الجلاء عن مصر، فاستكمل ابنه الملك كامس هذه المهمة وحقق عدة انتصارات على الهكسوس ولكن لم يتم التحرير الكامل إلا عندما تولى الملك أحمس بعد أخيه كامس قيادة الكفاح ضد الهكسوس، حيث تم تحرير مصر تمامًا في عهد الملك أحمس والذي اعتبره المؤرخ المصري القديم مؤسس لأسرة جديدة وهي الأسرة 18 الفرعونية رغم أنه ابن الملك سقنن رع أحد ملوك الأسرة 17 وبذلك أصبح أحمس أول ملوك الأسرة 18 كبداية جديدة لعهد جديد بعد تطهير البلاد من احتلال الهكسوس، وقد نشأت الأسرة 18 الفرعونية في طيبة بالوجه القبلي واستمرت أكثر من قرنين، تم خلالها تشييد الإمبراطورية المصرية في عهد الملك تحتمس الثالث سادس ملوك هذه الأسرة، وقد كرس الملك أحمس فترة حكمه التي استمرت ما يقرب من 25 سنة من حوالي سنة 1550 قبل الميلاد إلى سنة 1525 قبل الميلاد لإزالة الرواسب التي تركها الغزاة الأجانب فأعاد النظام والطمأنينة والأمن في البلاد[100]، ويبدو في الصورة الملك أحمس الأول أثناء معاركه ضد الهكسوس، كما تبدو في الصورة أثار الجروح في مومياء الملك سقنن رع وهو أول ملك قاتل الهكسوس، أما كلمة هكسوس باللغة المصرية القديمة فتعني ملوك الرعاة، وجدير بالذكر أن الملك أحمس الأول هو أحد هؤلاء القادة الذين يتوقف عندهم التاريخ كما ذكرنا، فإذا كان الملك مينا قد أسس

الدولة، والملك منتوحتب الثاني قد بدأ عصر الدولة الوسطي فإن الملك أحمس الأول هو الذي بدأ عصر الأسرة 18 والدولة الحديثة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الملكة حتشبسوت (ماعت كا رع):

تعتبر الملكة حتشبسوت هي أول شخصية نسائية من الشخصيات البارزة التي حكمت مصر يتناولها هذا الكتاب وتبدأ قصتها بأن تولى الملك تحتمس الثالث عرش مصر بعد وفاة والده الملك تحتمس الثاني، ولقد تزوج من ابنة الملكة حتشبسوت الأميرة نفرو رع ليؤكد حقه في وراثة العرش، وكان تحتمس عند تتويجه صغير السن وكانت حتشبسوت زوجة أبيه وأم زوجته وعمته في آن واحد امرأة قوية ناضجة طموحة تحمل الألقاب (ابنة الملك، أخت الملك، الزوجة الملكية، الزوجة الإلهية لآمون)[101] فاستطاعت بقوة شخصيتها منذ البداية أن تتولى شئون البلاد وأن تدير دفة الأمور، ولم تكن حتشبسوت بالمرأة التي تكتفي بهذا، فتمكنت في العام الثاني من حكم تحتمس الثالث من أن تنحيه عن العرش نهائيًا، بل أرغمته علي الاعتكاف وأمرت بتتويجها بموافقة الإله آمون ورغبته كما هو منقوش علي جدران معبدها الجنائزي بالدير البحري بطيبة.

وأصبحت حتشبسوت ملكة على مصر، وقامت بدور الإله حورس ومثلته على الأرض، واتخذت لقب ابن الشمس بل تشبهت بمظهر الرجال وارتدت زيهم، كما استعملت الذقن الملكية المستعارة الخاصة بالملوك

ولقد حكمت الملكة حتشبسوت مصر ما يقرب من 20 سنة كرَّست فيها كل جهودها للإنشاءات المعمارية، وذلك غير حملة عسكرية واحدة أرسلتها إلى النوبة للقضاء على الثوار هناك، ولقد أبحرت خمس سفن ضخمة في عهد حتشبسوت إلى بلاد بونت، قرب الصومال لإحضار منتجات هذه البلاد إلى مصر وقد صورت هذه الرحلة البحرية التي تعتبر من أهم النقوش لدراسة بلاد بونت ومنتجاتها على جدران معبدها بالدير البحري

كما أرسلت الملكة حتشبسوت التي حكمت مصر من حوالي 1478 ق م إلى سنة 1458 ق م، بعثات إلى محاجر أسوان لإحضار الزوج الأول والثاني من مسلاتها، ولقد استغلت مناجم الفيروز بشبه جزيرة سيناء خير استغلال، أما معبدها الجنائزي فهو المعبد المشهور الآن باسم معبد الدير البحري بالبر الغربي بطيبة حيث احتضنه الجبل في حنان، ويتكون من ثلاثة طوابق يتوسطها طريق صاعد إلى أعلى في المنتصف.

رواق المدرج الأول: ناحية اليمين يشاهد الزائر فيه مناظر صيد الطيور بالشباك والقوارب، أما ناحية اليسار وعلى الجدار الخلفي فصور احتفال نقل المسلات من أسوان بواسطة النيل على قوارب كبيرة ونرى حتشبسوت تقدم قرباناً للإله آمون، المدرج الثاني: يرى (إيوان الولادة) وتمثل مناظره الميلاد المقدس للملكة حتشبسوت، ويرى الزائر في أقصى اليمين مقصورة مكرسة لعبادة الإله أنوبيس حارس الجبانة وعلى اليسار من الناحية الأخرى (إيوان بونت) وعلى جدرانه نقوش تمثل البعثة التجارية التي أرسلتها حتشبسوت إلى بلاد بونت (الصومال حاليًا)، المدرج الثالث: يوجد فناء تزين واجهته الأعمدة التي يستند إليها بعض تماثيل ملكية في هيئة أوزيريس،

ويتوسط هذا الفناء باب من الجرانيت الأحمر الجميل عليه نقوش باسم الملك تحتمس الثالث الذي أزال اسم حتشبسوت، أما ناحية الشمال فتوجد حجرة فيها الصورة الوحيدة الباقية لحتشبسوت والتي سلمت من أيدي المخربين[102] وتبدو في الصورة[103] الملكة حتشبسوت ومعبدها الشهير.

والجدير بالذكر أن الملك تحتمس الثالث الذي حكم مصر بعد حتشبسوت استطاع تكوين إمبراطورية ضخمة وأصبحت طيبة في عهده عاصمة للعالم القديم تتدفق إليها الخيرات من كل مكان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الملك تحتمس الثالث:

لم يكد تحتمس الثالث يصبح حاكم البلاد، حتى اضطربت أحوال البلاد الآسيوية فكون الآسيويون حلفًا، فزحف تحوتمس الثالث بجيوشه وانتصر على أعدائه في معركة مجدو الخالدة التي تحفظ لنا الآثار تفاصيلها الكاملة، مبتدئًا بذلك هذه السلسلة من المعارك التي بلغت سبعة عشر حملة، استولى في بعضها على الساحل الفينيقي كله، جعلت منه أشبه بنابليون مصر في ذلك التاريخ البعيد، وأعظم هذه الحملات تلك التي قام بها في السنة الثانية والثلاثين من حكمه والتي بلغ فيها الفرات ودُوِنت وقائع تلك الحملة على جدران معبد الكرنك وعلى لوح جبل بركل فهابته الملوك والأمراء والدول في هذه الأنحاء، وراحوا يخطبون ودَّه بالهدايا والجزية.

وقد اتبع تحتمس الثالث سياسة حكيمة، فلم يمس عقائد الشعوب أو قوانينهم وترك لحكامهم الأصليين مباشرة سلطانهم شريطة أن يدفعوا لمصر الجزية

في مواعيد مقررة، وعمل على أن يتعلم أنجالهم بمصر ليغرس في قلوبهم حب مصر وليعودوا إلى بلادهم وكلهم عطف ومحبة على البلد الذي علمهم.

وقد صاغ كهنة آمون ملحمة شعرية رائعة يتغنون فيها بأمجاد فرعون وفيها تلخيص لكل معاركه وحروبه وفي هذا النشيد يخاطب آمون فرعون ولده تحتمس الثالث.

وكان تحتمس الثالث قائدًا حربيًا ممتازًا، لم يكلف أحدًا من رجاله القيام بعمل صعب، فكان يتقدم هو الصفوف، وكان إداريًا ممتازًا فقد وصفه وزيره رخ مي رع أنه كالصقر الذي يرى ما لا يبصره البشر العادي.

واتصفت حملاته بلون آخر، فإلى جوار الكتاب العسكريين والفنانين والرسامين الذين كان يصطحبهم معه، فقد أخذ في ركابه بعض علماء الحيوان والنبات الذين احضروا بعضها إلى مصر، وأقام تحوتمس الثالث المسلات التذكارية فشاد اثنتين منها في معبد الكرنك واثنتين في مدينة الشمس، وكأن القدر شاء أن يخلد تحوتمس الثالث، فتوزعت مسلاته الأربع في أرجاء المعمورة، تختال بها بلاد العالم العظمي، وتقف في أعظم ميادينها ناطقة بعظمة تحتمس الثالث، تقف إحدى مسلاته في مدينة القسطنطينية – أحضرها الإمبراطور الروماني تيودوسيوس 379-395م –، وتقف الثانية في مدينة روما أمام قصر لتران وتقف مسلة ثالثة أهداها محمد علي لحكومة إنجلترا في مدينة لندن على شاطئ التيمس، كما أهدى الخديوي اسماعيل المسلة الرابعة إلى حكومة الولايات المتحدة، حيث تقوم في حديقة السنترال أعظم حدائق نيويورك، ومات تحتمس الثالث بعد أن حكم أربعًا وخمسين سنة وتجاوز عمره السبعين عامًا[104]، وفي عهد هذا الملك تم إنشاء البحيرة

المقدسة بمعبد الكرنك بطول 80 مترًا، وعرض 40 مترًا، وكان يحيط بها سور. ويوجد على جانبيها الشمالي والجنوبي مقياس للنيل،له مدخلان أحدهما من الجهة الشرقية، والثاني من الناحية الغربية بكلا منها سلالم حجرية تلك التى كان يغتسل فيها الكهنة قبل أداء المراسم الدينية أو الاحتفالات القومية التي تقوم الآلهه بحضورها. وكان يتم تغذيتها عن طريق قناة تصل البحيرة بمياه النيل والإعجاز في هذه البحيرة أن المياه فيها ثابتة ولا يزيد منسوب المياه أو ينقص حتى مع تغير ارتفاع أو نقصان منسوب النيل من أكثر من 3000 سنة ولم تجف البحيرة أبدًا وهذا واحد من أهم براهين إثبات عبقرية المهندس المصري القديم مياه منسوبها ثابت لا يقل رغم عوامل البخر والفقد والتسرب ولكن لا عجب فهو المهندس المصري الذي شيَّد وبَنى وعمَّر وحيَّر كل مهندسي التاريخ، وجدير بالذكر أن الملك تحتمس الثالث هو سادس ملوك الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية بالدولة الحديثة وكانت طيبة عاصمة ملكه تتدفق إليها خيرات العالم القديم وعن هذا الموضوع كتب شيخ الأثريين أحمد فخري: (كانت طيبة في أيام تحوتمس الثالث عاصمة العالم القديم، وكانت تتدفق عليها خيرات إفريقيا وآسيا وجزر البحر المتوسط، وكان يفد إليها كل عام رسل جميع البلاد يحملون خير ما استطاعت بلادهم تقديمه من ذهب وفضة، ومعادن أخرى وأحجار كريمة، ومصنوعات مختلفة، وكان موظفو الخزانة هم المسئولون عن تسلم هذه الهدايا وأنواع الجزية، كما كان الوزير يستقبلهم بحكم منصبه ليقدمهم إلى فرعون، وكثيرًا ما سجل كبار موظفي ذلك العهد هذه المناظر على جدران مقابرهم فأصبحت مقابر طيبة سجلًا جامعًا لحضارات بلاد الشرق القديم في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، إذ سجَّل الفنانون المصريون ما رأوه فرسموا وفود هذه البلاد بملابسهم

الوطنية، وما كانوا يحملونه من مصنوعات بلادهم ومحاصيلها، وقد زال أثر تلك الحضارات من كثير من بلاد آسيا، وجزر البحر الأبيض والسودان، وأصبحنا نعتمد على مقابر طيبة وحدها كالمصدر الأول لدراسة حضارات تلك البلاد والشعوب -)[105]

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الملك أمنحتب الثاني:

هذا الملك هو سابع ملوك الأسرة 18 الفرعونية بالدولة الحديثة وهو ابن الملك تحتمس الثالث مؤسس الإمبراطورية المصرية، وقد نشأ أمنحتب الثاني وترعرع على دقات طبول الحرب و رأى العالم كله ينحني أمام أبيه صاحب الشخصية الفذة والذي قام بتربية ابنه تربية عسكرية تحت إشراف أحد ضباطه الموثوق بهم.

وقد قام القائد الذي قام بتدريب الأمير أمنحوتب بتسجيل هذا الحدث بالطبع في مقبرته ليؤكد أنه كان يدرب ابن الملك تحتمس الثالث (إذ نرى صورته على أحد جدران مقبرة الضابط "مين" بطيبة وهو الذي كان يشرف على تربية أمنحوتب العسكرية ويعلمه الرماية، وهو يوجه الحديث لأمنحوتب قائلًا: شد القوس حتى أذنك مستعملًا كل ما في ذراعيك من قوة وثبت السهم يا أمير أمنحوتب)، وبمجرد موت تحتمس الثالث أعلنت بعض الولايات في سوريا استقلالها عن الحكم المصري وهذا بالطبع يعد استخفافًا بأمنحوتب الثاني فقام على رأس جيش وخاض معركة انتقامية بشعة نكَّل فيها بأعدائه أشد التنكيل مما أدَّى إلى توطيد أركان إمبراطوريته، وعرف الجميع أن الجالس على العرش لا يقل قوة عن أبيه وسارعت كل الولايات بإرسال الهدايا وتقديم

فروض الطاعة للملك الجديد، وقد جلس أمنحتب الثاني على عرش الإمبراطورية لمدة 25 سنة[106] تقريبًا من حوالي سنة 1425 قبل الميلاد، ولقد أمر أمنحوتب الثاني بحفر مقبرته في وادي الملوك بطيبة على غرار مقبرة والده تحتمس الثالث، وقد تم تزيينها بأجمل الصور والكتابات الدينية، بل اعتبرت مقبرة أمنحتب من أجمل ما خلفه فراعنة الأسرة الثامنة عشرة من المقابر في طيبة، كما أن لهذا الملك العديد من الآثار ومن بينها تمثال راكع وفي يديه إناءان، وقد زاد هذا الملك كثيرًا في معبد الكرنك الشهير[107] والصورة لتمثال الملك امنحتب الثاني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تحتمس الرابع آخر الملوك المحاربين في الأسرة 18:

وجاء بعد ذلك على عرش مصر الملك تحتمس الرابع بعد صراع على الحكم مع أخوته بعد وفاة أبيه أمنحوتب الثاني، وكان تحتمس الرابع ملك محارب مثل أبيه وجده ويعتبر آخر الملوك المحاربين في هذه الأسرة[108] وقام بعدة حملات لإعادة النظام في بعض الولايات الخاضعة للإمبراطورية وترك العديد من الآثار الموجودة حتى الآن[109] من بينها مسلة موجودة حاليًا في روما وتعتبر من أعلى المسلات المصرية إذ يصل ارتفاعها إلى 30.7 مترًا (وقد خطى تحتمس الرابع خطوة جريئة في السياسة الخارجية وهي أنه تزوج من ابنة الملك الميتاني "أرتاتاما" وهي خطوة لها أكثر من مدلول إذ أن هذا الزواج الدبلوماسي يؤكد اعتراف فرعون مصر بدولة الميتاني وفي نفس الوقت يعلن إنهاء حالة الحرب بين مصر وهذه الدولة وأصبحت من الآن مملكة الحيثيين هي العدو المشترك لمصر وللميتانيين وقد أطلق المصريون على هذه الأميرة الميتانية اسمًا مصريًا هو "موت أم أويا" وهي التي أصبحت فيما

بعد أم الفرعون المصري أمنحوتب الثالث)[110] وقد مات تحتمس الرابع شابًا حيث دام ملكه 14 سنة فقط، وكان قد تولى الملك وهو في العشرين من عمره أي مات وعمره 34 سنة ودفن في وادي الملوك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الملك أمنحتب الثالث وزوجته الملكة (تي):

وبعد أن مات تحتمس الرابع تولى ابنه الملك أمنحتب الثالث حكم مصر وكان لا يميل للحروب وبدأ في عهده ما يسمى (أيام السلم)[111] وقد تزوج هذا الفرعون فتاة من عامة الشعب ولم يتزوج أميرة ملكية.

وكانت مصر في عهده قد تأثَّرت بثقافات وحضارات الشعوب الأخرى التي شملتها الإمبراطورية المصرية فأصبح المصريون أكثر مرونة في تقاليدهم الدينية القديمة وكان اسم زوجته (تي) وفي هذا العصر بدأ المصريون يقيمون التماثيل للملكات جالسات جنبًا إلى جنب بجوار الملوك وفي نفس الحجم وعندما جلس هذا الفرعون على عرش مصر كانت الخزائن عامرة بالذهب وجميع الولايات مستقرة، وكانت الخيرات تعم البلاد وبدأ الناس يعيشون حياة الترف والمتعة وازدهر الفن وإقامة المباني الرائعة ذات النقوش البديعة في كل مكان، وكان هذا الفرعون وزوجته من أصحاب الذوق الفني الرفيع.

ولم يفكر هذا الفرعون أن يذهب إلى أي مكان في إمبراطوريته الشاسعة ليراه الناس ويرهبونه هو وجيشه إنما قرر الاستمتاع بحياته، ولأن الناس على دين ملوكهم فإن هذه الروح انتشرت في المجتمع المصري وهذا الملك من خير الأمثلة على ما ذكرناه عن الأحفاد الذين يعيشون حياة الترف والمتعة

ويضيعون ما صنعه الأجداد العظماء فقد ولدوا وفي أفواههم ملاعق من ذهب، ويبدو أن صحة الملك قد ضعفت من كثرة الملذات وأصبح رجلًا محطمًا مما أدى إلى سيطرة الملكة (تي)[112] على مقاليد السلطة في يدها كما أنه أشرك ابنه معه في الحكم في أواخر أيامه وهذا الابن هو الملك امنحتب الرابع المعروف باسم اخناتون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الملك أمنحتب الرابع–أخناتون:

عقب وفاة الملك أمنحوتب الثالث تولى ابنه أمنحوتب الرابع عرش مصر وهو يعتبر عاشر ملوك الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية وكان عمره لا يزيد عن 16 عامًا فعاونته أمه الملكة تي في إدارة البلاد

وقد استمر حكم هذا الملك لمدة 18 سنة، أي من حوالي سنة 1353 قبل الميلاد إلى سنة 1335 قبل الميلاد وقد بدأ أمنحوتب الرابع حكمه مثل أسلافه من الملوك بتقديم الولاء للإله آمون الإله الرسمي للدولة وتلقب بالألقاب المعتادة المتوارثة، ثم تزوج من الأميرة الجميلة نفرتيتي.

وما كادت الأمور تستتب للملك أمنحوتب الرابع حتى بدأ يفكر في دينه الجديد والدعوة له، وإلى إله واحد يكمن في قرص الشمس أطلق عليه اسم الإله آتون.

وأقام معبد لعبادة قرص الشمس التي كان يعتبرها مصدر القوة مما جعل كهنة آمون يشعرون بالخطر علي الآلهة أمام هذا الانقلاب الديني الكبير، ثم قام بتغيير اسمه من أمنحتب الرابع إلى إخناتون وتعني (المفيد للشمس)[113] و

اشتد العداء بينه وبين كهنة آمون بل إن أمه الملكة تي غضبت أيضًا من هذا التحول الغريب على الأسرة ولم يكن إخناتون من الملوك المحاربين فبدأت الولايات واحدة واحدة تنفصل عن حكم مصر وتتداعى أركان الإمبراطورية التي أقامها أجداده المحاربين وتنهار، وقام بتشييد عاصمة جديدة له ولعائلته ولأتباعه وأطلق عليها "أفق آتون" وهي المدينة المعروفة حاليًا بتل العمارنة على البر الشرقي للنيل بالقرب من ملوي[114]

مما أدَّى إلى تدبير مؤامرات لقتله والتخلص منه لإنقاذ الإمبراطورية المصرية من الانهيار الكامل، وفيما يلي مقطع صغير جدًا من النشيد الذي كان يتعبد به إلى الإله آتون الذي كان يعبده.

(ما أعظم أعمالك التي عملتها، إنها خافية على الناس أيها الإله الأوحد، الذي لا شبيه له، لقد خلقت الدنيا كما شئت عندما كنت وحدك، الناس والماشية والوحوش الضارية وكل ما على الأرض يسعى على قدميه وكل ما يرتفع في السماء يطير بجناحيه، تضع كل شيء في مكانه إنك أنت الذي يمدهم بما يحتاجونه ويحصل كل شخص على طعامه وسنوات حياته مقدره له)[115]

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الملك توت عنخ آمون:

كان إخناتون لديه ثلاث بنات فقط ماتت إحداهن وهي صغيرة ولم يكن له أولاد ذكور وكان يوجد إخوة صغار لإخناتون كان أحدهم اسمه (سمنخ كا رع) والثاني اسمه (توت عنخ آتون) وكان إخناتون يميل أكثر إلى (سمنخ كا رع) فقام بتزويجه من ابنته وجعله شريكًا له في ملكه ثم بدأت المؤامرات

للتخلص من إخناتون وشريكه في الملك (سمنخ كا رع) وتم اغتيال (سمنخ كا رع) ثم تم قتل إخناتون بعد عامين من قتل شريكه في الملك وتولى حكم البلاد توت عنخ آتون الذي تزوج من إحدى بنات اخناتون وكان صغير السن وقام بتغيير اسمه تحت ضغط من الكهنة ليصبح توت عنخ آمون[116] وأعاد العاصمة مرة أخري في طيبة وتم تحطيم معظم آثار اخناتون وخربوا عاصمته في العمارنة وكان الملك الصغير توت عنخ آمون مستسلم تمامًا لقرارات الكهنة وترجع شهرته حاليًا إلى العثور على مقبرته كاملة بكل كنوزها لأنها كانت مختفية عن اللصوص كل هذه السنين، وقد تم اكتشاف المقبرة في 4 نوفمبر 1922 (بكل ما فيها من ثروة تدل على البذخ والإسراف الذي عاش فيه ملوك الإمبراطورية، ويجب أن يؤخذ في الاعتبار بأن توت عنخ آمون كان له كل هذه الثروة من الأثاث الجنازي ولم يكن ملكًا له مكانته التاريخية، فماذا لو قيس بغيره من الملوك وفي هذه الحالة قد يستطيع الإنسان أن يتخيل ما يجب أن يكون عليه الأثاث الجنازي بالنسبة للملوك العظام أمثال تحتمس الثالث وأمنحوتب الثالث وسيتي الأول ورمسيس الثاني)[117]

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الملك حور محب:

ذكرنا أنه في أواخر عهد الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية مرَّت مصر بفترة ضعف واضطراب بدأت من أواخر عهد (امنحتب الرابع) المعروف باسم إخناتون، وكادت البلاد تقع في هاوية الإنقسام الداخلي والانحلال، لولا أن قيض الله لها زعيمًا من عامة الشعب أهلته مواهبه وشخصيته لتسلم زمام الأمور وإنقاذ الوطن وهو (حور محب) الذي كان من ضباط الجيش في عهد

اخناتون وقائد الجيش في عهد توت عنخ آمون، ولم يكن طامعًا ولا راغبًا في أن يؤسس أسرة ملكية، ولا أن يكون ملكًا.

تولى حور محب الملك لأن الظروف دفعته إلى ذلك دفعًا، لإنقاذ البلاد من الهاوية التي تردت فيها،

وقد تزوج حور محب من الأميرة موت نجمت أخت الملكة نفرتيتي ليكتسب شرعية الحكم كما كانت تقتضي الأمور في العصر الفرعوني عندما يكون الملك الجديد لا ينتمي للأسرة الحاكمة السابقة.

وقد شيد حور محب في معبد الكرنك بوابة من الجرانيت ويمتد من هذه البوابة طريق الكباش إلى الجنوب حتى معبد الإلهة موت ثم يأخذ طريقًا آخر إلى معبد الأقصر، وقد استطاع هذا الملك أن يعيد الاستقرار للبلاد ولاستكمال هذا الاستقرار حارب الحيثيين وعقد مع ملك خيتا معاهدة ضمنت له استقرار الأمور مؤقتًا على الحدود وتفرغ للإصلاح الداخلي حتى تستعيد البلاد قوتها وهيبتها، وكتب عنه الدكتور أحمد بدوي بعنوان (حور محب أبو الشعب وصديق الفلاح) ما ملخصه:

كان يؤذيه ما رأى من حال الشعب، فالفلاح المسكين قد أهمل حاله واشتد بؤسه بعد أن تجرع مرارة العيش قبل أيام حور محب، فعزم على إصلاح شأنه وتأمين رزقه، وتوفير سعادته، فعمد إلى إصدار قانون ينظم حياة الأمة أملاه بنفسه على كتابه، كما حدد القانون شروط تعيين القضاة في محاكم الدولة فاختارهم من أحسن الناس سيرة وأكرمهم خلقًا، وأجرأهم قلبًا، وأطهرهم

لسانًا، وأعفهم يدًا، وحرم على القضاة أن يصادقوا أحدًا من الناس، أو يتهادوا مع الناس، أو تكون بينهم وبين الناس معاملات مالية..

وهكذا كان حور محب رجل حزم وعزم، لا يلين في الحق، ولا تأخذه في تنفيذه لومة لائم، وقال الملك حور محب عن القانون الذي وضعه: (إني قد وضعته لضمان رفاهية شعبي)

ويعتبر الملك حور محب آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة وقد حكم مصر ما يقرب من 12 سنة، من حوالي سنة 1319 قبل الميلاد إلى حوالي سنة 1307 قبل الميلاد[118]

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الملك رمسيس الثاني وأهم ملوك الأسرة 19 الفرعونية:

يعد الملك رمسيس الأول هو أول ملك في الأسرة 19 الفرعونية وقد حكم مصر أقل من عامين فقط.

وجاء بعده (سيتي الأول) ويعتبر هذا الملك هو المؤسس الحقيقي للأسرة 19 لأنه بدأ عصر جديد يطلق عليه "عصر الولادة" أو البعث فقد قام بعمل إصلاحات واسعة للمباني الدينية كما قام بإخماد العديد من الثورات وهزم البدو في سيناء وجنوب فلسطين بل إنه اندفع بجيشه في كل مكان (ليبيا، سوريا، فلسطين... إلخ) لإعادة أمجاد تحتمس الثالث وسجل انتصاراته على الجدران، وترك العديد من الآثار أشهرها بهو الأعمدة الرائع في الكرنك واهتم بالمناجم وحفر الآبار وأشرك ابنه في الحكم لتدريبه على الحكم، وقد بلغت مساحة بهو الأعمدة 5400 مترًا، فالنصف الشمالي من هذا البهو ينتمي إلى

سيتي الأول والنصف الثاني ينتمي للملك رمسيس الثاني وكل هذه الأعمدة مزينة بالنقوش والمناظر، وقد جلس سيتي الأول على عرش مصر ستة عشر عامًا، وبعد أن مات تولى ابنه رمسيس الثاني حكم مصر واسم رمسيس أصله (رع مس سو) أي الإله رع هو الذي أنجبه، وقد حكم مصر لمدة ما يقرب من ستة وستين عامًا، أي من حوالي سنة 1290 قبل الميلاد إلى سنة 1224 قبل الميلاد.

وهو يعد من أشهر الفراعنة في تاريخ مصر ولقد خلد رمسيس الثاني نفسه بما أقامه من معابد ومسلات (100مسلة) ومقاصير وتماثيل ضخمة تزن مئات الأطنان ولوحات في جميع أنحاء مصر وكذلك شيد الملك رمسيس الثاني معابد في تنيس وأبيدوس والنوبة ولعل من أشهرها معبد أبي سمبل الكبير الذي كرَّسه لعبادة الإلهين آمون رع وبتاح والملك رمسيس الثاني نفسه، وكذلك معبد أبي سمبل الصغير الذي كرَّسه لعبادة الإلهة حتحور وزوجته الملكة نفرتاري التي كانت الزوجة الرئيسية لرمسيس الثاني أو كبيرة الزوجات الملكيات واسمها تمَّ ترجمته بمعاني مختلفة مثل جميلة الجميلات أو التي لا مثيل لها هذا إلى جانب بناء معبده الجنائزي الذي شيَّده في البر الغربي بطيبة ويعرف باسم معبد الرمسيوم والجدير بالذكر أن الشمس تتعامد على وجه تمثال رمسيس الثاني في معبده في مدينة أبي سمبل، جنوب أسوان مرتين كل عام مرة يوم تتويجه ومرة أخرى يوم مولده وتتوغل الشمس لمسافة حوالي 60 مترًا من مدخل المعبد لتصل إلى قدس الأقداس، وبرغم أن الملك رمسيس الثاني شيَّد مقبرة عظيمة في وادي الملوك إلا أنه لم يدفن بها، أما الملكة نفرتاري فقد دُفنت في مقبرتها الشهيرة بوادي الملكات بطيبة الغربية وتعتبر من أروع المقابر الفرعونية في مصر ومما يذكر

أيضًا للملك رمسيس الثاني أنه لم يهمل الناحية البحرية لمصر، فقد بني أسطولًا من السفن المحاربه ليرد به هجمات قراصنة البحار

وهو صاحب معركة قادش الشهيرة التي بدأ سير القتال فيها لصالح العدو في بداية المعركة ولكنه استطاع أن يلحق بهم هزيمة منكرة في نهاية المعركة وطلبوا منه الصفح وقبلوا الأرض تحت قدميه، وسيطر رمسيس الثاني على فلسطين ولبنان وجزء من سوريا[119] بعد أن اتفق مع الأعداء (الحيثيين) على احترام الحدود من كلا الطرفين وإنهاء الحرب بالرغم من انتصاره الساحق،وكانت حالة التوتر مستمرة بين المصريين والحيثيين إلى أن أدرك الطرفين أن السلام خير لهما، فأبرموا معاهدة " أمن طيب وأخوة " شهد الآلهة المصريون والحيثيون عليها، ونعرف تفاصيل هذه المعاهدة من النصوص المصرية المكتوبة بالهيروغليفية على أحد جدران معابد الكرنك ومن النصوص المسمارية المكتوبة على لوحين من الطين عثر عليهما في بوغاز كوي، بعد ذلك بدأ تبادل الخطابات الودية بين حكام الدولتين، وقد اشتركت في هذه المراسلات أيضًا كلًا من زوجة رمسيس الثاني الملكة نفرتاري وزوجة الملك خاتو سيلي الثالث الملكة بوتو خيبا، بل أكثر من هذا لقد قام خاتو سيلي الثالث بزيارة ودية لمصر)[120]

وكان حكم الملك رمسيس الثاني مستقر وحافل بالإنجازات وكان له أولاد وبنات كثيرين لم يستطع المؤرخون حصرهم ويقال أنه كان عنده ما يزيد عن 100 ولد وبنت تقريبًا، وبعد أن مات خلفه على العرش ابنه الملك (مرن بتاح) وأغلب الحروب التي خاضها هذا الملك حروب دفاعية على ما يبدو ومات بعد 11 سنة من حكمه.

(على أن الخطر الذي كان يهدد مصر في عهده لم يكن فقط من الشرق أو من الجنوب بل أتى أيضًا من الغرب من ليبيا، فقد بدأت هجرات لقبائل من شمال أفريقيا ومن الصحراء الغربية بنسائهم وأطفالهم للبحث عن الطعام وذلك بسبب القحط الشديد الذي ألمَّ ببلادهم وقد أتوا بقيادة –مري- رئيس قبيلة الليبو "ليبيا" وقد أتى ومعه أولاده وزوجاته الاثنتا عشرة وقد يدل هذا على نية الاستيطان في وادي النيل، ولهذا اضطر الملك مرنبتاح في العام الخامس من حكمه أن يرسل حملة عسكرية للدفاع عن حدود مصر الغربية وذلك بعد أن أعد لهم جيشًا قويًا من المشاة والمركبات الحربية فاستطاع هزيمتهم، وكانت هذه الهزيمة القاسية عقابًا لهم وردعًا لأمثالهم، وقد ذكرت النقوش المصرية التي ترجع لعهده تفاصيل هذا القتال على أحد جدران معابد الكرنك، وقد أمر مرنبتاح باستغلال ظهر لوحة حجرية من عهد الملك أمنحوتب الثالث ليسجل عليها أن الخراب قد حل بالتحنو "ليبيا" وأن إسرائيل قد خربت وزالت بذرتها " وهذه هي المرة الأولى التي يذكر فيها اسم إسرائيل على لوحة مصرية) وتعتبر لوحة مرنبتاح من أشهر وأهم الآثار من تلك الفترة وهي تسمى أيضًا لوحة الانتصار حيث سجل فيها انتصاراته في الشرق والغرب كما أنها اللوحة الفرعونية الوحيدة المذكور فيها كلمة إسرائيل.

ويبدو أن هذا الملك كان آخر الملوك الأقوياء في الأسرة 19 إذ لم يخلفه ملك يمكن مقارنته به إلى أن تأسست الأسرة 20 الفرعونية التي كان من أهم ملوكها الملك رمسيس الثالث بعد ذلك، وفيما يلي أسماء جميع ملوك الأسرة 19 علي الترتيب:رمسيس الأول،سيتي الأول،رمسيس الثاني، مرنبتاح، سيتي الثاني،آمون مس،سيبتاح تاوسرت(ملكة)[121]

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الملك رمسيس الثالث:

ربما يكون هذا الملك أقل شهرة من الملك رمسيس الثاني ولكنه لا يقل عنه قوة ومكانة في تاريخ الفراعنة.

وبينما كان الملك رمسيس الثاني ينتمي إلى الأسرة 19 الفرعونية، فإن الملك رمسيس الثالث يعد أول وأشهر ملوك الأسرة رقم 20 المكونة من سبعة ملوك وكلهم اسمهم رمسيس (من الثالث إلى التاسع) وحكموا مصر حوالي 115 سنة[122] وكان هو مؤسس هذه الأسرة الذي حكم البلاد لمدة 32 سنة، ويقول عنها أحمد فخري (كانت في الواقع فترة صحو بين عهدين فاسدين)[123] وفي عهده تم تشييد العديد من الآثار الرائعة واستطاع أن يحمي مصر من جميع الأخطار التي تعرضت لها وفي عهده حصل كهنة آمون[124] على وضع خاص جدًا (إذ نعرف مجموع ما امتلكه معبد آمون من أراضي زراعية وصل إلى 10% من مجموع الأراضي في حين أن نصيب جميع الآلهة الأخرى لا يزيد عن 5% من هذه الأراضي، فقد كان يتبع معبد آمون في طيبة بمفرده 86486 خادمًا و 421362 رأسًا من الماشية كبيرها وصغيرها وكان عدد الأرغفة التي تقدم في الأعياد 2844357 والطيور 126250 كما كان يمتلك مناجم للذهب والفضة هذا فضلًا عن العديد من المصانع التي تنتج له، وقد يوضح هذا مدى ما وصل إليه نفوذ كهنة الإله آمون في عهد رمسيس الثالث)

كما تشير الأرقام إلى مدى دقة الحسابات التي تحصر كل شيء يخص المعابد في ذلك العهد والمدونة على الآثار ومحفوظة إلى الآن، وكان رمسيس الثالث من المعجبين جدًا بالملك رمسيس الثاني وقام بمحاكاته في كل شيء وأطلق

اسمه على أولاده تيمنًا به، ثم سرعان ما تدهورت البلاد مرة أخرى من بعده وأهم ما يميز هذا العصر الذي كان تمهيدًا لعصر الاضمحلال الأخير ونهاية الفراعنة بعد ذلك أن الأجانب تولوا وظائف هامة في الدولة وفي البلاط الملكي وتسبب هؤلاء الموظفون في إحضار الجنود المرتزقة الغير مصريين وساءت الحالة الاقتصادية في البلاد في آخر أيام هذا الملك وتولي حكم مصر من بعده ملوك ضعفاء عجزوا عن التغلب علي الأزمة الاقتصادية وسيطر عليهم الكهنة إلى أن انتهت هذه الأسرة تمامًا وبداية ما يسمى بعصر الاضمحلال الأخير[125]

ولكن قبل أن نترك هذه الأسرة سنذكر موقف حدث في عصر الملك رمسيس التاسع كما ورد في كتاب معالم تاريخ وحضارة مصر كالآتي: جلس على عرش مصر بعد ذلك الملك رمسيس التاسع واستمر يحكم أكثر من عشرين عامًا ولعل شهرته ترجع للبرديات التي تتحدث عن سرقات مقابر الملوك التي حدثت في عهده، وقد وصل الفساد الإداري ذروته في العام السادس عشر من حكمه وبدأت العصابات في طيبة تتجه لسرقة المقابر وما بها من ذهب وفضة ولم تسلم مقابر فراعنة مصر العظام أمثال أمنحوتب الثالث وسيتي الأول ورمسيس الثاني من عبثهم، وبدأ الناس يفقدون أيمانهم بآلهتهم وبملوكهم وحكامهم، إذ تسجل إحدى هذه البرديات كيف أن "باسر" عمدة مدينة الأحياء الممثلة في الضفة الشرقية لطيبة تقدم بتقرير للوزير " خع إم واست " الذي كان ينوب عن الملك رمسيس التاسع يبلغه فيه عن السرقات التي تحدث في مدينة الموتي " الضفة الغربية لطيبة " تحت سمع وبصر عمدتها "باورعا" فأمر الوزير بتشكيل لجنة للتأكد من صحة ما جاء بالتقرير، وقد سجلت هذه اللجنة النتائج التي وصلت إليها على أكثر من بردية

لعل أهمها هي بردية "أبوت" التي أبقاها لنا الزمن لنعرف منها تفاصيل هذه السرقات وما تمَّ بخصوصها فقد اعترف اللصوص بانتهاكهم لقدسية مومياوات فراعنة مصر كبيرهم وصغيرهم ممَّا اضطر ملوك الأسرة الحادية والعشرين من الكهنة أن ينقلوا – سرًا – بعض مومياوات فراعنة الدولة الحديثة لحمايتها من عبث اللصوص إلى أكثر من مخبأ، فنقلوا 13 مومياء إلى مقبرة أمنحوتب الثاني ثم اختاروا مقبرة لم تتم بالدير البحري ووضعوا فيها 40 مومياء أخرى وهي ما يطلق عليها اصطلاحًا خبيئة الدير البحري، وظلت مومياوات الملوك في مخبأها إلى أن توصل "إميل بروكش " عام 1881م إلى مومياوات الدير البحري "ولوريه" عام 1898م إلى المومياوات المختبئة في مقبرة أمنحوتب الثاني وهم جميعًا الآن بصالة المومياوات بالمتحف المصري)[126]

الملك شاشنق الأول:

هذا الملك هو أول ملوك الأسرة الثانية والعشرين الفرعونية والتي تنحدر من أصول ليبية، وقد عاصر هذا الملك دولة إسرائيل الأولى ودخل معها في صراع مسلح،، ويقول المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي (والصحيح أنه وإن كان أصله البعيد يرجع إلى ليبيا، لكن أسرته تمصَّرت منذ أن استوطنت مصر من عدة أجيال مضت وسكنوا إهناسيا المدينة، وصاروا من المواطنين المصريين، وتقلد كثير منهم مناصب الدولة، وأظهروا فيها إخلاصًا لوطنهم، فلا يصح القول بأن هذه أسرة ليبية وأن الليبيون حكموا مصر، بل الصحيح أنها أسرة مصرية اندمجت في المواطنين فصارت منهم)، ويقول الدكتور أحمد فخري (من التَّجني على التاريخ أن يسمى وجود أفراد هذه الأسرة على عرش البلاد

أنه استعمار ليبي، أو أن مصر فقدت استقلالها) وقد اتخذت هذه الأسرة عاصمة لها في مصر وهي (تل بسطة) الزقازيق حاليًا

وقد تدهورت العلاقات بين مصر ومملكة بني إسرائيل في عهد الملك شاشنق في مصر وعهد الملك (رحبعام) في بني إسرائيل في فلسطين وقام شاشنق بشن حملة على فلسطين واستولى على خيراتها ويقول أحمد فخري في ذلك (ولكن التوراة تذكر لنا أنه في السنة الخامسة من حكم رحبعام حنق شيشاق ملك مصر على أورشليم واستولى على كنوز بيت الرب وكنوز الملك وأخذ كل شيء)[127]

وقد غزا الملك شاشنق الأول فلسطين كلها تقريبًا ليوسع نفوذ مصر ويعيد أيام الفراعنة المحاربين من أمثال تحتمس الثالث ورمسيس الثاني وغيرهم، وقد ورد اسمه في التوراة بالإصحاح الرابع عشر بالآية الخامسة والعشرين، ومات حوالي سنة 920 قبل الميلاد بعد أن حكم مصر 21 سنة[128]

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الملك بعنخي:

في حوالي سنة 715 قبل الميلاد وأثناء عصر الاضمحلال الأخير في زمن الفراعنة اشتعلت الصراعات على الحكم وتعددت الأسرات المالكة في نفس الوقت فظهرت قوة جديدة طاغية اجتاحت البلاد وسيطرت عليها بقيادة واحد من طراز القادة الكبار وهوملك النوبة في ذلك الوقت الملك (بعنخي).

واستطاع أن يؤسس أسرة مالكة جديدة في مصر وهي الأسرة الخامسة والعشرين المكونة من خمسة ملوك حكموا مصر لمدة حوالي 52 سنة.

وبدأت هذه القصة عندما هرب كهنة آمون إلى الجنوب نتيجة لعدم اعترافهم بما يحدث في مصر أثناء الحكم الليبي لها، وقد قام الكهنة بنشر الديانة المصرية في شمال السودان وبلاد النوبة حيث استطاعوا أن يجعلوا تقديس الإله آمون هو الشغل الشاغل لكل حكام هذه المنطقة بل إن السبب الرئيس لتقدم جيوش الملك بعنخي نحو الشمال كان لتأييد الإله آمون وإنقاذ طيبة من أعداءه والقضاء علي الفوضى والفساد الذي عم مصر كلها ويقول أحمد فخري عن ذلك (لم يرسل بعنخي هذا الجيش غازيًا يريد الفتح والنصر وإنما أرسله ليؤيد آمون وكهنته وينقذ طيبة ممن حدثتهم أنفسهم بالاعتداء عليها ولهذا نرى بعنخي يذكر جنوده بأنه لا حول ولا قوة إلا بآمون ويأمرهم عندما يرون أسوار طيبة أن يلقوا بأسلحتهم ويطهروا أنفسهم ويدخلوا مدينة آمون خاشعين)[129]، ويعتبر الملك بعنخي من الشخصيات البارزة التي تفرض نفسها علي كتب التاريخ بقوة وكان هذا الملك يعشق الخيول وعندما شاهد خيول القصر الملكي الذي دخله فاتحًا بعد استسلامه وجد الخيول هزيلة جدًا نتيجة إهمالها فوبخ الملك المستسلم على ذلك أكثر من توبيخه علي الفساد والفوضى التي سادت البلاد في عهده وهذا يدل على أن الملك بعنخي كان فارس أصيل ويتمتع أيضًا بأخلاق الفرسان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الملك بسماتيك الأول:

يعرف الكثير منا الملك أحمس الأول طارد الهكسوس ومحرر مصر وأول ملوك الأسرة 18 الفرعونية، ولكن القليل منا يعرف الملك بسماتيك الأول طارد الآشوريين ومحرر مصر وأول ملوك الأسرة 26 الفرعونية، فقد قام هذا الملك بتحرير مصر من الاحتلال الآشوري ولكن الفرق بينه وبين الملك

أحمس أنه استعان ضمن جيشه بجنود مرتزقة من الإغريق بينما حرر أحمس الأول مصر بجيش مصري خالص.

وقد أسس بسماتيك الأول الأسرة السادسة والعشرين المكونة من ستة ملوك حكموا مصر حوالي 138 سنة[130] من سنة 663 ق م إلى سنة 525 ق م، وقام بالعديد من الإصلاحات والإنجازات، ولكنه أخطأ خطأً فادحًا عندما استعان بالجنود المرتزقة اليونانيين (الإغريق) في تحقيق أهدافه بالإضافة إلى الجنود المصريين، وبالرغم من أن الحضارة المصرية الفرعونية كانت أعرق من الحضارة الإغريقية أيام أمجاد الفراعنة الأوائل إلا أنها بدأت تتراجع عندما فقد الفراعنة روح القتال واعتمدوا على المرتزقة، ففي عهد هذه الأسرة لم يفقد المصريون هذه الروح بالكامل تقريبًا فقط بل إن الشعب المصري فقد أيضًا روح الإبداع الفني فتراه يكرر ويحاكي الفن الفرعوني السابق[131] دون تجديد أو ابتكار نظرًا لوجود العديد من اليونانيين الإغريق في بلاده سواء بصفتهم محاربين أو بصفتهم تجار، فحاول أن يتمسك على قدر المستطاع بأمجاد سابقيه خوفًا علي هويته من الضياع في ظل الحضارة الإغريقية فأصبح يقلد الفراعنة الأوائل في فنونهم دون أن يقدم حضارة جديدة[132]

الملك قمبيز:

لماذا قرر الملك الفارسي قمبيز فتح مصر سنة 525 قبل الميلاد في عهد الملك بسماتيك الثالث آخر ملوك الأسرة 26 الفرعونية؟، يجيب عن هذا السؤال الأستاذ جمال بدوي في كتابه الممتع في رحاب الفكر حيث كتب تحت عنوان ناموس الحياة ما ملخصه: ونسأل: لماذا قرر قمبيز فتح مصر؟ رغم أن مصر كانت تعيش مرحلة من مراحل البيات والسكون ولم يصدر عنها

أي إساءة للفرس، ولم ترتكب فعلاً يهدد الأطماع التوسعية عند العاهل الإيراني؟، قد يبدو هذا السؤال ساذجًا إذا نظرنا إليه في إطار الفكر الاستعماري التوسعي، الذي لا يسمح لك بأن تسأل دولة عظمى عن سبب عدوانها علي دولة صغرى مسالمة ولا يجوز لك مثلًا أن تسأل بريطانيا لماذا احتلت مصر وضربت الاسكندرية في يوليو 1882، ولا يجوز أن تسأل فرنسا لماذا احتلت الجزائر 1830 ومكثت فيها 130 سنة، كما لا يجوز لك أن تسأل الوحوش في الغابات لماذا تفتك بالغزلان، ولا تسأل الأسماك الكبيرة في البحار عن سر حبها للأسماك الصغيرة.. ولكن إذا سألت دهاقنة السياسة فسيقولون لك إن هذا هو ناموس الحياة منذ نشأة الحياة.. فطالما أن هناك فراغًا في جهة ما.. فلا تلوم من يملأه. وكانت مصر تعيش حالة الضعف عشية الغزوة الفارسية في الوقت الذي بلغت فيه الإمبراطورية الفارسية ذروة قوتها، نعم كانت مصر حينئذ تعيش مرحلة آخر انبعاثة وطنية في تاريخها القديم، عصر النهضة الأخيرة التي استعادت فيه استقلالها في العصر الصاوي وفي ظل الأسرة 26 ولكن هذه الفورة كانت أقصر دورات الإمبراطورية في تاريخ مصر، أقصرها عمرًا وقامة علي حد تعبير جمال حمدان فهي لم تعمر أكثر من القرن وثلث القرن ولم تصل إلى آفاق القرون السابقة كأنما هو الهدوء الذي يسبق العاصفة، لأن ظهور قوة بابل الصاعدة لم يسمح بالمحافظة على تلك المكاسب ودخلت مصر مرحلة الشيخوخة التي ضعفت فيها داخليًا وتغلغل النفوذ والتوطن الإغريقي فيها بالتدريج، إلى أن أتت النهاية على يد الغزو الفارسي فانتهت الدولة والدورة معًا. كانت حملة قمبيز في الإطار التاريخي أمرًا متوقعًا بل محتومًا من قوة متعاظمة نحو قوة غاربة ولكن المؤرخين وهم ليسو محللين للتاريخ يحلو لهم أن يضعوا مسببات

تتراوح بين الحقيقة والخيال، فإذا عرفت أثر الأسطورة عند الشعوب القديمة فلا تعجب لما يقوله المؤرخون عن دوافع هذه الغزوة الفارسية.

فتقول إحدى الروايات التاريخية إن قمبيز إنما اقتحم مصر لينتقم من الإله آمون الذي تنبأ كهنته بأن قمبيز سوف يأتي إلى مصر وأن جيشه سوف تذروه الرياح ويدفن في رمال الصحراء وأن هذه الأسطورة أو الإشاعة ترددت في كل أنحاء الشرق الأوسط حتي وصلت إلى مسامع قمبيز فقرر غزو مصر والذهاب إلى معبد آمون في واحة سيوة ليهدمه على رؤوس كهنته ويثبت للعالم أن آمون إله بكاش..

وتقول رواية أخري أن قمبيز جاء إلى مصر لينتقم من الملك أمازيس الذي خدعه في أعز ما يملك وهو شرفه الفارسي الأثيل وذلك أن فانيس الضابط اليوناني الخائن بعد أن لجأ إلى بلاط قمبيز أخذ يحدثه عن جمال وفتنة ورشاقة الفتاة المصرية نفريت ابنة الملك أمازيس حتى أن الوحش الإيراني صمم على امتلاكها فأوفد بعثة شرف إلى فرعون مصر يطلب منه يد ابنته ولما كان أمازيس الفرعون الشقي الذي يلعب بالبيضة والحجر يعرف وحشية قمبيز ويعرف أيضًا إنه لن يستطيع أن يرد له طلبًا فقد تفتق ذهنه عن حيلة يتقي بها شره، فبعث إليه بفتاة أخرى هي نتيتاس ابنة الفرعون السابق على أنها ابنته هو ظنًا منه أن الوحش الإيراني لن يكتشف الفرق بين الفتاتين وغادرت نتيتاس أرض النيل إلى مهوى النار مضحية بنفسها من أجل الحفاظ على أمن وطنها من غدر قمبيز ولكن ما إن ظهرت الفتاة في البلاط حتى أوقعها حظها العاثر في طريق فانيس الذي كان يعرفها جيدًا و وشي بالخدعة

إلى سيده الذي استشاط غضبًا وأقسم بشرف النار المقدسة عنده أن يؤدب ملك مصر لأنه باع له بضاعة مغشوشة.

هذان هما السببان اللذان من أجلهما وقعت مصر فريسة سهلة بين فكي قمبيز ولكل منهما دلائل تاريخية موثوقة والعجيب أن قصة الحب التي كانت سببًا في احتلال مصر لم ينتبه إليها أحد من أدبائنا باستثناء أمير الشعراء أحمد شوقي بك فجعل منها إحدى روائع مسرحه الشعري وتحمل اسم قمبيز

الملك نقطانب الثاني[133] الفرعون الأخير:

كان التمهيد لنهاية العصر الفرعوني عندما قرر الملك الفارسي قمبيز أن يضم مصر إلى المملكة الفارسية بعد أن اجتاح مملكة بابل، وكما ذكرنا أن أحد الضباط الإغريق المرتزقة العاملين بالجيش المصري ذهب إليه وأعطاه كافة المعلومات التي يحتاجها لغزو مصر وأوضح له مواطن الضعف في الاستحكامات الدفاعية المصرية، بل شجعه وأغراه علي دخول مصر ودخلها فعلًا بعد مقاومة عنيفة وحصار لمدينة منف إلى أن تم الاستسلام التام وأصبحت مصر ولاية فارسية لأول مرة.

وقد أرسل قمبيز حملة إلى الواحات وحملة أخرى إلى الجنوب وقد فشلت الحملة على الجنوب عند حدود مملكة نبتا، أما الجيش الذي ذهب في اتجاه سيوه فلم يصل إليها ولم يرجع أيضًا بل إنه مدفون حتى الآن تحت الرمال نتيجة لعاصفة رملية هائلة أطاحت به وهلك عن آخره في الصحراء.

وقد أسَّس الفرس في مصر أسرة حاكمة جديدة وهي الأسرة السابعة والعشرين من سنة 525 ق م إلى سنة 404 ق م[134] وهذه الأسرة تكونت من خمسة ملوك وبالرغم من بعض الإصلاحات والتودد الذي أبداه بعض ملوك هذه الأسرة للمصريين إلا أن المصريين قاوموا الاحتلال بشدة ونشبت ثورة عظيمة أدت إلى قيام الفرس بأعمال قمع وعنف للسيطرة علي البلاد بقبضة من حديد وكان في ذلك الوقت (الإغريق) في صراع مع الفرس.

أما اليهود الموجودون في مصر في ذلك الوقت فقد كانوا أعوانًا للفرس ضد المصريين[135] وفي سنة 449 ق م تم توقيع معاهدة صلح بين الفرس والإغريق.

ثم بعد ذلك بسنة قامت ثورة رهيبة ومعارك عنيفة بين المصريين والفرس انتهت بتحرير البلاد منهم وطردهم خارج مصر وبدأ المصريون هذه الثورة بقتال اليهود لشدة العداء والكراهية بينهم ثم قاتلوا الفرس وكان سبب تملق ومساعدة اليهود للفرس هو أن يسمحوا لهم ببناء معبدهم وإعادة تشييد هيكلهم فقرروا الوقوف بجانبهم ضد المصريين لتحقيق مصالحهم الخاصة مما أدى إلى هذه الكراهية الشديدة لهم من المصريين فأطاحت الثورة بهم وبالفرس واستمرت هذه الثورة حوالي أربعة سنوات وكان قائدها هو الملك المصري (أمير تي).

وقد استمر حكمه من سنة 404 ق م إلى سنة 389 ق م وهو مؤسس الأسرة الثامنة والعشرين وكان عدد ملوك هذه الأسرة ملك واحد فقط هو نفسه هذا الملك واسمه مكتوب في موسوعة حكام مصر (أمير تي) أما في كتاب مصر الفرعونية لأحمد فخري فاسمه (آمون حر)، وكان يحكم مصر من عاصمته

(سا) "سايس" صان الحجر حاليًا ولا توجد أي آثار حتي الآن توضح ما تم في عهد هذا الملك.

ثم بعد ذلك وبهدوء تم نقل الحكم إلى أسرة جديدة وهي الأسرة التاسعة والعشرين (398-378 ق م) وهي مكونة من أربعة ملوك[136] أولهم الملك (نايف عاو رود) "نفريتس الأول"، وكانت عاصمة الأسرة التاسعة والعشرين مدينة مندس (تل الإمديد وتل الربع شمال شرق السنبلاوين)..

(وكان أهم ملوك هذه الأسرة هو مؤسسها نايف عاو رود الذي حكم ست سنوات من 399-393 ق م وتحالف مع الأسبرطيين ضد الفرس وأمدهم بالقمح بما يكفي لتجهيز أسطول مكون من مائة سفينة مقاتلة ولكن المدد لم يصلهم إذ تم اعتراضه وتحطيمه عند جزيرة رودس، وتولى بعده الملك هكر واستمر حكمه سبع سنوات من 393 إلى 380 ق م حاول فيها القيام بإصلاحات داخلية في البلاد فرمم المعابد وتعاون بالمال والمئونة مع أثينا ضد الفرس وتولى بعده ملكين حكم كل منهما مصر بضع شهور ثم انتقل العرش إلى أسرة جديدة هي الأسرة الثلاثين)[137]، وكانت نهاية الأسرة الثلاثين الفرعونية على يد الفرس سنة 341 ق م.

وهي آخر أسرة فرعونية في التاريخ، وكان آخر ملك فيها هو الملك نقطانب الثاني، والطريف أن المعركة الفاصلة التي أنهت حكم الفراعنة للأبد، لم يكن فيها الجيش المصري جيشًا مصريًا خالصًا ولكن كان يحتوي على العديد من الجنود المرتزقة، ومن عجائب تاريخ هذه الفترة أن الجنود المرتزقة الإغريق كانوا منتشرين ويقاتلون لمن يدفع المال حتى أنهم يتواجدون في المعركة الواحدة في كلا الجيشين المتحاربين، وكان المصريون في نهاية العصر

الفرعوني يعتمدون على غيرهم في القتال مما أدى إلى نهايتهم، كما حدث في المعركة الأخيرة التي أنهت حكم الفراعنة للأبد.

وقد وردت معلومات عن هذه المعركة بالجزء رقم 13 من موسوعة سليم حسن مصر القديمة حيث ذكر أعداد الجنود وجنسياتهم في الجيش المصري بقيادة نقطانب الثاني (الفرعون الأخير) بل إن هذا الفرعون لم يحتوي جيشه على جنود فقط من الإغريق ولكنه كان يضم جنود من ليبيا وكان يعاونه في القيادة اثنين من القادة الإغريق فكان الجيش المصري مكون من عشرين ألف مقاتل من الجنود الإغريق المرتزقة وعشرين ألفًا من الليبيين المرتزقة وستين ألفًا من المصريين بينما كان الجيش الفارسي مكون من ثلاثة أضعاف الجيش المصري كله وكان يضم أيضًا عددًا كبيرًا من الجنود الإغريق المرتزقة وبدأت المعركة وتساقطت المدن المصرية مدينة وراء أخري وكانت بعض المدن ومن فيها من حاميات إغريقية تتفاوض على الاستسلام بدون علم الفرعون نفسه، ثم انتهت المعركة لصالح الفرس واختفى الفرعون الأخير للأبد[138]

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس

الإسكندر والبطالمة

بدأ عصر الإسكندر والبطالمة في مصر سنة 332 قبل الميلاد واستمر حتي سنة 30 قبل الميلاد أي حوالي ثلاثة قرون وفيه اندمجت الحضارة الإغريقية مع الحضارة المصرية وأصبحت الإسكندرية عاصمة لمصر ومركزاً للعلم والعلماء وتوافد عليها الإغريق حتى كما لو كانت قطعة من بلاد الإغريق وُضِعت في مصر أو جزيرة إغريقية في المحيط المصري وفيما يلي أبرز القادة في ذلك العصر.

الإسكندر المقدوني:

ولد الإسكندر عام 356 ق م وكان تلميذًا للفيلسوف أرسطو و اعتلى عرش مقدونيا في سن الــ 20 بعد مقتل أبيه فيليب في عام 336 ق م، ويلقب عادةً بالإسكندر الأكبر، وكان شديد التعلق بأمه أوليمبياس، وقد غيرت فتوحاته مجري التاريخ، وفي مستهل ربيع عام 334 ق م خرج الإسكندر على رأس جيش مقدوني إغريقي وخرج معه عدد من العلماء والأدباء وعبر الدردنيل وكان الإسكندر معجبًا بعصر البطولة وبالأبطال الإغريق الأسطوريين، وكان يحمل معه نسخة من الإلياذة، والتحم الإسكندر بالجيش الفارسي وانتصر عليه عام 334 ق م، و أحرز انتصاره الثاني على الملك الفارسي دارا الثالث في نوفمبر 333 ق م، وفر دارا الثالث بعد الهزيمة تاركًا أسرته التي وقعت في يد الإسكندر، وقد عامل الإسكندر زوجة وبنات الملك الفارسي معاملة

كريمة وردهن إليه، وكانت مصر ولاية فارسية وكان التنافر شديدًا بين الفرس والمصريين لاختلاف العقائد الدينية.

وقد دخل الإسكندر مصر في خريف عام 332 ق م وأدرك الوالي الفارسي عبث المقاومة فاستسلم دون قتال ودخل الإسكندر ممفيس حيث نهج نهجًا يختلف تمامًا عن نهج الفرس فقدم ولاءه للآلهة الوطنية، واعتبره المصريون وريثًا للفراعنة، وقبلوه ملكًا علي الفور، وعند قرية مصرية قديمة تسمى راقودة أسس الإسكندر مدينة إغريقية تحمل اسمه ولاتزال،وهي مدينة الإسكندرية في يناير 331 ق م، وتابع الإسكندر سيره نحو الغرب حيث بلغ موقع مرسى مطروح الحالية ومنها انحرف جنوبًا ضاربًا في قلب الصحراء قاصدًا واحة الإله آمون المعروفة الآن بواحة سيوة ودخل قدس الأقداس بمعبد الإله آمون، حيث حياه كاهن المعبد كابن للإله آمون، ثم عاد الإسكندر إلى منف وأعاد نظام الحكم والإدارة على أسس جديدة، ومنح مصر استقلالًا داخليًا،ولم يعين حاكمًا عامًا للبلاد، وإنما وزعت السلطة بعناية شديدة ليمنع أي حاكم بمفرده من أن يقوى سلطانه ويتمكن من الاستقلال بالبلاد[139] وغادر مصر في ربيع عام 331 ق م، ليواصل قتال الفرس وتواصلت انتصاراته وفتوحاته في آسيا، ثم قفل راجعًا إلى بابل التي اتخذها عاصمة لإمبراطوريته وفيها مرض بالحمى ومات في 11 يونيو عام 323.

وكان الإسكندر هو أول من نبَّه أذهان الإغريق إلى فكرة الإمبراطوية وما يستتبعها من السيطرة على العالم المأهول وقتئذ، وما فيه من شعوب وعناصر مختلفة وفتوحاته الواسعة هي أوضح دليل على تبلور هذه الفكرة في ذهنة، وقد أفصح عن هذا في رسالته التي بعث بها إلى دار الثالث بعد انتصاره

عليه، في معركة أسوس عام 333 ق م، وفيها يصف نفسه بسيد آسيا ويمضي الإسكندر قائلًا له:

لقد انتصرت عليك وأصبحت أمتلك أراضيك بفضل الآلهة، وهكذا يجب أن تراسلني الآن باعتباري ملك آسيا العظيم، وحاذر من أن تكتب إلى كما تكتب إلى ند (نظير) لك، لكن اذكر دائمًا عندما تلتمس مني مطلبًا إلى سيد كل ما تملكه.

وجدير بالذكر أن وفاة الملك الإسكندر الأكبر كانت مبكرة مع بداية شبابه، فاتفق قادة جيوش الإسكندر على تقسيم البلاد فيما بينهم، فكانت مصر من نصيب القائد بطليموس بن لاجوس (بطليموس الأول) الذي يعتبر مؤسس دولة البطالمة في مصر والتي استمرت حتى سنة 30 قبل الميلاد، أي حوالي ثلاثة قرون وكانت الاسكندرية هي العاصمة التي أصبحت منارة للحضارة الإغريقية[140]

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الملك بطليموس الأول (سوتير)Ptolemy I Soter:

رغم فتوحات الملك الإسكندر الأكبر ابن الملك فيليب المقدوني والملكة أوليمبياس، ورغم زيجاته العديدة سواء في الشرق أو في الغرب، فإنه لم يعقب ولدًا ليكون خليفة له على الإمبراطورية المقدونية، فوفاته كانت مبكرة مع بداية شبابه، فلم ير ابنه الأول الوحيد من زوجته الأميرة روكسانا ابنة الملك الفارسي دارا الثالث، وفي الوقت نفسه كان أخوه الملك فيليب أرهيدايوس مختلًا عقليًا فأصبحت الإمبراطورية بلا إمبراطور رشيد يتولى

أمورها، فاتفق قادة جيوش الإسكندر على تقسيم البلاد فيما بينهم، فكانت مصر من نصيب القائد بطليموس بن لاجوس الذي يعتبر مؤسس دولة البطالمة في مصر منذ سنة 323 قبل الميلاد والتي استمرت حتى سنة 30 قبل الميلاد، أي حوالي ثلاثة قرون.

وفي بداية حكمه استطاع أن يعيد إلى شعب مصر التماثيل والكتب المقدسة التي كان الفرس قد نهبوها من مصر، كرد لاعتبارهم، فلقي بذلك تأييد الكهنة والشعب المصري على السواء، ثم تخلص من وزير المالية الإغريقي الذي كان يستغل أموال الشعب المصري ومحاصيلهم.

ولقد استطاع بطليموس الأول أن يأتي بالموكب الجنائزي للإسكندر الأكبر إلى مصر، وأن يقوم بدفنه في مدينة الإسكندرية المحببه إليه، وقد أحسن المصريون استقبال الجثمان وأثنوا على تقوي بطليموس بن لاجوس الذي فضل أن تكون مصر هي مثوى الإسكندر الأكبر، وليس مقدونيا كما هو متبع، وبذلك أصبحت الإسكندرية هي كعبة الإغريق يأتون إليها من كل حدب لمشاهدة ضريح معبود الإغريق العظيم وقائدهم المظفر الذي فرض نفسه على تاريخ البشرية.

وكانت سياسة بطليموس الأول سوتير تتلخص من خلال أعماله في حماية مصر وحدودها من الشرق والغرب، وإقامة قاعدة بحرية للأسطول في قبرص لتساعده على نشر نفوذه في آسيا الصغري أو بلاد اليونان، كما كان في مخططه دائمًا الإستيلاء على سوريا لتأمين الطرق التجارية والاستفادة من أخشاب الأرز من أجل بناء الأسطول القوي، واستطاع إخضاع منطقة ليبيا، كما صالح حكام مملكة مروي في الجنوب وكسب صداقتهم.

ولتحقيق هذه الأهداف استلزم الأمر دخول بطليموس الأول في العديد من الحروب السياسية والعسكرية، حتى استطاع بناء دولة بطلمية عظيمة قاعدتها مصر.

ولقد حمل الملك بطليموس الأول سوتيروس الألقاب المصرية الفرعونية التقليدية، أما لقب سوتيروس فيعني المنقذ أو المخلص، وإرضاء للشعب المصري الذي ينظر إلى الملك الفرعون الذي لابد أن يجري في عروقه الدم الملكي المقدس تزوج بطليموس الأول من إحدى الأميرات المصريات حتى يعطي لنفسه الحق في تولي عرش مصر طبقًا للتقاليد المصرية المتبعة، كما أبقى على نظام الإدارة الفرعوني القديم واحترم حقوق طبقة الكهنة وامتيازاتها، وجعل الإسكندرية هي عاصمة البلاد بدلًا من منف، وقد حرص بطليموس الأول على الحفاظ على الدم الإغريقي نقيًا حتي لا يضيع في بحر المصريين، ولهذا فرغم احترامه لمشاعر المصريين حرم الزواج بين الشعبين، ولقد اهتم بطليموس الأول بتوطيد ودعم تجارة مصر في حوض البحر المتوسط وقام بسك عملة مصرية تحمل إحداها على وجهيها صورة كل من الإسكندر الأكبر وبطليموس الأول، وفي الوقت نفسه حرص على دقة وزن العملة وصفاء ونقاء وزنها، سواء كانت ذهبية أو فضية.

وقد فكر بطليموس الأول في وضع ديانة جديدة لتوحيد الشعب المصري والإغريقي روحانيًا من أجل السلام والتعايش السلمي وهي ديانة سيرابيس المصرية المتأغرقة (عبارة عن توفيق بين الديانتين) وحرص بطليموس الأول على حضور جميع الاحتفالات الدينية وقام بترميم المعابد الشهيرة.

ولم يهمل بطليموس الأول النواحي الثقافية والفكرية فأحدث نهضة فنية وعلمية كبرى في مصر تذكرنا بحضارة مصر الفرعونية القديمة، وإن كانت اقتصرت على الإسكندرية أكثر من سواها من مدن مصر.

وعندما زاد عدد العلماء والفنانين والفلاسفة في مدينة الإسكندرية قرر بطليموس بناء أكاديمية لهم أطلق عليها اسم الموسيون أي بيت ربات الفنون والآداب التسع، وتم بناء مكتبة عظمى أحضرت لها الكتب والمخطوطات النادرة من كل مكان وازدادت أعداد الكتب في عهد خلفاء بطليموس الأول حتى وصلت إلى 700 ألف كتاب بمكتبة الإسكندرية، وقد ظل بطليموس الأول يعمل بنشاط لا يكل وبعزيمة لا تلين حتى بلغ الثمانين من عمره ثم أعلن تنازله عن العرش لابنه بطليموس الثاني فيلادلفوس سنة 285 قبل الميلاد، ومما يذكر لعهد الملك بطليموس الأول أنه أمر ببناء منارة الإسكندرية في جزيرة فاروس وقد اكتمل بناؤها في عهد بطليموس الثاني.

وقد تواجد بالإسكندرية العديد من العلماء والأدباء والمؤرخين والفلاسفة والفنانين فمن هؤلاء إقليدس وهيروفيلس وثيودوروس وإراستوثنيس وغيرهم فأصبحت الإسكندرية منارة للإشعاع الحضاري بعد اندماج الحضارتين المصرية والإغريقية وفي عهد البطالمة كتب المؤرخ المصري مانيتون كتابه الشهير عن تاريخ مصر ورتب الأسرات الفرعونية وقوائم ملوك الفراعنة، وقد اتخذ بطليموس الأول سياسة ثابتة لتشجيع هجرة الإغريق وتنظيمها إلى مصر، واستمرت دولة البطالمة تحتفظ بمكانتها إلى أن دب فيها الضعف والاضمحلال.

فسقطت حين دخلها الإمبراطور الروماني أوكتافيوس أغسطس منتصرًا سنة 30 قبل الميلاد فتحولت مصر إلى ولاية رومانية منذ ذلك التاريخ[141]

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بطليموس الثاني فيلادلفوسPtolemy II Philadelphus:

تولى الملك بطليموس الثاني عرش مصر وهو في الخامسة والعشرين من عمره بعد أن قام والده الملك بطليموس الأول سوتيروس بواجبه على أتم وجه، ولذا نشأ محبًا للترف والنعيم غير ميال للحروب والقتال، إذ لم يخرج على رأس جيشه أبدًا وإنما كان يترك لقواده هذه المهمة لكنه كان ذا عقلية سياسية خطيرة إلى أقصى حد، وكان من أكثر الناس تأثيرًا عليه أخته الملكة أرسينوي وزوجته في الوقت نفسه، فقد كان متيمًا بها حتى أطلق عليه لقب فيلادلفوس بمعنى المحب لأخته، ولقد احتفل الملك بطليموس فيلادلفوس سنة 278 قبل الميلاد بعيد جلوسه على العرش، حيث استعرض خيرات البلاد التي تتدفق على الإسكندرية عاصمة مصر في ذلك الوقت من كافة أنحاء الإمبراطورية وأقام الاستعراضات.

ويعتبر عصر فيلادلفوس أغنى عصور البطالمة إذ لم تشهد البلاد رخاء وبذخًا مثلما شهدت في عصره وهذا نعرفه من بقايا آثار وفنون الإسكندرية القديمة كما حرص على دعم مكتبة الإسكندرية بالمخطوطات النادرة واهتم بإقامة حديقة حيوانات جمع فيها كل ما هو غريب في عالم الحيوان

وإذا كان بطليموس الأول هو الذي وضع أساس الدولة، فإن بطليموس الثاني هو الذي استكملها وزاد عليها ودعم قواعد الحكم من حيث تنظيم وبناء جهاز

الدولة الإداري والإقتصادي والمالي، كما اهتم بالتجارة والتوسع التجاري بحيث أصبح الأسطول المصري يجوب بحرية في مياه البحر المتوسط، وشجع التجارة والأسواق واهتم بتطوير الزراعة وأكمل مشروع تعمير الفيوم كما قام بإنشاء الترع والمصارف والقنوات وتطهيرها من الرواسب لتوسيع الرقعة المزروعة كما شجع كبار الزراع على تصدير منتجاتهم.

ولقد كانت سياسة بطليموس فيلادلفوس الخارجية تسير على نفس المسار الذي سار عليه أبوه، وهو المحافظة على أمن واستقرار مصر أولًا ثم الاستيلاء على سوريا وفينيقيا شرقًا وقبرص وبعض جزر بحر إيجه ومدن آسيا الصغري شمالًا وقورينائية غربًا ومصادقة مروي جنوبًا وقد دخل الملك بطليموس الثاني في صراع مرير مع الممالك الإغريقية الأخرى من أجل الاحتفاظ بالنفوذ المصري بتلك البقاع.

وكان هناك أسلوب مميز للملك فيلادلفوس تجاه أعدائه وهو إثارة الفتن والقلاقل داخل أملاك الدولة المعادية بحيث تتخبط الدولة في نفسها وتكون له هو السيادة والأمن ولا يلجأ لأسلوب الحرب إلا في الحالات القصوى مع الاستعداد التام له على الدوام..

وفي سنة 246 ق م توفى الملك بطليموس الثاني فيلادلفوس بعد فترة حكم استمرت ما يقرب من 39 سنة، أي من حوالي سنة 285 ق م إلى سنة 246 ق م ومما يذكر للملك بطليموس الثاني اهتمامه البالغ بزراعة الكروم والزيتون والأزهار وتربية النحل، وقد شيد عددًا كبيرًا من المعابد المصرية اختص إيزيس باثنين منها، ذلك أنه بدأ بناء معبدها الكبير في جزيرة فيله، وتم

في عهده اكتمال بناء فنارة الإسكندرية التي أمر والده بطليموس الأول بتشييدها[142]

وجدير بالذكر أن عصر البطالمة قد وقعت فيه العديد من الأحداث المهمة مثل معركة رفح في عهد الملك بطليموس الرابع والتي وردت في الفصل الرابع من هذا الكتاب، كما أن حجر رشيد الشهير يعود إلى عصر البطالمة أيضًا، وهذا الحجر مكتوب عليه ثلاث خطوط وهي الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية، وقد تم كتابة هذا الحجر في عهد الملك بطليموس الخامس بواسطة الكهنة تمجيدًا لأعماله الدينية واهتمامه بالمعابد وكان ذلك حوالي سنة 196 قبل الميلاد، وكان بطليموس الخامس كسائر البطالمة يتودد إلى الكهنة المصريين ويهتم بمعابدهم اهتمام خاص، وكان في مصر في ذلك الوقت تستخدم أكثر من لغة نتيجة لاندماج الحضارة الإغريقية والحضارة المصرية مما نتج عن ذلك ظهور لغة مشتركة، وقد استطاع العالم الشهير شامبليون فك رموز هذا الحجر عندما اكتشف أن النص اليوناني ما هو إلا ترجمة للنص الهيروغليفي أي أن المنقوش على الحجر نص واحد مكتوب بثلاث لغات مختلفة وبالمقارنة استطاع أن يفك الرموز. وبناءً على ذلك تمكن العلماء من معرفة كل هذه المعلومات التاريخية والأحداث التي دونها الفراعنة بلغتهم التي تجمع بين الحروف والرموز في وقت واحد وهذا الحجر موجود في بريطانيا حاليًا، وفيما يلي بعض مقتطفات من المكتوب على هذا الحجر:

ملك مصر العليا والسفلى تجسيد حي لآمون ابن رع بطليموس الخالد المحبوب من بتاح- حيث أن الملك يقوم بواجبه نحو الآلهة ويقدم المساعدات

المالية للمعابد- وحيث أنه قدم الهبات إلى محراب عجل أبيس ونظم إجراءات دفنه وحيث أنه أمر بترميم المعابد والمحاريب للآلهة في كافة أنحاء البلاد وحيث أن الملك قام بجميع هذه الأعمال فإن المجمع قد عقد العزم علي أن يزيد من ألقاب الشرف الممنوحة له ولأسلافه وأن يقيم في كل معبد مصري تمثالًا لبطليموس -)[143]

الملك بطليموس السادس وتدخل روما في شئون مصر:

ذكرنا أنه قد تنافست عدة قوي وتصارعت علي الصدارة وفرض النفوذ والسيطرة في العالم بعد وفاة الإسكندر المقدوني من بينها دولة مقدونيا نفسها ودولة البطالمة في مصر ودولة السليوكيين في سوريا.

وكانت مصر في عهد كل من بطليموس الأول والثاني والثالث من أقوي الدول في المنطقة وأرقاها حضارة حيث كانت الإسكندرية العاصمة مركز إشعاع للحضارة الإغريقية وكان يتوافد عليها العلماء والأدباء والحكماء من كل أنحاء العالم وكان بها مكتبة الإسكندرية العريقة والشهيرة.

واستمر البطالمة يحكمون مصر من سنة 333 ق م تقريبًا وإلي سنة 30 ق م أي حوالي 303 سنة[144]

ومع مرور الوقت ضعفت هذه الدول وصعد نجم روما كقوة عظمي جديدة ووحيدة في العالم في ذلك الوقت.

ففي حوالي عام 171 قبل الميلاد خرجت روما منتصرة في الحرب التي نشبت بينها وبين مقدونيا فأطاحت بما كان لمقدونيا من سلطان وجاه

وأصبحت روما صاحبة الجاه والسلطان في كل العالم، كما أصبحت حكماً في كل الخصومات التي كانت تظهر بين الدول المتنافسة بوجه عام، وفي ذلك الوقت كان يشترك في حكم مصر ملكان شقيقان من ملوك البطالمة وهما بطليموس السادس الملقب بفيلوميتور، وأخاه بطليموس الملقب بيورجيتس الثاني، بينما كان هناك خطر يهدد مصر من دولة السليوكيين في سوريا، فقد استطاع ملك سوريا أنتيوكوس الرابع احتلال مصر وحصار الإسكندرية واستفحل الأمر وفرض هيمنته علي مصر، إلي أن لجأ البطالمة إلى روما فتدخلت لصالح البطالمة وأرسلت مبعوثيها لتحذير الملك أنتيوكوس الرابع.

وقد وصف المؤرخون مدي الكبرياء والتعالي الذي قام به مندوب روما وهو يسلم الملك رسالة مجلس الشيوخ الروماني ـ ففي هذه اللحظة كان أنتيوكوس يحاول أن يتخلص من هذا الموقف، غير أنه لما رأي في نهاية الأمر أنه كان مجبرًا على أن يجيب الرومان على الرسالة، قال بصوت متهدج:

سأفعل ما يرغب فيه مجلس الشيوخ.

وكان ما يرغب فيه مجلس الشيوخ الروماني من أنتيوكوس هو أن ينسحب من مصر جميعها في الحال علي أن يكون خارج حدودها في توقيت محدد وطبقًا للترتيبات التي قررتها روماوهكذا أنقذ الرومان عرش البطالمة في مصر، غير أن روما لم تترك البلاد المصرية وشأنها لتحكم نفسها بنفسها ولكنها كانت تتدخل في شئونها، وتستغل الانقسام الموجود نتيجة الصراع بين الملكين الشقيقين فتشعل الموقف بينهما تارة وتقوم بدور المصالحة بينهما تارة أخري، وطبقًا لما يحقق مصالحها وعلي حد تعبير سليم حسن:

وهكذا نري أن السياسة الرومانية تحت ستار الصلح والتراضي بين الأخوين قد نقضت العمل العظيم الذي جاهد في إتمامه البطالمة الأُول، فقد ضربت بمعولها البناء الذي كانوا قد أقاموه، وكذلك نجد أنها إدخرت لنفسها الحق في أن تثير عند الحاجة طمع أحد الأخوين عندما يشعر أنه قد نال نصيبًا أقل من ملك والده[145]

والجدير بالذكر أن سيطرة روما علي مصر استمرت حتى نهاية عصر البطالمة عندما قررت روما ضم مصر كولاية تابعة للإمبراطورية الرومانية التي اتسعت حدودها وابتلعت كل دول المنطقة فكانت مصر آخر دولة سقوطًا في يد الرومان، ودخلها الإمبراطور أوكتافيوس أغسطس منتصرًا سنة 30 قبل الميلاد.

بطليموس الثاني عشر (الزمار) يتذلل لروما:

بدأ يعتلي عرش مصر بطالمة ضعفاء إلى أن وصل الحال أن أصبح بطليموس الثاني عشر على عرش مصر وكان أهل الإسكندرية يطلقون عليه لقب (الزمار) لأنه كان يحب الرقص والغناء وشرب الخمر ويحب العزف على المزمار، وأصبح هذا البطليموس وصمة عار في جبين الأسرة البطلمية، وكان الزمار يتذلل لروما ويرسل لها الرشاوى والهدايا ويقول عنه الدكتور سيد الناصري (ولكي يحظي باعتراف الرومان راح الزمار يتذلل ويريق ماء وجهه ويدفع الهدايا والرشاوى ويشتري ذمم القادة الرومان من أمثال بومبي ويوليوس قيصر وغيرهم وكان زعماء الحزب الجمهوري الأرستقراطي في روما يفضلون أن يظل الزمار في هذا الوضع المهين ويدفع لهم الأموال التي لا تقل عن دخل مصر إذا ما ضموها[146]) [147] فكان حكم بطليموس الثاني عشر

لمصر أفضل لقادة روما من أن يتم احتلالها وتعيين والي روماني عليها، وظل هذا الحال إلى أن ثار علي الزمار شعب الإسكندرية فهرب سرًا إلى روما وأوصي في وصيته أن يتولى عرش مصر من بعده أكبر بناته وهي كليوباترا السابعة التي سيطرت على قادة روما ولكن بطريقة أخرى مستغلة جمالها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الملكة كليوباترا السابعة وقصة نهاية دولة البطالمة في مصر:

كانت مصر من آخر الدول سقوطًا في أيدي الرومان ويرجع السبب إلى أن البطالمة كانوا على صلة طيبة بالرومان وكانوا يساعدونهم في حروبهم بتزويدهم بخيرات وقمح مصر حتى أن الرومان في فترة من الفترات وجدوا أن البطالمة في أواخر أيامهم كانوا يحكمون مصر كما لو كانوا ولاة تابعين لروما بحيث كانت تأتي الخيرات من مصر إلى روما دون الحاجة إلى احتلال فعلي، وكان البطالمة في ذلك الوقت يفعلون ذلك ليأمنوا هجوم الرومان عليهم، كما زاد نفوذ روما في مصر وتدخلت في شئونها الداخلية في عهد البطالمة الضعفاء في نهاية العصر البطلمي الذي كان يحتضر بل مات فعلًا وينتظر شهادة الوفاة الرسمية.

وعندما تولى بطليموس الثاني عشر حكم مصر وتزوج أخته كليوباترا السادسة كان أهل الإسكندرية يطلقون عليه لقب (الزمار)، وعندما ثار عليه شعب الإسكندرية هرب سرًا إلى روما و أوصى في وصيته أن يتولى عرش مصر من بعده أكبر بناته وهي كليوباترا السابعة وكان يتحتم عليها أن تتزوج من أخيها الصغير بطليموس الثالث عشر طبقًا لوصية أبوها ولكنها حاولت التخلص منه والانفراد بالسلطة وحدها.

وهنا تدخلت روما أيضا في هذا الصراع حيث حاول يوليوس قيصر التوفيق وفض النزاع بين كليوباترا وأخيها وطلب حضورهما للقصر الملكي في الإسكندرية وهذا يعتبر تدخل سافر وإهانة عظمى فكان موكب يوليوس قيصر في شوارع الإسكندرية يثير كراهية الجماهير.

ثم استطاع يوليوس قيصر أن يدعم موقف كليوباترا ويجعلها ملكة علي البلاد بعد مقتل أخيها أثناء الصراع، وظل قيصر في مصر مع كليوباترا لفترة ثم عاد إلى روما بعد أن ترك لكليوباترا قوة رومانية لحمايتها، ثم أنجبت كليوباترا منه ولدًا ولم تعترف روما بهذا الزواج، ثم قامت كليوباترا بزيارة روما ومعها ابنها من يوليوس قيصر ليتم الاعتراف به دون جدوى، وحاولت كليوباترا أن تعيد أمجاد البطالمة الأوائل وتنهض بمصر مستغلة جمالها وسيطرتها علي قادة روما، يوليوس قيصر ثم أنطونيوس بعد مقتل يوليوس قيصر.

ولكن القائد الروماني الشهير أوكتافيوس لم يرض بهذا الوضع لأن أوكتافيوس وجد أن كليوباترا لها تأثير عجيب على القادة الرومان وتقريبًا تحكم نصف الإمبراطورية الرومانية مستغلة حب أنطونيوس لها..

فوقعت معركة بحرية كبيرة (معركة أوكتيوم) انتصر فيها أوكتافيوس ودخل مصر منتصرًا وضمها رسميًا إلى الإمبراطورية الرومانية وكان ذلك في شهر أغسطس عام 30 ق م[148].

أما أنطونيوس فقد هرب إلى مصر عندما تأكد من هزيمة أسطوله أمام أوكتافيوس وعندما وصل أشاعت كليوباترا أنها انتحرت ولم يتحمل أنطونيوس خبر انتحار كليوباترا فانتحر على الفور وجاء الإمبراطور الروماني أوكتافيوس

أغسطس إلى مصر وأرسل قوة للبحث عن كليوباترا لينتقم منها بعد كل ما فعلته في قادة الرومان يوليوس قيصر ثم ماركوس أنطونيوس.

وعندما شعرت كليوباترا أنها ستهان وتعاقب عقاب لا يليق بها قامت بالانتحار عن طريق لدغة ثعبان لتهرب من المصير السئ الذي ينتظرها وتم قتل ابن يوليوس قيصر الذي أنجبه من كليوباترا وبدخول أوكتافيوس تم إعلان وفاة عصر البطالمة للأبد بعد أن استمر أكثر من ثلاثة قرون تزوجت خلالها الحضارتين المصرية والإغريقية[149]

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع

أبرز القادة في العصر الروماني في مصر

(كان حكم الرومان لمصر يتشابه مع حكم الفراعنة والبطالمة وهو استغلال هذا البلد واعتباره ضيعة خاصة، سواء للفرعون أو للبطليموس أو للإمبراطور الروماني، ولكن هناك فرق كبير بين حكم الفراعنة والبطالمة وبين حكم الرومان ففي الحالتين السابقتين كان ثراء مصر يبقى داخلها بالرغم من أنه يذهب إلى خزانة الفرعون أو البطليموس، أما في العصر الروماني فإن خيراتها كانت تنقل إلي الخارج، إلي روما ليتمتع بها الشعب الروماني، وما يذهب لا يعود، أي أنه مع الحكم الروماني بدأ نهب مصر الفعلي، وكأن روما كانت الثري الذي يؤجر ضيعته وهو مقيم في أوروبا حيث ينفق ريعها هناك)[150]

وقد بلغ عدد الأباطرة الرومان في روما الذين سيطروا على مصر 27 إمبراطور وتولى حكم مصر في عهدهم 86 واليًا رومانيًا[151] لمدة حوالي 353 سنة كاملة ثم جاء بعده العصر البيزنطي نسبة إلى مدينة بيزنطة وبدأ هذا العصر سنة 323 م وتولى حكم مصر في هذا العصر 79 واليًا عاصروا 22 إمبراطورًا[152]

الإمبراطور أغسطس وسر الإمبراطورية:

شعر الإمبراطور أغسطس بأهمية مصر كولاية غير عادية في الإمبراطورية الرومانية فاتخذ بها عدة إجراءات خاصة بها فقط، ومن أهم الإجراءات أنه

قام بتوزيع عدد ضخم جدًا من القوات الرومانية في مواقع حساسة ومهمة في أنحاء مصر وبلغت هذه القوة ثلاثة فرق رومانية كاملة وعددًا من الكتائب المساعدة وهذا يعادل حوالي 22800 مقاتلًا وهو عدد يفوق بكثير متطلبات الموقف[153] وذلك يعكس حقيقة قلق أغسطس البالغ.

كما قسم مصر إلى ثلاثة مناطق إدارية وأصدر قرار غريب جدًا يمنع بمقتضاه أي شخص من عظماء روما أن يزور مصر إلا بإذنه شخصيًا سواء كان من مجلس السناتو أو من كبار القادة الطموحين[154] لأنه كان يخشى أن يتولى حكم مصر والي ذو طموح يمكنه الاستقلال بها باستغلال إمكانياتها وهذا يدل على حكمته البالغة وخبرته الواسعة في أمور القتال والسياسة أيضًا، كما قام بإجراء العديد من الإصلاحات الزراعية ومشاريع الري وتطهير القنوات وشق الترع وإصلاح المرافق وأعطى تعليماته للوالي أن يستكمل كل هذه الأعمال بعد مغادرته إلى روما وكان اهتمام أغسطس بالزراعة وخاصةً زراعة القمح في مصر لأنها ستصبح المصدر الرئيس للقمح في الإمبراطورية حيث أصبحت مصر تطعم روما بعد ذلك كما جعل لمصر عملة خاصة بها وأطلق على هذه الإجراءات (سر الإمبراطورية)[155]، (ولقد جعل أغسطس مصر إحدى الممتلكات الشخصية والخاصة بالإمبراطور والتي يرتبط حكمها بشخصه مباشرةً، وقد رأي أغسطس عدم إدماج مصر إدماجًا كاملًا في الإمبراطورية، بل أصر على عزلها وعدم المساس بنظمها الإدارية والدينية التي كانت موجودة بها قبل دخول الرومان، وعين على البلاد واليًا من طبقة الفرسان يساعده ثلاثة من كبار الموظفين، هم المشرف على العدالة والمسئول عن الحسابات الخاصة وأمين الخزانة، وكان أغسطس بالنسبة للمصريين فرعونًا

وابن الإله آمون رع وله كل مظاهر القداسة والتأليه من المصريين، فحمل الألقاب المقدسة التقليدية حسب العقيدة والفكر المصريين.

أما بالنسبة للإغريق " شعب الإسكندرية في ذلك الوقت " فقد كان الوريث لسلطان البطليموس، وقد صادر قسمًا كبيرًا من أراضي المعابد ونقل إدارتها إلى الدولة مقابل صرف رواتب ومنح للكهنة، ومما أثار حنق السكندريين " الإغريق " على الحكم الروماني المحاباة التي أظهرها أغسطس لليهود الموجودين بمدينة الإسكندرية - التي كانت بمثابة مدينة إغريقية كاملة على أرض مصر - إذ وافق علي استمرار كل الإمتيازات التي كان اليهود يتمتعون بها إبان عصر البطالمة، وقد فعل أغسطس ذلك لإيجاد توازن بين السكندريين واليهود ومكافأة اليهود على ولائهم للرومان وكذلك لأن الرومان كانوا مطمئنين من ناحية اليهود لأنهم أقلية، بالإضافة إلى أنهم سيكونون عملاء للرومان في المستقبل، وكما ترك أغسطس حامية عسكرية بالإسكندرية، وترك أخرى بضاحية بابليون التي كانت امتدادًا لمنف عبر النيل شرقًا، كما وضع أوكتافيوس أغسطس فرقة رومانية ثالثة عند مدينة طيبة " الأقصر "، كذلك وزع عددًا من الكتائب المساعدة لترابط عند المناطق الاستراتيجية، وكان الوالي الروماني جايوس كورنيليوس جاللوس هو أول والي روماني يعينه الإمبراطور أغسطس علي مصر، وكان قبل ذلك يقوم بدور الاتصال والوساطة بين الملكة كليوباترا السابعة البطلمية والقائد أوكتافيوس أغسطس الروماني وهو أحد قواد أوكتافيوس، وقد أسدى هذا القائد خدمة جليلة له عندما استولى علي منطقة مرسى مطروح ورد الهجوم البري والبحري الذي قام به ماركوس انطونيوس على المدينة لاسترداد فرقه العسكرية التي تخلت عنه، وقد حكم كورنيليوس مصر من سنة 30 ق م إلى

سنة 27 ق م أي ما يقرب من 3 سنوات، وهو أحد رجال الفرسان وكان صديقًا شخصيًا لأغسطس، وبالإضافة لصفته العسكرية كان أديبًا وشاعرًا معروفًا لدى الأوساط الأدبية، وأهم ما يذكر في عهده قيام أول حركة تمرد ضد الحكم الروماني بالقرب من خليج السويس، وقد تمكن جاللوس من القضاء على هذا التمرد، ولم يكد يمضي عام حتى هب بركان الثورة في طيبة سنة 29 ق م بمجرد وصول جباة الضرائب الرومان، وبلغ من شدة هذه الثورة أن قام الوالي الروماني بنفسه بقيادة القوات الرومانية لقمع هذه الثورة، وأدرك الثوار أنهم أمام والي قاسي جاد لا يسمح بأي تساهل، واشتبك الجيش الروماني مع الثوار المصريين في معركتين سحق فيهما خمس مدن، وبعد الانتهاء من هذه المهمة قرر الوالي كورنيليوس جاللوس أن يسير جنوبًا لتأمين حدود الإمبراطورية في أفريقيا

وقد سمح الوالي كورنيليوس بأن تقام التماثيل من أجله وأن تنقش أخبار انتصاراته علي واجهة المباني العامة، الأمر الذي أزعج الإمبراطور أوكتافيوس أغسطس فعزله ونفاه، فاشتد الحزن بجاللوس حتى انتحر ذلك الوالي الذي كان أول من حمل لقب والي الإسكندرية ومصر)[156].

وقبل أن نترك الحديث عن الإمبراطور أغسطس سنذكر حدث من أهم الأحداث التي وقعت في عهده، ألا وهو زيارة العائلة المقدسة لمصر، حيث ولد السيد المسيح عيسى بن مريم في عهد الإمبراطور الروماني أوكتافيوس أغسطس وكانت مصر ولاية تابعة للإمبراطورية الرومانية، وقد لجأت السيدة العذراء إلي مصر بولدها وكان يحكم مصر أثناء هذه الرحلة والي روماني يسمى (جايوس تورانيوس) وكان قد تولى حكم مصر سنة 5 قبل الميلاد، وفي

عهده ولد السيد المسيح في بيت لحم بفلسطين، حيث كانت فلسطين أيضًا تابعة لنفوذ الإمبراطور الروماني أغسطس وكان يحكم فلسطين الملك اليهودي (هيرودس) الكبير.

ولقد هربت السيد مريم العذراء بولدها على ما يروي إنجيل متى إلى مصر، وإن هناك شبه إجماع على أن كنيسة أبي سرجة بمصر القديمة شيدت في نفس المكان الذي أقامت به العائلة المقدسة لما هربت إلى مصر من وجه هيرودس.

وقد جاءت العائلة المقدسة إلى مصر عن طريق صحراء سيناء ودخلوها من جهة الفرما (قرب بورسعيد)، ومنها إلى مدينة بسطة (تل بسطة بجوار الزقازيق)، واتجهوا غربًا فعبروا فرع النيل الشرقي عند سمنود وظلوا سائرين غربًا إلى فرعه الغربي فعبروه ومروا بوادي النطرون، ومن هناك ساروا إلى الوجه القبلي فنزلوا بمدينة الاشمونين، ثم مضوا إلى القوصية إلى قرية ميرة وهبطوا حيث يوجد دير المحرق، وبعد أن أقاموا به بضعة أشهر على الأكثر انحدروا شمالًا حتى جاءوا بابليون (مصر القديمة) وكان بها حي لليهود ونزلوا في الموقع الذي به كنيسة القديس سرجيوس المعروفة بكنيسة سرجة، وغادروها إلى عين شمس، وكانت مدينة عامرة باليهود فأقاموا يستظلون بشجرة يقال إن موضعها حيث توجد الآن الشجرة المعروفة بشجرة العذراء بالمطرية، ومن هناك انطلقوا إلى فلسطين عن طريق محافظة الشرقية[157]

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ 50 سورة المؤمنون

الإمبراطور كاليجولا ومؤامرة اليهود على الوالي الروماني بالإسكندرية:

كان كل من الشعبين الإغريقي واليهودي على خلاف دائم ونزاع حول الامتيازات المخصصة لكل منهم فكان الإغريق أصحاب ديانة وثنية أما اليهود فكانوا أصحاب ديانة سماوية، وبعض المؤرخين عندما يكتبون عن شعب الإسكندرية يطلقون عليهم الإغريق المصريين أو المصريين الإغريق ويقصدون بذلك شعب الإسكندرية، ومنذ أن تم احتلال مصر بواسطة الرومان كان يلقب الوالي الروماني بوالي مصر والإسكندرية على أساس أن الإسكندرية تمثل دولة في حد ذاتها داخل الدولة المصرية، أما عن قصة مؤامرة اليهود على أحد الولاة الرومان بالإسكندرية وكان اسمه أولوس افيليوس فلاكوس، فقد وردت في كتاب (هؤلاء حكموا مصر) (إعداد حمدي عثمان) في صفحة 146 وصفحة 147 وفيما يلي بعض ماورد عن هذا الموضوع بالكتاب:

تولى أفيليوس فلاكوس حكم مصر في سنة 34 م، وقد اشتهر بالحزم في إدارة شئون مصر، وقد عاصر حكم فلاكوس أواخر عهد الإمبراطور الروماني تيبريوس وأوائل عهد الإمبراطور كاليجولا، وأهم ما يذكر في عصر فلاكوس الحرب الأهلية بين الإغريق المصريين وبين طائفة اليهود، ولذلك أصدر منشورًا يحرم فيه حمل الأسلحة إلا بإذن منه، ويحدد عقوبة مخالفة ذلك بالإعدام، فأمر بتفتيش منازل اليهود بحثًا عن الأسلحة، وقد اندلعت الشرارة الأولى في الحرب الأهلية بين المصريين الإغريق وبين الطائفة اليهودية سنة 38م،ومن الواضح أن الوالي الروماني وقع ضحية لحرب ذكية بين فريقين متعادلين لأنه لم يكن منحازًا لأهل الإسكندرية، بل كان رومانيًا مخلصًا يهمه

إرضاء سيده الجالس علي العرش قبل كل شيء، فاستطاع اليهود عن طريق ممثلهم في روما إيغار صدر الإمبراطور كاليجولا على الوالي فلاكوس، فأرسل الإمبراطور قوة عسكرية تحت إمرة قائد يدعي (باسوس) وحرصت القوة على أن تنزل بالميناء ليلًا، ثم تسللت إلى داخل المدينة واتجهت أولًا إلى بيت قائد الجيش الروماني وأبلغته أمر القبض على الوالي، وبعدئذ بحثت عن الوالي فعرفت أنه مدعو في وليمة عند أحد أصدقائه، فاقتحمت المكان وألقت القبض عليه ونقلته إلى روما في أكتوبر سنة 38م، حيث قدم للمحاكمة التي قررت إدانته، وصودرت أملاكه وأمواله ونفي إلى جزيرة أندروس الصخرية الموجودة في بحر إيجة وبقي فيها حتى إعدامه

ꝏ ꝏ ꝏ ꝏ ꝏ

الإمبراطور تراجانوس وإعادة القمح إلى المصريين:

رغم أن الإمبراطور تراجانوس لم يزر مصر، إلا أن اهتمامه بها كان بالغًا، فقد تولى الإمبراطور تراجانوس عرش الإمبراطورية الرومانية من سنة 98 م إلى سنة 117 م، وقد كان الإمبراطور تراجانوس حالة خاصة جدًا في تاريخ الرومان، فكان ينظر في المظالم والشكاوى بنفسه، وكثيرًا ما أبدل مركز روما التقليدي من مصر بأن أطعم الثانية على حساب الأولى، فقد أراد في إحدى السنوات أن يخفف من وطأة المجاعة التي كانت تجتاح مصر بسبب انخفاض النيل، فأعاد إلى مصر أسطولًا محملًا بالقمح، وقد شجع تراجانوس التجارة المصرية مع الشرق وذلك بشق قناة تصل بين البحر الأحمر والبحر المتوسط عن طريق نهر النيل وهذا بالقرب من رأس الدلتا أطلق عليها قناة تراجان، فعاد هذا العمل على مصر بالخير فزادت تجارتها إلى حد كبير وأصبحت الهند هدف التاجر المصري المُجِد، ورغم أن الرحلة كانت تستغرق

12 شهرًا فإن الأرباح الناتجة عنها كانت تبرر متاعبها ومشاغلها، وقد قام تراجانوس إبان حكمه بعدة تغييرات عسكرية وأعمال عسكرية، منها بناء قلعة بابليون على ضفة النيل الشرقية، كذلك أنشأ فرقة عسكرية رومانية جديدة وجعلها تعسكر في حصن بابليون.

(كما فعل قبل الإمبراطور أغسطس وأنشأ ضاحية النصر بالإسكندرية لتتمركز فيها أحد الفرق الرومانية وهي المنطقة المعروفة حاليًا باسم فيكتوريا بالإسكندرية)، وقد تولى حكم مصر في عهد الإمبراطور تراجانوس الوالي جايوس فيبيوس ماكسيموس الذي عزله الإمبراطور بسبب اتهامه من شعب الإسكندرية بعدة اتهامات منها الابتزاز والرشوة واستغلال النفوذ، وكذلك تولى حكم مصر في عهد تراجانوس الوالي روتيليوس لوبوس.

وكذلك تولى حكم مصر في عهده الوالي ماركوس توريو[158]

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الإمبراطور ماركوس أوريليوس واندلاع ثورة عارمة في مصر:

عندما تم احتلال مصر سنة 30 قبل الميلاد بواسطة الرومان في عهد الإمبراطور أغسطس، اعتنى بمصر واتخذ بها مجموعة من الإجراءات الخاصة كي تصبح المصدر الرئيس للقمح وكان كمن يعتني بالبقرة قبل أن يحلبها، وبمرور الوقت وتعاقب الأباطرة الرومان في حكم الإمبراطورية قل الاهتمام بالعناية بمصر واستمر النهب فقط حتى أصبحت مصر تعاني من الإهمال الشديد.

وفي عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس الذي تولى الحكم سنة 161 ميلاديًا[159]قام المصريون الوطنيون بثورة عارمة وكان قائد الثورة كاهن مصري يُدعى (ايسودوروس)، ولم يتمكن الرومان من قمع الثورة بالقوة ويقول عنها د / سيد الناصري:

(وكان مبعث هذه الثورة هو تفشي السخط بين الفلاحين المصريين بسبب بهاظة الضرائب وتعددها وبسبب أعمال السخرة المهينة لدرجة أنهم لم يعودوا يتحملون عملية الاستنزاف الاقتصادي والنهب المالي لمواردهم والذي وصل إلى حد تسخير طاقاتهم البشرية ذاتها)[160]

وقد أصبحت الإسكندرية العاصمة نفسها في ذلك الوقت مهددة بالسقوط في يد الثوار مما أدى إلى استخدام الرومان أساليب أخرى للسيطرة على الثورة لأن القوة لم تفلح معها.

وكان يوجد في ذلك الوقت قائد روماني يتسم بالمكر والدهاء اسمه (افيديوس كاسيوس) وقام بإحداث وقيعة بين صفوف الثوار أنفسهم فتحولوا من قتال الرومان إلي قتال بعضهم البعض وهكذا انتهت هذه الثورة بالحيلة وليس بالقوة، وظل الرومان يستنزفون خيرات مصر بأسلوب مبالغ فيه جداً مما أدي إلي دخول مصر في أزمات اقتصادية حادة فتم اعتماد روما علي قمح شمال أفريقيا في المقام الأول بدلاً من مصر لأن إنتاج القمح المصري لم يعد يسد حاجة روما[161]

الملكة زنوبيا تسيطر علي مصر وتتحدي الإمبراطورية الرومانية:

في عام 270 م استطاعت القوات العربية التدمرية غزو مصر وهزيمة القوات الرومانية المستقرة بها حيث قامت قوات الملكة زنوبيا بهزيمة قوات الوالي تيناجينو بروبوس، الذي آثر الانتحار على العار، ونودي بالأمير وهب اللات (واباﻻثوس) ابن الملكة زنوبيا (الزباء) والذي كان صبيًا في العاشرة من عمره إمبراطورًا حيث رسمت صورته على عملة مدينة الإسكندرية – عاصمة مصر في ذلك الوقت - جنبًا إلى جنب مع صورة الإمبراطور الروماني كلاوديوس جوثيكوس مع بقاء الإدارة الرومانية، أي كان الحكم امتزاجًا بين العربي والروماني.

وعندما تولى الإمبراطور الروماني أوريليانوس عرش الإمبراطورية الرومانية، اعترف – مؤقتًا - بوهب اللات شريكًا له في حكم ولايات الشرق وظهرت عملة مدينة الإسكندرية تحمل صورة الإمبراطور أوريليانوس على الوجه وصورة وهب اللات على الوجه الآخر، وبعد ذلك بفترة سكت عملة في الإسكندرية سنة 271 م تحمل صورة وهب اللات على الوجه وتلقبه باسم (الإمبراطور المؤله) وهو اللقب التقليدي لأباطرة الرومان، بينما ظهرت صورة أمه على الوجه الآخر.

وفي ربيع سنة 271 م تأزمت العلاقات بين وهب اللات العربي والإمبراطور أوريليانوس الروماني، فأعلن وهب اللات نفسه إمبراطورًا لا على الشرق فحسب بل على الإمبراطورية الرومانية كلها. لأنه كان يطمع في تأييد قوات الشرق له.

ورداً علي ذلك قام الإمبراطور الروماني بإرسال قواته للقضاء على وهب اللات وأمه حيث استطاع القائد الروماني أن يستولي على الإسكندرية ولكن

باقي مصر ظل خارج سلطان الرومان.

وبعد العديد من المعارك سقطت زنوبيا ووقعت أسيرة وسار بها الإمبراطور الروماني في شوارع روما مقيدة بسلاسل ذهبية وتوقف سك العملة التي تحمل صورة وهب اللات على الوجه وصورة أمه زنوبيا على الظهر، وحلت محلها العملة التي تحمل صورة أوريليانوس وحده إمبراطورًا[162]

الصورة لتمثال الملكة زنوبيا التي كانت تحكم مملكة تدمر العربية في منطقة الشام الحالية وثارت على الحكم الروماني وسيطرت على سوريا وضمت مصر إلى حكمها وفرضت ابنها على الإمبراطور الروماني لفترة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الإمبراطور دقلديانوس وعندما كانت مصر أتعس ولاية في الإمبراطورية الرومانية:

عندما جلس الإمبراطور دقلديانوس على عرش الإمبراطورية الرومانية قرر أن يقوم بإجراء تعديلات جوهرية لتطبق علي جميع الولايات الرومانية، وشملت هذه التعديلات مجالات عديدة مالية[163] واجتماعية وعسكرية[164]، وقد تأثرت مصر بهذه التعديلات وتغير وضعها تمامًا عن ذي قبل بل إن هذا الإمبراطور بالذات بلغ في عهده الاضطهاد الديني في مصر ذروته.

حتي أن عهده يعرف باسم عصر الشهداء وكان طبعًا لليهود دور كبير في محاربة الديانة المسيحية فكانوا يقومون بالوشاية لدى السلطات الرومانية لتعذيب وقتل المسيحيين بل إنهم كانوا يحاولون بث الخلاف المذهبي والفكري بينهم وكان عدد ولاة مصر في عهد هذا الإمبراطور سبعة ولاة[165]

حكموا مصر في عهده حوالي 21 سنة، كانت خلالها مصر أتعس الولايات الرومانية فمثلًا بعد أن كانت لها عملة خاصة بها تميزها عن سائر الولايات الرومانية أصبح هناك عملة رومانية موحدة للإمبراطورية بالكامل بما فيها مصر، وكل المزايا والقواعد التي وضعها الإمبراطور أغسطس لمصر هدمها دقلديانوس، والطريف أن في بداية عهده قامت ثورة في الإسكندرية وكان قائدها ضابط روماني الجنسية، وقد أعلن التمرد علي روما بل التفت حوله جماهير الإسكندرية فقد أعلن نفسه إمبراطورًا[166] وكانت هذه الصدمة الكبرى الأولى لدقلديانوس مما أدى إلى حضوره بنفسه إلى مصر بقوات ضخمة وحاصر الإسكندرية لمدة 8 شهور كاملة حتى جاع الناس فيها، ودخلها بعنف ودمر وحرق العديد من منشآتها ومبانيها ثم قرر أن يتودد لأهلها، ويقول عن ذلك د سيد الناصرى (وربما حاول دقلديانوس شراء صبر السكندريين وولاءهم، حفاظًا على هيكل الإمبراطورية الآيل للسقوط، عندما أصدر قرارًا بأن تخصص نسبة حيازة القمح لرفع الجوع عن أهل المدينة فأقام الوالي الروماني أثرًا ضخمًا لشكر الإمبراطور، ويعرف حاليًا بعمود السواري)[167]، لكن المشكلة الحقيقية أن دقلديانوس قرر استئصال الديانة المسيحية التي كانت منتشرة في عهده أكثر من العهود السابقة فقد كان يعتبر أن هذه الديانة تحديًا سافرًا لسلطانه المؤله على شعوب الإمبراطورية لأن المسيحيين رفضوا في عناد عبادة الإمبراطور. (ومما دفع الإمبراطور إلى فقدان اتزانه، أن يحدث هذا في مصر التي عرفت بعبادة فراعنتها ثم عبادة ملوك البطالمة كفراعنة وعبادة أباطرة الرومان كآلهة وفراعنة فلماذا يحدث هذا لشخصه دون أسلافه، ولهذا اعتبر هذا الرفض تحديًا لشخصه ولم يفهم الدوافع النفسية أو العقائدية وراء هذا الإصرار)[168].

وتم قتل مئات الآلاف (وقد بلغ من هول الجريمة أن المسيحيين المصريين رغم مرور أكثر من خمسة عشر قرنًا من الزمان على ذلك إلا أن ذكراها لم تخبو ولهذا بدأت الكنيسة المرقسية القبطية المصرية تقويمها فيما بعد بتاريخ اعتلاء ديوقلديانوس عرش الإمبراطورية "284م" حيث أطلقوا علي هذا التاريخ عام الشهداء)[169]، (وكان المسيحيين يتسابقون نحو الشهادة وهم فرحون ويرتلون أغاني الحمد والشكر لله الذي أهلهم أن يموتوا من أجله)[170]، وقد بلغ عدد القتلى أكثر من 800000 نسمة[171] وكانت أساليب القتل والتعذيب في عهد دقلديانوس متعددة ومختلفة مثل الحرق بالنار والزيت المغلي وتمزيق الأجساد بالآلات الحادة وإطلاق الحيوانات المفترسة عليهم في أماكن مغلقة وغير ذلك من أفظع الوسائل وأبشعها.

وقد قام دقلديانوس من ضمن إجراءاته وتعديلاته بتقسيم الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين رئيسيين قسم شرقي وقسم غربي وجعل على كل قسم حاكم بلقب أغسطس ونائب بلقب قيصر وبعد أن مات تصارع خلفاءه علي العرش ووصل الأمر إلى نشوب القتال بين الفريقين واستمر هذا الصراع والتنافس بين الأباطرة والقياصرة إلي أن استطاع قسطنطينوس (والد قسطنطين) أن يهزم منافسه ويجلس على العرش، واتخذ بعد ذلك قسطنطين عاصمة جديدة له وكانت عبارة عن مدينة قديمة اسمها بيزنطة وأطلق عليها اسمه لتكـون القسطنطينية (مدينة استنبول حالياً بتركيا) والتي أصبحت بعد ذلك عاصمة الجزء الشرقي للإمبراطورية الرومانية[172]

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الإمبراطور قسطنطين الأول واعتناق الديانة المسيحية:

يعتبر هذا الإمبراطور هو مؤسس العصر البيزنطي نسبة إلى مدينة بيزنطة وبدأ هذا العصر سنة 323 م وتولي حكم مصر في هذا العصر 79 واليًا عاصروا 22 إمبراطورًا[173] أشهرهم بالنسبة للبعض حاليًا قسطنطين الأول وهرقل، وقد حدث أن الإمبراطور قسطنطين اعترف بالديانة المسيحية وهو يعد أول إمبراطور مسيحي في تاريخ الرومان بالكامل وقد أسعد ذلك بالطبع المصريين في البداية وتوقعوا توقف الاضطهاد الديني ولكن سرعان ما اختفت هذه السعادة فقد حدثت المشاكل وبدأ الاضطهاد بعد حدوث خلاف حاد بين الكنيسة بالإسكندرية وكنيسة الإمبراطورية حول طبيعة السيد المسيح نفسه ويقول د سيد الناصري عن ذلك (ولكن ثبت أن اضطهاد الأباطرة الوثنيين كان عاملًا مساعدًا، ليس في انتشار المسيحية فحسب بل في توحيد جبهتها وتناسي خلافاتها العقائدية إذ سرعان ما برزت هذه الصراعات العقائدية حول قانون الإيمان المسيحي والأسس الفلسفية للعقيدة الجديدة وكان الصراع الأكبر بين الأسقف الكسندر روس وشماسه أثناسيوس من ناحية وبين خصم لدود هو أسقف آخر اسمه آريوس حول علاقة الأب بالابن وهل الابن هو نفس الأب أم شبيه به، لقد رفضت الكنيسة المرقسية في الإسكندرية بشدة رأي آريوس الذي رأى أن الابن لا يمكن أن يكون وجوده مع الأب بل يليه وبالتالي فهو ليس نفسه بل شبيه به، بينما تمسكت الإسكندرية بأن الأب ظهر في جسم الابن الذي هو المسيح وكانت خطورة هذا الجدل اللاهوتي ما نتج عنه من ردود فعل سياسية، هددت الإمبراطورية بالعودة إلى الحروب الأهلية)[174] ونفهم من هذا أن الضغط الرهيب الذي كان موجودًا على المسيحيين جعلهم متحدين أمام القهر الإمبراطوري، أما بعد أن أصبحت الإمبراطورية تعترف بالديانة المسيحية فقد

أعطاهم الفرصة للجدل حول طبيعة السيد المسيح والمؤكد أن هذا الجدل أصبح مشهور جدًا في بيزنطة حتي أنه أصبح علمًا عليها ويعرف حاليًا بالجدل البيزنطي فنطلق هذا الوصف على أي جدل يطول دون الوصول إلى أي نتيجة.

وقد كان هذا الخلاف بين الكنيستين من أسباب عودة الاضطهاد الديني مرة أخرى بعد أن فشلت جميع محاولات قسطنطين في احتواء هذه الأزمة ويأس من توحيد الإمبراطورية على مذهب واحد بوضع أساس قانون الإيمان المسيحي وكان قد اعتقد أن بصفته إمبراطورًا يمكنه السيطرة على الكنيسة ويقول د سيد الناصري عن ذلك (وقد ردت الكنيسة التي كانت قد أصبحت قوية ومسيطرة بأن الإمبراطور مسيحي قبل أن يكون إمبراطورًا وأنه قبل توليه العرش يجب أن تباركه الكنيسة بالشعائر الخاصة ومن حق الكنيسة عدم الموافقة علي أداء مثل هذه الشعائر)[175] بل إن الكنيسة ادعت لنفسها الحق في الاستقلال المالي والإداري، وهكذا عادت الإسكندرية إلى التمرد على الرومان ولكن بزعامة الكنيسة هذه المرة، ويبدو أن السكندريين (الإغريق) كانوا يتمنون أن تكون عاصمة الإمبراطورية هي الإسكندرية بدلًا من بيزنطة التي اختارها الإمبراطور وكان هذا سببًا آخر لزيادة السخط علي الإمبراطور وحدثت مشاكل بين الإسكندرية والإمبراطور رغم محاولته تفاديها، وبالمناسبة تم تقسيم الإمبراطورية بالفعل بعد موت قسطنطين إلى شرقية وغربية وأصبحت الإمبراطورية الشرقية هي الأقوى والأكثر ازدهارًا وحضارة بينما انهارت الإمبراطورية الغربية بعد ذلك نتيجة لتعرضها لغزوات وحروب خارجية ليس هذا مجالًا للحديث عنها.

وقد ذاق المصريون الأمرين في هذه العصور فإن مشكلة اختلاف المذاهب لم تكن المشكلة الوحيدة رغم أنها الرئيسية إلا أن مصر كانت تعاني من الظلم والفقر والضرائب الباهظة وقد قرر الرومان أن يكون والي مصر هو نفسه الأسقف في نفس الوقت مما أدى إلى أن المصريين كانوا ينتخبون البطريرك الخاص بهم سرًا (وأول بطريرك تم انتخابه سرًا هو بطرس الرابع وذلك عام 576 م)[176] وفي عام 622 تم انتخاب الأنبا بنيامين الذي عاصر ظهور الإسلام والفتح العربي لمصر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الإمبراطور البيزنطي هرقل:

من أعظم أباطرة الروم وأكثرهم شهرة في المصادر العربية، لأن اسمه اقترن بالفتوحات الإسلامية وتحرير بلاد الشام ومصر من الحكم الروماني، فبعد تمكُن الدعوة الإسلامية حرص النبي عليه الصلاة والسلام على بعث الرسائل إلى كسرى وهرقل وغيرهم ليعرض عليهم الإسلام، وقد بعث برسالة إلى هرقل يطلب فيها منه أن يُسلِم حتى يسلم، ويأتيه الله أجره مرتين، وعندما وصل كتاب رسول الله إلى هرقل قرأه وهو مقيم في بيت المقدس، وقد كان عنده أبو سفيان بن حرب حيث طلبه هرقل ليسأله عن النبي الذي بُعِث فيهم. وتشير الروايات التاريخية إلى أن هرقل كاد أن يسلم ويؤمن بدعوة الإسلام لولا خوفه من قساوسته، ومن حوله الذين كانوا يكرهون العرب كرهًا شديدًا، وقد توفي هرقل في سنة 641 ميلادي بعد أن شهد هزيمة الروم في اليرموك ورحيلهم عنها سنة 636 ميلادي.ومن أبرز الأحداث التي وقعت في عهده زيارة عمرو بن العاص رضي الله عن لمصر قبل

الإسلامي، وقد وردت بعض تفاصيل عن هذه الزيارة في بعض المراجع كالآتي:

زار عمرو بن العاص مصر قبل الإسلام تقريبًا في (صيف عام 602 م)[177] ففي أثناء رحلة من رحلاته التجارية إلى الشام وأثناء وجوده في جنوب فلسطين (فإذا به يقابل شماسًا مصريًا وقد أصابه عطش شديد في يوم صيف قائظ شديد الحرارة، فسقاه عمرو من قربه له فشرب حتى ارتوى ونام الشماس مكانه من فرط الإعياء والتعب وكان الشماس من شمامسة الروم من أهل الإسكندرية قدم للصلاة في بيت المقدس ويبدو أنه كان يتعبد في جبال المنطقة التي تقابل فيها مع عمرو بن العاص وأثناء نوم هذا الشماس في ظل شجرة هائلة عجفاء خرجت حية من حفرة لها بجوار الشماس فبصر بها عمرو فنزع لها بسهم فقتلها)[178] وعندما أحس الشماس بأن عمرو أنقذ حياته مرتين أصر علي أن يعطيه مكافأة مقابل لذلك فسأله كم تكون دية القتيل عندكم في بلاد العرب وما نظير ذلك من الدنانير فأخبره عمرو أنها ألف دينار فقرر الشماس أن يدفع لعمرو ديتين أي ألفي دينار نظير إنقاذ حياته مرتين وعرض عليه أن يصحبه إلى مصر كي يتمكن من تنفيذ وعده (فقال عمرو: كم يكون مكثي في تلك الرحلة؟ قال له الشماس: شهرًا، تنطلق معي ذاهبًا عشرة أيام وتقيم عندنا عشرة أيام وترجع في عشرة أيام ولك علي أن أصحبك وأحفظك ذاهبًا وأن أبعث معك من يرافقك ويحفظك راجعًا)[179] وبعد أن شاور عمرو أصحابه انطلق مع الشماس إلى مصر وكانت أول زيارة له لمصر، وأثناء الرحلة استطاع عمرو أن يعرف الكثير عن مصر وشاهد في مصر (مرورًا بالقرى والريف والمدن ومخالطة للأهالي الفقراء والأغنياء والريف والتجار والفلاحين والكهان والرهبان والقساوسة، هذا بالإضافة إلى جحافل الاستعمار

البيزنطي من ضباط وجنود وموظفين، وخلال هذا الحشد الهائل من البشر سواء كانوا مصريين مستعبدين أو بيزنطيين مستعمرين، عرف الكثير والكثير عن بعض الأمور، وعرف خلالها المداخل والطرق والمسالك والوديان والجسور والأماكن التي يمكن الإقامة فيها، واستطاع أن يحس بالشعب المصري وما يعانيه من جنود الروم وما يقاسيه من ظلم وقهر)[180] وكان الشماس المصري يتحدث مع عمرو في الطريق عن أحوال مصر والمصريين وعن سر الاضطهاد الديني للمصريين من أباطرة بيزنطة كما تحدث معه عن حضارة الإسكندرية العريقة وانبهر عمرو بالإسكندرية ومبانيها المختلفة وتجول في أنحائها ودخل أسواقها وشواطئها وأحيائها ومكث بها عشرة أيام كاملة فكانت هذه الزيارة تمهيد وإعداد لفاتح مصر بعد ذلك.

ولقد كان العالم في ذلك الوقت قد وصل إلى مرحلة وصفها العقاد وصفًا رائعًا في كتابه الممتع عبقرية محمد ، حيث كتب ما ملخصه:

(كان عالمًا متداعيًا قد شارف النهاية - خلاصة ما يقال فيه أنه عالم فقد العقيدة كما فقد النظام - أي أنه فقد أسباب الطمأنينة في الباطن والظاهر - طمأنينة الباطن التي تنشأ من الركون إلى قوة في الغيب تبسط العدل وتحمي الضعيف وتجزي الظالم وتختار الأصلح والأكمل من جميع الأمور، وطمأنينة الظاهر التي تنشأ من الركون إلى دولة تقضي بالشريعة وتفصل بين البغاة والأبرياء وتحرس الطريق وتخيف العائثين بالفساد)[181] هكذا وصف العقاد بأسلوبه الرائع الأحوال في العالم ثم يشرح بعد ذلك موقف كل دولة على حدا فيقول (بيزنطة قد خرجت من الدين إلى الجدل العقيم الذي أصبح بعد ذلك علمًا عليها وتضاءلت سطوتها في البر والبحر حتى طمع فيها من كان

يحتمي بجوارها، وفارس قد سخر فيها المجوس من دين المجوس – وكمنت حول عرشها كوامن الغيلة وبواعث الفتن ونوازع الشهوات، والحبشة ضائعة بين الأوثان المستعارة من الحضارة تارة ومن الهمجية تارة - عالم يتطلع إلى حال غير حاله - عالم يتهيأ للتبديل أو للهدم ثم البناء -)[182]

ووسط هذا كله بعث المولي عز وجل نبيه محمد من ذرية إسماعيل عليه السلام الذي تركه أبوه سيدنا إبراهيم عليه السلام بجوار بيت الله الحرام ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ 126 وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ 127 رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيم 128 رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ 129﴾[183]

وبظهور الإسلام في الجزيرة العربية تم تحرير شعوب المنطقة بالكامل من بطش الفرس واضطهاد الروم لتصبح القومية الإسلامية فقط أعلى من أي قومية أخري وليس العربية أو الفارسية أو الرومانية أو أي جنسية أخرى ليعيش البشر طبقًا لمنهج الله سبحانه وتعالى فليس لأحد أن يضع منهج بشري ويفرضه على الناس وتم هزيمة الروم والفرس على يد المسلمين، ولقد كان النصر حليفهم لأنه دائمًا من عند الله سبحانه

ولقد كان العرب مؤهلين لهذه المعارك قبل الإسلام ولكن كان ينقصهم أحد أهم أسباب النصر كما يقول العقاد رحمه الله (فالذي لا ريب فيه أن الصحراء

قد تعاقبت فيها الأجيال علي حروب العصابات التي تشترك فيها القبائل أبدًا بين عادية ومعدو عليها وأن البدوي قد عاش زمنًا كما جاء في التوراة " يده علي كل إنسان ويد كل إنسان عليه " فحصل من ذلك حكمة مطبوعة يصح أن تسمى " حاسة الحرب " أو أهبة الميدان الخالد التي لا تفارقه في ليل أو نهار فلا يزال حياته في حيطة المدافع واستعداد المهاجم ويقظة القلب للنضال الذي يتعرض له بين مضطر مغتصب أو طائع مختار وهذه الملكة لا تحصل لأبناء المدن الذين يندبون للقتال بين آونة وأخري ويتدربون عليه كأنه عمل يؤدي في مكان العمل ثم يطرح عن العاتق في سائر الأوقات)[184] ويؤكد العقاد في كتابه الرائع عبقرية خالد أن العرب كانوا على دراية بكافة أنواع الخطط الحربية وفنون القتال ويؤكد أيضًا أن (النهضة العربية لم يكتب لها النصر لأن الفرس والروم كانوا يستحقون الهزيمة وكفى بل هي قد انتصرت لأنها كانت تستحق النصر بأسبابه التي لا مصادفة فيها ولا محاباة ولا محل لها لفلتة نادرة لا تقبل التكرار وإنما كانت أسباب النصر عند العرب ناقصة فتمت في أوانها فغلبوا بوسائل الغلبة جميعها)[185]

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن

أبرز القادة في عصر الولاة

منذ أن تم فتح مصر على يد القائد العربي عمرو بن العاص[186] حرص الخلفاء في الدول الإسلامية المختلفة على انتقاء أفضل العناصر من القادة والولاة لحكم مصر، بحيث يتسم والي مصر بالولاء والإخلاص وكذلك الكفاءة، وقد وصل الأمر إلى أن قام الخليفة الأموي مروان ابن الحكم بتعيين ابنه شخصيًا عبد العزيز بن مروان واليًا على مصر كما أقره على حكمها أخوه عبد الملك بن مروان عندما تولى الخلافة، وقد كتب المؤرخون عن عصر الولاة ما يلي: تولى حكم مصر في أعقاب الفتح العربي لها ولاة كانوا يعينون من قبل الخلافة الإسلامية في المدينة المنورة[187] ثم دمشق[188] ثم بغداد[189]، وقد اعتاد المؤرخون أن يسموا العصر الذي يبدأ بفاتح مصر عمرو بن العاص حتى قيام الدولة الطولونية سنة 254 هـ "868م" بعصر الولاة وقد روعي في اختيار هؤلاء الولاة أن يكونوا من أصحاب السمعة الطيبة والنزاهة والعدالة فإذا أهمل أحدهم شئون مصر أو استبد بأهلها عزله الخليفة وأتى بغيره طبقًا لتعاليم الإسلام التي تقرر أن الحكم ينبغي أن يكون في أصلح الناس له، ولهذا كان الولاة أو على وجه الدقة معظمهم، يحرصون على استثمار ثروات مصر ومواردها فيما يعود بالنفع على الشعب المصري الذي ارتضي الإسلام دينًا وبدأ يتعرب من الجيل الأول بعد الفتح، وفي عصر الولاة اهتم حكام مصر بشئونها الاقتصادية، فأولوا عنايتهم بالزراعة عقب الفتح مباشرة وعملوا علي زيادة الغلات والمحاصيل واهتموا بشئون الري، ويلاحظ أن الصناعة في مصر

في عصر الولاة كان يقوم بها القبط ثم أصبح معظم الذين يقومون بها من المصريين الذين ظلوا علي دينهم والذين أسلموا لأن العرب في أول ذلك العصر كان بيدهم السياسة والحكم والحرب وفيما يلي أبرز القادة في عصر الولاة في مصر.

الوالي عمرو بن العاص رضي الله عنه:

بعد أن تم فتح الشام في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حاول عمرو بن العاص إقناع الخليفة بفتح مصر ولم يكن إقناعه سهلًا وكان ذلك في الشام عندما ذهب عمر بن الخطاب إلى هناك لاستلام مفاتيح بيت المقدس وفي أثناء هذه الزيارة يقال أن عمرو فاتح عمر بموضوع فتح مصر، ثم كلمه مرة أخرى في نفس الموضوع عندما تواجد في إحدى قرى دمشق وتسمى الجابية وظل عمرو يستغل كل فرصة تتاح له لإقناع الخليفة بفتح مصر ويصف له مصر وخيراتها كما أنها أصبحت آخر معاقل الروم في المنطقة وقد يتخذونها قاعدة للهجوم على الشام واستعادتها مرة أخرى من المسلمين، وكان أمير المؤمنين يخاف الله في دماء المسلمين (كان يخشي أن يراق دم مسلم واحد ظلمًا أو خطأ فيُسأل عنه أمام ربه في اليوم الآخر، كان عمر أحرص الناس علي رعيته وكان يري أن أمر العرب لم يستقر بعد في الشام فكيف يستطيع أن يرسل جيشًا جديدًا لفتح جديد في مصر؟)[190]..

لقد نظر عمرو بن العاص إلي مصر النظرة التي نظرها كبار الشخصيات التي زارت مصر من قبل وعرف قدرها وعرف أنها ستكون عونًا للدولة الإسلامية وقوة لها وكان يتردد في ذهنه على ما يبدو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما معناه استوصوا بالقبط خيرًا فإنكم ستجدونهم نعم الأعوان علي

قتال عدوكم[191] وغير ذلك من الأحاديث الشريفة التي تبشر المؤمنين بفتح مصر ووصيته صلي الله عليه وسلم بأهل مصر لأن لهم ذمة ورحم، وأنهم خير أجناد الأرض، كما أن عمرو كان يرى الموقف الدولي وتوزيع القوات الرومانية بأسلوب يجعل فتح مصر ضرورة حربية وليست مجرد فتح جديد، كما أنه زار مصر قبل الإسلام وعرفها وعرف طرقها ومسالكها، كما أنه قاتل الروم في فلسطين وعرف طبيعتهم القتالية ونقاط ضعفهم وبالإضافة إلى كل هذه الأسباب التي جعلت عمرو يلح على الخليفة في فتح مصر كان هناك سبب قوي آخر حيث كان عمرو متعاطفًا مع الشعب المصري نفسه ويسعى لتحريره من الظلم والقسوة والاضطهاد فقد أحب هذا الشعب وكان يتمني إنقاذه، ونجح عمرو أخيرًا في إقناع الخليفة أثناء وجوده في الشام على ما يبدو (فوافق عمر، على أن تمتد المشورة إلى ما بعد عودته للمدينة – وفيها كبار الصحابة – وعلى أن يظل القرار النهائي معلقًا بنتائج الشوري، وبدخول الجيش الفاتح إلى الديار المصرية- وعاد عمر إلى المدينة في ديسمبر 639 م في الوقت الذي سار فيه عمرو بن العاص على رأس جيش الفتح المكون من أربعة آلاف مقاتل قاصدًا فتح مصر فلما وطئت أقدام الجيش الإسلامي أرض مصر أدركهم رسول أمير المؤمنين بكتابه الذي يدعوهم إلى الرجوع إن لم يكونوا قد دخلوا أرضها)[192]، ولكنهم كانوا بالفعل قد دخلوا مصر فاستمر عمرو بن العاص في التقدم إلي أن حاصر حصن بابليون، وجاءه المدد أثناء الحصار ويقول عن هذا المدد الدكتور محمد عمارة (أمده أمير المؤمنين عمر بـ4000 مقاتل، وعلى رأس كل ألف منهم واحد من أبطال صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم قدر عمر بن الخطاب أنه يزن ألفًا من المقاتلين فأصبح عدد الجيش الفاتح 8000 ووزنه 12000 من المقاتلين)[193] وكان من بين هؤلاء

الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد رضي الله عنهم.

وعن مساعدة المصريين للمسلمين أثناء الفتح يقول د/ حسين كفافي في كتابه الممتع (المسيحية والإسلام في مصر) صفحة 194 (لم تكن الإسكندرية تهون على الرومان إذ كانوا يعتبرونها جزء لا يتجزأ من الدولة البيزنطية، فحشدوا لها الحشود لكي تبقي في أيديهم إلا أن المصريين " القبط " كانوا يقدمون للمسلمين العون والمساعدة في القتال، بل كانوا يبذلون أرواحهم من أجل التخلص من المستعمرين الرومان، فأيام التعذيب وعصور الاستشهاد ليست بعيدة، فما زالت ذاكرة المصريين تجتر هذه الأيام السوداء، الحالكة الظلام، هكذا تعود المصريون علي التضحية والفداء والاستشهاد، وها هي الفرصة جاءت لهؤلاء الشجعان ليبذلوا النفس والنفيس، ومن الطبيعي أن المصريين كانوا يتمنون هذا اليوم).

ويقول المقريزي المؤرخ الشهير في كتابه (الخطط) صفحة 534، 535 بالجزء الثالث (وكتب عمرو لبنيامين بطرق اليعاقبة أمانًا، في سنة عشرين من الهجرة فسره ذلك وقدم علي عمرو وجلس على كرسي بطركيته بعد ما غاب عنه،فغلبت اليعاقبة علي كنائس مصر وأديرتها كلها، وانفردوا بها دون الملكية)[194]، (وبعد أن كانت كنائسها وأديرتها مغتصبة من قبل مسيحية الدولة الرومانية الاستعمارية ومذهبها الملكاني – حرر الفتح الإسلامي هذه الكنائس الوطنية وأعادها إلى الأقباط فكانت المرة الأولي التي يحرر فيها أهل دين مقدسات دين آخر)[195]، ويقول بن عبد الحكم (المؤرخ) في كتابه (فتوح مصر والمغرب) صفحة 87 عن عمرو بن العاص (واعتبر الأقباط أهل ذمة وفرض

علي كل من بلغ الحلم ديناران ويستثني من هذه الضريبة النساء والصبية والشيوخ)[196].

ومن هنا يتضح أن المصريين قد عاشوا فترة من أفضل فترات تاريخهم كما ذكرنا فلم يعد هناك اضطهاد ديني أو ضرائب فادحة ظالمة بل إن عمرو قام بإصلاحات ضخمة في العديد من المجالات وخاصة مشاريع الري التي تهم المصريون بوجه خاص، كما قام ببناء عاصمة جديدة لمصر هي مدينة الفسطاط.

كما أنها أصبحت مركزًا تجاريًا كبيرًا فقد كانت السفن تصل إليها من البحر المتوسط عن طريق أفرع النيل الممتدة من الفسطاط للبحر المتوسط كما أن خليج أمير المؤمنين ربط بينها وبين البحر الأحمر أيضًا وقد أمر بحفره أمير المؤمنين، وبالتالي انتعشت الحركة التجارية بل والصناعية أيضًا في الفسطاط، كما أنها أصبحت مركزًا علميًا كبيرًا حيث برز فيها بعد ذلك العديد من العلماء في مجالات عديدة مثل الدين (عبد الله بن عمرو، وابن لهيعة، والليث بن سعد) وعلم التاريخ (عبد الرحمن بن عبد الحكم) والأدب والشعر والطب والهندسة وغيرها من العلوم الدنيوية وبالمناسبة استمر تشجيع الولاة المسلمون للعلم بكافة مجالاته وخصوصًا في مدينة الإسكندرية التي كانت منارة للعلم كادت أن تخبو لولا الفتح الإسلامي الذي شجع علماءها (وقد نشأت في مصر إلي جانب هذه الحياة الدينية حياة علمية خالصة هي في الواقع استمرار للحياة العلمية التي كانت قائمة في مصر في العصور القديمة، وكانت أنشط ما تكون في الإسكندرية، وقد عنيت هذه الحركة العلمية بعلوم الهندسة والطب والفلك والتنجيم - إلخ ونقلت الكتب القديمة

عن القبطية واليونانية والسريانية، فكان معظم المشتغلين بها من النصارى واليهود ثم انضم إليهم بعد قليل المسلمون الذين نبغوا في هذه العلوم-)[197]

وجدير بالذكر أن عصر الراشدين يعد من أفضل العصور التي مرت بها مصر طوال تاريخها بالكامل إن لم يكن أفضلها على الإطلاق، فبالرغم من أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كان يعيش في المدينة المنورة إلا أن كل فرد في الأمة بالكامل كان يشعر بعدله، وكانت مصر كما نعرف قبل الفتح في حالة لا تحسد عليها ثم تحولت إلى ولاية إسلامية تنعم بالأمن والأمان والعدل والرحمة في ظل خلافة عمر وولاية عمرو بن العاص، وسنذكر هنا مثال واحد فقط علي ذلك قد يغنينا عن الكثير من الأمثلة، وهو ما ورد في كتاب المستطرف في كل فن مستظرف تأليف شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي حيث كتب ما يلي:

ومما تضمنته أخبار الأخيار: ما رواه أنس رضي الله عنه قال: بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قاعد إذ جاءه رجل من أهل مصر فقال: يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك، فقال عمر رضي الله عنه: لقد عذت بمجير فما شأنك، فقال: سابقت بفرسي ابنًا لعمرو بن العاص وهو يومئذ أمير على مصر فجعل يقنعني بسوطه ويقول: أنا ابن الأكرمين، فبلغ عمرًا أباه فخشي أن آتيك فحبسني في السجن فانفلت منه فهذا الحين أتيتك، فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص: إذا أتاك كتابي هذا فاشهد الموسم أنت وولدك فلان، وقال للمصري: أقم حتى يأتيك، فأقام حتى قدم عمرو وشهد موسم الحج فلما قضي عمر الحج وهو قاعد مع الناس وعمرو بن العاص وابنه إلى جانبه قام المصري فرمي إليه عمر رضي الله عنه

بالدرة، قال أنس رضي الله عنه: فلقد ضربه ونحن نشتهي أن يضربه فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه وعمر يقول: اضرب ابن الأكرمين: قال: يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت، قال: ضعها علي ضلع عمرو، فقال: يا أمير المؤمنين لقد ضربت الذي ضربني: قال: أما والله لو فعلت ما منعك أحد حتي تكون أنت الذي تنتزع، ثم أقبل على عمرو بن العاص وقال: يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟ فجعل عمرو يعتذر إليه.

الوالي مسلمة بن مخلد الأنصاري:

تولى مسلمة بن مخلد حكم مصر سنة 667م في عهد الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان، وأثناء ولايته خرج الأسطول المصري بقيادة عبد الله بن قيس سنة 668م من ترسانة الإسكندرية لغزو جزيرة صقلية حيث وجد الحامية البيزنطية بصقلية من الضعف بحيث أحرزت أساطيل عبد الله بن قيس عدة انتصارات عليها، غير أن عبد الله بن قيس قنع بما غنمه ولم يحاول البقاء بصقلية أو استثمار انتصاراته السابقة وعاد بأسطوله المظفر إلى مصر محملًا بالغنائم.

وردًا على هذه الغزوة البحرية قام الأسطول البيزنطي بغارة على السواحل المصرية عند البرلس سنة 673م، ونتيجة لهذا النشاط البحري المستمر أنشأ الوالي مسلمة بن مخلد دارًا لصناعة السفن جديدة بجانب ترسانة الإسكندرية وترسانة القلزم وهي ترسانة بابليون سنة 674م.

ولقد توفي مسلمة بن مخلد والي مصر في عهد الخليفة الأموي يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بعد أن بني في الروضة مقياسًا للنيل ودارًا للصناعة وعامل القبط بالعطف وشملهم بالرعاية فقد سمح لهم بأن يبنوا كنيسة في الفسطاط وعني ببناء المساجد وإصلاحها، فقد أمر سنة 673م بهدم جامع عمرو بن العاص وبنائه من جديد بالآجر بعد أن كان مبنيًا باللبن في عهد عمرو وكان يقيم الصلاة بنفسه طول مدة ولايته، غير أن أعظم أعماله جميعًا هو استقباله لأهل بيت الرسول □ وعلى رأسهم السيدة زينب بعد معركة كربلاء وقتل معظم أهل البيت، فأخلى بيته ليقيموا فيه وهو البيت الذي تحول إلى مسجد السيدة زينب بعد موتها ولا يزال[198]، (وتشير معظم المراجع إلى دخول السيدة زينب رضي الله عنها مصر في مستهل شهر شعبان سنة 61هـ الموافق 26 إبريل سنة 681م وما إن وصلت إلى مدينة بلبيس حتى كان في استقبالها مسلمة بن مخلد الأنصاري والي مصر ورهط من كبار الأمراء والعلماء وجمع من عامة المسلمين وبكى مسلمة وبكت السيدة زينب ويصل الموكب إلى مدينة الفسطاط ويخصص لها الوالي داره الشهيرة معززة مكرمة وكانت فيها موضع إجلال المصريين وتقديرهم، وكانوا يغدون إلى دارها ملتمسين دعواتها، مستمعين إلى ما ترويه من أحاديث نبوية شريفة وآداب رفيعة..

كما كان ديوان الحكم يعقد في هذه الدار، والوالي والأمراء يستفتونها من خلف حجاب في أمور الدين والدنيا، فاشتهرت عند العامة من أهل مصر حتى يومنا هذا بلقب رئيسة الديوان

وإلى رحاب الله تنتقل السيدة الطاهرة يوم الأحد لأربع عشرة مضت من رجب سنة 62 هـ الموافق 27مارس سنة 682 م فمهدت لها الأرض في خلوتها من دار مسلمة حيث أقامت، وضريحها كان في الجهة البحرية من دار الوالي مسلمة بن مخلد مشرقًا علي الخليج الذي كان يخرج من النيل عند فم الخليج حاليًا.

وفي عصر الدولة الطولونية كان المشهد الزينبي أحد مشاهد آل البيت التي أمر أحمد بن طولون بتجديدها وعمارتها.

وفي عصر الدولة الفاطمية كان المعز لدين الله أول من شيد عليه بناءً أما الحاكم بأمر الله فقد اختص ضريحها بأوفر نصيب من الأوقاف

وظل هذا الضريح موضع عناية جميع الدول التي تعاقبت الحكم، وفي القرن السادس الهجري في زمن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب شهد هذا المسجد عمارة وتجديدًا برعاية الأمير فخر الدين اسماعيل الجعفري نقيب الأشراف الزينبيين، ويشير العلامة المؤرخ الجبرتي إلى أن الأمير عبد الرحمن كتخدا أعاد تشييد مسجد السيدة زينب، وفي عهد الخديوي توفيق شهد المسجد تجديدات وعمارة شاملة واستمرت أعمال التجديدات حتى العصر الحالي)[199]

الوالي قرة بن شريك يقاوم هجرة الفلاحين إلى المدن:

تولى قرة بن شريك حكم مصر سنة 709م في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك.

وقام ابن شريك باستصلاح بركة يطلق عليها بركة الحبش بظاهر الفسطاط وغرس بها القصب، وظلت عامرة بالبساتين وأشجار الفاكهة حتى القرن الرابع الهجري.

ولقد تجلت في ولاية قرة بن شريك على مصر ظاهرة خطيرة وهي الهجرة من الريف إلى المدن للإفادة من إمكانيات الحياة الواسعة هناك، والمشاركة في معالمها الحيوية، ولقد اقترنت تلك الظاهرة الإجتماعية بأزمة اقتصادية، إذ أدى تطلع الفلاحين إلى الحياة الإجتماعية الجديدة إلى حرمان الريف من السواعد الفتية وإصابة الإنتاج الزراعي بضربة قاسية فاتخذ والي مصر قرة بن شريك عدة إجراءات للحد من هذه الظاهرة والقضاء عليها وأنشأ هيئة خاصة لإعادة كل شخص إلى موطنه الأصلي فكان لا يسمح لأي شخص بتغيير محل إقامته إلا بإذن خاص ولمدة محدودة وعلى عهد قرة بن شريك كان بمصر ثلاث دور كبرى لصناعة السفن، الأولى في الإسكندرية، والثانية في القلزم والثالثة في بابليون، وكان ابن شريك شديد الاهتمام بتزويد تلك الدور بما يلزمها ملزمًا حكام الأقاليم بتحمل تكاليف النقل البري في حالة الإهمال، وكانت ترسانة الإسكندرية موجهة لحوض البحر المتوسط، سواء دفاعًا أو هجومًا،.

أما ترسانة القلزم فكانت موجهة لحوض البحر الأحمر سواء لحماية السواحل المصرية أو تقديم المساعدة لسواحل الحجاز أما ترسانة بابليون فكانت لمعاونة كل من ترسانة الإسكندرية وترسانة القلزم.

ولقد خرج الأسطول المصري في غزوة على جزيرة سردينيا، وأثناء ذلك قام الخوارج بمؤامرة لمحاولة اغتيال قرة بن شريك وهو في الإسكندرية، لكن

المؤامرة فشلت وتم القبض على المتآمرين وكان عددهم حوالي مائة شخص.

الوالي أيوب بن شرحبيل:

تولي حكم مصر سنة 717م في عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين.

وقد أرسل إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز يشكو قلة قيمة الخراج (المال الذي يتم جمعه في مصر) وكان النقص ناتج عن زيادة عدد المصريين الذين أسلموا وبالتالي لم يعد بإمكانه فرض الجزية عليهم واستأذن الوالي الخليفة في أن يفرض جزية على من أسلم حتى يحافظ على دخل الدولة، فرد عليه الخليفة عمر بن عبد العزيز رده المشهور (قبح الله رأيك، إن الله إنما بعث محمدًا هاديًا ولم يبعثه جابيًا، فضع الجزية عمن أسلم ولعمري لعمر أشقى من أن أجل الناس كلهم في الإسلام على يديه)[200] يعتبر عمر بن عبد العزيز من أفضل خلفاء الدولة الأموية كما رأى المؤرخون فإن هناك العديد من المواقف التي تشهد بفضله وعدله وورعه وتقواه، فمن الطريف أن الصحابي الشهير أنس بن مالك رضي الله عنه طال به العمر حتي أنه صلى وراء عمر بن عبد العزيز عندما كان أميرًا علي المدينة المنورة فقال عنه (ما صليت وراء إمام بعد رسول الله صلي الله عليه وسلم أشبه صلاة برسول الله من هذا الفتي، يعني عمر بن عبد العزيز)[201]، وقد كانت فترة خلافته رخاءً عم كل أنحاء الأمة حتي أنه لم يعد هناك فقيرًا في الأمة الإسلامية كلها في عهده (عن عمر بن أسيد قال: والله ما مات عمر بن عبد العزيز حتى جعل الرجل يجيء بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون، فما يبرح حتي

يرجع بماله كله، قد أغنى عمر الناس)[202] وجدير بالذكر أنه حفيد عمر بن الخطاب من ناحية الأم كما نعلم جميعًا وبشكل عام كان خلفاء بني أمية يُكثرون من الفتوحات الإسلامية ويسعون إلى استقرار الأمة ورخاءها وكان آخرهم مروان بن محمد بن مروان الذي يعتبر آخر خليفة أموي.

الوالي صالح بن علي أول والي على مصر في العصر العباسي:

تولى صالح بن علي حكم مصر سنة 750م بعد سقوط الدولة الأموية في عهد أبو العباس عبد الله أول خليفة عباسي والمعروف بالسفاح (فعمل على تثبيت دعائم الحكم الجديد في مصر فأمر بتوزيع العطايا وقسم الصدقات على الأيتام والمساكين وأبناء السبيل وأسس مدينة العسكر إلى الشمال الشرقي من مدينة الفسطاط -وبنى دار إمارة ثانية بدلًا من دار الإمارة الأموية التي كانت بالفسطاط وبمرور الأيام اتصلت مدينة العسكر بمدينة الفسطاط وأصبحت مدينة كبيرة ثم نظر في زيادة مسجد عمرو بن العاص فوسعه من الجهة الشمالية "كانت أول زيادة على يد مسلمة بن مخلد من جهتي الشرق والشمال، والزيادة الثانية كانت على يد عبد العزيز بن مروان[203] من جهة الغرب، ثم أمر عبد الله بن عبد الملك بتعلية سقف المسجد، والزيادة الثالثة كانت على يد قرة بن شريك من جهتي الجنوب والشرق وأنشأ محرابًا مجوفًا وطلي الأعمدة بالذهب، والزيادة الرابعة كانت على يد صالح بن علي من جهة الشمال " وأدخل فيه دار الزبير بن العوام وبهذا أزال النتوء الذي نتج عن إدخال داري عمرو بن العاص وابنه عبد الله بن عمرو في المسجد، وأنشأ لذلك بابًا خامسًا في الجهة الشرقية - واستمال الكثير من وجوه أهل مصر وحملهم معه صحابة للخليفة أبي العباس - وفي عهده خرج الجيش العباسي

إلى شمال أفريقيا مصطحبًا معه أشراف مصر للقيام بدور الدعاة - وقد تولى صالح بن على حكم مصر مرة ثانية في سنة 753م قبل وفاة الخليفة أبي العباس السفاح، وظل واليًا عليها حتى سنة 755م في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور، وفي ولايته الثانية على مصر امتد سلطانه إلي المغرب وإلي فلسطين، ويُذكر أن صالح بن علي العباسي غزا الدولة البيزنطية في سنة 756م تلك الدولة التي دأبت جيوشها على مهاجمة أراضي الدولة الإسلامية، وحدث في تلك السنة فداء بين إمبراطورية الروم وبين الخليفة أبي جعفر المنصور)[204] وفي عهد هذا الخليفة العباسي تم بناء بغداد، وذكر السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء عن المنصور ما يلي (وكان فحل بني العباس هيبة وشجاعة وحزماً ورأياً وجبروتًا، تاركًا للهو واللعب، كامل العقل، جيد المشاركة في العلم والأدب، فقيه النفس)[205] وتولى المنصور الخلافة في أول سنة 137 هجريًا (وفي سنة 147 توطدت الممالك كلها للمنصور وعظمت هيبته في النفوس ودانت له الأمصار ولم يبق خارجًا عنه سوي جزيرة الأندلس فقط فإنها غلب عليها عبد الرحمن بن معاوية الأموي المرواني لكنه لم يتلقب بأمير المؤمنين بل بالأمير فقط)[206] ويقول السيوطي أيضًا أن في عهد المنصور بدأت الدولة الأموية في الأندلس (التي يسميها السيوطي جزيرة الأندلس) ودامت إلى بعد سنة 400 هـ، وكان عبد الرحمن الأموي (من أهل العلم والعدل)[207]، ويعتبر المنصور من الشخصيات البارزة التي يندر وجودها في التاريخ فهو من مؤسسي الدول بالفعل وفي عهده بدأ اندماج الحضارة العربية مع باقي الحضارات والثقافات على عكس الدولة الأموية التي كانت من قبل دولة عربية بحته إذا جاز التعبير وتبنت سياسة التعريب في الأمة الإسلامية، أما العباسيين فقد تعرفوا على باقي الحضارات المختلفة في ذلك

الوقت كالحضارة الفارسية مثلًا، وفي عهد المنصور تم ترجمة بعض الكتب العالمية من لغاتها الأصلية إلى اللغة العربية مثل كتاب كليلة ودمنة وكتاب إقليدس[208] ونتيجة لاختلاط الثقافات في هذا العصر حدث تطور غير مسبوق في المجالات الثقافية والعلمية في الدولة العربية، وقد مدح أحد الشعراء المنصور بأبيات من الشعر منها:

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم

قوم لقيل: اقعدوا يا آل عباس

ثم ارتقوا في شعاع الشمس كلكم

إلى السماء فأنتم أكرم الناس

ويمكن أن نتعرف على شخصية المنصور ومدي قوتها وإيمانها العميق وقدراتها العالية من خلال أقواله هو نفسه لابنه المهدي وهو ينصحه، فمن كلام الرجل تعرف ملامح شخصيته، حيث قال لابنه (يا أبا عبد الله، الخليفة لا يصلحه إلا التقوى، والسلطان لا يصلحه إلا الطاعة، والرعية لا يصلحها إلا العدل، و أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة وأنقص الناس عقلًا من ظلم من هو دونه)[209]، ومن هنا يتضح أن المنصور كان يتحدى من هو في نفس قوته من المعارضين لحكمه حتى سيطر على كافة أمور الخلافة.

الوالي عيسي بن منصور وحضور الخليفة المأمون[210] إلى مصر:

كتب الإمام السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء عن المأمون (صفحة 245) ما يلي:

(كان المأمون أفضل رجال بني العباس حزمًا وعزمًا وحلمًا وعلمًا و رأيًا ودهاء وهيبة وشجاعة وسؤددًا وسماحة وله محاسن وسيرة طويلة لولا ما أتاه من محنة الناس في القول بخلق القرآن، ولم يل الخلافة من بني العباس أعلم منه وكان فصيحًا مفوهًا)[211] وكان المأمون أمارًا بالعدل فقيه النفس، يعد من كبار العلماء[212] وقد حضر المأمون إلى مصر للقضاء علي ثورة شعبية عارمة ضد الوالي عيسى بن منصور طبقًا لما كتبه الدكتور جمال الدين الشيال بكتاب تاريخ مصر الإسلامية:

(وفي سنة 216 هـ في ولاية عيسى بن منصور على مصر من قبل الخليفة المأمون، ثار سكان أسفل الأرض " الوجه البحري " – عربًا وقبطًا –وكان سبب الثورة – كما يذكر الكندي " سوء سيرة العمال فيهم " وبذل الوالي عيسى بن منصور والقائد العباسي الأفشين جهدهما لإخضاع الثورة التي ظلت قائمة نحو ثمانية شهور – من جمادى الأولى إلى ذي الحجة من سنة 216 هـ - حتى اضطر الخليفة المأمون أن يأتي إلى مصر بنفسه لإخضاع هذه الثورة، وأخضعها وعاقب كلًا من الحاكم والمحكومين بما يستحق، أما الوالي عيسى بن منصور فقد عزله المأمون بعد أن عنفه بقوله " لم يكن هذا الحدث العظيم إلا من فعلك وفعل عمالك، حملتم الناس ما لا يطيقون وكتمتموني الخبر حتى تفاقم الأمر واضطربت البلاد)[213]

أما عن المواقف الطريفة التي حدثت أثناء زيارة المأمون ما ذكره الدكتور شوقي ضيف في كتابه الممتع (تاريخ الأدب العربي) حيث كتب ما يلي:

(ومما يدل بوضوح على رخاء مصر في عصر الولاة ومدى ما كان يتمتع به القبط من حسن المعاملة خبر رواه المقريزي وقع في أثناء زيارة – الخليفة – المأمون لمصر سنة 217 هـ إذ مر بقرية يقال لها وطاء النمل وكانت إقطاعية لقبطية عجوز تسمى مارية، فتعرضت له تسأله أن ينزل في ضيافتها مع حاشيته ومن يرافقه من جنده، وعجب لكثرة ما قدمت من أطعمة، فلما أصبح جاءته ومعها عشر وصائف، مع كل وصيفة طبق، فظن أنها ستقدم له بعض هدايا الريف المصري، فلما وضعت الوصائف الأطباق بين يديه إذا في كل طبق كيس من ذهب، فشكرها وأمرها برده، فأبت إباءً شديدًا، وتأمل الذهب أو الدنانير فإذا بها من ضرب عام واحد، مما يدل علي ربحها من عام، فقال: هذا والله أعجب، وقال لها ردي مالك بارك الله لك فيه، فأخذت قطعة من الأرض وقالت: يا أمير المؤمنين هذا الذهب من هذه الطينة التي تناولتها من الأرض ثم من عدلك يا أمير المؤمنين، وعندي من هذا الذهب شيء كثير، فأخذه المأمون لبيت المال)[214]

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع

أبرز القادة في عصر الدولة الطولونية

بدأ ضعف العباسيين تدريجيًا بعد خروج العرب[215] من الجيش وظلت مصر تابعة للخلافة العباسية في بغداد حيث كان الخليفة العباسي رمز للأمة الإسلامية أكثر منه حاكمًا لها، فكما نعلم جميعًا أن الخلافة العباسية بدأت بداية قوية على يد خلفاء أشداء كأبي جعفر المنصور وهارون الرشيد والمأمون والمعتصم وهو ما يسمى بالعصر العباسي الأول ثم بدأ الضعف تدريجيًا إلى أن أصبح الوزراء والأمراء يسيطرون على الدولة بل وصل الأمر إلى أن أصبح هناك ملوك وسلاطين يسيطرون على كافة الأمور ولكن في ظل الخلافة العباسية التي كانت تمنحهم شرعية الحكم، فلا يتم تقليد ملك أو سلطان إلا إذا رضي عن ذلك الخليفة في بغداد حتى ولو كان مجرد إجراء رمزي ولكن مهم جدًا لأي حاكم في العالم الإسلامي، بعد أن تنازل الخليفة العباسي[216] عن معظم صلاحياته للقادة والملوك الذين يحكمون شتى بقاع العالم الإسلامي، وفي أحد المراحل التاريخية للدولة العباسية (كان الخلفاء يولون حكم مصر لبعض الأتراك في صورة إقطاع مقابل دفع جزية معلومة، لكن هؤلاء المُقطَعين كانوا لا يفضلون الابتعاد عن بغداد والخلافة، خشية إبعادهم عن مسرح الأحداث السياسية ويكتفون بإرسال من ينوب عنهم في حكم مصر، ومن هؤلاء النواب الذين قدموا إلى مصر سنة 254 هـ "868م" أحمد بن طولون وهو من المماليك الأتراك الذين نشؤوا في البلاط العباسي)[217]، ولما ولي أحمد بن طولون على مصر استكثر من العبيد في

جيشه حتى بلغت عدة جنده زيادة على أربعة وعشرين ألف غلام تركي وأربعين ألف أسود وسبعة آلاف حر مرتزق)[218]

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أحمد بن طولون:

يعد أحمد بن طولون من أبرز وأشهر الشخصيات في تاريخ مصر فهو من مؤسسي الدول، (وقال عنه المقريزي: وكان قد نشأ نشوءًا جميلًا وطلب الحديث وأحب الغزو وخرج إلى طرسوس مرات ولقي شيوخ المحدثين وسمع عنهم، وكتب العلم وحصل من ذلك قطعة كبيرة، وصحب هناك جماعة من الزهاد وأهل الدين والورع فتأدب بآدابهم وحسنت طريقته وظهر فضله، حتى تمكن له في قلوب الأولياء، ما ارتفع به على طبقته وبان فضله على وجوه الأتراك وصار عندهم ممن يوثق به)[219] واستطاع أحمد بن طولون التخلص من منافسيه وأصبح له السلطة المطلقة[220] في مصر بلا منازع وبهذا كان حكمه نهاية لما يسمى بعصر الولاة الذي تكلمنا عنه من قبل، فقد قام ابن طولون بتوريث حكم مصر لأولاده من بعده وقام بإنهاء حالة الفوضى والاضطراب التي كانت موجودة في مصر (والوقع أن نظام الولاية في مصر قبل أن يتولى ابن طولون حكمها لم يكن كله قائمًا على الفوضى والاضطراب، فقد شهدت مصر منذ الفتح العربي لها إلى قيام الدولة الطولونية ولاة معظمهم من الأكفاء، عملوا على إقامة مجتمع أساسه العدالة وفقًا لمبادئ الإسلام، ولم يستهدف هذا المجتمع خدمة الحاكم أو طبقة معينة على نحو ما ساد في العصرين الروماني والبيزنطي، إنما انصرف المصريون لمزاولة شئون حياتهم اليومية، لا يشكون في غالب الأحوال من ثقل ضرائب أو تعسف حكم أجنبي بغيض)[221]

ويقول د جمال الدين الشيال عن القطائع (لما ولي أحمد بن طولون علي مصر، اتخذ لنفسه جيشًا كبيرًا كان معظمه من السودانيين والروم والأتراك فضاقت بهم الفسطاط والعسكر فأراد أن يبني لهم عاصمة جديدة وبناها في الفضاء الذي كان بين العسكر وبين جبل المقطم - وبني فيها قصره العظيم وشيد جامعه المعروف باسمه - وجعل بين القصر والمسجد ميدانًا كبيرًا لسباق الخيل وعرض الجند)[222] وقد تم بناء القطائع وما بها من منشآت على طراز مدينة سامراء التي بناها العباسيون في العراق، حتى أن مئذنة الجامع الشهير الموجود إلى الآن تشبه مئذنة جامع مدينة سامراء، وكان بالقطائع العديد من الأسواق والمساجد والطواحين والحمامات والأفران والقصور (وتزايدت العمارة حتى اتصلت بالفسطاط وصار كل بلدًا واحدًا -)[223]

أما الاستقلال الذي قام به ابن طولون بمصر فهو ليس استقلالًا بالمعني الشائع لهذه الكلمة في هذه الأيام، بل إنه استقلال من نوع خاص جدًا سبق أن وضحناه في الفصل الرابع من هذا الكتاب.

ولقد كانت عاصمته الجديدة القطائع غاية في الفن الهندسي أنفق على إنشائها كل ما غنمته جيوشه المظفرة في الشرق والغرب وكانت دورها واسعة وحدائقها أوسع، ولما كانت القطائع تقع على قمة تل يتوسط النيل والصحراء الشرقية فقد أقام لها قناطر شديدة الارتفاع ورفع الماء إليها عن طريق سواقي في المكان المعروف الآن بفم الخليج، وقد ازدهرت الحالة الاقتصادية في مصر في عهد الدولة الطولونية، وأجمعت المصادر على اهتمام الطولونيين بتقدم أحوال مصر الاقتصادية وازدهارها ويدل على ذلك وفرة الثروات التي خلفها الطولونيين ورخص الأسعار وتوفر السلع في سائر

أنحاء مصر بصورة لم تشهدها من قبل، كما أن أحمد بن طولون كان يهتم بالطب وصحة المواطنين بشكل غير عادي حيث قام ببناء مستشفى كبير مجاني وألحق به صيدلية لصرف الأدوية مجانًا أيضًا دون تمييز بين الطبقات والأديان، ويظل المريض تحت العلاج حتي يتم شفاؤه وكانت دلالة شفاء المريض قدرته على أكل رغيف ودجاجة وعندئذ يسمح له بمغادرة المستشفى وكان ابن طولون يتفقد المستشفى ويتابع علاج الأطباء ويشرف على المرضي، كما اهتم ابن طولون بالجيش الضخم الذي كان يسيطر عليه سيطرة كاملة وكان لديه أسطول قوي وأنشأ مراكب حربية متقنة الصنع، كما حدثت طفرة صناعية في مصر في هذا العصر وخاصة صناعة النسيج والزجاج والورق والأسلحة والصابون والسكر وقام ابن طولون ببناء دار لسك العملة، حيث سُكَّت الدنانير ذات المستوى الرفيع في النقاء، وشهدت مصر في عهده نهضة تجارية عظيمة، فكانت البضائع التي تصل من بلاد الهند والصين تسلك طريق البحر الأحمر إلى مصر ومنها إلى موانئ إيطاليا وفرنسا وأسبانيا، كما كان في مصر في هذا العهد أيضًا العديد من العلماء والفقهاء والمؤرخين والأدباء والشعراء نبغوا في عهد الدولة الطولونية وغاية القول في هذا الموضوع أن مصر في هذا العهد شهدت فترة ازدهار في جميع المجالات وشاركت في النهضة الحضارية، التي شهدها العالم الإسلامي في القرن الثالث الهجري.

واكتسب ابن طولون في مصر حب الجميع على اختلاف دياناتهم ومذاهبهم المختلفة فقد كان كما يقول عنه ابن الأثير "عاقلًا حازمًا،كثير المعروف والصدقة[224] متدينًا يحب العلماء وأهل الدين، وعمل كثيرًا من أعمال البر ومصالح المسلمين "[225] وعندما مرض مرضًا شديدًا في آخر أيامه (خرج

المسلمون بالمصاحف واليهود بالتوراة والنصارى بالإنجيل والمعلمون بالصبيان إلى الصحراء ودعوا له)[226] مما يؤكد أن الستة عشر عامًا التي قضاها ابن طولون في حكم مصر حتى وفاته بها كانت من أفضل الأيام التي مر بها المصريون في ذلك الوقت، وقد حكم أحمد ابن طولون وأولاده مصر لمدة 38 سنة تقريبًا[227] فكانت فترة حكم أحمد ابن طولون من سنة 868 م إلى سنة 884 م ثم جاء ابنه أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون وحكم مصر من سنة 884 م إلى سنة 896 م ثم أبو العساكر جيش بن خمارويه بن أحمد بن طولون لمدة أيام قليلة ثم هارون بن خمارويه من سنة 896 م إلى سنة 904 م ثم شيبان بن أحمد بن طولون في ديسمبر 904 م ولم يحكم إلا أيامًا[228]، ولاحظ معي عزيزي القارئ أن فترة أحمد بن طولون وابنه خمارويه تقريبًا هي الفترة المستقرة نسبيًا في عصر الدولة الطولونية أما بعد ذلك فقد حدثت بعض الاضطرابات في الدولة الطولونية ويؤكد هذه الاضطرابات قصر فترة حكم باقي الطولونيين بل إن أحدهم تم خلعه من الحكم بواسطة الجيش، كما انتهت حياة هارون بن خمارويه بالقتل ولم تدم فترة حكم شيبان بن أحمد بن طولون إلا أيامًا معدودة وكل هذا يؤكد ما سبق ذكره من أن الملوك والقادة الأقوياء يؤسسون المُلك وأولادهم وأحفادهم الضعفاء يضيعونه.

خمارويه بن أحمد بن طولون:

أكد العديد من المؤرخين أن خمارويه لم يكن على نفس مستوي أبيه من القوة والعظمة بل الفترة التي جاءت بعد ابن طولون كانت تشبه السير بالقصور الذاتي حيث أن العجلة التي أدارها ابن طولون بقوة لم يعد أحد بعده

يديرها بل ظلت تدور تأثرًا بقوة ابن طولون فقط إلى أن توقفت تمامًا وانهارت الدولة، ولأن ابن طولون أسس دولة قوية وأدار العجلة بقوة دفع ضخمة فقد ظلت تدور فترة ليست بالقصيرة حتى توقفت تمامًا، وغاية ما يقال عن خمارويه أنه كان مسرفًا إلى حد ما (ولم يحسن خمارويه الاستفادة من الأموال الجمة التي تركها له أبوه فأخذ يسرف في البناء وأنواع الترف)[229]، وكان الخليفة المعتمد قد مات هو وأخوه الموفق وخلفه الخليفة المعتضد بالله بن الموفق، واهتم خمارويه باكتساب ود الخليفة العباسي الجديد وعرض عليه (زواج ابنته أسماء التي تلقب بقطر الندى من ابن الخليفة ولكن الخليفة اختارها لنفسه فوافق أبوها على ذلك وجهزها بجهاز يفوق الوصف مما أدى إلى إفلاس مصر وقد أفاضت المصادر في وصف جهاز العروس)[230] ويقال أن خمارويه أمر ببناء قصر على رأس كل مرحلة من مراحل المسافة بين مصر وبغداد لتقيم فيه ابنته أثناء سفرها إلى الخليفة (مجهز بكل وسائل الراحة والرفاهية كأنها في قصر أبيها في مدينة القطائع إلى أن وصلت بغداد ودخل بها الخليفة المعتضد في ربيع الآخر سنة 282 هـ (مايو 895 م)[231] وغاية ما يقال عن عصر خمارويه وما بعده وحتى انتهاء الدولة الطولونية ما قاله الكاتب محمود السعدني عن ابن طولون وأولاده (فلما مات ماتت دولته كذلك وإن بقيت أمام الناس فترة من الوقت ولكن الذي قام لم يكن دولة ابن طولون ولكن شبح الدولة وصدى الصوت القوي الذي كان يتردد في جنباتها يومًا ما غير بعيد)[232]، وقد كتب الشعراء قصائد من الشعر حزنًا على سقوط الدولة الطولونية.

وإليك بعض أبيات من رثاء الدولة الطولونية من كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي:

قف وقفةً وانظر إلي الميدان

والقصر ذي الشرفات والأيوان

والجوسق العالي المنيف بناؤه

ما باله قفر من السكان

فانظر إلي ما شيدوا من بعدهم

هل فيه غير البوم والغربان

أين الألي حفروا العيون بأرضه

وتأنقوا فيه وفي البنيان

غرسوا صنوف النخل في ساحاته

وغرائب الأعناب والرمان

والزعفران مع البهار بأرضه

والورد بين الآس والريحان

كانوا ملوك الأرض في أيامهم

كبراء كل مدينة ومكان

فتمزقوا وتفرقوا فهناك هم

تحت الثرى يبلون في الأكفان

والله وارث كل حي بعدهم

وله البقاء وكل شيء فان

ولقد سادت الفوضي بعد موت خمارويه وأصبحت مصر غير قادرة على السيطرة على ممتلكاتها في الشام وغيرها، وجاء ثلاثة من الطولونيين حكموا مصر لمدة قصيرة، بلغ فيها الضعف ما بلغه مما أدى إلى انهيار الدولة حيث كان الخليفة العباسي في ذلك الوقت يراقب ما يحدث في مصر ويتابع ما يدور بها وقرر استعادة السيادة الكاملة والسيطرة المطلقة على مصر عندما وصل بها الحال إلى ما ذكرناه من ضعف وفوضى واضطرابات[233]، وكان الخليفة العباسي الموجود في ذلك الوقت هو المكتفي بالله ابن المعتضد بالله وقام المكتفي بالله بإرسال جيش وأسطول إلى مصر بقيادة محمد بن سليمان الكاتب للقضاء على الطولونيين حيث أوقع الهزيمة الساحقة بهم بحرًا وبرًا وقام القائد العباسي محمد بن سليمان بحرق مدينة القطائع عاصمة الدولة الطولونية ما عدا الجامع الكبير بها والموجود إلى الآن والذي يعتبر الشاهد الوحيد على مدينة القطائع وحضارتها وجمالها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العاشر

أبرز القادة في عصر الدولة الإخشيدية

تولى حكم مصر 11 واليًا خلال ثلاثين سنة[234] وهي الفترة بين سقوط الدولة الطولونية وقيام الدولة الإخشيدية (وكانت تجربة ابن طولون ودولته قد فتحت العيون على ما يمكن أن تقدمه مصر لمن يتولاها من إمكانيات فهي قاعدة عسكرية اقتصادية كبري - لذلك حرص الأذكياء من الولاة أن يثبتوا أقدامهم فيها ولكن لم يتمكنوا من ذلك لحرص الخلفاء العباسيين و وزرائهم على تغيير الولاة بكثرة في مصر في ذلك الوقت حتى لا يتمكن أحد الولاة من الاستقلال بها لذلك نجد عدد الولاة في مدة 30 سنة 11 والي وهو عدد كبير بالنسبة لهذه المدة القصيرة نسبيًا إلى أن جاء الإخشيد عندما أسس في مصر دولة شبه مستقلة ذات قوة لا يستهان بها وأورثها لأربعة من ذريته)[235]، وكانت الفترة بين سقوط الدولة الطولونية وقيام الدولة الإخشيدية قد شهدت صراع مرير وعنيف بين الخلافة العباسية السنية والخلافة الفاطمية الشيعية التي أسسها الفاطميون في المغرب، ولم تسلم مصر من هذا الصراع بل إنها كانت مسرحًا للمعارك بين الجانبين (ولا شك أن وقوع الصدام أكثر من مرة على أرض مصر بين الخلافة العباسية السنية والخلافة الفاطمية الشيعية قد أنزل كثيرًا من الأضرار بالمصريين وعرضهم لمتاعب قاسية من جانب الجنود فساءت أحوال البلاد وتعرضت مرافقها للإهمال)[236] إلي أن قامت الدولة الإخشيدية ليعود الاستقرار إلى مصر مرة أخرى.

والإخشيد مؤسس هذه الدولة كان المخلصين للخلافة العباسية وكلمة الإخشيد ليست اسمه، ولكنها لقبه أما اسمه فهو أبو بكر محمد ابن طغج، ولقب الإخشيد هو اللقب الذي يتلقب به ملوك أحد بلاد ما وراء النهر وتسمى فرغانة، وكان محمد بن طغج من أصل فرغاني ولأنه أصبح أميرًا كبيرًا فكان من الطبيعي أن يلقب بلقب الأمراء والملوك في بلاده الأصلية، وكان من أشجع القادة المقاتلين في الجيش العباسي وقد شارك والي مصر في قتال الفاطميين مما جعله ينال ثقة الخليفة العباسي " الراضي بالله " حتى أنه قام بتعيينه واليًا على مصر وأعطاه حق توريث حكم مصر لأولاده من بعده وهذا يؤكد قدرة الإخشيد على السيطرة على حدود الدولة العباسية المضطربة بفعل الفاطميين القادمين من الغرب وبالفعل لم يتمكن أحد منهم من دخول مصر بالقوة إلا بعد انهيار الدولة الإخشيدية بوفاة كافور الإخشيدي كما سنري.

أما الراضي بالله فهو الخليفة رقم 39 في قائمة الخلفاء[237] وفي عهد هذا الخليفة بلغت الدولة العباسية قمة الضعف بحيث أن الخليفة لم يعد يسيطر إلا على بغداد فقط تقريبًا، وهذا ما فهمته من كلام الإمام السيوطي حيث ذكر في كتابه تاريخ الخلفاء ما يلي (وفي سنة خمس وعشرين "325هـ " اختل الأمر جدًا وصارت البلاد بين خارجي قد تغلب عليها، أو عامل لا يحمل مالًا، وصاروا مثل ملوك الطوائف، ولم يبق بيد الراضي غير بغداد والسواد، ولما ضعف أمر الخلافة في هذه الأزمان ووهت أركان الدولة العباسية، وتغلبت القرامطة والمبتدعة على الأقاليم، قويت همة صاحب الأندلس الأمير عبد الرحمن بن محمد الأموي المرواني، وقال: أنا أولى الناس بالخلافة وتسمى بأمير المؤمنين الناصر لدين الله، واستولى على أكثر الأندلس وكانت له الهيبة

الزائدة والجهاد والغزو والسيرة المحمودة)[238]، وأكد الإمام السيوطي أن ثلاثة في العالم كله في ذلك الوقت كانوا يلقبون بلقب أمير المؤمنين منهم طبعًا الراضي بالله وصاحب الأندلس والخليفة الشيعي الفاطمي بالقيروان، وكما طلب ابن طولون من الخليفة العباسي الحضور إلى مصر واتخاذها مقرًا له خوفًا عليه من مؤامرات الأتراك، فعل الإخشيد نفس الشيء وطلب من أمير المؤمنين أن يحضر إلى مصر (فالتقي به الإخشيد في الشام، وأبدي له بالغ الاحترام والتقدير ودعاه إلى ترك بغداد والمجئ إلى مصر والإقامه فيها، وقال للخليفة: " يا أمير المؤمنين أنا عبدك وابن عبدك وقد عرفت الأتراك وغدرهم وفجورهم، فالله في نفسك، سر معي إلى الشام ومصر فهي لك وتأمن على نفسك " ولكن الخليفة فضل ألا يترك عاصمة ملكه ورفض عرض الإخشيد، ولا شك أنه لو أتيح للإخشيد أن ينجح في جذب الخليفة إلى مصر لتغير – إلى حد ما – مستقبل الخلافة ومستقبل مصر، وإذا كان الإخشيد قد أخفق في جعل مصر مركزًا للخلافة العباسية، فإن ذلك الأمر قد تم فيما بعد علي يد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس في سنة 659 هـ " 1261م ")[239]، ومن هنا يتضح أن الإخشيد كان حريصًا على الخليفة العباسي ومخلصًا له أشد الإخلاص

وقد تولى حكم مصر من الإخشيديين بما فيهم الإخشيد وكافور خمسة أمراء وهم على الترتيب أبو بكر محمد بن طغج الإخشيد وأبو القاسم أنوجور ابن الإخشيد وأبو الحسن علي ابن الإخشيد وأبو المسك كافور[240] خادم الإخشيد وأبو الفوارس أحمد ابن علي ابن الإخشيد حتى دخلها القائد جوهر الصقلي في شعبان 358 هـ / يونيو 969 م[241] وخطب للمعز الفاطمي علي المنابر بمصر وكانت فترة حكم الإخشيديين حولي 34 سنة من أغسطس 935 م إلى يونيو 969م

أبو بكر الإخشيد:

قال المقريزي عن أبو بكر محمد ابن طغج الملقب بالإخشيد ما يلي (وكان حازمًا شديد التيقظ في حروبه، حسن التدين، مكرمًا للأجناد، شديد - لا يكاد يجر قوسه غيره، حسن السيرة في الرعية، نجيبًا شهمًا)[242] (وشهدت مصر في عصر الدولة الإخشيدية رغم قصره نشاطًا حضاريًا مزدهرًا في ميادين الفنون والآداب والعلوم، ويتضح ذلك من تشييد العمائر وإنتاج التحف والآثار الفنية التي تمثل شتى ميادين الفن الإسلامي)[243]، (وتميز عهد الإخشيديين بظهور عدد من أعلام الفقه من أبناء مصر كان لهم نشاطًا مرموقًا)[244]، (واهتم الإخشيديون بانتعاش الأحوال الإقتصادية في مصر وأولوا عنايتهم بالزراعة والصناعة والتجارة، أما الزراعة فكانت الحرفة الأساسية لمعظم السكان، وتمثل المورد الرئيسي لدخل الدولة، ولم يكن إيجار الأرض الزراعية مرتفعًا في العصر الإخشيدي، إذ كان يتراوح بين دينار واحد وبين دينارين ونصف دينار للفدان في السنة حسب جودة الأرض - وقد بذل كافور الإخشيدي جهده لتنمية الزراعة، حتى زاد خراج مصر على أربعة ملايين كل سنة وبلغ خراج الفيوم وحده سنة 356هـ "976م" في عهد كافور أكثر من 620 ألف دينار)[245]،، أما عن الصناعة فيقول د محمود الحويري (وإلى جانب هذا كانت مصر بلدًا صناعيًا هامًا في العصر الإخشيدي، فاشتهرت بصناعة النسيج الرقيق في تنيس ودمياط وشطا ودبيق، وامتازت بصفة خاصة بالأقمشة ذات الخيوط الذهبية التي كانت تصدرها إلى العراق، وقد ظل الخلفاء العباسيون في عهد الإخشيد يستمدون من مصر أكثر ما يلزمهم من المنسوجات النفيسة المحلاة بكتابات كوفية فيها العبارات والأدعية المعروفة، وظهرت في العصر الإخشيدي صناعة الورق التي حلت محل البردي وترجع

أول وثيقة حكومية من الورق إلى عام 912م، كما ترجع آخر وثيقة حكومية من ورق البردي إلى عام 935م، يضاف إلى هذا اشتهار مصر حينئذ بصناعة الأسلحة والتحف الدقيقة المطعمة بالذهب والفضة والجواهر الثمينة - واحتفظ نهر النيل بمكانته الهامة في نقل التجارة الداخلية بين شمال مصر وجنوبها في العصر الإخشيدي -)[246]

وكانت الدولة الحمدانية في حلب معاصرة للدولة الإخشيدية في مصر، وتتبع أيضًا الخلافة العباسية في بغداد وكان حاكمها يُدعي سيف الدولة الحمداني وكان من أمراء هذه الدولة أيضًا أبو فراس الحمداني الشاعر والفارس الشهير وكان هناك صراعات للاسف بين الدولتين علي الحدود ومن هذا ما ذكره د/ الحويري (ومن المصاعب الخارجية التي واجهت الإخشيد غارات الحمدانيين أصحاب الموصل وحلب على ممتلكات الإخشيديين في الشام، فقد سار سيف الدولة الحمداني نحو الشام، وهزم جيشًا بقيادة كافور على نهر العاصي، فاضطر الإخشيد إلى أن يخرج بنفسه على رأس جيش كثيف في نفس العام واستطاع أن يسترد دمشق، وأوقع الهزيمة بجيش سيف الدولة في حمص وقنسرين)[247] ومع ذلك فقد فضل الإخشيد عقد معاهدة صلح بينه وبين سيف الدولة رغم هذا الإنتصار الساحق وذلك يعود لسبب مهم جدًا هو أن الإخشيد كان حريصًا على بقاء قوة الدولة الحمدانية لتظل أحد العناصر التي تواجه الروم وتصد غاراتهم، وكان الروم يخشون بطش الحمدانيين والإخشيديين ولذلك قرر الإمبراطور رومانوس ليكابينوس أن يقيم علاقة طيبة مع الخليفة العباسي والإخشيد أيضًا، وكان يتبادل الرسائل الودية معهم (وقد أورد القلقشندي نص الرسالة المطولة التي وجهها الإخشيد للإمبراطور رومانوس ردًا علي رسالته، ومن مضمونها يتبين لنا حرص

رومانوس علي إقامة علاقات ودية وتبادل الأسري وتعزيز التبادل التجاري، وفي ذلك يقول (وأما ما أنفذته للتجارة فقد أمكنا أصحابك منه، وأذنا لهم في البيع وفي ابتياع ما أرادوه وما اختاروه، لأنا وجدنا جميعه لا يخطره علينا دين ولا سياسة)[248]

والجدير بالذكر أن المتنبي الشاعر الشهير كان يعيش في ذلك الوقت عاش المتنبي أفضل أيام حياته و أكثرها عطاء في بلاط سيف الدولة الحمداني في حلب وكان أحد أعظم شعراء العرب، وأكثرهم تمكنًا باللغة العربية وأعلمهم بقواعدها ومفرداتها، وله مكانة سامية لم تتح مثلها لغيره من شعراء العربية. فيوصف بأنه نادرة زمانه، وأعجوبة عصره، وظل شعره إلى اليوم مصدر إلهام ووحي للشعراء والأدباء. وهو شاعرحكيم، وأحد مفاخر الأدب العربي. وتدور معظم قصائده حول مدح الملوك. وقد مدح سيف الدولة كما عاتبه أيضًا في قصيدة شهيرة فيما يلي بعض مقتطفات منها:

يا أعدل الناس إلا في معــاملتي

فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

سيعلـم الجمع ممن ضم مجلسنا

بأننــي خير من تسعى به قــــــدم

انا الذي نظر الأعمى إلى أدبــي

وأسمعـت كلماتي من به صمــم

إذا رأيـــت نيوب الليــث بارزة

فلا تظنـــن أن الليــث يبتســم

الخيل والليل والبيــداء تعرفنـــــي

والسيف والرمح والقرطاس والقلم

يـــــا من يعز عليـــنا أن نفارقهـــم

وجداننـا كل شيء بعدكم عــدم

إن كــان سركـم ما قال حاسدنا

فما لجـــرح إذا أرضاكـــم ألــم

وعندما مات حاكم مصر أبو بكر محمد بن طغج الإخشيد وتأثر الناس بموته ورثاه المتنبي فقال:

هُوَ الزَّمَانُ مَتَنْتَ بِالَّذِي جَمَعَا

فِي كُلِّ يَوْمٍ تَرَى مِنْ صَرْفِهِ بِدَعَا

لَوْ كَانَ مُمْتَنِعٌ تُغْنِيهِ مَنْعَتُهُ

لَمْ يَصْنَعِ الدَّهْرُ بِالإِخْشِيدِ مَا صَنَعَا

ذَاقَ الحِمَامَ فَلَمْ تَدْفَعْ عَسَاكِرُهُ

عَنْهُ القَضَاءَ وَلاَ أَغْنَاهُ مَا جَمَعَا

لَوْ يَعْلَمُ اللَّحْدُ مَا قَدْ ضَمَّ مِنْ كَرَمٍ

وَمِنْ فَخَارٍ وَمِنْ نَعْمَاءَ لاَتَّسَعَا

يَا لَحْدُ طُلْ إِنَّ فِيكَ البَحْرَ مُحْتَبَسًا

وَاللَّيْثَ مُهْتَصِرًا وَالْجُودَ مُجْتَمِعَا

يَا يَوْمَهُ لَمْ تَخُصَّ الفَجْعَ أُسْرَتَه

كُلُّ الوَرَى بِرَدَى الإِخْشِيدِ قَدْ فُجِعَا

أبو المسك كافور الإخشيدي:

في أواخر عصر الدولة الإخشيدية وعندما تولى أبو المسك كافور الأخشيدي حكم مصر، وقعت في مصر هزة أرضية عظيمة خافوا الناس من ذلك وهربوا إلى الجبال وتشاءم الأمير كافور من الأمر واعتزل الناس، حتى أخرجه من عزلته شاعر مصر الرسمي محمد بن عاصم، إذ دخل عليه وألقى قصيدة عصماء بين يديه منها هذا البيت:

مازلزلت مصر منخوفٍ يرادُبها

لكنها رقصــت مـن عـــدلهِ طــربا

قصيدة دفع فيها أبو المسك كافور ألف دينار ذهبًا، وهذه الجائزة هي السبب الحقيقي الذي جعل المتنبي يشد رحاله إلي كافور، فإذا كان يدفع ألف دينار إلى شاعر مثل محمد بن عاصم فكم يدفع لشاعر في وزن المتنبي، وبالفعل حضر أبو الطيب المتنبي إلى مصر ومدح كافور في قصيدة شهيرة هذه مقتطفات منها.

كفى بكَ داءً أنْ ترَى الموْتَ شافِيَا

وَحَسْبُ المَنَايَا أنْ يكُنّ أمانِيَا

تَمَنّيْتَهَا لمّا تَمَنّيْتَ أنْ تَرَى

صَديقًا فأعْيَا أوْ عَدُواً مُداجِيَا

إذا كنتَ تَرْضَى أنْ تَعيشَ بذِلّةٍ

فَلا تَسْتَعِدّنّ الحُسامَ اليَمَانِيَا

حَبَبْتُكَ قَلْبي قَبلَ حُبّكَ من نأى

وَقد كانَ غَدّارًا فكُنْ أنتَ وَافِيَا

خُلِقْتُ ألُوفًا لَوْ رَجعتُ إلى الصّبَى

لَفارَقتُ شَيبي مُوجَعَ القلبِ باكِيَا

وَلَكِنّ بالفُسْطاطِ بَحْرًا أزَرْتُهُ

حَيَاتي وَنُصْحي وَالهَوَى وَالقَوَافِيَا

قَوَاصِدَ كَافُورٍ تَوَارِكَ غَيرِهِ

وَمَنْ قَصَدَ البَحرَ استَقَلّ السّوَاقِيا

يُبِيدُ عَدَاوَاتِ البُغَاةِ بلُطْفِهِ

فإنْ لم تَبِدْ منهُمْ أبَادَ الأعَادِيَا

أبا المِسكِ ذا الوَجْهُ الذي كنتُ تائِقًا

إلَيْهِ وَذا اليَوْمُ الذي كنتُ رَاجِيَا

أبَا كُلّ طِيبٍ لا أبَا المِسْكِ وَحدَه

وَكلَّ سَحابٍ لا أخُصّ الغَوَادِيَا

إذا كَسَبَ النّاسُ المَعَاليَ بالنّدَى

فإنّكَ تُعطي في نَداكَ المَعَالِيَا

وَغَيرُ كَثِيرٍ أنْ يَزُورَكَ رَاجِلٌ

فَيَرْجعَ مَلْكاً للعِرَاقَينِ وَالِيَا

ولكن لم يتحقق ما كان يتمناه المتنبي من كافور، فهجاه بعد ذلك وقد كتب الكاتب الساخر الكبير محمود السعدني عن كافور في كتابه الممتع مصر من تاني ما يلي: (لقد كان عمنا كافور صاحب فضل وصاحب علم، وكان لا يصاحب إلا أعلم أهل زمانه، وكان من حاشيته علماء النحو وعلماء الفقه وأعدل القضاة، وكانت موائده العامرة مبذولة للجميع، ودواره مفتوحة للفقراء قبل الأثرياء، وكان لمطبخه في كل يوم ألفا رطل من اللحم البقري وسبعمائة رطل من اللحم الضأن، ومائة طير أوز، وثلاثمائة طير دجاج، وثلاثمائة فرخ حمام، وعشرون فرخ سمك كبار، وعشرون جملًا رضع، وثلاثمائة صحن حلوى، وألف قفص من تفاح، ومائة قربة من السكر، وكان يحضر على سماطه الخاص والعام)[249]

وقد اضطربت أحوال مصر بعد وفاة كافور وأصبحت جاهزة تمامًا للزحف الفاطمي من الغرب وقد كان المعز لدين الله الفاطمي ينتظر هذه اللحظة لينتزع مصر من الخلافة العباسية السنية ويضمها للمد الشيعي فكان يعد العدة لذلك ويقول عن ذلك د محمود الحويري (بدأ المعز لدين الله الفاطمي يعد العدة لفتح مصر، فحفر الآبار علي الطريق من أفريقية إلي برقة، وأنشأ النزل على رأس كل مرحلة من هذا الطريق، وعندما وصلته الأخبار بموت كافور الإخشيدي جهز جيشًا ضخمًا بلغ تعداده مائة ألف مقاتل أغلبهم من القبائل البربرية عهد بقيادته إلى قائده جوهر الصقلي، وقد تجمع هذا الجيش في مدينة القيروان، وهناك التفت المعز إلى المشايخ الذين وجههم مع جوهر

وقال: والله لو خرج جوهر هذا وحده ليفتحن مصر وليدخلنها بالأرديه من غير حرب، ويبني مدينة تسمي القاهرة تقهر الدنيا)[250]

وهكذا نرى أن وفاة شخص واحد قد تغير مجرى الأحداث تمامًا، فكل ما حدث أن كافور مات فقط، ولم يحدث أي شيء آخر في مصر وكانت وفاته سببًا في سقوط مصر في أيدي الفاطميين، إنه أمر يقودنا بالتأكيد لتذكر طبيعة الشخصيات البارزة في التاريخ[251]

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادي عشر

أبرز القادة في عصر الدولة الفاطمية

ملخص العصر الفاطمي بالكامل:

تولى الفاطميون حكم مصر من سنة 969 م إلى سنة 1171 م[252] أي حوالي 202 سنة وأسسوا عاصمة جديدة لمصر بل للخلافة الفاطمية كلها وهي مدينة القاهرة[253] وسيطروا لفترة كبيرة على معظم أنحاء الأمة الإسلامية مثل شمال أفريقيا والشام والحجاز واليمن، وتولى القائد جوهر الصقلي حكم مصر وأعدها لاستقبال المعز لدين الله ويعتبر جوهر الصقلي أول حاكم لمصر في عصر هذه الدولة وحتى حضور المعز لدين الله أبو تميم " معد " في رمضان سنة 362 هـ / يونيو 973 م وتوفي المعز سنة 975 م وخلفه ابنه العزيز لدين الله " نزار " أبو منصور إلى أن توفي سنة 996 م وجاء بعده ابنه الحاكم بأمر الله المنصور أبو علي إلى أن قُتِل سنة 1020 م ثم الظاهر لإعزاز دين الله ثم المستنصر بالله ثم المستعلى بالله ثم الآمر بأحكام الله ثم الحافظ لدين الله ثم الظافر بأمر الله ثم الفائز بنصر الله وأخيرًا العاضد لدين الله آخر خليفة فاطمي حكم مصر وانتهت في عهده الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين الأيوبي حيث أعادها إلى المذهب السني وإلى ظل الخلافة العباسية مرة أخرى، ويمكن تلخيص العصر الفاطمي إلى عصرين أساسيين، العصر الفاطمي الأول الذي سيطر فيه خلفاء أقوياء على الحكم ثم العصر الفاطمي الثاني " عصر الاضمحلال " الذي زاد فيه نفوذ الوزراء وسيطروا

على مقاليد السلطة وكان خلفاء هذا العصر خلفاء ضعفاء ومعظمهم من الأطفال صغيري السن وقد حدث هذا التحول من العصر الأول إلى العصر الثاني في عهد الخليفة المستنصر بالله والوزير بدر الجمالي[254]

المعز لدين لله الفاطمي:

أثار موضوع نسب بني عبيد إلى البيت العلوي الكثير من الجدل في أوساط الأمة الإسلامية حتى أن المعز لدين الله عندما سأله أعيان مصر عن نسبه (وضع المعز يده على مقبض سيفه وجذبه من جرابه إلى النصف وقال هذا " نسبي " ثم مد يده الأخرى بمقدار من الذهب ونثره عليهم وقال هذا " حسبي "[255] فأجابوه جميعًا بالسمع والطاعة ثم ذكر ابن خلكان أن المصريين اعتبروا هذا التصرف فرارًا من الجواب لأنه مدخول في نسبه)[256] والطريف أيضًا في هذا الموضوع أن الخليفة الفاطمي أرسل كتابًا إلى صاحب الأندلس الأموي يسبه فيه ويهجوه فرد عليه يقول (أما بعد فقد عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبناك)[257] وهذا الرد بالتأكيد أسوأ من السب والهجاء لأنه يعني أن الخليفة الفاطمي لا يعرف أصله أحد حتى يرد عليه وطبعًا صاحب الأندلس أموي قريشي ويعرف أصول قبيلة قريش جيدًا بجميع فروعها العباسية والعلوية والأموية وغيرها من البطون، وكذلك أكد العباسيون في بغداد أن بني عبيد لا ينتمون بأي صلة من الصلات إلى آل البيت وأن لقب الفاطميون لا يصح إطلاقه عليهم بل إن هناك وثيقة تم كتابتها في بغداد أثناء حكم الحاكم بأمر الله الفاطمي في مصر وتؤكد هذه الوثيقة عدم انتماء الحاكم وأجداده إلى البيت العلوي والطريف أن من بين الذين وقعوا على هذه الوثيقة أشخاص علويون بالفعل، ولكن دعنا من أصل المعز ونسبه وحسبه ولنتحدث عن سيفه

المعز وذهبه كما يقال، لأنه على أي حال أحد الشخصيات البارزة التي ظهرت في تاريخ مصر وفرضت نفسها على كتب التاريخ ليس المصري فقط ولكن تاريخ العالم الإسلامي بشكل عام.

وعندما أكد المعز على أن القوة والمال هما السبيل إلى السلطة وهما الحسب والنسب " سيف المعز وذهبه " تعامل المصريون مع حكامهم الجدد على أساس السخرية مع عدم المواجهة وخصوصًا أن الأئمة الفاطميين ادعوا أن نسبهم يعود إلى السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها وبالطبع لم يصدق المصريون ذلك كما أنهم لم يصدقوا أن هؤلاء الأئمة معصومين ولديهم إمكانيات خاصة ويعلمون الغيب وسأذكر هنا موقفين يوضحان أسلوب تعامل المصريون مع الخلفاء الشيعة فمثلًا صعد أحد خلفاء الشيعة مرة علي المنبر فوجد بطاقة " ورقة " مكتوب فيها أبيات من الشعر:

إنا سمعنا نسبًا منكرًا

يُتلي علي المنبر في الجامعِ

إن كنت فيما تدعي صادقًا

فاذكر أبًا بعد الأب الرابعِ

أو فدع الأنساب مستورةً

وادخل بنا في النسب الواسعِ

وهذا يدل علي أن المصريين لم يتمكنوا من مواجهة الفاطميين ولكنهم كانوا يسخرون منهم ومن عقيدتهم ويتركون هذه الأوراق التي تحمل آراء ساخرة، وبالرغم من أن الفاطميين كانوا يتسمون بالتسامح الديني مع باقي المذاهب بل وباقي الأديان إلا أن المصريين (لم يقبلوا فكرة تقديس الأئمة وعصمة الإمام وهي الفكرة التي كانت تضفي نوعًا من القدسية الإلهية رفضها المصريون من قبل فيما يتعلق بألوهية فرعون أو الأباطرة الرومان فيما بعد، وكان المصريون يسخرون كثيرًا من هذا الجانب في المذهب الشيعي فعلى سبيل المثال صعد الخليفة العزيز بالله ذات جمعة فوجد ورقة-بطاقة- كُتِب فيها[258]

بالظلم والجور قد رضينا

وليس بالكفر والحماقة

إن كنت أُعطيت علم غيب

فقل لنا من كاتب البطاقة

وتم بناء مدينة القاهرة لتكون عاصمة الفاطميين ونقل المعز كل كنوزه وكنوز أجداده إليها بل واتخذها عاصمخة لملكه (وأول ما بُني في القاهرة القصر الكبير ليكون سكنًا للخليفة وأتباعه ومقرًا لدواوين الحكم وضع جوهر أساس هذا القصر ليلة نزل بالمناخ وفي يوم السبت لست بقين من جمادي الآخرة سنة 359 هـ " 5 مايو سنة 970 م" اختطت القاهرة فنزلت كل قبيلة أو فرقة من فرق الجيش في مكان خاص بها وسميت خططها بالحارات ومنها حارة

زويلة ونزلت بها قبيلة زويلة وحارة كتامة ونزلت بها قبيلة كتامة وحارة البرقية ونزل بها قوم من برقة وهكذا)[259] وعلى فكرة تم بناء قصرًا آخر في القاهرة وسميت المنطقة المحصورة بين القصر الأول والثاني " بين القصرين " وهو الإسم الشائع إلى الآن رغم عدم وجود القصرين حاليًا، وكان للقاهرة سور عظيم له أبواب موجود بعضها إلى الآن مثل باب زويلة وباب الفتوح وباب النصر كما يوجد جزء من سور القاهرة بجوار مسجد الحاكم بأمر الله.

ولم يترك الفاطميون عيدًا إلا واحتفلوا به وكأن الاحتفال في حد ذاته هو المهم وليست المناسبة الخاصة به، وكانوا يبالغون كثيرًا في مظاهر هذه الاحتفالات واحتفلوا (برأس السنة الهجرية وبليلة المولد النبوي الكريم وليلة أول رجب وليلة المعراج فيه وليلة أول شعبان ونصفه وغرة رمضان وعيد الفطر وعيد الأضحي ومولد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومولد ولديه الحسن والحسين ومولد زوجه السيدة فاطمة الزهراء ويوم عاشوراء وهو اليوم الذي قتل فيه الحسين بن علي في كربلاء وكانت الخلافة الفاطمية تحتفل بهذه الأعياد – عدا يوم عاشوراء – في فيض من البهاء والبذخ - أما يوم عاشوراء فكان يعتبر يوم حزن عام تغلق فيه الأسواق - واحتفل الخلفاء الفاطميون بأعياد الأقباط بكثير من مظاهر الأبهة والعظمة ومن أهم تلك الأعياد ليلة الغطاس وخميس العهد - كذلك اهتم الفاطميون بالاحتفال بوفاء النيل فقد كان الخليفة يخرج وفي ركبة عشرة آلاف فارس يمتطون الخيل المطهمة الملجمة، ويلبسون الدروع المحلاة بالذهب والأحجار الكريمة المكسوة بديباج مطرز باسم الخليفة -)[260]

وقد وصف الكاتب الساخر محمود السعدني العصر الفاطمي بصفات كثيرة اخترت لك منها عزيزي القارئ بعض المقتطفات الآتية (ولكن وأيًا كان الأمر في أصل المعز وفصله ومهما قيل عن ثروته وذهبه وسيفه فالذي لا شك فيه أن كل العصور التي مرت في السابق كانت شيئًا والعصر الفاطمي شيئًا آخر فهذه بالفعل دولة الانفتاح والكذب والرشوة وهذا هو عصر الأقارب والمحاسيب والأنصار وستعود الدولة المصرية الإسلامية إلى عصر فرعون الذي ولى[261]، دولة غنية وشعب من الفقراء وأسرة حاكمة تملك كل شيء وشعب لا يملك إلا صلاة النبي، وسيصبح لمصر من الآن ولمدة أقل بقليل من ثلاثة قرون من الزمان دولة بكل ما في كلمة دولة من معنى، جيش مقاتل كل أفراده أجانب ومرتزقة، وزارة يتولى أمرها القائد جوهر الصقلي وجهاز إعلام هو أخطر جهاز إعلامي أنشأه العرب في العصر الوسيط - وكانت مهمة الجهاز التقليدية هي نشر المذهب الفاطمي وتجنيد الأنصار ولكن مهمته الرئيسية كانت هي الحفاظ علي أمن الدولة والعمل على استمرارها وجمع المعلومات أيضًا وشراء ذمم الناس)[262]

الحاكم بأمر الله من أشهر الخلفاء الفاطميين:

يعتبر المعز لدين لله والحاكم بأمر الله والمستنصر بالله هم أشهر ثلاثة خلفاء في الدولة الفاطمية بالكامل على الأقل بالنسبة لأي شخص عادي حاليًا فالمعز مثلًا هو أول من ضم مصر لحكم الفاطميين وتم تأسيس مدينة القاهرة في عهده بل إن البعض يحلو له أن يقول (قاهرة المعز)، أما الحاكم بأمر الله فقد كان من الشخصيات التي أثير حولها الكثير من الجدل والشائعات حتى أن البعض يقول أنه منع الناس من أكل الملوخية وبالرغم من

أن هذه الأقاويل قد تكون مبالغ فيها جدًا إلا أنها تدل على أن شخصية الحاكم بأمر الله بلا شك كانت غريبة الأطوار ونهايته أيضًا كانت غامضة.

ومما كتبه السعدني عن الحاكم بأمر الله ما يلي (وهو واحد من أغرب شخصيات مصر على الإطلاق، فهذا الصبي الذي تولى السلطة وهو في الحادية عشرة والذي كان والده شيخ المذهب الفاطمي وأمه شقيقة بطريرك أقباط مصر، جن جنونه فجأه وهو يقبع وحيدًا في مغارة علي قمة جبل المقطم، وشعر بأن صوتًا يناديه ويدعوه إلى التوفيق بين دين النصاري ودين المسلمين واستخراج دين جديد)[263] وقد حدث قلق شديد في الأسرة الفاطمية بسبب أفعال وأقوال الحاكم بأمر الله فقرروا التخلص منه (وكان أكثر أفراد الأسرة قلقًا " ست الملك " عمته وقال بعض المؤرخين أنها ليست ست الملك ولكنها ست النصر أخته وأن ست الملك ماتت في عهد ولاية المعز وأيًا كانت السيدة التي تآمرت ضد الحاكم بأمر الله وهل هي ست الملك أو ست النصر فهي على كل حال ست والسلام)[264] (وذات مساء خرج الحاكم بأمر الله من قصره كالعادة يركب حماره الأشهب ويضع بردته علي كتفيه وبينما كان صاعدًا إلى جبل المقطم هجم عليه عدد من العبيد السود الأشداء فقتلوه ولم يعرف بقتله حتي عاد حماره الأشهب ذات صباح إلي القصر وعليه بردة الحاكم بأمر الله وقد تلطخت بالدم)[265] وهذه القصة تذكرنا إلى حد ما بالمؤامرة التي تمت ضد اخناتون في الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية عندما حاول عمل انقلاب ديني مع الفارق في التفاصيل

الخليفة الفاطمي المستنصر بالله والشدة المستنصرية:

في عهد هذا الخليفة حدث ما يسمى بالشدة المستنصرية في العصر الفاطمي (وكان من مظاهرها الغلاء الشديد وانتشار الأوبئة التي أدت بحياة الألوف في ريف مصر ومدنها واقترنت هذه الشدة بقيام الفتن والاضطرابات في مصر)[266]، وقال المقريزي (ثم وقع في أيام المستنصر بالله الغلاء الذي فحش أمره وشنع ذكره وكان أمده سبع سنين وسببه ضعف السلطنة، واختلال أحوال المملكة واستيلاء الأمراء على الدولة، واتصال الفتن بين العربان وقصور النيل[267]– - وكان ابتداء ذلك سنة سبع وخمسين وأربعمائة – هجرية - فنزع السعر وتزايد الغلاء وأعقبه الوباء حتى تعطلت الأراضي من الزراعة وشمل الخوف، وخيفت السُبُل برًا وبحرًا وأُكِلت الكلاب والقطط حتي قلت الكلاب فبيع كلب ليؤكل بخمسة دنانير وتزايد الحال حتي أكل الناس بعضهم بعضاً وتحرز الناس، ثم آل الأمر إلى أن باع المستنصر بالله كل ما في قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح وغيره وصار يجلس على حصير وتعطلت دواوينه وذهب وقاره وكانت نساء القصور تخرجن ناشرات شعورهن تصحن: الجوع الجوع تردن المسير إلى العراق فتسقطن عند المصلي وتمتن جوعًا، واحتاج المستنصر حتى باع حلية قبور آباءه)[268]

ويذكر المقريزي أيضًا غلاء وقع في أيام الخليفة الآمر بأحكام الله وغلاء آخر وقع في أيام الحافظ لدين الله وكان الوزير هو الأفضل بن وحش ووقع غلاء في أيام الفائز بوزارة الصالح طلائع بن رزيك[269] (وقد دفع سوء الأحوال في مصر الخليفة المستنصر بالله إلى استدعاء الوزير بدر الجمالي من فلسطين لإعادة الأمور إلى نصابها- فلما ولي الوزارة سنة 466 هـ " 1073 م " قضى على المفسدين وعناصر الشدة فاستقرت الأمور وعاد الرخاء تدريجيًا)[270]

(وصار وزير السيف من عهد أمير الجيوش بدر –الجمالي - إلى آخر الدولة الفاطمية - هو سلطان مصر، وصاحب الحل والعقد،)[271]

ويقول ابن الأثير (كانت الوزارة في مصر لمن غلب والخلفاء وراء الحجاب والوزراء كالمتكلمين وقل أن وليها أحد بعد الأفضل " الوزير الفاطمي " إلا بحرب وقتل وما شاكل ذلك)[272]

(وكان أن اخترقت الحملة الصليبية الأولي آسيا الصغري ومنها زحف الصليبيون نحو مدينة بيت المقدس التي كانت خاضعة للفاطميين آنذاك فسقطت في أيديهم في 15 يوليو سنة 1099 م وهناك لم يتورعوا عن ارتكاب أفظع الأعمال الوحشية فقتلوا عشرات الألوف من المسلمين أطفالًا ونساءً ورجالًا وشيوخًا مما ترك أثرًا سيئًا عميقًا في جميع أنحاء العالم الإسلامي ولم تمض سنوات قليلة حتي أسس الصليبيون ثلاث إمارات كبرى في الرها وانطاكية وطرابلس فضلًا عن مملكة بيت المقدس الصليبية[273]، وبعبارة أخرى، صار في أيدي الصليبيين الجانب الأكبر من فلسطين وساحل الشام وموانيه لتأمين الاتصال البحري بأوروبا الغربية)[274].

واستمرت مملكة بيت المقدس تحاول الاستيلاء على مصر إلى أن اتفقت الدولة الفاطمية مع الصليبيين على دفع جزية قدرها مائة وستون ألف دينار[275] من الفاطميين للصليبيين مقابل عدم غزو مصر، وكان صراع الوزراء على السلطة هو الشغل الشاغل في مصر والقتال الدامي

العاضد لدين الله آخر خليفة فاطمي حكم مصر:

في عهد هذا الخليفة حدث أكبر النزاعات على منصب الوزراة في مصر ودار الصراع بين رجلين مهمين من رجال الدولة وهما " شاور " و " ضرغام " وقد لجأ كل منهما إلى قوة خارجية لتدعم موقفه في الصراع، أما شاور فقد لجأ إلى نور الدين محمود حاكم الشام القوي، وطلب منه أن يرسل معه جيشًا إلى مصر ليستعيدها من ضرغام مقابل (ثلث إيرادات مصر وأن يدين له بالولاء إن عادت إليه مقاليد الحكم والوزارة)[276]، وكان نور الدين محمود على المذهب السني بالطبع أما شاور وضرغام والفاطميين جميعًا على المذهب الشيعي فقد كانت صفقة غريبة بين طرف شيعي وطرف سني ليس من ورائها إلا الوصول للسلطة بأي أسلوب، أما ضرغام فقد لجأ للصليبيين وقوتهم في صراعه مع شاور وكان موقف نور الدين محمود علي ما يبدو يؤكد أنه يريد أن يتدخل في مصر بأي أسلوب أو أي صورة كي يتم له مستقبلًا إزالة الشيعة من مصر ووجد أن مساعدة شاور في خطته فرصة لوضع يده علي مصر والسيطرة عليها كخطوة لتوحيد الأمة الإسلامية في مواجهة الصليبيين.

وكما فكر نور الدين محمود في هذا فقد فكر أيضًا الصليبيون في مساعدة ضرغام وبالتالي يكون لهم نفوذ في مصر وقوة علي أرضها وطبعًا هناك فرق بين تفكير نور الدين محمود ونواياه، وبين تفكير الصليبيين ونواياهم، وبالمناسبة كان ملك بيت المقدس في ذلك الوقت اسمه الملك "عموري" أو هكذا تم درجه في كتب التاريخ العربي، وقرر نور الدين محمود إرسال جيش بقيادة أسد الدين شيركوه إلى مصر بصحبة شاور، (وعلم ضرغام بخروج هذا الجيش وقرب وصوله إلى مصر فأصابه الفزع إذ لم يكن الجيش الفاطمي في ذلك الوقت في حالة تمكنه من المقاومة أو إحراز النصر)[277] وأرسل ضرغام رسائل إلى عموري ملك بيت المقدس لينقذه ولكن كان قد فات

الأوان فقد قام أسد الدين شيركوه وجيشه بهزيمة ضرغام هزيمة ساحقة انتهت بقتل ضرغام وتفرق أعوانه وتم تعيين شاور وزيرًا في مصر في الدولة الفاطمية، ثم قرر شاور الغدر بأسد الدين شيركوه ورفض إعطاءه ما تم الاتفاق عليه وطلب منه العودة إلى الشام هو وجيشه، فرفض أسد الدين شيركوه وقرر أن يتحصن هو وجيشه في مدينة بلبيس ولم يغادر مصر ولأن شاور ومن قبله ضرغام كل ما يهمهما هو السلطة، أرسل شاور إلى ملك الصليبيين عموري لينقذه من جيش أسد الدين شيركوه وبالفعل حضر عموري بنفسه على رأس جيش قوي إلى مصر ليقف بجوار شاور ضد أسد الدين شيركوه وكان عموري بالطبع على علم بأن الدولة الإسلامية الموجودة في الشام على خلاف مع الدولة الموجودة في مصر ولذلك لم يكن يعتبر نفسه محاصرًا من الشمال والجنوب من دولة إسلامية واحدة قوية،وهكذا اجتمع في مصر جيش إسلامي سني وجيش إسلامي شيعي وجيش صليبي، وكان ملك الصليبيين يخشي أن يسيطر نور الدين محمود على مصر فيصبح خطره من الشمال والجنوب ويتم حصار الصليبيين بدولة إسلامية واحدة علي مذهب واحد وتحت قيادة واحدة.

وحاصر عموري بلبيس بمن فيها من جيش أسد الدين شيركوه لمدة ثلاثة أشهر وهنا أيقن نور الدين محمود خطر وجود عموري في مصر وأن جيش أسد الدين ليس بالقوة الكافية لمواجهة الصليبيين في بلبيس، فقرر أن يجبر ملك الصليبيين على الانسحاب وذلك بمهاجمة قواته في الشام مما جعل عموري يقلق على مملكته وهو غائب عنها وقرر أن الأولوية للمملكة وليس لحصار بلبيس.

وكان هذا بالطبع تصرف حكيم من نور الدين محمود يؤكد أنه قائد على مستوي عالي من الحنكة، ويعرف كيف يضغط علي الأعداء ويفتح جبهات أخرى للقتال لتخفيف الضغط علي الجبهات الضعيفة، ووصلوا في النهاية إلي حل وسط وقاموا بالاتفاق على أن (ينسحبا معًا وفي وقت واحد من مصر -)[278] وهكذا ترك أسد الدين شيركوه وجيشه مصر وترك أيضًا عموري وجيشه مصر وكان نور الدين محمود يهدف إلى توحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين واعتبر أن ضم مصر وسيلة مهمة لتحقيق هذا الهدف وكان مقتنعًا تمامًا أن أسد الدين شيركوه كان يقود جيشًا صغيرًا قليل العدد والعدة ولا يكفي لإتمام هذه المهمة ولم يكن يتوقع أن يذهب عموري بنفسه إلى مصر علي رأس جيش بهذه القوة، بل لم يكن يتوقع أن شاور سيستنجد بعدو مشترك لهما، فأرسل نور الدين محمود القائد أسد الدين شيركوه للمرة الثانية إلى مصر ولكن بجيش أقوى من الجيش السابق خوفًا من عودة الصليبيين إلى مصر، وللمرة الثانية أيضًا أرسل شاور إلى عموري ليأتي لمحاربة جيش أسد الدين شيركوه وتكرر المشهد ولكن لم يحدث قتال في بلبيس هذه المرة ولكن في المنيا حيث قام أسد الدين شيركوه بهزيمة شاور وعموري وأجبرهما علي الانسحاب إلي القاهرة ثم حدث بعد ذلك اتفاق علي مغادرة الجيشين لمصر، ولكن ترك عموري حامية صليبية في القاهرة للدفاع عنها عند الضرورة، وهكذا استعان الوزير شاور بقوة صليبية على أسوار القاهرة لللدفاع عن مركزه، وحضر الملك عموري ملك بيت المقدس إلى مصر بجيشه للمرة الثالثة ولكن هذه المرة بدون دعوة من شاور، ولكن لاحتلال مصر، مما أدى إلى إصابة شاور بالرعب الشديد وأعد العدة للدفاع عن مصر، (وأمر بإخلاء مدينة الفسطاط وإحراقها فظلت النار تعمل فيها وفي منشآتها ومبانيها أربعة

وخمسين يومًا وأدرك الخليفة الفاطمي العاضد خطورة الموقف)[279] وكان الخليفة الفاطمي العاضد كمن سبقه من الخلفاء الفاطميين في أواخر عهد الدولة الفاطمية ليس له علاقة بالحكم لسيطرة الوزراء على مقاليد الحكم، ولكنه استشعر الخطر وأرسل العاضد بنفسه هذه المرة إلى نور الدين محمود لينقذ مصر من الاحتلال الصليبي ومن التصرفات الحمقاء التي يقوم بها وزيره، فأسرع نور الدين محمود بإرسال أسد الدين شيركوه بجيش قوي إلى مصر وكانت قوة الجيش هذه المرة كافية لأن يرتد عموري ويعود إلى الشام (بعد أن يئس من الاستيلاء على مصر يأسًا تامًا)[280]

وحاول شاور الغدر بأسد الدين شيركوه وقتله فقد علم أن الخليفة العاضد يثق بأسد الدين شيركوه ومنحه كافة الصلاحيات تقريبًا، كما أن شيركوه يسيطر علي الأمور ومعه جيش قوي متواجد في مصر للدفاع عنها بناءً على طلب الخليفة الفاطمي،فتم التخلص من شاور وإراحة الناس من شره وغدره وخيانته.

وقام العاضد بتعيين أسد الدين شيركوه وزيرًا له فأصبح الخليفة شيعي ووزيره سني موالي للخليفة العباسي في بغداد ولكن سرعان ما مات أسد الدين شيركوه بعد شهرين فقط من توليه الوزارة، فاختار العاضد لهذا المنصب صلاح الدين الأيوبي الذي كان يصاحب عمه أسد الدين شيركوه عند حضوره إلي مصر وقاتل معه الجيش الصليبي بقيادة عموري، وكان صلاح الدين يوسف الأيوبي بصحبة عمه أسد الدين شيركوه وأحد قادة جيشه وشهد معه المعارك التي دارت في مصر مع الصليبيين وكان يدين بالولاء لنور الدين محمود حاكم الشام وللخليفة العباسي السني، وقد أصبح صلاح الدين الأيوبي

وزيراً للدولة الفاطمية في عهد آخر خليفة فاطمي (العاضد لدين الله) وكما نعلم أن منصب الوزير في ذلك الوقت يعني أنه أصبح الرجل الأول في مصر ولديه جميع الصلاحيات وكان هذا تمهيدًا لقيام الدولة الأيوبية التي واجهت الصليبيين بعد ذلك وحررت بيت المقدس

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني عشر

أبرز القادة في عصر الدولة الأيوبية

ملخص العصر الأيوبي:

أول من تولى الحكم من الأسرة الأيوبية بالطبع هو الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى أن توفي سنة 1192 م ثم تولى حكم مصر بعده الملك العزيز عماد الدين عثمان بن صلاح الدين إلى أن توفي سنة 1198 م ثم الملك المنصور ناصر الدين محمد بن العزيز بن صلاح الدين وكان صغير السن وعمره تسع سنوات مما أدى إلى سيطرة عمه الملك الأفضل علي بن صلاح الدين الأيوبي إلى أن تم حسم الموقف تمامًا وتولى الملك العادل سيف الدين أبو بكر من سنة 1200 م إلى سنة 1218 م وهو أخو صلاح الدين وتولى الحكم لمدة 19 سنة ثم جاء بعده الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل إلى أن توفي سنة 1238 م وكان أول من سكن القلعة التي شرع في بنائها صلاح الدين[281] وجاء بعده ابنه الملك سيف الدين أبو بكر ثم توفي سنة 1240 م ثم جاء الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل لمدة تسع سنوات وتوفي في المنصورة سنة 1249 م وجاء بعده الملك توران شاه ابنه الذي تولى حكم مصر لمدة شهرين فقط إلى أن قتله مماليك أبيه ثم تولت الحكم عصمة الدين أم خليل شجرة الدر زوجة الملك الصالح نجم الدين ولم تستمر في الحكم أكثر من ثمانين يومًا وبهذا انتهت الدولة الأيوبية علي يد المماليك[282] وأشهر ملوك بني أيوب هم الملك الناصر والملك العادل والملك

الكامل والملك الصالح، وكان الصليبيون هم قدر الدولة الأيوبية منذ نشأتها وحتي آخر يوم في تاريخها فقد كان الأيوبيون في جهاد مستمر مع الصليبيين ويواجهون الحملات الصليبية المختلفة الواحدة تلو الأخري وكأنهم تواجدوا في هذه الحقبة من تاريخ الأمة الإسلامية خصيصًا لهذا الغرض وأكبر دليل علي ذلك أن الصليبيين أيقنوا أن الطريق إلى بيت المقدس يبدأ من مصر (فقد كان هدف الحملات الصليبية التالية هو القضاء على الدولة الأيوبية في مصر باعتبارها مركز المقاومة الأول)[283]

وكان ملوك بني أيوب يفضلون السلام مع الصليبيين ويعتبرون أن الجهود الدبلوماسية قد توقف كل هذه الحروب الدامية ويحاولون تجنبها ولكن للأسف الشديد كان الصليبيون لا يكفون عن مهاجمتهم مما اضطرهم إلى الوقوف أمام هذه الحملات بقوة وشجاعة (ومع أن ملوك الأيوبيين قد بذلوا الجهد الأكبر في مقاومة هذه الحركة فإننا نلاحظ أن معظم هؤلاء الملوك قد جنحوا إلى مسالمة الصليبيين وإلى اصطناع السياسة في علاقتهم معهم كلما أمكن ذلك - ومع أنهم نجحوا في هذه السياسة بعض النجاح فإن هذا لم يحل بين الحملات الصليبية وبين تطورها الطبيعي الذي انتهى بها إلى تحول الاتجاه عن الشام إلى مصر)[284]

وبدأت فكرة الغزو الصليبي للأمة الإسلامية في شهر نوفمبر سنة 1095 م حيث تم عقد مجمع كلير مونت بإقليم أوفيرون بفرنسا بواسطة البابا أوربان الثاني[285] وفي هذه الأوقات كانت الكنيسة في أوروبا مسيطرة على الأمور بشكل غير عادي وكانت هناك حروب طاحنة بين الأمراء المسيحيين فقررت الكنيسة أن تشغل هؤلاء الأمراء عن حروبهم بعضهم لبعض بحرب مقدسة من

أجل الصليب ويقول عن ذلك الدكتور الحويري (وكانت البابوية في الغرب الأوروبي قد ارتفع شأنها وصارت لها السيادة على كل الكنائس الأوروبية بفضل سلسلة من الباباوات الأقوياء فأخذت تشجع أمراء الإقطاع على نبذ حروبهم الداخلية وتوجيهها ضد المسلمين بغية إشباع نزعتهم القتالية ووعدت البابوية بمنح الغفران لكل من يقاتل من أجل الصليب ورحبت المدن التجارية الإيطالية مثل بيزا والبندقية وجنوة بالحروب الصليبية لما رأوا فيها من تحقيق أمنية ثمينة كانت تراودهم وهي الاستئثار بتجارة الشرق وإقامة مراكز تجارية لها في بلاد الشام وجني الأرباح من وراء ذلك)[286]، وهذه كانت الحملة الصليبية الأولى.

ثم جاءت الحملة الصليبية الثانية بعد أن استطاع عماد الدين زنكي تحرير مملكة الرها من الصليبيين، ثم جاءت الحملة الثالثة التي قامت باحتلال عكا ومدن الساحل بعد أن تم تحرير بيت المقدس على يد الملك الناصر صلاح الدين وانتهت بتوقيع معاهدة مع ريتشارد قلب الأسد وعاد إلى بلاده، وبعد هذه الحملات كانت الحملة الرابعة بعد موت صلاح الدين والتي كانت بسبب البابا أنوسنت الثالث ولكنها باءت بالفشل حيث تم تحويلها عن اتجاهها الرئيسي إلى القسطنطينية والطريف أن هناك حملة أخرى اسمها حملة الأطفال قام بها (صبي من الرعاة و ادعى أن المسيح أمره بقيادة حملة صليبية من الأطفال لإنقاذ بيت المقدس - وقد غرر بهم بعض التجار وأصحاب السفن فحملوهم إلى الثغور الإسلامية وباعوهم في الإسكندرية وغيرها من البلدان الإسلامية بيع الرقيق)[287] وبعد ذلك جاءت الحملة الصليبية الخامسة بقيادة جان دي بريين ثم الحملة الصليبية السادسة بقيادة الإمبراطور فردريك الثاني وأخيرًا الحملة الصليبية السابعة بقيادة الملك لويس التاسع والتي كانت

في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب وابنه توران شاه وانتهت بهزيمة ساحقة للصليبيين وتم أسر ملكهم لويس التاسع كما نعرف جميعًا وتم حبسه في دار ابن لقمان بالمنصورة، وبالتالي فإن كل هذه الحملات جاءت في عهد الدولة الأيوبية عدا الحملتين الأولي والثانية فقط بالإضافة إلى حملات صغيرة لم يتم ذكرها لصغرها، وكان من نصيب الدولة الأيوبية أن تواجه كل هذه الحملات الشرسة وعلى الرغم من محاولات تجنب هذه الحروب إلا أنها لم تتوقف طوال فترة حكم الدولة الأيوبية وانتهت تقريبًا بانتهاء الدولة الأيوبية.

والجدير بالذكر أنه لم تقم في مصر ثورة واحدة طول عصر الدولة الأيوبية[288] مما يؤكد اهتمام الأيوبيين بتوفير الرخاء والازدهار للشعب المصري[289] على الرغم من كثرة حروبهم مع الصليبيين طوال فترة قيام دولتهم، كما اهتم الأيوبيون بإنشاء المدارس ونشر العلم وازدهرت الحركة الدينية والأدبية والأبحاث العلمية وبرز في مصر علماء في الرياضيات والطب وغيره من العلوم واهتم ملوك بني أيوب بإنشاء المكتبات العديدة واعتنوا بها عناية شديدة وهناك العديد من الأمثلة التي تدل على مدى التقدم العلمي في مصر أيام الأيوبيين فمثلًا (في بعض الأحيان كانت تعترض فردريك الثاني مشكلة علمية فكان يبعث إلى أصدقائه من ملوك المسلمين ويطلب أن يعرضوها على من لديهم من علماء للإجابة عليها وعلى سبيل المثال أرسل فردريك مسألة إلى الملك الكامل حلها العالم الرياضي المصري قيصر الأصفونى فإنه كان المشار إليه في ذلك)[290]

وعن مكانة المدرس في العصر الأيوبي وتحت عنوان المدارس في العصر الأيوبي كتبت الأستاذة الدكتورة عفاف سيد محمد صبره أستاذ التاريخ

الوسيط كلية الدراسات الإنسانية جامعة الأزهر – فرع البنات، كتبت ما ملخصه: (احتل سلاطين الأيوبيين مكانة بارزة بين الحكام المسلمين في الاهتمام بالعلم والتعليم، حتى أصبح لهذا العصر سمة خاصة ميزته عن غيره من العصور الإسلامية الأخرى، فقد شهد نهضة فكرية وثقافية وأدبية ودينية، ولا أدل على ذلك من النتاج العلمي والمؤلفات الكبيرة التي تذخر بها المكتبات الإسلامية إلي جانب الشخصيات البارزة التي تألقت ونالت حظها في ميدان الفكر والدين والسياسة، وبلغ من سمو ومكانة التدريس في مصر أنه كان يصدر بها تقليد أو مرسوم من السلاطين، واعتبرت هي والقضاء من درجة واحدة، وكثيرًا ما جمع الشخص الواحد بين الوظيفتين معًا، وكانت المرتبات التي تمنح للمدرسين إما نقدًا وإما عينًا كما تأثرت بظروف متعددة منها مقدار الوقف على المدرسة ومكانة المدرس وسمعته، وقد كان هناك مدرسون يتناولون مرتباتهم المنتظمة من الخزينة العامة للبلاد، هناك مثل للمرتب الذي منحه صلاح الدين للشيخ نجم الدين الخبوشاني عندما عينه على التدريس والنظر في المدرسة الصلاحية فقد أورد السيوطي "أن صلاح الدين شرط له من المعلوم في كل شهر أربعين دينار معاملة، صرف كل دينار ثلاثة عشر درهمًا وثلث درهم عن التدريس"، وقد بني صلاح الدين مدرسة أخرى سماها السيوفية وقرر في تدريسها الشيخ مجد الدين محمد بن محمد الجبتي ورتب له في كل شهر أحد عشر دينارًا وباقي ريع الوقف يصرفه على ما يراه لطلبة الحنفية المقررين عنده على قدر طبقاتهم.[291]

ومما سبق يتضح أن ملوك الدولة الأيوبية لم تشغلهم الحروب عن أحوال الشعب ورفاهيته وتعليمه وسوف نتناول في هذا الفصل إن شاء الله أبرز القادة في عصر الدولة الأيوبية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي:

ذكرنا أن صلاح الدين يوسف الأيوبي الكردي السني كان يدين بالولاء لنور الدين محمود حاكم الشام وللخليفة العباسي، والذي في نفس الوقت أصبح وزيرًا للدولة الفاطمية في عهد آخر خليفة فاطمي (العاضد) وكما نعلم أن منصب الوزير في ذلك الوقت يعني أنه أصبح الرجل الأول في مصر ولديه جميع الصلاحيات.

فماذا كان يريد أن يحققه صلاح الدين وما الفرق بينه وبين نور الدين محمود؟ على العموم كان توحيد الأمة الإسلامية في مواجهة الصليبيين هو هدف كلا الرجلين صلاح الدين ونور الدين ولكن وجهات النظر كانت تختلف في الأسلوب وقاعدة الانطلاق لتحقيق الهدف، لأن نور الدين محمود كان يرى أن الشام هي المكان المناسب لتكون قاعدة انطلاق ضد الصليبيين[292] كوضع طبيعي لكونها ميدان القتال المتلاحم معهم، أما صلاح الدين فقد اعتبر أن مصر هي القاعدة التي يجب الانطلاق منها لتوحيد الأمة الإسلامية والقضاء على الحملات الصليبية والله أعلم لأنه نظر إليها النظرة التي نتحدث عنها من البداية والتي هي جديرة بها، وقدر لها قدرها وعرف إمكانياتها وثقلها وفضلها والله أعلم،، كما أن صلاح الدين لا يريد القوة فقط لتحقيق الأهداف بل كان يعتبر الحكمة والتروي لا بد أن يسيران جنبًا إلى جنب بجوار القوة فرأى أن الأمة قد تعددت فيها المذاهب وانحرف الكثيرون عن أصل العقيدة الإسلامية وابتعدوا عن كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فوجد أن أفضل أسلوب هو إعادة المذهب السني وتقويته في مصر واليمن وغيرها من بلاد الأمة لتمضي وتسير على منهج الله وبالتالي تستحق نصر الله.

وأصر نور الدين محمود على أوامره لصلاح الدين بالغاء الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد وإقامتها للخليفة العباسي المستضيء دون أي مقدمات أو تمهيد ولم يستطع صلاح الدين مخالفة أوامر نور الدين محمود رغم إحساسه بمدى خطورة إلغاء الخلافة الفاطمية بهذا الأسلوب المفاجئ بل كان يرى أن نشر المذهب السني أولًا في مصر والدعوة إليه وتقويته هو السبيل إلى سقوط الخلافة الفاطمية بهدوء وبدون مشاكل من أي نوع بل وعن قناعة وليس قهرًا، على أي حال نفذ أوامر نور الدين محمود وألغى الأذان الشيعي وأعاد الأذان السني ودعا للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله على المنابر ولكنه في نفس الوقت أنشأ مدرسة على المذهب الشافعي[293] وعين قضاة شافعيين في كافة الأنحاء والطريف أن هذه الإجراءات لم تتناطح عند حدوثها شاتان كما يقال بل إن المصريين المسلمين فرحوا بعودة المذهب السني الذي لم يخرجوا منه أساسًا على ما يبدو، وكان الخليفة العاضد مريضًا مرضًا شديدًا حتي قيل أنه مات دون أن يعرف بإلغاء الخلافة الشيعية في مصر ولم يخبره أحد بذلك، ومات أيضًا نور الدين محمود[294] ويخلفه ابنه الذي لا يتعدى عمره 11 سنة[295] وأصبح هذا الطفل مطمعًا للقادة والأمراء الذين حوله (ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل عمل هؤلاء الأمراء علي مصالحة الصليبيين في بيت المقدس في ذلك الوقت العصيب الذي تمر به الأمة الإسلامية الأمر الذي أثار سخط صلاح الدين)[296] وهنا شعر صلاح الدين أن من واجبه أن يكمل ما بدأه نور الدين محمود لأنه لم يجد فيما يبدو أحد يريد استكمال مسيرة جهاد نور الدين رحمه الله بل على العكس من ذلك فقد وجد بعض الأمراء يريدون وضع أيديهم في أيدي الصليبيين.

من هنا يتضح أن المخاطر التي واجهت صلاح الدين كانت تتمثل في العديد من المؤامرات الداخلية والخارجية وكانت هناك عدة محاولات لاغتياله غدرًا في مقره، وكانت المؤامرات الداخلية تتمثل في قيام بقايا الفاطميين بعد وفاة العاضد بالاتصال بملك صقلية وملوك الفرنجة وطلبوا منهم الاتحاد في مواجهة صلاح الدين والقضاء عليه (فظهر في ذي الحجة 569هـ " يوليو 1174م" أسطول ضخم أمام الإسكندرية أرسله وليم الثاني النورماني ملك صقلية وحاصر المدينة كما دمر بعض السفن التجارية الراسية في الميناء، غير أن شجاعة الجيش الأيوبي ومقاومة أهل الإسكندرية الباسلة خيبت آمال وليم الثاني وحملت أسطوله على أن يقلع من الإسكندرية في مستهل أغسطس من نفس العام)[297]، كما حاول أيضًا الفاطميون إعادة الدولة الفاطمية وباءت المحاولة بالفشل حيث أرسل صلاح الدين أخاه " العادل " لمحاربتهم وهزمهم بالفعل، وغاية ما يمكن أن يقال عن أعداء صلاح الدين أنهم كل من لا يريد عودة الأمة إلى وحدتها ويفضل تمزقها وخضوعها لأمم أخرى

واستطاع صلاح الدين أن يقضي على جميع المؤامرات الداخلية في مصر بفضل الله آخذًا بأسباب القوة وكان ينجو بأعجوبة من محاولات قتله غدرًا[298] وبعد أن استقرت له مصر تمامًا قرر أن يخوض حربًا ضد كل من تحالف مع الصليبيين في الشام وتوحيد الأمة الإسلامية وكان بالطبع يجد مقاومة شرسة أحيانًا ولا يجد مقاومة تذكر أحيانًا أخري وبعد عدة معارك استطاع صلاح الدين فرض سيطرته وأمسك بعجلة القيادة في الأمة الإسلامية في ظل الخلافة العباسية ووجد أن الوقت قد حان لمواجهة الصليبيين وكسر شوكتهم، وليس معنى هذا أن صلاح الدين لم يحاربهم طوال تلك الفترة بل إنه اكتفى بحروب

دفاعية صغيرة حتى يتمكن من توحيد الجبهة الإسلامية أولًا، ثم التفرغ التام لهم و وراءه أمة قوية آخذه بأسباب القوة والعلم وفوق كل هذا قوية بعقيدتها السليمة الخالية من البدع والخرافات، وكان حول صلاح الدين رجال أشداء وأعوان مخلصين من بينهم بالطبع أخوته مثل العادل وتورانشاه وكذلك رجل آخر قوي اسمه الأمير بهاء الدين قراقوش الذي أشرف على بناء السور الذي أمر ببنائه صلاح الدين، وطبعًا كان قراقوش رجلًا مهابًا يُضرب بحسمه المثل إلى الآن، وبالإضافة إلى كل هؤلاء كان هناك أهل الذمة من اليهود والمسيحيين الذين كانوا ينعمون بالحكم العادل والبيئة الخصبة لممارسة شعائر دينهم

(وتوالت انتصارات صلاح الدين على الصليبيين في سرعة مذهلة بحيث لم يعد الصليبيون يلاحقون تحركاته)[299] (ونتيجة للضربات المتلاحقة التي كالها صلاح الدين للصليبيين طلب بلدوين الرابع وكبار باروناته الصلح من صلاح الدين في مايو 1180م فوافق وعقد معهم هدنة مدتها سنتين)[300] ولكن كان هناك شخص متطرف جدًا اسمه " ريجنالد شايتون " صاحب حصن الكرك ومشهور باسم " أرناط " في كتب التاريخ العربي، قام أرناط بنقض الصلح بل حاول إرسال أسطول وجيش قوي لاحتلال الحرمين الشريفين (ولا شك أن وصول تلك الحملة الصليبية الجريئة إلى شواطئ الحجاز يوضح لنا مدي الخطورة التي كانت تهدد المسلمين في أعظم مقدساتهم، ولكن يقظة الدولة الأيوبية في تلك المرحلة من تاريخها ردت اعتداء الغزاة الصليبيين إلي نحورهم فلم ينالوا مغنمًا مما أرادوه -)[301] وبالرغم من الهدنة التي احترمها صلاح الدين مع الصليبيين إلا أن أرناط (انقض على قافلة كبيرة قادمة من مصر إلى دمشق وقتل الجند المكلفين بحراسة القافلة وحمل التجار أسرى إلى حصنه، ولما

وصل خبر ما حدث للقافلة إلى صلاح الدين أرسل إلى أرناط يطلب إطلاق سراح الأسرى ورد ما نهبه فامتنع ورد على رسل صلاح الدين قائلًا " قولوا لمحمد يخلصكم " ورفض تسليم الأسرى.

وهكذا لم يبق أمام صلاح الدين إلا الحرب فأعلن الجهاد)[302] (وخرج علي رأس جيوشه وهزم الصليبيين في معركة شرسة بالقرب من " صفورية " (وسقط معظم الجيش الصليبي بين أسرى وقتلى ثم قام بمهاجمة مدينة طبرية ولم يلبث أن استولى علي المدينة في يوليو سنة 1187 م -)[303] ثم وقعت معركة حطين الشهيرة الحاسمة التي هزم فيها صلاح الدين الصليبيين هزيمة ساحقة ووقع في الأسر ملك بيت المقدس بلدوين الرابع وأرناط صاحب الكرك الذي حاول من قبل غزو الكعبة، ويذكر التاريخ عن هذه الواقعة أن صلاح الدين عامل الأسري معاملة طيبة (فيما عدا أرناط الذي قتله صلاح الدين بسيفه جزاء له على غدره ومكره لأنه تجاوز الحد وتجرأ على الأنبياء)[304] واضطر الصليبيون إلى عقد معاهدة تقضي بإخلاء بيت المقدس من الصليبيين بدون إراقة دماء ووافق صلاح الدين علي أن يسمح لهم بالخروج سالمين وتم تسليم المدينة (في 27 رجب سنة583 هـ "2أكتوبر 1187م" ولا شك أن ما فعله صلاح الدين جاء متناقضًا تمامًا لما فعله الصليبيين عندما استولوا على بيت المقدس سنة 491 هـ "1097م" قتلوا به أكثر من سبعين ألفًا)[305] وقد ظل بيت المقدس في أيديهم حوالي 90 سنة

وبالطبع غضب ملوك أوروبا غضبًا شديدًا بسبب هزيمة الصليبيين في فلسطين أمام صلاح الدين، وخاصة موقف تحرير بيت المقدس فقام ثلاثة من ملوك أوروبا الأقوياء بتزعم حملة ضخمة لإعادة احتلال بيت المقدس وهم

فردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا وفيليب أغسطس ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا حيث قاموا بقيادة حملة صليبية جديدة معروفة بالحملة الصليبية الثالثة واستطاعوا احتلال عكا لتكون قاعدة القتال ضد المسلمين وقتلوا حوالي ثلاثة آلاف أسير مسلم[306] ثم أوقع المولى عز وجل الخلاف بين قادة هذه الحملة وانتهى الأمر إلى قيام ريتشارد قلب الأسد فقط بقيادة الحملة بعد مغادرة باقي القادة نتيجة للاختلافات واستمر ريتشارد يقاتل المسلمين ولكن لم يصل إلى نتيجة مرضية بل إنه قرر أن يدخل في معاهدة صلح مع صلاح الدين بعد أن تأكد أن صلاح الدين لا يرفض حضور المسيحيين للحج في أي وقت إلى بيت المقدس كما أن صلاح الدين كان حريصًا على مقدسات جميع الأديان وليس فقط المقدسات الإسلامية، فعاد ريتشارد إلى بلاده مطمئنًا في 9 أكتوبر سنة 1192م[307]

ومات صلاح الدين الأيوبي (في 27 صفر سنة 589 هـ " أوائل مارس سنة 1193م" مخلفًا وراءه دولة متحدة الأركان، وقد قال المؤرخ السيوطي في صلاح الدين " فرحمة الله عليه في سائر الأوقات فلقد كان إمامًا عادلًا وسلطانًا كاملًا لم يل مصر بعد الصحابة مثله لا قبله ولا بعده)[308]، وإليك بعض مقتطفات من قصيدة كتبها أسامة بن منقذ في صلاح الدين[309]

ملك يمن علي أسارى سبيه

فيعيدهم في الأسر بالإحسان

ملأ القلوب محبة ومهابة

فخلت من البغضــاء والشنآن

يا ناصر الإسلام حين تخاذلت

عنه الملوك ومظهر الإيمان

بك قد أعز الله حزب جنوده

وأذل حزب الكفر والطغــيان

لما رأيت الناس قد أغواهم

الشيطان بالإلحاد والعصــيان

جردت سيفك في العدا لا رغبة

في الملك بل في طاعة الرحمن

وغضبت لله الذي أعطاك فضل

الحكم غضبة ثائر حـــران

كما رثاه العماد الأصبهاني في كتابه " البرق الشامي " بقصيدة يبلغ عدد أبياتها مائتين واثنين وثلاثين بيتًا جاء فيها[310]:

بالله أين النـاصر الملك الذي

لله خالصـــة صفت نياته

أين الذي مازال سلطانا لنا

يُرجي نداه وتُتقي سطــواته

لا تحسبوه ممات شخص واحد

فممات كل العالمين ممـاته

دفن السماح فليس ينبش بعدما

أودي إلي يوم النشور رفاته

من لليتــامى والأرامل راحم

متعطف مفضوضـة صدفاته

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الملك الكامل ومعاهدة سلام في العصر الأيوبي:

عندما وصل للحكم في الدولة الأيوبية الملك الكامل كان محبًا للسلام وكان الإمبراطور فردريك الثاني إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة وملك الصقليتين محبًا للسلام أيضًا وقررا العيش في سلام (وكان كلًا منهما لا يلجأ إلى السيف إذا استطاع أن يحل مشكلاته بالسياسة والطرق السلمية، وقد أحسن " كانتوروفتر " مؤرخ فردريك الثاني في وصف الرجلين حين قال: كان

الملك الكامل صورة شرقية من الإمبراطور إن لم يكن أقرب إلى الصحة أن نقول إن الإمبراطور كان صورة غربية من السلطان الملك الكامل)[311]

ومن هنا كانت الحملة الغريبة والطريفة جدًا والتي لا مثيل لها وهي الحملة الصليبية السادسة التي تزعمها الإمبراطور فردريك الثاني وكانت تتكون من ستمائة فارس فقط وهي حملة سلمية وكان الغرض منها تنفيذ معاهدة السلام التي تمت بين فردريك الثاني والملك الكامل وفيما يلي بنود المعاهدة كاملة كما وردت في الجزء الثاني من كتاب " تاريخ مصر الإسلامية " للدكتور جمال الدين الشيال وتحديدًا في صفحة 90

1) أن تسلم بيت المقدس للإمبراطور باعتبارها ملك الدولة الصليبية بشرط ألا يقيم فيها حصونًا أو قلاعًا

2) أن يعطي للصليبيين بيت لحم والناصرة وطريق الحاج من بيت المقدس إلى يافا على الساحل.

3) أن يبقى في أيدي المسلمين من بيت المقدس منطقة المسجد الأقصى على ألا يحمل المسلمون في تلك المنطقة سلاحًا.

4) أن يطلق الكامل سراح من عنده من الأسرى.

5) أن يتعهد فردريك بمحالفة الكامل ضد جميع أعدائه حتى ولو كانوا مسيحيين صليبيين.

6) أن يضمن الإمبراطور عدم وصول إمدادات صليبية إلى الإمارتين الصليبيتين في إنطاكية وطرابلس.

7) أن تسري هذه المعاهدة لمدة عشر سنوات.

وبالطبع غضب بعض المسلمون من الملك الكامل لتوقيعه هذه المعاهدة التي تسمح للصليبيين بالتواجد في بيت المقدس ولو كمملكة رمزية دون قوة تحميها كما سخط أيضًا المسيحيون علي فردريك لأنه سالم المسلمين دون قتال وظل الطرفين ينعمون بالسلام والأمن لفترة من الوقت استطاع فيها الملك الكامل أن يحقق رغبة الصليبيين في تكوين مملكتهم المحببة في بيت المقدس ولكن منزوعة السلاح مع سيطرة المسلمين على كل مقدساتهم الإسلامية في المنطقة سيطرة كاملة مع السماح للحجاج المسيحيين بالتوجه بحرية إلى أماكنهم المقدسة[312]

وعندما تولى الملك الصالح حكم مصر قام باستعادة بيت المقدس سنة 1244 م وقد تزامن ذلك مع وصول إحدى الحملات الصليبية الصغرى إلى الشام وأدى استعادة بيت المقدس مرة أخرى في أيدي المسلمين إلى قيام حرب صليبية جديدة قوية بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، والطريف أن هذه الحملة كانت ضد المسلمين وضد فردريك الثاني في نفس الوقت أي أنهما كانتا حملتان واحدة ضد المسلمين والثانية ضد الصليبيين المتحالفين مع المسلمين باعتبارهم خارجين على الكنيسة (ولعل ذلك كان عاملًا من أهم العوامل التي أدت إلى توثيق الصداقة بين فردريك الثاني والملك الصالح نجم الدين فأرسل فردريك في السر رسولًا يحمل إلى الصالح أنباء خروج حملة لويس في طريقها إلى مصر)[313] وكان من الطبيعي أن تبدأ الحملة بقتال

الدولة الأيوبية في مصر لأنه لا يمكن الوصول إلى بيت المقدس إلا إذا سقطت الدولة الأيوبية في مصر أولًا فيصبح بذلك الطريق سهلًا إلى تحقيق الهدف الرئيس من الحملة.

الملك الصالح نجم الدين أيوب والحملة الصليبية السابعة:

كانت الحملة الصليبية السابعة بقيادة الملك لويس التاسع ملك فرنسا والتي اتجهت إلي دمياط، واستولت عليها بطريقة ليس لتفوقهم دخل فيها، فقد كان السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب مريضًا مرضًا شديدًا وعندما وصلت السفن الفرنسية (أرسل الأمير فخر الدين الحمام الزاجل يحمل النبأ إلى السلطان، وتعددت رسائله دون أن يتلقى ردًا فأدرك أن السلطان قد مات، فانتظر حتى وافى الليل وانسحب بجيشه كله من الشاطئ الغربي إلى دمياط ثم تركها وسار جنوبًا ونظر أهالي دمياط فوجدوا الجيش الذي أتى لحمايتهم قد غادر المدينة فخافوا على أرواحهم وخرجوا في الليل تاركين مدينتهم)[314]، أما الملك لويس فعندما أصبح وجد المدينة خالية من الجند ومن الأهالي فظن أنها مكيدة وقام بإرسال من يستكشف الموقف فتأكد من خلو المدينة بالفعل.

ودخل الجيش الفرنسي المدينة بلا مقاومة وبلا أدنى مشقة أو عناء نتيجة لقرار خطأ اتخذه الأمير فخر الدين والطريف أن لويس التاسع ورجاله وجدوا المدينة عامرة بالأقوات والذخائر لأنها كانت تستعد لحصار طويل فاستولى لويس على كل ذلك وفرح به، ومكث بالمدينة ستة شهور كاملة، فكان تأثير خبر وفاة الملك في هذه الفترة في منتهى الخطورة حتى لو كان خبر غير صحيح، ورغم مرضه الشديد وحزنه على انسحاب حامية دمياط إلا أن الملك

الصالح استطاع أن يحشد الجيش بالمنصورة واتخذها قاعة لقتال الصليبيين وقام بتحصينها واستعد للمعركة الكبرى معهم، كما أن المجاهدين قاموا بأعمال إغارة على معسكر الصليبيين بدمياط والعودة في كل يوم بعدد من الأسرى[315]، وفي وسط كل هذه الأحداث مات الملك الصالح في ليلة الاثنين النصف من شعبان سنة 647 هـ " 22 نوفمبر سنة 1249 م " في أدق مراحل القتال ضد الصليبيين، وكانت شجرة الدر زوجة الملك الصالح سيدة قوية وحازمة وشعرت بأن هذا الخبر قد يؤدي إلى ضعف معنويات الجيش وقد يحدث ما حدث في دمياط عندما كانت مجرد شائعات عن وفاة الملك فما بالك بخبر مؤكد يصل إلى الجيش فقررت إخفاء خبر وفاته، (وعهدت للأمير فخر الدين بقيادة الجيش وكان الأطباء يدخلون كالعادة إلى حجرة السلطان كل يوم وكأنهم يعودونه كما كانت الأوراق الرسمية تدخل إلى نفس الغرفة وتخرج ممهورة بإمضاء الملك وعلامته بخط يشبه خطه كل الشبه وأرسلت الرسل إلى الملك المعظم تورانشاه ابن الملك الصالح)[316]

واحتدم القتال وبرغم كل هذه الإجراءات تسرب نبأ وفاة السلطان إلى الأعداء، ثم بوصول تورانشاه ابن الملك الصالح تولى قيادة المعركة فقام بقطع الإمدادات بين معسكر الصليبيين المواجه للمنصورة وبين مدينة دمياط التي تأتيهم الإمدادات منها حتى ضاق الحال بلويس التاسع، فشعر بأن حملته ستفشل قبل أن تحقق أهدافها فطلب من تورانشاه أن يسلمه بيت المقدس مقابل الانسحاب من مصر[317] فرفض تورانشاه، واشتعل لهيب المعركة وانقض جيش المسلمين على الأعداء وقتلوا وأسروا أعدادًا ضخمة منهم، ووقع في الأسر الملك لويس التاسع الذي تم حبسه في دار ابن لقمان بالمنصورة وكان الموكل بحراسته شخص اسمه الطواشي صبيح.

وكان نصرًا عظيمًا بفضل الله سبحانه وتعالى، ثم بعد ذلك تم فداء الملك لويس بمبلغ كبير من المال وتم انسحاب الفرنجة من مصر دون قيد أو شرط بعد أن بقي العديد منهم في المنصورة واعتنقوا الإسلام.

والطريف أن أحد الشعراء في مصر في ذلك الوقت اسمه جمال الدين بن مطروح[318] ودع جنود فرنسا المنسحبين وأشار إلى أن دار ابن لقمان ستظل موجودة وبها الطواشي صبيح إذا فكر الملك في العودة مرة أخرى فقال الشاعر:

قل للفرنسيس إذا جئته

مقال نصح عن قؤول فصيـح

أتيت مصر تبتغي ملكها

تحسب أن الزمر يا طبل ريح

فساقك الحين إلي أدهم

ضاق به عن ناظريك الفسيح

وكل أصحابك أودعتهم

بحسن تدبيرك بطن الضـريح

سبعون ألفًا لا يري منـهم

إلا قتيل أو أسير جــريح

وقل لهـم إن أضمروا عودة

لأخذ ثأر أو لفعل قبيـح

دار ابن لقمان علي حالها

والقيد باق والطواشي صبيح

والجدير بالذكر أن الملك الصالح كان يعتمد على المماليك في هذه المعركة الذين أكثر من شرائهم ليستعين بهم على حروبه وكان يعاملهم معاملة خاصة لاسيما الأمراء منهم والقادة ولكن ابنه توران شاه علي ما يبدو وكما تشير المراجع التاريخية كان يتعامل مع مماليك أبيه بأسلوب غير لائق ولا يعطي قادتهم القدر الكافي من الاحترام وخاصة بعد ما حققوه من نصر على الحملة الصليبية السابعة مما أدى إلى شعورهم بأن هذا الملك سوف يتخلص منهم في أي لحظة فقرروا التخلص منه قبل أن يتخلص منهم والله أعلم (ولم يكن المعظم توران شاه كأبيه ثباتًا واتزانًا وحكمة بل كان شابًا أهوج فلم يقدر لزوجة أبيه شجر الدر تدبيرها ولا للمماليك البحرية جهدهم)[319] وبعد أن تم قتل توران شاه قام المماليك بتكليف شجر الدر بإدارة شئون البلاد وتزوجت أحد قادة المماليك ثم قامت بعد ذلك دولة المماليك في مصر

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أبرز القادة في عصر الدولة المملوكية

ملخص العصر المملوكي:

بعد وفاة الملك الصالح وانتهاء معركة المنصورة ثم مقتل الملك توران شاه ابن الملك الصالح لم يجرؤ أحد من أمراء المماليك علي أن يعلن نفسه سلطانًا نظرًا لأن شرعية الحكم في ذلك الوقت كانت لسلاطين بني أيوب وشرعية الحكم لابد أن تأتي من الخليفة العباسي في ذلك الوقت، فلا يمكن آنذاك أن يتولى أي شخص مقاليد السلطة في أي بقعة من بقاع العالم الإسلامي إلا بتقليد من الخليفة شخصيًا وحتى وإن كان هذا إجراء رمزي إلا أنه ضروري لإضفاء الشرعية، وحاجة المماليك تحديدًا إلى هذه الشرعية تفوق حاجة غيرهم لأنهم يعرفون جيدًا أنهم عبيد منذ البداية ولا تصح لهم ولاية، لذلك قرروا بشكل مبدئي أن تبقى السلطة في الأسرة الأيوبية مؤقتًا لحين حل هذه المعضلة، فاتفقوا علي أن تتولى شجر الدر زوجة الملك الصالح مقاليد السلطة إلى أن أرسل لهم الخليفة العباسي خطابًا ينكر عليهم تولية امرأة الحكم فكان هذا اعتراف ضمني من الخليفة بانتقال السلطة لأحد أمراء المماليك (وقد كان التقليد المتبع في عهد الأيوبيين أن السلطان لا تصبح ولايته شرعية إلا إذا اعترف به الخليفة العباسي وأرسل إليه التقليد بذلك ولذلك أسرع أمراء المماليك فولوا أحدهم – وهو الأمير عز الدين أيبك – السلطنة ولقب بالملك المعز وتزوج من شجر الدر[320] التي خلعت نفسها من

السلطنة بعد أن تولتها ثمانين يومًا)[321]،وحتى لا تغضب الأسرة الأيوبية بالشام قرر المماليك أن يشارك الملك عز الدين أيبك طفل من سلالة الأيوبيين هو الأشرف موسى حفيد الملك الكامل محمد وكان عمره حوالي ست سنوات، ولكن الأيوبيين في الشام لم يقبلوا بهذا الوضع ودارت معركة شرسة بينهم وبين المماليك انتهت بانتصار المماليك[322] ونتيجة لهذه المعركة قام المماليك بخلع الملك الطفل من السلطنة، وبهذا تم الاستقلال المملوكي التام بمصر، وأحس الخليفة العباسي المستعصم بالله أن الأمور ستتحول إلى قتال بين المسلمين بينما الخطر المغولي على الأبواب فقام بحسم الخلاف بين الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر وأرسل رسولًا إلى كل منهم كمبعوث للسلام (ونجح رسول الخليفة في مهمته وتقررت قواعد الصلح بين الطرفين على أن تكون مصر والجزء الجنوبي من فلسطين بما فيه غزة والقدس وبلاد الساحل للمعز أيبك، وأن تكون الأجزاء الواقعة شمال هذه المنطقة لأصحابها من البيت الأيوبي وأن يطلق المعز سراح من وقع في أسره)[323] وبهذا تم إضافة الشرعية على الملك المعز عز الدين أيبك وأصبح يتبع الخليفة مباشرةً

وتولى سلاطين المماليك حكم مصر لمدة حوالي 267 سنة (وقد انقسمت فترة حكم المماليك لمصر إلى مماليك بحرية استمرت من 650 هـ / 1252 م إلى 784 هـ / 1382 م ثم تلتها المماليك البرجية أو الشركسية وهم سكان أبراج القلعة والتي انتهت بالفتح العثماني لمصر على يد السلطان سليم الأول في 932 هـ / 1517 م)[324]، (وتولى سلطنة مصر 27 ممن المماليك البحرية و 28 من المماليك البرجية)[325] وبالتالي يكون مجموع ملوك وسلاطين المماليك 55 سلطانًا مملوكيًا، وفي عهد الظاهر بيبرس تم انتقال الخلافة العباسية إلى مصر لتصبح مصر دار خلافة عباسية مما أضفى شرعية قوية لسلاطين

المماليك الذين توسعوا في ملكهم ليشمل معظم أنحاء العالم الإسلامي كالحجاز والشام ومصر وغيرها، ولكن الشرعية الحقيقية لهؤلاء السلاطين كانت في تعاطف الأمة كلها معهم وحبهم لهم وتقديرهم الكبير لدورهم الرائع في القضاء علي المغول (التتار) وتطهير الأمة الإسلامية منهم ومن بقايا الصليبيين المعتدين وكانت هذه المرحلة في تاريخ المماليك هي التي بالفعل أضفت الشرعية على حكمهم وكانت قد صدرت قبل ذلك فتوى بعدم شرعية حكمهم لكونهم عبيد تم شرائهم ولا جدوى من شراء أنفسهم بأموالهم لأنهم وما يملكون ملكًا للدولة، ولكن بعد تصديهم للتتار وقهرهم للأعداء نالوا إعجاب الجميع ومبايعتهم لأنهم حافظوا على الدولة الإسلامية[326] من خطر التتار وكل هذا بفضل الله سبحانه وتعالى ورحمته، ولم ينجح نظام توريث الحكم في عهد المماليك بشكل واضح (ويرجع السبب في عدم نجاح نظام الوراثة الشرعية عند المماليك إلي أنهم كانوا جنوداً محاربين نشأوا نشأة واحدة وربوا تربية واحدة متجانسة فهم قوم قد انقطعت صلاتهم بأسراتهم منذ اشتروا في أسواق الرقيق أو أسروا في ميادين الحروب فضعفت عندهم مع الزمن معاني الصلات الأسرية وقويت عندهم في نفس الوقت معاني صلات أخري كان لها شأن كبير في حياتهم - فكان يصعب علي المماليك دائماً أن يلي السلطنة ابن سلطان سابق لأنه لم ينشأ نشأتهم ولم يرب تربيتهم وليس بينهم من العلاقات ما يلزمهم بالولاء له فكانوا في العادة يقبلون سلطنة هذا الابن مؤقتًا احترامًا لما أُخِذ عليهم من مواثيق وإيمان إلى أن تنتهي المشاورات بين كبراء أمرائهم ويتفقوا على تولية أحدهم وكان الاختيار يقع عادة على أقرب الأمراء إلى السلطان السابق، وأقرب الأمراء إلى السلطان السابق كان في العادة أقدمهم والأخذ بنظام الأقدمية من المبادئ

الهامة التي كان يحترمها ويعمل بها المماليك)[327] ولم يكن عزل ابن الملك السابق معناه قتله ولكنهم كانوا يكتفون بعزله فقط أو إبعاده إلى مدينة بعيدة عن العاصمة معزز مكرم لأن كل منهم كان يشعر بأن هذا سيكون مصير أولاده من بعده، وعلى الرغم من نجاح بعض سلاطين المماليك في توريث الحكم لأولادهم وذلك بإعدادهم إعداد خاص لذلك إلا أن هذه المحاولات لم تكن القاعدة العامة في انتقال السلطة في عصر المماليك بشكل عام وجدير بالذكر أن أشهر من قام بتوريث الحكم لأولاده هو السلطان المنصور قلاوون، وفيما يلي رأي الدكتور محمود الحويري في المماليك والدكتور محمود الحويري أستاذ تاريخ العصور الوسطي بكلية الآداب بسوهاج وهو مؤلف كتاب رائع اسمه "مصر في العصور الوسطي الأوضاع السياسية والحضارية " وهو من المراجع التي نقلت منها الكثير من الفقرات والعبارات والمعلومات التي تصف أحوال مصر في تلك الفترات من تاريخها وأوردتها في هذا الكتاب بكثرة، وقد كتب عن المماليك ما يلي: (أنهم جاءوا إلي مصر كرقيق من بلاد متعددة وأمم شتى وأصول عرقية متنوعة ووجه الأهمية هنا أنهم أتوا أطفالًا صغارًا انقطعت حبالهم نهائيًا بمواطنهم الأصلية وتربوا تربية إسلامية وتعلموا اللغة العربية ولم يعودوا يعرفون لهم وطنًا غير مصر واستقروا فيها للأبد ومهما قيل في أن المماليك أجانب عن مصر وأنهم ولدوا في أرض غير إسلامية، أو أنهم يرجعون في أصولهم إلي دماء غير مصرية فإن هذا القول مردود عليه، لأن الانتماء الحقيقي للوطن يقوم أساساً علي خدمة هذا الوطن والدفاع عنه ورعاية مصالحه، بغض النظر عن الجنس الذي يعيش فوق أرضه أو الأصول التي تحدر منها، وهي حقيقة أثبتها التاريخ على مداه الطويل، فليس ثمة وطن يجري في عروق أبنائه دماء واحدة نقية خالصة، ومصر

بموقعها الجغرافي وتاريخها الطويل قد استقبلت أجناسًا عديدة تركت أثرها فيها بصورة ما، وإن كانت مصر قد امتصت تلك الأجناس وطبعتها بطابعها وشخصيتها، فصارت مصرية، وهذه الحقيقة تنطبق على المماليك في مصر، فهم الذين حموا شعبها وحاربوا باسمه وحافظوا على استقلاله ضد الغزاة وينبغي ألا ننسى أن المماليك منذ ظهورهم على مسرح الأحداث في مصر ومنطقة الشرق الأوسط قد ارتبطوا بالشرعية التي منحتها لهم الخلافة الإسلامية بوصفهم حماتها والمدافعين عنها وعن الإسلام ولذلك من الظلم الفادح أن نعتبر المماليك أجانب عن مصر)[328]، انتهى كلام الدكتور الحويري وهو رأي مهم رأيت أن أذكره لنقترب أكثر من المماليك ونحاول الإلمام بتاريخهم، وقد (اهتم سلاطين المماليك بالزراعة باعتبارها مصدر الثروة الأول الذي عاش عليه المصريون في مختلف العصور، ولذلك عني سلاطين المماليك بحفر الترع وإقامة الجسور حرصًا على وصول المياه إلى أراضي لم تصل إليها من قبل مما زاد في رقعة الأراضي الصالحة للزراعة وبالتالي كثرة الغلات والخيرات)[329]، (وإلى جانب الزراعة اهتم سلاطين المماليك بالثروة الحيوانية فعملوا على تحسين سلالتها وجلب الأنواع الممتازة لتربيتها والإكثار منها، وفي عصر المماليك ارتقت الصناعة وأصبحت على درجة كبيرة من الجودة والإتقان، ومن أهم الصناعات في العصر المملوكي صناعة المنسوجات، وبرع المصريون في الصناعات الجلدية والمصنوعات المعدنية، وازدهرت صناعة الزجاج، وكذلك صناعة الخزف وخضع الصناع وأصحاب الحرف في العصر المملوكي لنظام النقابات، فكان أفراد كل حرفة يكونون نقابة خاصة بهم لها نظام ثابت يحدد عددهم ومعاملاتهم، كما يكون لهم رئيس أو شيخ يرأسهم ويفض مشاكلهم ويرجعون إليه في كل ما يهم)[330]، (أما

التجارة في عصر المماليك فقد لعبت الدور البارز كمصدر للثروة سواء كانت تجارة داخلية أو خارجية، ولكن التجارة الخارجية ساهمت بالنصيب الأكبر في دخل دولة المماليك وثرائها)[331] وكان سلاطين المماليك يهتمون بالتعامل معاملة حسنة مع التجار الأجانب ومن أظرف الأمثلة على ذلك أن السلطان المنصور قلاوون بعث إلى المسئول عن ميناء الإسكندرية رسالة يأمره فيها بتنمية تجارة الميناء (ومعاملة التجار الواردين إليه بالعدل الذي كانوا ألفوه منه، فإنهم هدايا البحور، ودوالبة الثغور، ومن ألسنتهم يطلع علي ما تجنه الصدور وإذا بذر لهم حب الإحسان نشروا له أجنحة مراكبهم كالطيور، وهيأت دولة المماليك وسائل الراحة لإقامة التجار الأوروبيين في مينائي الإسكندرية ودمياط فبنت الفنادق ووضعتها تحت تصرف هؤلاء التجار حتى يعيشوا وفق النمط الذي اعتادوه في بلادهم)[332]، (وبلغت الحياة الفكرية والأدبية في مصر الإسلامية ذروة النضج والازدهار في القرنين الثامن والتاسع الهجريين ففي هذين القرنين تحتشد أعظم جمهرة من العلماء[333] والكتاب من كل فن وضرب وفيها تغص القاهرة بأكابر العلماء الوافدين عليها من المشرق والمغرب، تجتذبهم نهضتها الفكرية، وأزهرها التالد، وبلاطها المستنير، حامي الآداب والعلوم، ويمتاز القرن الثامن في مصر بظاهرة فكرية خاصة، وهي أنه عصر الموسوعات العلمية والفنون المعروفة يومئذ، في مؤلفات جامعة لم تعرفها الآداب العربية من قبل وكتبت في عدة موسوعات جليلة، مازالت تتبوأ مقامها الفذ في تراث الأدب العربي)[334] وأشهر هؤلاء العلماء الموسوعيين أحمد ابن عبد الوهاب النويري المتوفي سنة 1332 م صاحب كتاب " نهاية الأرب في فنون الأدب " وأحمد ابن فضل الله العمري المتوفي سنة 1348 م صاحب كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار وأبو العباس القلقشندى

المتوفي سنة 1418 م صاحب كتاب صبح الأعشى في كتابة الإنشاء (وإنه لمن التجاوز والتواضع أن نسمي هذه المؤلفات المدهشة كتبًا، فهي في الواقع موسوعات ضخمة شاسعة لا تدل أسماؤها على حقيقة محتوياتها)[335] ومن الأمثلة أيضًا لعلماء ذلك العصر المؤرخ الشهير تقي الدين المقريزي صاحب كتاب " المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار " الشهير بخطط المقريزي والحافظ ابن حجر العسقلانى وشمس الدين السخاوي والحافظ جلال الدين السيوطي وغيرهم من العلماء: (فكانت القاهرة في عصر دولة المماليك دون نزاع أكثر العواصم الإسلامية ازدهارًا بالبحث والدرس وحملت وحدها مشعل الثقافة العربية الإسلامية وحافظت عليها من خطر الضياع بعد أن ذوت مراكز العلم والتنوير في معظم البلاد الإسلامية، خاصة بعد سقوط بغداد في أيدي المغول وتدميرهم لكنوز المخطوطات، وتعرض قرطبة في الأندلس لحركة الاسترداد المسيحية وإلحاق الضرر ببلاد الشام على أيدي الصليبيين والمغول جميعًا واستقبلت مصر العلماء والباحثين والطلبة من كل مكان لينهلوا من مراكز العلم بها، وفي العصر المملوكي زاد عدد المدارس زيادة كبيرة)[336]، وقد اهتم المماليك أيضًا اهتمامًا بالغًا بالعمارة والفنون[337]، وبعد أن استعرضنا ملخص عام للعصر المملوكي سنستعرض معًا أبرز القادة في ذلك العصر.

السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز:

في بداية عصر المماليك البحرية في مصر وتحديدًا في عهد السلطان الصغير نور الدين علي ابن السلطان عز الدين أيبك هاجم هولاكو العراق وقتل الخليفة المستعصم بالله وخرب بغداد تخريبًا شديدًا واقترب خطر المغول من مصر ويقول السيوطي عن الخليفة العباسي المستعصم قتيل التتار (كان

متدينًا متمسكًا بالسنة كأبيه وجده ولكنه لم يكن مثلهما في التيقظ والحزم وعلو الهمة. ثم ركن المستعصم إلى وزيره مؤيد الدين العلقمي الرافضي[338] فأهلك الحرث والنسل ولعب بالخليفة كيف أراد وباطن التتار[339] وناصحهم وأطمعهم في المجئ إلي العراق وأخذ بغداد. وصار إذا جاء خبر منهم كتمه على الخليفة ويطالع بأخبار الخليفة التتار إلى أن حصل ما حصل)[340]، ووصل التتار إلي بغداد (وبذل السيف في بغداد واستمر القتال فيها نحو أربعين يومًا، ولم يسلم إلا من اختفى في بئر أو قناة وقُتِل الخليفة رفسًا، قال الذهبي: ما أظنه دُفِن، وقُتِل معه جماعة من أولاده وأعمامه وأُسِر بعضهم وكانت بلية لم يصب الإسلام بمثلها ولم يتم للوزير ما أراد وذاق من التتار الذل والهوان ولم تطل أيامه بعد ذلك وعملت الشعراء قصائد في مراثي بغداد وأهلها -)[341]

بادت وأهلوها معًا فبيوتهم

ببقاء مولانا الوزير خراب

وقال بعضهم:

يا عصبة الإسلام نوحي واندبي

حزنًا على ما تم للمستعصم

دست الوزارة[342] كان قبل زمانه

لابن الفرات فصار لابن العلقمي

وعندما اقترب الخطر من مصر تم تولية قطز السلطنة سنة 1259م، وقال (إني ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتار ولا يتأتى ذلك بغير ملك، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم أقيموا في السلطنة من شئتم)[343] ويقول السيوطي: وقدم الصاحب كمال الدين بن العديم إليهم رسولًا يطلب النجدة على التتار، فجمع قطز الأمراء والأعيان، فحضر الشيخ عز الدين ابن عبد السلام وكان المشار إليه في الكلام، فقال الشيخ عز الدين: " إذا طرق العدو البلاد وجب على العالم كلهم قتالهم، وجاز أن يؤخذ من الرعية ما يستعان به على جهازهم، بشرط أن لا يبقى في بيت المال شيء وأن تبيعوا ما لكم من الحوائص والآلات ويقتصر كل منكم على فرسه وسلاحه وتتساووا في ذلك أنتم والعامة، وأما أخذ أموال العامة مع بقاء ما في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا)[344] وتم جمع الأموال استعدادًا لقتال العدو، وأرسل هولاكو رسلًا من عنده إلى مصر يحملون رسالة تحذير وتهديد (فيا أيها الباقون أنتم بمن مضى لاحقون، يا أيها الغافلون أنتم إليهم تساقون، ونحن جيوش الهلكة لا جيوش الملكة، مقصودنا الانتقام وملكنا لا يرام ونزيلنا لا يضام، وعدلنا في ملكنا قد اشتهر ومن سيوفنا أين المفر،دمرنا البلاد وأيتمنا الأولاد وأهلكنا العباد وأذقناهم العذاب وجعلنا عظيمهم صغيرًا وأميرهم أسيرًا، تحسبون أنكم منا ناجون أو متخلصون)[345] وكان قطز على علم تام أنه لن يكون هناك أي فرق بين الاستسلام أو عدم الاستسلام فهم على أي حال سوف يقتحمون مصر ويدمرونها كما دمروا غيرها وسيقتلون الناس بلا رحمة حتى في حالة الاستسلام وبالتالي كان رد قطز بلا تردد هو قطع رؤوس رسل هولاكو (وعلق رؤوسهم على أبواب القاهرة وأخذ يحشد قواه ويستعد لملاقاة المغول)[346] (وبدأ النضال العنيف بين عنصرين من أخطر وأقوى العناصر

المحاربة وبين فنين من فنون الحرب الممتازة في العصور الوسطي. وقد تأرجح النصر مرات بين الفريقين أثناء المعركة)[347] (وفي أول المعركة هُزِم المماليك وتفرقوا ولكن قطز ثبت في مكانه وألقى بخوذته إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته " وا إسلاماه " وحمل بنفسه على العدو فالتف المماليك حوله ثانيةً وانتصروا على عدوهم، غير أن التتار لم يلبثوا أن ضموا صفوفهم وتجمعوا وتقدموا وأوشكوا أن ينتصروا على المماليك ثانية فتقدم قطز وصرخ صرخته الأولى ثلاث مرات " وا إسلاماه، يا الله انصر عبدك قطز على التتار " فأثارت هذه الصرخة وهذا الدعاء حمية المماليك وحملوا على التتار حتى هزموهم هزيمة شنعاء فلما تم النصر نزل قطز عن فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقبلها وصلى ركعتين شكرًا لله)[348]، وبعد أن انتهت معركة عين جالوت بالانتصار الساحق للمسلمين على التتار حاول ضعاف النفوس أن يوقعوا الخلاف والوحشة بين الملك المظفر سيف الدين قطز والأمير ركن الدين بيبرس وللأسف الشديد نجحوا في ذلك نجاحًا باهرًا وضعاف النفوس موجودون في كل مكان وكل زمان تقريبًا ولا يعجبهم الناجحين وتراهم يحقدون ويفسدون كل نصر أو تقدم، ويروي الإمام السيوطي رحمه الله عن معركة عين جالوت ما يلي (فأقبل المظفر بالجيوش وشاليشه ركن الدين بيبرس البندقداري، فالتقوا هم والتتار عند عين جالوت ووقع المصاف وذلك يوم الجمعة خامس عشر رمضان فهزم التتار شر هزيمة وانتصر المسلمون ولله الحمد وقتل من التتار مقتلة عظيمة وولوا الأدبار. وجاء كتاب المظفر إلى دمشق بالنصر فطار الناس فرحًا، وأحبه الخلق غاية المحبة، وساق بيبرس وراء التتار إلى بلاد حلب وطردهم عن البلاد ووعده السلطان بحلب، ثم رجع عن ذلك فتأثر بيبرس من ذلك وكان ذلك مبدأ الوحشة وكان المظفر

عزم علي التوجه إلى حلب لينظف آثار البلاد من التتار فبلغه أن بيبرس تنكر له وعمل عليه، فصرف وجهه عن ذلك ورجع إلى مصر وقد أدمر الشر لبيبرس وأسر ذلك إلى بعض خواصه، فاطلع على ذلك بيبرس، فساروا إلى مصر وكل منهم محترس من صاحبه)[349] وهنا أصبح اثنان من الأسود في قفص واحد ولابد من مقتل أحدهم وتم القتل للأسف الشديد بعد أن استغل ضعاف النفوس عدم تعيين بيبرس واليًا علي حلب فنجحوا في إقناع كل من الطرفين أن كل منهما يحاول قتل الآخر والتآمر عليه فاعتبر كل واحد منهم أن قتل الآخر هو ببساطة شديدة " دفاع مشروع عن النفس "

السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري الصالحي:

تولى السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس حكم مصر سنة 1260م وتم في عهده تحقيق حلم ابن طولون والإخشيد حيث قام بيبرس باستضافة الخلافة العباسية في مصر لتصبح مصر لأول مرة في تاريخها مقر خلافة وسلطنة في وقت واحد (حقيقة كانت القاهرة مقراً للخلافة الفاطمية قبل ذلك ولكن كانت هناك خلافتان أخريان تعاصرانها وتنافسانها. هما الخلافة العباسية في بغداد والخلافة الأموية في قرطبة، أما في العصر المملوكي فلم يكن هناك في العالم الإسلامي سوى خلافة واحدة هي خلافة القاهرة).[350]

وكان بيبرس على علم أن المغول سوف ينتقمون مما حدث لهم في عين جالوت فأعد العدة لقتالهم وكان في نفس الوقت يواجه خطرًا صليبيًا من نوع آخر وظل بيبرس يقاوم كل منهما بكافة الوسائل (وكان بيبرس في دمشق وقد فرغ من أمر الصليبيين وعلم أن التتار قد أعادوا الهجوم على البيرة فتقدم نحو الشمال يقود الجيش بنفسه ثم حمل بعض السفن المفككة إلى

نهر الفرات حيث أعاد تركيبها وعبر بجنوده إللا الشاطئ الشرقي حيث انتصر على التتار الذين تقهقروا سريعًا واحتل بيبرس البيرة وحصنها وأقام بها حامية للدفاع عنها – ومنذ ذلك الحين اتجه النضال بين بيبرس وبين التتار إلى ميدان آخر إلى آسيا الصغرى)[351]، وكانت المعركة الكبرى لبيبرس ضد جيوش المغول وحلفاءهم من سلاجقة الروم في مكان اسمه "الأبلستين" في سنة 1277 م (وفيها انتصر بيبرس انتصارًا حاسمًا عظيمًا وانتقل بعد هذا النصر إلى قيسارية عاصمة الدولة ونزل بدار السلطنة وجلس على عرش سلاجقة الروم ولهذه الوقعة نتيجة هامة أخرى فقد حطمت دولة سلاجقة الروم وأتاحت الفرصة لقيام دويلات تركية أخرى في أنحاء آسيا الصغرى سيكون لبعضها شأن عظيم فيما بعد، من هذه الدويلات، دولة بني قرمان ودولة بني عثمان)[352] وبهذا كسر بيبرس شوكة التتار (ولكن بيبرس لم يقدم على مهاجمة الصليبيين إلا بعد أن اختط لنفسه خطة واضحة تدل علي ما كان يمتاز به من ذكاء خارق ومواهب سياسية فذة، كانت هذه الخطة تتلخص في عقد سلسلة من التحالفات مع كل القوى الإسلامية والمسيحية المحيطة به وبالصليبيين لتحقيق هدفين، أولهما أن يمنع هذه القوي أن ترسل أو تسمح بمرور أي مدد إلى الصليبيين ولإيقاف جيوش المغول إن فكرت في التقدم لمساعدة الصليبيين -)[353] واستمر بيبرس في حروبه ضد الصليبيين لمدة عشر سنوات كاملة[354] وكان يتزامن أحيانًا القتال مع الصليبيين مع القتال على جبهات أخرى ضد المغول وغيرهم (وقد لقي بيبرس في حملاته ضد الصليبيين مشاق ومتاعب جمة غير أنه كان المنتصر دائمًا فلم ينهزم قط في معركة من معاركهم ولم يمتنع عليه حصن من حصونهم)[355] وكانت أهم إنجازات بيبرس في قتاله ضد الصليبيين تحرير إمارة صليبية كبرى وهي إمارة

إنطاكية، (وقد كان لانتصارات بيبرس المتتالية أثرها القوي في نفوس الشعب العربي في مصر والشام فأعجب ببطولة بيبرس وأكبره وراح يتغنى بشجاعته وانتصاراته وألف أديب مصري مجهول "سيرة الظاهر بيبرس" فكانت ملحمة للبطولة وظلت قرونًا يتغنى بها الشعراء والقصاص في المقاهي ومجالس السمر ليثيروا النخوة والعزة والبطولة في نفوس الشعب)[356]

السلطان الأشرف خليل ابن قلاوون وجلاء آخر جندي صليبي من الشام:

استطاع الصليبيون تكوين أربعة إمارات صليبية في الشام وهي إمارة الرها وإمارة بيت المقدس وإمارة إنطاكية والإمارة الرابعة طرابلس ثم بدأت معارك التحرير ويقول د جمال الدين الشيال: (تهاوت الإمارات الصليبية الثلاث من قبل على أيدي أبطال الجهاد المسلمين، فسقطت إمارة الرها على يد عماد الدين زنكي، وسقطت إمارة بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي وسقطت إمارة إنطاكية على يد الظاهر بيبرس ولم تعد إلا الإمارة الرابعة وهي إمارة طرابلس التي كان يحكمها أمراء النورمان، وبقيت بعض فلول الصليبيين في مدن أخري متناثرة وهي بقايا مملكة بيت المقدس وكان مقرها مدينة عكا وحصن المرقب ويحكمه فرسان الاسبتارية وطرسوس ويحكمها فرسان الداوية)[357]، وقد استطاع السلطان قلاوون ومن بعده ابنه الأشرف خليل هزيمة الصليبيين وطردهم من الشام بالكامل لتنتهي بذلك هذه الصفحة من تاريخهم في الشام وقد استطاع قلاوون تحرير طرابلس (وخرج على رأس جيش ضخم حتى وصل إلى طرابلس فحاصرها تسعة وثلاثين يومًا، وبعد قتال عنيف سقطت طرابلس واستولي عليها قلاوون في أبريل سنة 1289م -)[358]، وكانت عكا آخر المعاقل الصليبية في الشام وأخذ قلاوون يعد

العدة لتحريرها ولكنه مات قبل أن يتم ذلك فتولى الملك الأشرف خليل بن قلاوون المسئولية ودعا للجهاد ضد الصليبيين في جميع البلاد الإسلامية (وفي القاهرة أقام السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون احتفالًا دينيًا في القبة المنصورية دعا إليه القضاة والعلماء والأعيان وحضرته طوائف الشعب، وضج المجتمعون بالدعاء إلي الله أن يكتب النصر للسلطان ثم خرج خليل بجيشه من القاهرة واجتمعت هذه الجحافل[359] من كل مكان عند أبواب عكا في ربيع سنة 1291 م - واشتد الحصار ودام ثلاثة وأربعين يومًا - وسقطت عكا في أيدي العرب بعد أن لبثت في أيدي الصليبيين مائة عام كاملة وسرعان ما تساقطت المدن الصليبية القليلة الباقية كما تتساقط أوراق الشجر - وهكذا اختتمت حلقة من حلقات الاستعمار الأوروبي وطرد من عكا آخر جندي صليبي بعد نضال طويل وكفاح مستمر مرير بدأه عماد الدين زنكي وشارك فيه جماعة من الأبطال المغاوير: نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي وبيبرس وقلاوون ثم كان التطهير علي يد الأشرف خليل بن قلاوون)[360]

السلطان الناصر محمد بن قلاوون:

تولى السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون حكم مصر ثلاث مرات متباعدة، كانت الأولى سنة 1293 م، والثانية سنة 1298م، والثالثة سنة 1309م، وقد شيد الناصر محمد مسجدًا مازال موجود حتى الآن بالقلعة، وتعتبر مئذنة جامع الناصر وقبته وكذلك جدرانه الداخلية قد غشيت جميعها ببلاطات من القيشاني الأخضر اللون، ولقد اهتم السلطان الناصر بتعمير منطقة بولاق فسكنها الأمراء والجند والكتاب والتجار والعامة، ولم يقتصر الناصر على تشييد العمائر الدينية والمباني السكنية فحسب، بل شملت حركة

البناء والتعمير إقامة مجاري المياه والقناطر والعيون، ومن أهم هذه المباني مجرى عيون فم الخليج لتوصيل مياه النيل إلى قلعة الجبل، وتعد هذه المجري من الآثار العمرانية التي تفخر بها القاهرة في العصور الوسطى، والتي لا تزال باقية حتي الآن، كما شيد الناصر المدرسة الناصرية التي تقع بشارع المعز لدين الله الكائن بحي النحاسين، كذلك شرع الناصر في تجديد المارستان الكبير المنصوري الذي أسسه السلطان قلاوون، وبنى الناصر سبيلًا ألحقه بمدرسته وقبة ألحق بها مكتبة عظيمة وشيد القصر الأبلق في قلعة الجبل، وقد ازداد تعلق شعب مصر بالناصر محمد لما أتاه من جليل الأعمال وما تكشف لشعبه فيه من جميل الخصال، ويعتبر عصر الناصر محمد بن قلاوون أزهى عصور دولة المماليك البحرية، إذ فيه توطدت دعائم هذه الدولة وبدأت أساليب الحكم والإدارة في الاستقرار، وكانت القاهرة في عصر الناصر حاضرة لإمبراطورية شاسعة بسطت نفوذها على مصر والشام وأعلى الفرات والحجاز واليمن والنوبة وبرقة وتونس وبعض الجزر بالبحر المتوسط، ويعد الناصر محمد من السلاطين الأبطال الذين خاضوا غمار الحروب وأحرزوا النصر تلو النصر، وفي سنة 1303 تقابل المغول بقيادة زعيمهم غازان عند مرج الصفر علي مقربة من حمص مع المماليك بقيادة السلطان الناصر محمد فهلك معظم جيش المغول وهُزِموا ومات كثير منهم وتعتبر هذه الواقعة من المواقع الحاسمة في التاريخ وعلى إثرها مات غازان كمدًا وقوبل الناصر حين عودته من الشام إلى مصر بأعظم الترحيب، وأقيمت له أقواس النصر في القاهرة وخرج الشعب المصري يحيي قاهر المغول، وعني الناصر محمد بموارد الدولة المالية فوسع نطاقها حتى يستطيع تنفيذ المشروعات النافعة لجميع مرافق البلاد والقيام بما تتطلبه الدولة من ضروب الإصلاح مع

إبطال العديد من الضرائب، كل ذلك أدى إلى توافر الأقوات ورخص أسعارها وسهولة الحصول عليها[361]

السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون:

يرجع سبب إدرج هذا السلطان في هذا الكتاب إلى قيامه بإنشاء جامعه أو مدرسته الموجودة حتى الآن في القاهرة تشهد بعظمة ورقي فن العمارة الإسلامية في العصر المملوكي ويعد معجزة العمارة الإسلامية في القاهرة[362]فهل هو جامع أم مدرسة؟ وعن هذا الموضوع وتحت عنوان العلم بين المسجد والمدرسة كتب الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور أستاذ تاريخ العصور الوسطى – كلية الآداب – جامعة القاهرة ما ملخصه:

يقول المقريزي ما نصه: (وفي هذا الجامع عجائب من البنيان منها المدارس الأربع التي بدور قاعة الجامع) إذًا فقد أقيمت في دور قاعة الجامع أربعة مدارس لها أربعة أواوين متقابلة بحيث تختص كل مدرسة منها بمذهب من مذاهب أهل السنة الأربعة، ومعنى هذه العبارة أن المدارس أنشئت في قاعة الجامع وليس الجامع هو الذي أقيم في ساحة المدرسة حتي غدت هذه المدارس من عجائب فن البنيان في هذا الجامع، فالجامع هو الأصل وهو الهدف وهو الأساس ولكي تعم الفائدة ويعظم الأجر والثواب أقيمت به مدارس لتعليم علوم الدين وأحكامه وشرائعه،على أنه ثمة مرة واحدة في كتابه المواعظ استخدم المقريزي فيها عبارة (مدرسة الناصر حسن بسوق الخيل[363]) ولكن هذه العبارة وردت في تعداده لأسماء المساجد التي تقام فيها الجمعة، ونص العبارة: (وقد بلغت عدة المساجد التي تقام بها الجمعة مائة وثلاثين مسجدًا منها جامع شيخو – جامع قانباي – جامع ألماس – جامع

قوصون – جامع الصالح – مدرسة السلطان حسن بسوق الخيل)، والمقريزي هنا يضع مؤسسة السلطان حسن في قائمة المساجد الجامعة وليس في قائمة المدارس وربما نعت هذه المؤسسة باسم الشهرة الذي عرفت به، ولم يكن المقريزي هو المؤرخ المعاصر الوحيد الذي أطلق على مؤسسة السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون اسم جامع وإنما هناك مؤرخ آخر عاصر الناصر حسن وعاش أيامه هو الحسن بن عمر المعروف بابن حبيب المتوفي سنة 779هـ - 1377م صاحب كتاب (تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه) ومن الواضح أن ابن حبيب ألف كتابه الضخم هذا الذي يقع في ثلاثة مجلدات مخصصًا إياه للتأريخ لأسرة قلاوون، أعني السلطان المنصور قلاوون وسلالته من الحكام حتى أيام ابن حبيب نفسه ولذا يعتبر هذا الكتاب مصدرًا أساسيًا للوقوف علي أخبار تلك الحقبة، يقول ابن حبيب ما نصه:

وفيها شرع السلطان الملك الناصر حسن أيده الله في عمارة المكان الذي أنشأه بالرميلة تحت قلعة الجبل ظاهر القاهرة المحروسة، وهو بناء مشيد محكم عظيم الشأن مرفوع القواعد، عالي الأركان، متسع الفناء يشتمل على جامع فسيح له صحن كبير فيه أربعة أواوين متقابلة، وفيه المنبر، وبه تقام الجمعة، وعلى كتفي الأيوان الشرقي بابان عظيمان يدخل منهما إلى مدرستين وعلى كتفي الأيوان الغربي مثل ذلك، وعلى كتفي الأيوان الشمالي بابان أعظم من الأربعة المشار إليهن، الأيمن منهما مجاز إلى الجامع المذكور، وبوسط هذا الجامع بركة ماء عليها قبة عظيمة، وعلى بابه سبيل.

في جامع السلطان قم يا من أتى مصرا وطف سعيًا بذياك الحرم

وانظر بناء ينجلي للناس في ثوب الشباب واطرح ذكر الهرم[364]

وقد تولى السلطان حسن حكم مصر سنة 1347م ومرة ثانية سنة 1354م (وأثناء فترة حكم السلطان حسن نُكِبت مصر بالطاعون الذي أزهق الأرواح حتي بلغ عدد الموتى في شهرين حوالي تسعمائة ألف، وقلت المزروعات لموت الفلاحين فانتشر القحط والجوع في البلاد من جديد، وفتك الطاعون بالحيوانات أيضًا فكثيرًا ما شوهدت الخيول والجمال والحمير والطيور وهي ملقاة في البراري والطرقات وساد الحزن جميع أرجاء البلاد وخلت كثير من الديار)[365]

السلطان الظاهر برقوق:

تولى السلطان المملوكي الظاهر سيف الدين برقوق حكم مصر سنة 1382م، وكان محبًا للفروسية ميالًا للعب بالرمح، ولقد ألغى السلطان برقوق الكثير من الضرائب فنشطت الحركة التجارية وهبطت أسعار السلع المستوردة، الأمر الذي شجع الكثير من التجار الأجانب وخاصة الشرقيين منهم على الإتجار مع مصر.

وقد اتسع ملك مصر في عهده، فقد خطب باسمه في أماكن لم يخطب لأحد قبله فيها من سلاطين المماليك، فخطب باسمه في مدينة تبريز وفي الموصل وفي ماردين وسنجار بجانب مصر وبرقة والشام والحجاز واليمن وضربت السكة باسمه في هذه الأماكن، وعندما توفي الظاهر برقوق دفن بالصحراء مع مجموعة من العلماء والصالحين، وكان قد أوصى أن يبني لهم مدفن وأن يلحق به مسجد وخانقاه، ولقد نفذ ابنه الناصر فرج الوصية،وتعتبر مدرسة (مسجد) وخانقاه السلطان برقوق أولى المنشآت المعمارية في دولة المماليك الجراكسة بمصر وهي ملاصقة لمدرسة الناصر محمد بن قلاوون

وتطل على شارع المعز لدين الله في (بين القصرين) أما تخطيط المدرسة فهو كبقية المدارس المملوكية، فهي تتكون من صحن مكشوف بوسطه فسقية عليها قبة مقامة على ثمانية أعمدة وتحيط بها أربعة إيوانات، ولقد استخدم الرخام لأول مرة في زخرفة الواجهة الرئيسية وزخرفة المئذنة أما مدفن السلطان برقوق فيكفي هذا الأثر فخرًا أن صورته استعملت رمزًا لأحد العملات الورقية في مصر ولقد شيد ذلك المدفن السلطان الناصر فرج بن برقوق لأبيه، واستغرق بناؤه اثنتي عشرة سنة، واستغل هذا المكان كمدفن وخانقاه للتعبد ومدرسة لتدريس المذاهب الأربعة ومسجدًا جامعًا وعلي عهد الظاهر برقوق ارتفع نجم القائد تيمورلنك ملك التتار ودارت عدة صراعات بسبب ذلك في المنطقة ولقد عاصر أيضًا جلوس السلطان الظاهر برقوق على عرش مصر مقدم الفيلسوف المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون إلى مصر حيث وصل إلى الإسكندرية من البلاد المغربية واندمج منذ وصوله إلى مصر في نسيج حياتها يدرس في الجامع الأزهر ويتولى رئاسة القضاء الحنفي وقد زار ابن خلدون العالم الشهير مصر سنة 784 هـ (نوفمبر 1382م) في عصر دولة المماليك الجراكسة (وكانت هذه أول مرة يرى فيها القاهرة، فقال: فانتقلت إلى القاهرة أول ذي القعدة فرأيت حضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الأمم ومدرج الذر من البشر وإيوان الإسلام وكرسي الملك تلوح القصور والأواوين في جوه، وتزهر الخوانق والمدارس بآفاقه وتضيء البدور والكواكب بين علمائه، ونحن لهذا العهد نري أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر، لما أن عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف السنين، فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت)[366]

السلطان الأشرف إينال:

هو السلطان الأشرف أبو النصر سيف الدين إينال العلائي الظاهري وهو السلطان الثاني عشر من دولة المماليك البرجية الشراكسة في مصر بويع بالسلطنة في يوم الاثنين 8 ربيع أول عام 857 هـ. الموافق 19 مارس 1453م وكانت فترة حكمة لمصر والدولة المملوكية حوالي 8 سنوات ويقال أن إينال كلمة تركية من مقطعين هما: "أي" ومعناها القمر، و"نال" ومعناها شعاع أي أن اسمه يعنى "شعاع القمر" وكان قد تولّى عدة مناصب قبل السلطنة منها رأس نوبة ثاني ونائب غزة ونائب الرها في زمن السلطان برسباي عام 836 هـ ثم حضر إلى القاهرة وأصبح مقدم ألف ثم أصبح نائب صفد عام 840 هـ ثم عينه السلطان جقمق أتابكا عام 849 هـ. وكان السلطان إينال ملكا هينا لينا قليل الأذى لم يسفك دمًا قط بغير وجه شرعي، ينقاد للشريعة الغراء ويحب العلماء ويُعتبر من خيار ملوك الشراكسة. وكانت الدولة العثمانية في ذلك الوقت تربطها علاقات طيبة مع دولة المماليك وظلت هذه الدولة القوية تحاول فتح القسطنطينية حتي تم لها ذلك في عهد السلطان العثماني محمد الثاني الذي أطلقوا عليه بعد ذلك اسم محمد الفاتح وكان ذلك في عهد السلطان المملوكي الأشرف إينال الذي وصلته رسالة من السلطان العثماني محمد الفاتح يخبره فيها بفتح القسطنطينية وهذا بعض ما جاء في رسالة محمد الفاتح إلى الأشرف إينال: (إن من أحسن سنن أسلافنا رحمهم الله تعالي أنهم مجاهدون في سبيل الله، ولا يخافون لومة لائم، ونحن علي تلك السنة قائمون وعلى تلك الأمنية دائمون ممتثلين بقوله تعالى ﴿قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّه﴾ 29 سورة التوبة، ومستمسكين بقوله عليه الصلاة والسلام " من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار " فهممنا في هذا العام غممه الله بالبركة والإنعام معتصمين بحبل الله ذي الجلال والإكرام

ومتمسكين بفضل الملك العلام إلى أداء فرض الغزو في الإسلام مؤتمرين بأمره تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ 123 سورة التوبة، وجهزنا عساكر الغزاة والمجاهدين من البر والبحر لفتح مدينة ملئت فجورًا وكفرًا التي بقيت وسط الممالك الإسلامية تباهي بكفرها فخرًا، فمتي طلع الصبح الصادق من يوم الثلاثاء يوم العشرين من جمادى الأولى هجمنا مثل النجوم رجومًا لجنود الشياطين سخرها الحكم الصديقي ببركة العدل الفاروقي بالضرب الحيدرى لآل عثمان من الله بالفتح قبل أن تظهر الشمس من مشرقها ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ 45 46 سورة القمر[367] وبالطبع فرح المسلمون في مصر وفي جميع أنحاء الأمة الإسلامية فرحًا عظيمًا بهذا الفتح كما سعد الخليفة العباسي بذلك سعادة بالغة فكم ناصبت الدولة البيزنطية العداء للأمة الإسلامية وأذاقتها من شرورها.

وقام السلطان إينال بالرد على رسالة السلطان محمد الفاتح برسالة يهنئه فيها بالفتح العظيم وجاء فيها بعض أبيات من الشعر الذي نظمه الشعراء في مصر بهذه المناسبة كان منها:

كذا فليكن في الله جل العزايم

وإلا فلا تجفوا الجفون الصوارم

كتائبك البحـر الخضم جيادها

إذا ما تهدت موجه المتــلاطم

يا ناصر الإسلام يا من بغزوه

على الكفر أيام الزمان المواسم[368]

وكان فتح القسطنطينية في 20 جمادى الأول سنة 857 هجريًا (29 مايو 1453 ميلاديًا) ومنذ هذا التاريخ لم يعد هناك وجود لما يسمى بالدولة البيزنطية[369]

السلطان الأشرف قايتباي:

تولى السلطان الأشرف قايتباي حكم مصر سنة 1468 م وكان من ألمع سلاطين المماليك الذين حكموا مصر، وفي عهده وصل إلى القاهرة الأمير (جم) العثماني أخو السلطان العثماني بايزيد، لخلاف وقع بين الأخوين فرحب به قايتباي وأحاطه بعناية كبيرة، فكانت هذه الحركة سببًا لإفساد العلاقات بين مصر المملوكية والدولة العثمانية، فلم يغفر السلطان بايزيد للسلطان قايتباي إيواء الأمير جم، ووقعت أول معركة بين الجانبين سنة 1484 م وقد انتصر فيها الأمراء المماليك، وقد وقعت معركة أخرى سنة 1486 م حيث التقى جيش مصري ضخم تحت قيادة الأمير يزبك أتابك العسكر المصري مع جيش عثماني في أقصى الشمال فهزم الجيش العثماني هزيمة ساحقة، حتى قيل إن عدة من قتل من العثمانيين يربو على أربعين ألفًا وقبض علي قائد الجيش العثماني أحمد هرسك واستولى على الأعلام العثمانية، واهتزت القاهرة لهذا النصر الكبير وأقيمت الزينات وسارت المواكب التي استعرضت فيها الأعلام العثمانية وقد وقعت مواجهة أخرى بين الجانبين سنة 1487 م اشترك فيها الأسطول العثماني وكان النصر أيضًا حليف الجيش المصري، ومن جديد ارتجت القاهرة لهذا النصر الجديد وأقيمت فيها الاحتفالات واستقر

الرأى بعد مفاوضات متواصلة بين السلطان قايتباي المملوكي والسلطان بايزيد العثماني على عقد صلح بين الملكين على أساس أن يرسل بايزيد مفاتيح القلاع التي استولي عليها إلى مصر إشارة إلي ردها إلى ملكية مصر،على أن يطلق قايتباي من عنده من الأسرى العثمانيين، وتبادل السلطانان الهدايا والمجاملات الودية وهكذا فتحت صفحة جديدة من الود بين الدولتين سنة 1492م والجدير بالذكر أن العلاقات ساءت بين الدولتين مرة أخري وبلغت ذروتها في عهد كل من السلطان المملوكي الأشرف قنصوة الغوري والسلطان العثماني سليم الأول.

وتعتبر قلعة قايتباي في الإسكندرية من أهم المنشآت المعمارية للملك الأشرف قايتباي، وتم بناء هذه القلعة علي أساس منارة الإسكندرية القديمة، وقد أنشأها سنة 1479 م واشتملت على مسجد بقيت منارته إلى ما بعد الاحتلال الفرنسي لمصر وتأثر بضرب الإسكندرية سنة 1882 أسوأ الأثر، وكانت أحداث ضرب الإسكندرية قد تسببت في تخريب هذه القلعة وهدم أبراجها وقسم كبير من واجهاتها وبقيت متخربة إلى أن عنيت إدارة حفظ الآثار العربية بإصلاحها، وقد أصلحت أبراجها وما يعلوها من أبنية بعد إعادتها لحالتها الأصلية وهي تبدو لزائر الإسكندرية من كل جهة والسلطان قايتباي هو السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباي الجركسي وهو من عصر دولة المماليك البرجية، ولد في سنة 1423 م، وبويع بالسلطنة سنة 1468 م، وقد ظل ملكًا لمصر نحو 29 سنة، وأقام كثيرًا من المنشآت المعمارية من مساجد ومدارس ووكالات ومنازل وأسبلة وقناطر للمياه، كما عني بالعمارة الحربية وبالحصون فأنشأ قلعة الإسكندرية وأخري برشيد، وقد توفي في سنة 1496 م وينسب إليه ما يزيد عن سبعين أثرًا إسلاميًا ما بين إنشاء وتجديد، وتعتبر

مجموعة قايتباي بالقرافة الشرقية من أبدع وأجمل المجموعات المعمارية في مصر الإسلامية، وترجع أهميتها إلى جمال تنسيق المجموعة مع بعضها، وهي تتكون من مدرسة ومسجد وسبيل وكتاب وضريح ومئذنة، وقد لعبت دقة الصناعة وكذا جمال النسب دورًا هامًا في إبراز جمال هذا الأثر المعماري القيم.

وقد قام المؤرخ ابن إياس الحنفي بوصف عودة السلطان الأشرف قايتباي من رحلة الحج[370] كما ورد بكتابه بدائع الزهور في وقائع الدهور فكتب ما يلي: وفيه قدم مبشر الحاج وهو شخص من الخاصكية يقال له اسنباي وقد استمر اسمه بالمبشر بعد ذلك فأخبر بسلامة السلطان وأنه دخل إلى مكة في موكب حافل وكان له يوم مشهود، ولقاه أمير مكة من مسيرة يومين،، وأنه تصدق على فقراء بمكة بخمسة آلاف دينار، وتواضع تواضعًا وخضوعًا إلى الغاية، وكان بطول الطريق لا يتكلم في شيء يتعلق بالأحكام بين الناس وفعل في الطرقات أشياء كثيرة من وجوه البر والمعروف فحصل لاسنباي المبشر جملة خلع، ومالا له صورة، من الأمراء وأعيان الناس، ومن خوند زوجة السلطان وغير ذلك من أرباب الدولة، وفيه جهز الأتابكي أزبك ويشبك الدوادار وجماعة من الأمراء إقامات لملاقاة السلطان من العقبة، وخرج الأمير أزبك اليوسفي أحد الأمراء المقدمين صحبة ذلك، وخرج معه جماعة كثيرة من أرباب الدولة لملاقاة السلطان من العقبة، واهتم الأمير يشبك الدوادار ببياض أماكن بالقلعة ودهان أبوابها وضرب الرنوك عليها وجلا واجهة القصر الأبلق وما يليه حتى ظهر رخامه الملون وقد احتفل في إصلاح ذلك جدًا..

سنة خمس وثمانين وثمانمائة (1480م):فيها، في المحرم بعث السلطان نجابا إلى الأمراء وأخبر النجاب بأن السلطان دخل إلى المدينة الشريفة، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، وزار النبي صلى الله عليه وسلم وأنعم على الفقراء الذين بها بخمسة آلاف دينار، وأنه رحل نحو الينبع قاصدًا للعقبة، ثم رحل عنها وهو واصل عن قريب، ثم رسم لهم بألا يخرج لملاقاته أحد من الأمراء، وأن السلطان ينزل بقبة الأمير يشبك التي بالمطرية فبادر الأمراء بالخروج إلى هناك ونصبوا الخيام، ثم جاءت الأخبار بأن السلطان قد وصل إلي البويب فلما تحقق الأمراء ذلك ركب الأتابكي أزبك والأمير يشبك الدوادار وبقية الأمراء من المطرية وتوجهوا إلى ملاقاة السلطان، فلما وصلوا إلى البويب اجتمعوا بالسلطان هناك وساروا قدامه حتى وصل إلى الوطاق الذي بالمطرية، وكان له هناك موكب حافل، وكان دخوله في الثاني عشر المحرم قبل دخول الحاج بثمانية أيام، فلما نزل بقبة الأمير يشبك مد له الأمير أزبك الأتابكي هناك مدة حافلة جدًا وبات السلطان هناك وبات عنده قضاة القضاة ومشايخ العلم وهنؤوه بقدومه.

فلما كان يوم الاثنين الرابع عشر ركب السلطان من هناك وحمل الأتابكي أزبك على رأسه القبة والطير، وركب قدامه الأمراء والعسكر وهم موكبون كالأعياد، وسارت الأمراء والقضاة الأربعة قدامه، فدخل من باب النصر، وشق من القاهرة، وقد زينت له زينة حافلة، واستمر في هذا الموكب العظيم، وطلب طلبًا حافلًا ولعب قدامه بالغواشي الذهب وكان له يوم مشهود إلى أن طلع إلى القلعة، فلما طلع فرشت له خوند عدة شقق من باب القلعة إلى الحوش، ونثرت على رأسه خفائف الذهب والفضة وتوشحت الخدام بالبنود الذهب والحرير الأصفر، وتخلقت بالزعفران، فلما دخل السلطان إلى

الحوش، مد له هناك الأمير يشبك مدة حافلة أعظم من مدة الأتابكي أزبك التي مدها له بالقبة، ثم أن السلطان خلع على من كان معه من أرباب الوظائف ونزلوا إلى بيوتهم وانفض ذلك الموكب، وعدت هذه الحجة من النوادر الغريبة، ودخل عليه جملة تقادم من مال وتحف تعدل مائتي ألف دينار من أمير مكة وقضاتها، ومن أمير الينبع وغير ذلك، وقد نظم الشعراء في هذه الواقعة عدة قصائد، فمن ذلك:

قدم السرور بمقدم السلطان

من حجه المقبول بالرضوان

سلطاننا الملك الهمام الأشرف

الراقي سماء الحسن والاحسان

فهناؤنا ببقائه، في نعمة

وسلامة فرض علي الأعيان

لما نوي حجا ولبي محرمًا

عم الأمان مراتع الغزلان

والوحش في أبياتها والدوح في

أنباتها والطير في الطيران

ثم الصلاة علي النبي المصطفي

عدد الرمال بجملة الكثبان

فلما استقر السلطان بالقلعة، أخذ في أسباب تفرقة الهدية على الأمراء، فابتدأ بالأتابكي أزبك ثم بقية الأمراء كل من هو في منزلته، ثم المباشرين وأرباب الدولة، وكان الأمراء والمباشرون قدموا للسلطان أيضًا تقادم حافلة، ما بين مال وخيول وقماش وغير ذلك

ومن المواقف التاريخية المؤثرة التي حدثت في ذلك العصر محاولة إنقاذ الأندلس بواسطة الدولة المملوكية وقد وردت هذه المحاولة في كتاب مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية تأليف محمد عبد الله عنان حيث كتب ما يلي: قلما نجد في صحف مصر الإسلامية ما يثير من التأثر والشجن، قدر ما تثيره هذه المحاولة النبيلة التي بذلتها مصر لتنقذ دولة الإسلام في الأندلس، ولقد كانت أيضًا آخر محاولة بذلتها مصر المستقلة في ميدان الدبلوماسية الإسلامية، في سنة 1489 كانت جيوش أسبانيا النصرانية – أو جيوش قشتالة وأراجون – تتقدم في قلب مملكة غرناطة آخر معقل لأسبانيا المسلمة وكانت دولة الإسلام في الأندلس قد أخذت منذ أوائل القرن السابع الهجري تنحدر بسرعة إلي هاوية الإنحلال والفناء، ثم حل الصراع الأخير، واتحدت قشتالة وأراجون على يدى فرناندو وإيسابيلا، واعتزمت أسبانيا النصرانية أن تقوم بضربتها الحاسمة للإسلام في الأندلس، فتقدمت الجيوش المتحدة على مملكة غرناطة، وكانت أحوال غرناطة يومئذ تنذر بالويل، وكان الخلاف الداخلي قد دب إليها ومزقتها المنافسات والمعارك الأهلية، وشطرتها إلى شطرين يتربص كل منهما بالآخر، أحدهما غرناطة وبعض أعمالها ويحكمها أبو

عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزغل، وكان فرناندو وإيسابيلا قد شهرًا الحرب علي الإسلام قبل ذلك بأعوام، وكانت أنباء الأندلس قد ذاعت يومئذ في العالم الإسلامي، واهتز لمصابها أمراء الإسلام قاطبة، وكان أمراء الأندلس وزعماءها يتجهون إزاء الخطر الداهم بأبصارهم إلى دول الإسلام في إفريقية ومصر وتركيا لتسعى إلى غوثهم، وكانت سفاراتهم ورسائلهم تترى منذ أعوام على فاس والقاهرة وقسطنطينية، وكان سلطان مصر يومئذ الملك الأشرف قايتباي المحمودي الظاهري، ولم تكن أحوال مصر على ما يرام يومئذ، فقد كان يسودها الانحلال الداخلي، وكانت فوق ذلك تخشي الخطر يهددها من ناحية الترك، ولكن مصر لم تنس مهمتها التاريخية في توجيه الدبلوماسية الإسلامية كلما دعيت إلى أدائها، ووصلت سفارة الأندلس إلى مصر في أواخر سنة 892ه (نوفمبر سنة1487م)، ويصف ابن إياس هذه السفارة فيما يأتي:

وفي ذي القعدة سنة 892ه جاء قاصد من عند ملك الغرب صاحب الأندلس، وعلى يده مكاتبه من مرسله تتضمن أن السلطان يرسل له تجريدة تعينه علي قتال الفرنج، فإنهم أشرفوا علي أخذ غرناطة وهو في المحاصرة معهم ومهما يكن من موقف مصر وتركيا يومئذ إزاء حوادث الأندلس فإن مصر هي التي انفردت بتلبية نداء الأندلس، والسعي إلى إنقاذها ولم تكن أحوال مصر يومئذ مما يسمح لها بإرسال جيش أو غيره من المساعدات المادية، إلى ميدان حرب ناء كالأندلس، ذلك أن سلطان مصر الأشرف، أجاب على سفارة الأندلس بتوجيه سفارة مصرية إلى البابا وملوك النصرانية، ولكنه لم يعهد بها إلى سفراء مسلمين، وإنما عهد بها سفراء من رعاياه النصاري، واختار لأدائها راهبين من جماعة القديس فرنسيس أحدهما القس انطونيو ميلان وعهد

إليهما بكتب إلي البابا وإلى ملك نابولي، وإلى فرناندو وإيسابيلا ملكي قشتالة وأراجون.

وفي هذه الكتب يعاتب سلطان مصر ملوك النصاري، على ما ينزل بأبناء دينه المسلمين في مملكة غرناطة، وعلى توالي الاعتداء عليهم، وغزو أراضيهم وسفك دمائهم، ونهب أملاكهم، في حين أن رعاياه النصارى في مصر وفي بيت المقدس، وهم ملايين، يتمتعون بجميع الحريات والحمايات، آمنين على أنفسهم وعقائدهم وأملاكهم، ولهذا فهو يطلب إلى ملكي قشتالة وأراجون، الكف عن هذا الاعتداء، والرحيل عن أراضي المسلمين، وعدم التعرض إليهم، ورد ما أخذ من أراضيهم، ويطلب إلى البابا وملك نابلي أن يتدخلا لدي ملكي قشتالة وأراجون، لردهما عما يدبرانه من المشاريع لإيذاء المسلمين والبطش بهم.

هذا وإلا فإن سلطان مصر يضطر إزاء هذا العدوان، أن يتبع نحو رعاياه النصارى سياسة التنكيل والقصاص، ويبطش بكبار الأحبار في بيت المقدس، ويمنع دخول النصارى كافة إلى الأراضي المقدسة[371].

السلطان الأشرف قنصوة الغوري:

تولى السلطان الأشرف قنصوة الغوري حكم مصر سنة 1501موكان يحكم مصر والشام والحجاز كمن سبقوه من سلاطين المماليك وكان يلقب بملك البرين والبحرين وخادم الحرمين الشريفين، وكانت مصر في ذلك العهد تسيطر على حركة التجارة العالمية إلا أنها قد تأثرت إلى حد ما باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، وكانت القاهرة من أرقى عواصم العالم فنًا

وحضارة وعلمًا وعمارة، وقد كتب المؤرخ الكبير ابن اياس الحنفي عن السلطان الأشرف قنصوة الغوري ما يلي:وأما ما أنشأ من العمائر التي بالقاهرة فمن ذلك الجامع والمدرسة اللتان أنشأهما في الشرابشيين والوكالة والحواصل والربوع التي أنشأها خلف المدرسة عند المصبغة والمئذنة التي أنشأها في الجامع الأزهر وهي برأسين، وأنشأ هناك الربع والحوانيت التي بالسوق خلف الجامع، وأنشأ الربوع التي بخان الخليلي، وجدد عمارة خان الخليلي وأنشأ به الحواصل والدكاكين، وأنشأ الميدان الذي تحت القلعة ونقل إليه الأشجار من البلاد الشامية، وأجري إليه ماء النيل من سواقي نقالة، وأنشأ به المناظر والبحرة وأنشأ جامعا خلف الميدان عند حوش العرب بخطبة ومأذنة، وجدد عمارة قاعات القلعة منها قاعة البيسرية وقاعة العواميد وقاعة البحرة وأنشأ المقعد القبطي الذي بالحوش، وجدد عمارة سبيل المؤمني وجعل سقفه عقود بالحجر، وأنشأ الربع والدكاكين التي بسويقة عبد المنعم، وأنشأ الربع والوكالة التي في الجسر الأعظم، وجدد عمارة ميدان المهارة الذي بالقرب من قناطر السباع وبناه بالفص الحجر المشهر بعدما كان مبنيًا بالطوب اللبن، وجدد عمارة المقياس وأنشأ به القصر علي تلك البسطة التي كانت بها، وأنشأ بها المقعد المطل علي البحر، وجدد عمارة قاعة المقياس، والجامع الذي هناك، وجدد عمارة قنطرة بني وائل، والقنطرة الجديدة، وقنطرة الحاجب، وأنشأ بثغر رشيد سورًا وأبراجًا لحفظ الثغر وجدد عمارة أبراج الإسكندرية،وأصلح طريق العقبة وأنشأ هناك خانا بأبراج علي بابه وجعل فيه الحواصل مثل الخان الذي في العقبة، وحفر هناك الآبار في عدة مواضع من مناهل الحجاج، وأنشأ بمكة المشرفة مدرسة ورباطًا للمجاورين والمنقطعين هناك وأجري عين بازان بعد ما كانت قد

انقطعت من سنين، وأنشأ بجدة سورًا على ساحل البحر الملح وفيه عدة أبراج بسبب حفظ بندر جدة من الفرنج جاء هذا السور من أحسن المباني هناك، وأنشأ على شاطئ البحر الملح بالينبع الصغير سورًا وأبراجًا منيعة وله غير ذلك من الآثار الحسنة عدة مبان بها نفع للمسلمين، وفي الجملة إن السلطان الغوري كان خيار ملوك المماليك الجراكسة علي عوج فيه ولم يجيء من بعده أحد من الملوك يشابهه في أفعاله ولا علو همته ولا عزمه في الأمور وكان كفئًا تامًا للسلطنة، مبجلًا في المواكب تملأ منه العيون[372]

والجدير بالذكر أن في ذلك العصر قد حدث صراع مرير بين الدولة المملوكية والبرتغاليين لتأمين التجارة في البحر الأحمر وقد (بدأ هذا الصراع منذ وصول البرتغاليين إلى البحار الشرقية حيث عمل كل طرف على الاستيلاء وأسر سفن تجار الطرف الآخر بل عمل كل فريق علي العبث وإتلاف وافساد ثروات الفريق الآخر، وعادت هذه الأعمال العدائية من جانب الطرفين بالخسارة الشديدة على موانئ البحر الأحمر وبخاصة موانئ عدن ومخا وجدة كما تذكر المصادر المعاصرة وكثرت الإشاعات بفساد الإفرنج وتعبثهم على التجار وقد جابوا حول بندر جدة وقد قامت سياسة البرتغاليين في حقيقة الأمر منذ تلك الفترة علي أساس القضاء على كل نفوذ تجاري للتجار العرب في -البحار- الشرقية، ومن هنا كانت مطاردتهم للسفن العربية وإغراقها والعمل علي طرد العرب من المراكز التجارية الهندية والإفريقية منذ وصول فاسكو داجاما إلى هذه البحار حيث قام أثناء رحلته الثانية سنة 1502 بإرسال حملة مكونة من خمس سفن حربية للإقامة الدائمة عند مدخل البحر الأحمر والعمل على مهاجمة السفن العربية ومنعها من مزاولة النشاط التجاري في مياه المحيط الهندي إلا بتصريح من البرتغاليين وفعلًا تمكن قائد هذه الحملة

البرتغالية من القيام ببعض الأعمال العدائية ضد السفن التجارية العربية كما تمكن من أسر بعض البحارة العرب.

وقد ازدادت حدة الحصار البرتغالي شدة حينما وصل إلي المياه الشرقية البوكيرك سنة 1506 الذي شدد من فرض الحصار البحري المفروض على البحار العربية ومداخلها مما أضر ضررًا فادحًا باقتصاد كل من مصر واليمن والبندقية التي كانت تسعى جادة في تلك الآونة على مقاومة الخطر البرتغالي عن طريق حث السلطان الغوري على النهوض لمقاومة هذا العدو المشترك، ورغم سوء الظروف الداخلية التي كانت تحيط بالسلطان الغوري فإن خطته قائمة آنذاك على تقوية نفوذه في أقاليم البحر الأحمر وتحصين سواحله إدراكًا منه لأهمية هذا البحر الإقتصادية والاستراتيجية بالنسبة لأملاكه في مصر والحجاز ولذا فإنه أرسل في 6 جمادي الآخرة سنة 911هـ - 4نوفمبر سنة 1505م حملة بحرية تحت قيادة حسين الكردي من ميناء السويس ووجهتها الهند على أن تعمل في نفس الوقت على تحصين ميناء جدة استعدادًا لمواجهة أي خطر برتغالي في المستقبل لمهاجمة الأماكن المقدسة، ولذا فإن الحملة زودت بالفنيين اللازمين للقيام بهذه التحصينات، وقد أقام هؤلاء الفنيون فعلًا بعض الاستحكامات في هذا الميناء ثم اتجهت الحملة إلى موانئ اليمن الواقعة علي البحر الأحمر مثل قمر بجيزان وجزيرة كمران ثم اتجهت إلي مخا فعدن حيث ذكر الأمير حسين الكردي قائد الحملة لحاكم عدن الطاهري أن الحملة تستهدف الذهاب إلى الهند لمحاربة البرتغاليين فأمده حاكم عدن بما يشاء من طعام ومؤن ومع أن الحملة تمكنت حينما وصلت إلى "ديو" من التحالف مع بعض الإمارات الهندية وإحراز انتصارات جزئية على القوى البرتغالية إلا أن الهزيمة حلت بها في النهاية ولم

تحقق الهدف المرجو منها ومنذ تلك الآونة ازداد اقتراب الخطر البرتغالي إلى مداخل البحر الأحمر)[373]، ولم تستمر الدولة المملوكية لاستكمال هذا الصراع ولكن حلت محلها الدولة العثمانية وتولت مسئولية العالم الإسلامي وانتهت فترة حكم السلطان الغوري بل انتهت حياته كلها في معركة مرج دابق وإليك وصف المؤرخ ابن إياس الحنفي لمعركة مرج دابق التي وقعت في 24أغسطس سنة1516م في شمال سوريا بين المماليك بقيادة السلطان الأشرف قنصوة الغوري والعثمانيين بقيادة السلطان سليم الأول: (في يوم الخميس الرابع عشر ورد على السلطان مطالعة[374] من عند سيباي نائب الشام وقد بلغه حركة سفر السلطان من مصر إلى البلاد الشامية فأرسل يقول له: يا مولانا السلطان إن البلاد الشامية مغلية والعليق والتبن ما يوجد والزرع في الأرض لم يحصد ولا ثم عدو متحرك فلا يتعب السلطان سره ولا يسافر وإن كان ثم عدو متحرك فنحن له كفاية، فلم يلتفت السلطان إلى كلامه واستمر باقيًا علي حركة السفر إلى حلب)[375]، (وفي يوم الأربعاء ويوم الخميس أنفق السلطان على المماليك بقية النفقة، وفي يوم السبت ثالث عشرينه أكمل السلطان النفقة على المماليك قاطبة من قرانصة وجلبان ونادي لهم في الحوش أن السفر أول الشهر فاضطرب أحوال المماليك وارتجت القاهرة وعز وجود الخيل والبغال، وصارت المماليك يهجمون الطواحين ويأخذون منها الخيول والبغال والأكاديش، فغلقت الطواحين قاطبة وامتنع الخبز من الأسواق وكذلك الدقيق ووقع القحط بين الناس وضج العوام وكثر الدعاء على السلطان)[376]

(وفي يوم السبت السادس عشر شعبان 922 هـ أشيعت هذه الكاينة العظيمة التي طمت وعمت وزلزلت لها الأقطار، فلما خرج السلطان من حلب توجه

إلى حيلان فبات بها فلما أصبح يوم الأربعاء الحادي والعشرين رجب رحل السلطان من حيلان وتوجه إلى مرج دابق فأقام به إلى يوم الأحد خامس عشرين رجب وهو يوم نحس مستمر فما يشعر إلا وقد دهمته عساكر سليم شاه بن عثمان، فقيل أول من برز للقتال الأتابكي سودون العجمي وملك الأمراء سيباي نائب الشام والمماليك القرانصة دون المماليك الجلبان، فقاتلوا قتالًا شديدًا هم وجماعة من النواب فهزموا العثمانيين وكسروهم كسرة مهولة وأخذوا منهم سبعة صناجق - فهم ابن عثمان بالهروب أو يطلب الأمان وكانت النصرة للمماليك أولًا وياليت لو تم ذلك، ثم بلغ المماليك القرانصة أن السلطان قال لمماليكه الجلبان لا تقاتلوا شي وخلوا المماليك القرانصة تقاتل وحدهم فلما بلغهم ذلك ثنوا عزمهم عن القتال، فبينما هم علي ذلك وإذا بالأتابكي سودون العجمي قد قتل في المعركة وقتل ملك الأمراء سيباي[377] بك نائب الشام فانهزم من في الميمنة من المماليك ثم إن خاير بك نائب حلب انهزم وهرب فكسر الميسرة، ويقال إن خاير بك كان موالسًا على السلطان في الباطن وهو مع ابن عثمان على السلطان وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد فكان أول من هرب هو قبل المماليك قاطبة وكان ذلك خذلانًا من الله تعالى للمماليك حتى نفذ القضاء والقدر، وانعقد بين العسكرين غبارًا حتى صار لا يري بعضهم بعضًا وكان نهار غضب من الله تعالى قد انصب على المماليك وغلت أيديهم عن القتال)[378] (وقد أقامت هذه الوقعة من طلوع الشمس إلى بعد الظهر وانتهى الحال على أمر قدره الله تعالي فقتل في تلك الساعة من العثمانيين ومن المماليك ما لا يحصى عدده)[379] ومات الغوري في المعركة من شدة القهر بعد أن طلب من المماليك القتال وقال لهم (هذا وقت المروءة هذا وقت النجدة فأخذ يستغيث

فلم يسمع له أحد، ويروي أن الغوري عندما رأى جيشه يفر من أمام عينيه وتحقق من الهزيمة أصيب بالشلل وطلب جرعة من الماء فجاءوا له بها ولكنه لم يتمالك نفسه وهوى من فوق صهوة فرسه ميتًا وداسته الخيل)[380] والغريب أنه لم يعثر له على جثة بعد المعركة، واستمر سليم الأول يزحف بجيشه نحو مصر ويضم إليه كل ما يقابله من بلاد، وعندما تأكدت وفاة السلطان الغوري طلب الأمراء المماليك من الأمير طومان باي أن يتولى السلطنة.

السلطان الأشرف طومان باي:

تولى السلطان الأشرف طومان باي حكم مصر سنة 1516م بعد مقتل السلطان الغوري وقد أجمع معظم المؤرخون أنه كان سلطانًا عالي الهمة وقليل الأذى للرعية، وقد كان السلطان الغوري قد عينه نائبًا له في مصر قبل أن يتجه إلى لقاء العثمانيين في مرج دابق بشمال سوريا، وعندما تأكدت وفاة الغوري خلال المعركة طلب الأمراء في مصر من طومان باي أن يتولى السلطنة، (ولقد تمنع طومان باي عن قبول السلطنة مدة خمسين يومًا إلا أنه قبلها بعد ذلك تحت ضغط)[381]، (وحين تولى طومان باي السلطنة كانت البلاد في أقصى درجات التدهور والدولة المملوكية في آخر رمق، نتيجة لعوامل متعددة، إذ قد استشرى الفساد في كيان الدولة المملوكية وكأنها حتمية النهاية، ولم يعد هناك أي أمل في استنقاذها)[382]

وبالرغم من كل هذه المعوقات حاول طومان باي أن يستعد للحرب الحتمية (بينما رفض أن يأخذ أموال الناس قهرًا أو من أي سبيل حتى لا تحدث في أيامه مظلمة أبدًا)[383]

وكتب ابن إياس (فلما كان يوم الخميس تاسع عشرين ذي الحجة فيه وقعت كاينة عظيمة تذهل عند سماعها عقول أولي الألباب وتضل لهولها الآراء عن الصواب)[384]، (زحف عسكر ابن عثمان ووصل أوائله إلى الجبل الأحمر فلما بلغ السلطان طومان باي ذلك زعق النفير في الوطاق ونادى السلطان للعسكر بالخروج إلى قتال عسكر ابن عثمان،فركبت الأمراء المقدمون ودقوا الطبول حربيًا وركب العسكر قاطبة حتي سد الفضاء وأقبل عسكر ابن عثمان كالجراد المنتشر وهم السواد الأعظم فتلاقى الجيشان في أوائل الريدانية فكان بين الفريقين وقعة مهولة يطول شرحها أعظم من الوقعة التي كانت في مرج دابق،حتى انكسر عسكر مصر وولى مدبرًا، فثبت بعد الكسرة السلطان طومان باي وهو يقاتل بنفسه في نفر قليل من الرماة والمماليك السلحدارية)[385]، وانتهت معركة الريدانية بهزيمة ساحقة للمماليك ودخل سليم الأول مصر منتصرًا.

وكتب ابن إياس (فاستمر السلطان طومان باي يقع مع عسكر ابن عثمان ويقتل منهم في كل يوم ما لا يحصى عددهم، فرأى عين الغلب وقد تكاسل العسكر عن القتال واختفوا في بيوتهم وتفرقت الأمراء واستمر السلطان يقاتل وحده بمفرده في نفر قليل،وكان قليل الحظ غير مسعود الحركات في أفعاله فكان كما يقال:)[386]

قليل الحظ ليس له دواء

ولو كان المسيح له طبيب

(وكان السلطان، كلما رام أن ينتصر على ابن عثمان ينعكس فكان كما يقال في المعني)[387]

إذا لم يكن عون من الله للفتي

فأول ما يجني عليه اجتهاده

فكان من الطبيعي أن يختفي السلطان طومان باي بعد أن تفرق المماليك من حوله وبدا له مما لا يدع مجالًا للشك مدي تكاسلهم عن القتال فذهب طومان باي إلى بعض من يثق به من معارفه ولكن للأسف تم العثور عليه ولم يصدق الناس خبر القبض علي السلطان طومان باي فأمر السلطان سليم الأول بشنقه على باب زويلة حيث اعتاد الحكام شنق القتلة وقاطعي الطرق.

(فلما شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة وكثر عليه الحزن والأسف فإنه كان شابًا حسن الشكل سنه نحو أربع وأربعين سنة وكان شجاعًا بطلًا تصدى لقتال ابن عثمان وثبت وقت الحرب وحده بنفسه، وكان ملكًا حليمًا قليل الأذى كثير الخير وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ثلاثة أشهر وأربعة عشر يومًا، وكان في هذه المدة في غاية التعب والنكد وقاسي شدائد ومحنًا وحروبًا وشرورًا وهجاجًا من البلدان وآخر الأمر شنق علي باب زويلة وأقام ثلاثة أيام وهو معلق علي الباب حتى جافت رائحته،وفي اليوم الثالث أنزلوه فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه ومضت أخباره كأن لم يكن)[388]

ويري الكاتب الساخر الكبير محمود السعدني أن (التي تدلت من الحبل لم تكن جثة طومان باي ولكنها كانت في الحقيقة جثة مصر، ولقد ماتت قرونًا طويلة قبل أن يكتب لها البعث من جديد وجاء السلطان العثمانلي ودخلت مصر في سرداب التاريخ وتحولت من سلطنة إلى ولاية وخيم عليها الظلام وأصابها الضمور وإذا كان السلطان العثمانلي قد قطع رأس سلطان المماليك فقد أبقى على المماليك أنفسهم، ولم يلبث هؤلاء أن تزيوا بزي العثمانلي ورطنوا بلسانه واشتغلوا تحت رايته)[389]

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع عشر

أبرز القادة عندما كانت مصر ولاية عثمانية

يمكن تقسيم تاريخ الدولة العثمانية كمعظم الدول إلى عصرين رئيسيين، عصر ازدهار وتقدم وحضارة وقوة وعصر اضمحلال وتخلف وجمود وضعف، وقد بدأ هذا التحول تقريبًا بين العصر الأول والعصر الثاني بعد عهد السلطان سليمان القانوني[390] أي بعد فترة قصيرة من ضم مصر للدولة العثمانية، وإذا تأملنا معًا العصر الأول والعصر الثاني وعلاقته بمصر سنجد أن مصر إلى حد كبير لم تنعم بعصر ازدهار العثمانيين بل كان انضمامها إليهم مع بداية عصر اضمحلالهم تقريبًا، وبعبارة أخرى لم تذق مصر حلاوة العثمانيين ولكنها تجرعت مرارتهم وهذا يفسر سر كراهية العديد من المصريين حاليًا لفترة الحكم العثماني لمصر ويحكم على الدولة العثمانية بالكامل من خلال عصرها الثاني فقط، فلم تكن مصر تحت الحكم العثماني أيام السلاطين الأوائل العثمانيين من أمثال عثمان الأول مؤسس الدولة وأورخان ومراد الأول وبايزيد الأول ومحمد جلبي ومراد الثاني ومحمد الفاتح فقد كان هؤلاء السلاطين معاصرين لفترة تواجد الخلافة العباسية في مصر في ظل السلطنة المملوكية القوية المزدهرة في ذلك الوقت بمعني أن سلاطين بني عثمان وسلاطين المماليك كانوا يجاهدون في سبيل الله ولكن مع اختلاف أماكن القتال فقد كان العثمانيون يجاهدون في الغرب الأوروبي بينما كان المماليك يواجهون الخطر المغولي والصليبي في الشرق وكانت بين الدولتين علاقات حميمة وكانوا يتبادلون الرسائل كلما حدثت أمور مهمة وقد تكلمنا

من قبل عن الرسالة التي أرسلها السلطان محمد الفاتح إلى الخليفة العباسي والسلطان المملوكي وأهل مصر بشكل عام والتي أخبرهم فيها بفتح القسطنطينية بل إن قبل ذلك بفترة وتحديدًا في عصر السلطان المملوكي الظاهر برقوق أرسل السلطان العثماني بايزيد الأول رسالة إلى الخليفة العباسي في القاهرة يطلب منه فيها أن يمنحه لقب سلطان الروم نظرًا لأنه فتح الكثير من البلاد الرومية وسيطر عليها وإليك بعض ما قرأت عن هذا الموضوع، (واتخذ بايزيد لقب سلطان الروم كدليل علي وراثته لدولة السلاجقة وسيطرته علي كل شبه جزيرة الأناضول، كما أرسل إلى الخليفة العباسي المقيم بالقاهرة يطلب منه أن يقر هذا اللقب حتى يتسنى له بذلك أن يسبغ على السلطة التي مارسها هو وأجداده من قبل طابعًا شرعيًا رسميًا فتزداد هيبته في العالم الإسلامي)[391] وقد تعاونت الدولتان المملوكية والعثمانية تعاون عسكري فيما بينهما فمن الثابت تاريخيًا أن الدولة العثمانية أرسلت إمدادات ومعونات عسكرية للدولة المملوكية في مواجهة الخطر الصليبي فقد طلب السلطان الغوري المعونة من السلطان بايزيد الثاني ليتمكن من قتال الأسطول البرتغالي (وأرسل في شهر شوال سنة 916 هـ / 1511 م عدة سفن محملة بالمكاحل والأسهم وأربعين قنطرًا من البارود وغير ذلك من المستلزمات العسكرية والأموال اللازمة ولكن هذه المساعدة لم يكتب لها الوصول سالمة بسبب تعرضها لقرصنة فرسان القديس يوحنا)[392] وعندما عجزت الدولة المملوكية عن القيام بمسئولياتها تجاه الإسلام ومواجهة أعداء الأمة نتيجة للفساد الذي انتشر بها قرر العثمانيون ضم مصر وتوحيد الجبهة الإسلامية، وهنا بدأ الحكم العثماني لمصر في مرحلة حرجة ومفترق طرق حيث أنه لم يمض وقتًا طويلًا بعد ضم مصر حتي بدأت الدولة

العثمانية نفسها تدخل في عصر اضمحلال ولذلك نجد أن مصر لم تشاهد من العثمانيين إلا فترات جمود وضعف بعد ذلك وتم إهمال شئونها الداخلية وتحكم فيها المماليك مرة أخرى كما سنري، وعندما تولى السلطان سليم الأول العرش العثماني سنة 918 هـ قام بتغيير السياسة العثمانية بشكل ملحوظ (فقد توقف في عهده الزحف العثماني نحو الغرب الأوروبي أو كاد أن يتوقف واتجهت الدولة العثمانية اتجاها شرقيًا نحو المشرق الإسلامي)[393] ويؤكد الدكتور علي الصلابي أن تحرك الدولة العثمانية نحو المشرق كان (من أجل إنقاذ العالم الإسلامي بصورة عامة والمقدسات الإسلامية بصورة خاصة من التحرك الصليبي الجديد من الأسبان في البحر المتوسط والبرتغاليين في المحيط الهندي وبحر العرب والبحر الأحمر الذين أخذوا يطوقون العالم الإسلامي ويفرضون حصارًا اقتصاديًا حتي يسهل عليهم ابتلاعه)[394] وقد لاحظنا فعلًا مما سبق أن الدولة المملوكية أصبحت تعاني في آخر أيامها من أزمات اقتصادية حادة بسبب هذا الحصار الاقتصادي فضلًا عن تفشي الفساد بها، ومن أسباب توجه العثمانيون أيضًا نحو المشرق الإسلامي تزايد قوة الشيعة في إيران " الدولة الصفوية " مما أنذر ببسط النفوذ الشيعي علي العالم الإسلامي السني وهذا ما دفع العثمانيون (إلى الخروج إلى المشرق العربي لحماية آسيا الصغري بصفة خاصة والعالم السني بصفة عامة)[395] وقد وجد سليم الأول تهاونًا كبيرًا من الدولة المملوكية في مكافحة الشيعة في إيران بل إن هناك معلومات خطيرة وصلت إليه تؤكد أن هناك علاقات ورسائل متبادلة بين المماليك والدولة الصفوية الشيعية في إيران[396] في آخر أيام المماليك بالطبع ومن هنا قرر سليم الأول ضم الدولة المملوكية التي ناصبته العداء ليضمن حماية ظهره قبل أن يتفرغ تمامًا لقتال الدولة الصفوية،

وخلال فترة الحكم العثماني لمصر (تتابع على مصر في هذه الفترة "136" من الولاة عاصروا "21" من السلاطين العثمانيين)[397] وأول هؤلاء الولاة المذكورين في موسوعة حكام مصر هو خاير بك الذي كان نائبًا للسلطان الغوري في حلب وكان قائد ميسرة جيشه في معركة مرج دابق الشهيرة وأصبح يلقب بلقب خاير[398] باشا بدلًا من خاير بك لأن والي مصر كان يلقب بالباشا تمييزًا له عن باقي البكوات من المماليك وكانت مدة ولاية خاير باشا خمس سنوات وثلاثة شهور (وخلال فترة ولايته علي مصر توفي السلطان سليم في 926 هـ / 1520 م وتولى السلطنة من بعده السلطان سليمان القانوني الذي أبقى على خاير باشا واليًا على مصر)[399]، وسنستعرض معًا أبرز القادة أثناء الحكم العثماني لمصر.

السلطان سليم الأول:

قام سليم الأول بمجموعة من الإجراءات أيضًا تنم عن مدى القلق الذي شعر به تجاه مصر ومدي خطورة إمكانياتها داخل الدولة العثمانية، حيث قام السلطان سليم الأول بتجريد مصر من طاقاتها وجميع موهوبيها وترحيلهم إلى عاصمة دولته بالأستانة وقد أقام سليم الأول في مصر ثمانية أشهر إلا أيامًا قلائل، ومن المؤكد أنه لاحظ مدى ما وصلت إليه مصر من تقدم وتطور في جميع المجالات مما يؤهلها إلى أن تصبح قوة عظمى وتذكرنا إجراءات سليم الأول في مصر بإجراءات الإسكندر المقدوني والإمبراطور أغسطس وأهمها توزيع السلطة بين عدة جهات بحيث لا يسيطر شخص واحد على السلطة كلها في يده وقد وضع سليم الأول قاعدة لنظام الحكم في مصر، وهي إيجاد سلطتين تتنازعان الحكم وتراقب كلتاهما الأخرى، الأولى سلطة نائب

السلطان " الوالي " والثانية سلطة رؤساء الجند ووضع أيضًا نواة السلطة الثالثة وهي سلطة البكوات المماليك الذي رجع إليهم حكم مديريات القطر المصري.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الوالي العثماني سنان باشا:

وردت معلومات عن سنان باشا في موسوعة تاريخ مصر لأحمد حسين بالجزء الثالث، حيث تولى هذا الوالي العثماني حكم مصر في سنة 1568م – 975هـ في عهد السلطان العثماني سليم خان الثاني، ثم شغل بعد ذلك وظيفة الصدر الأعظم وهو الرجل الثاني بالدولة العثمانية، وأثناء تولي سنان باشا حكم مصر قامت الدولة العثمانية بتكليفه بقيادة حملة لليمن واستخلف على مصر اسكندر الشركسي، وقد نجح سنان باشا في مهمته في اليمن واستطاع أن يدخل صنعاء لأول مرة، وأن يفتح جميع القلاع المستعصية، وقد ظل في اليمن ينظم شئونه ويقر الأمن في نصابه لمدة عامين وبضعة شهور، وأعيد سنان باشا إلى ولاية مصر بعد نجاحه في اليمن في أول صفر من سنة 979هـ فخط في تاريخ الولاة العثمانيين في مصر أزهر صفحة إذ أعاد ترعة الإسكندرية التي كانت قد ردمت فحرمت الإسكندرية معين الحياة، وبنى وعمَّر وأنشأ جوامع وشوارع وحمامات، واختص بولاق باهتمامه فشق فيها شارعًا وأنشأ وكالات للتجار، وشيد جامعه الشهير الذي لا يزال قائمًا ومعروفًا باسمه، وهو من خير ما أنتج العهد العثماني ويعتبر هذا المسجد من التحف المعمارية القليلة من العصر العثماني وقد وردت أبعاد هذا الجامع بموسوعة ويكيبديا كالآتي:يبلغ طول الجامع 35 متر وعرضه 27متر وقوام المسجد قبة مركزية كبيرة محاطة بثلاث أيوانات من الجهات الشمالية والجنوبية والغربية

والجامع ليس له حرم بمعنى أنه لا يتقدمه أي فناء مكشوف والسبب في ذلك صغر المساحة حيث كان الجامع يطل مباشرة على ثغر النيل وقد استعاض مهندس الأثر عن الفناء بالأروقة وقد كان الجامع محاط من خارجه بأسوار كانت تحوي أبواب، ويصف أمين باشا سامي عهد سنان باشا بقوله إن الرخاء شمل مصر في أيامه حتى وصل سعر الإردب القمح عشرة أنصاف، وأعاد توزيع المستحقات للعلماء والفقراء والمرضى

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

علي بك الكبير:

من أبرز الأحداث في العصر العثماني في مصر ما حدث في عهد الأمير المملوكي علي بك الكبير فأثناء قيام الدولة العثمانية بقتال روسيا والنمسا خلال القرن الثامن عشر كان شيخ البلد في مصر على بك الكبير الذي انتهز فرصة حروب العثمانيين الكثيرة وانشغالهم بها وأعلن استقلال مصر عن الدولة العثمانية وإليك بعض ما كتبه الرافعي عن هذا الموضوع (فلما نشبت الحرب بين تركيا والروسيا سنة 1768 جاهر بخلع يده من طاعة الدولة وأعلن استقلال مصر وامتنع عن دفع الخراج سنة 1769م "1183هـ" وعزل الوالي التركي ومنع ورود الولاة العثمانيين وضرب النقود باسمه ودانت له مصر بحريها وقبليها وكان من مماليكه وأتباعه أحمد " باشا " الجزار ومحمد بك أبو الذهب وإسماعيل بك وحسن بك الجداوي وإبراهيم بك ومراد بك وغيرهم مما

كانت لهم الأدوار الكبيرة على مسرح الحوادث)[400]، (وكان علي بك طموح النفس واسع المطامع فجرد الجيوش وفتح معظم جزيرة العرب ونادي به شريف مكة " سلطان مصر وخاقان البحرين " وأوفد محمد بك أبا الذهب ليفتح باسمه سوريا ففتح معظمها ولكنه لم يكد يتم له فتح دمشق حتى انقلب على علي بك الكبير واتفق مع الباب العالي وعاد إلى مصر ليستأثر بالحكم فيها وقامت الحرب بينه وبين سيده وانتهت بقتل علي بك سنة 1773 وعادت مصر ولاية عثمانية وخلصت إمارتها لمحمد بك أبو الذهب واستقر شيخًا للبلد وكافأته تركيا بفرمان تثبيته في مشيخة البلد وتوليته حكم مصر وصار له الأمر والنهي في البلاد ورجعت تركيا إلى إرسال الولاة كما كان الأمر قديمًا غير أن الوالي كان محجورًا عليه مسلوبًا حوله وقوته ومحمد بك أبو الذهب يختار الوالي الذي يرتضيه والأمراء وقواد الجند وأعيان الدولة وكافة مماليكه وأتباعه إلى أن مات سنة 1775 م "1189هـ " فخلفه في مشيخة البلد إبراهيم بك وقاسمه السلطة مراد بك)[401] ومحمد بك أبو الذهب يوجد باسمه حاليًا مسجد بجوار الجامع الأزهر وقد وصف الجبرتي محمد بك أبو الذهب عندما كتب عن حوادث سنة 1188 هـ "1774م" فقال: (استهلت ووالي مصر خليل باشا محجور عليه ليس له في الولاية إلا الاسم والعلامة على الأوراق والتصرف الكلي للأمير الكبير محمد بك أبو الذهب والأمراء وأعيان الدولة مماليكه وإشراقاته والوقت في هدوء وسكون وأمن والأحكام في الجملة مرضية والأسعار رخية وفي الناس بقية وستائر الحياء عليهم مرخية شعر:

وما الدهر في حال السكون بساكن

ولكنه مستجمع لوثوب[402]

وكتب الرافعى يصف أحوال المصريين قبل دخول نابليون ما يلي (كان المسلمون والأقباط يشتركون علي السواء في احتمال ظلم الحكام وسوء الإدارة وشارك الأقباط إخوانهم المسلمين في الزراعة والصناعة والتجارة وتخصص الأقباط في الأعمال الحسابية والمالية فعهد إليهم البكوات المماليك والكشاف بتحصيل الضرائب وتقديرها)[403] كما وصف الرافعى القاهرة في ذلك الوقت بقوله (كانت القاهرة ولم تزل أكبر مدن القطر المصري وعاصمته ومقر حكومته وكانت حدود العمران فيها تنتهي شمالًا من الحسينية إلي باب الحديد وجنوبًا من القلعة إلى باب عرب اليسار إلى باب السيدة عائشة إلى جامع السيدة نفيسة فباب طولون فباب البغالة فباب السيدة زينب، وشرقًا من القلعة فباب الوزير فباب الغريب فالحسينية، وغربًا من باب الحديد إلي الأزبكية فباب اللوق فباب الشيخ ريحان فباب الناصرية فباب السيدة زينب، وكان موقع المدينة يبعد أكثر من ألف متر عن شاطئ النيل وبينها وبينه مزارع وإذا أردت أن تعرف الفرق بين عمرانها في ذلك العصر وحدوده في العصر الحاضر فحسبك ملاحظة بعض المعالم المعروفة في العصرين فجامع الظاهر مثلًا وهو الكائن الآن بميدان الظاهر كان خارج باب الحسينية وخارج مباني القاهرة وكان باب الحديد نهاية حدود مباني القاهرة من الشمال الغربي والأزبكية والمباني التي حولها نهاية العمران غربًا والطريق بينها وبين بولاق مقفرة خالية من العمران لذلك كانت بولاق تعد من ضواحي العاصمة كما كانت مصر القديمة أيضًا وكانت الطريق بين الناصرية ومصر القديمة مقفرة من المساكن ليس بها إلا مزارع وحدائق ولم يكن علي شاطئ النيل سوي بعض مبان قليلة كقصر إبراهيم بك " قصر العيني " تجاه الروضة وبجواره بيت لمحمد كاشف الأرناؤوطي وعن شماله بيت لمصطفي

بك، وكانت بولاق مرفأ القاهرة في الشمال ومصر القديمة مرفأها في الجنوب)[404] ويضيف الرافعى (وبالرغم مما أصاب البلاد والعاصمة من التأخر في خلال العصور فإن عظمتها القديمة قد تغلبت على عوامل الفناء وسوء الإدارة فقد كانت أعظم بلاد الشرق قاطبةً بعد الأستانة وكان بها كثير من المساجد والعمائر الجميلة وكثير من القصور والمعاهد ودور الكتب الملحقة بها والحمامات وبها كثير من الأسواق التجارية الكبيرة والخانات والمخازن " الوكائل ")[405]وبالمناسبة كان هناك أربعة ميادين رئيسية كبيرة منها ميدان قراميدان تحت القلعة وميدان الرميلة المجاور لقراميدان ويفصلهما باب اسمه قراميدان وميدان بركة الفيل وميدان الأزبكية " بركة الأزبكية " (وكان ميدان الأزبكية أو بركة الأزبكية كما كانوا يسمونها أجمل الميادين الأربعة تحيط به القصور البديعة يسكنها الأمراء والأعيان)[406] وكان تقدير عدد سكان العاصمة القاهرة حوالي 300000 نسمة[407] وفي تقدير آخر 263000 نسمة وكانت الإسكندرية ولازالت أهم وأكبر مدينة بعد القاهرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس عشر

أبرز القادة أثناء الحملة الفرنسية علي مصر

(الحملة الفرنسية هي دور من أدوار التنازع الذي قام بين فرنسا وإنجلترا علي الفتح والاستعمار ذلك التنازع الذي يرجع عهده إلى القرن السابع عشر واستمر خلال القرن الثامن عشر ثم اتخذ طورًا جديدًا بعد الانقلاب العظيم المعروف بالثورة الفرنسية، إن الثورة الفرنسية قد دكت معالم النظام القديم في فرنسا وكان من نتائجها سقوط الملكية وإعلان الجمهورية سنة 1792 م)[408] وأكد الرافعى أن أوروبا تحالفت ضد فرنسا حتى تمنع هذا الزحف الثوري من الحدوث في باقي الدول الأوروبية ولكنها لم تتمكن من الوقوف أمام قائد عسكري بارع من الطراز الأول وهو نابليون بونابرت الذي استطاع هزيمة الدول الأوروبية (لكن انجلترا التي كانت أقوى الحلفاء شكيمة وأشدهم مراسًا بقيت بحكم موقعها الجغرافي وسيادتها في البحار بمأمن من ضربات نابليون وانتصاراته ففكر في ميدان حرب يقهر فيه انجلترا فوجد أن مصر هي ذلك الميدان، فخيل إليه أن يشيد على ضفاف النيل دولة شرقية عظيمة تحقق ما كان يجيش في صدره من الآمال الكبار ويصل منها إلي ضرب إنجلترا عدوة فرنسا اللدود في ذلك الحين)[409] أما الدكتور علي الصلابي فله رأي آخر فهو يضيف إلي هذه الأسباب سبب آخر مهم وهو أن هذه الحملة هي أحد الضربات الموجهة إلى الأمة الإسلامية بشكل عام حيث كتب ما يلي (انتهز أعداء الإسلام تدهور الدولة العثمانية فاستغلت فرنسا ذلك الضعف وأرسلت حملتها المشهورة بقيادة القائد المشهور نابليون بونابرت، كانت تلك

الحملة صدى للثورة الفرنسية ومتأثرة بأفكارها الثورية وقد اصطحب نابليون معه مجموعة كبيرة من العلماء الفرنسيين في حملته هذه بلغ عددهم 122 عالمًا)[410] ويؤكد الدكتور الصلابي أن هؤلاء العلماء قد تأثروا بأفكار روسو وفولتير ومنتسكيو أبرز مفكري الثورة الفرنسية والمعروفون بانتمائهم للمحافل الماسونية اليهودية من خلال ما رفعوه من شعارات وأفكار تعادي في مجموعها الدين فهم ضد أي دولة تقوم علي مبادئ دينية (وبالتالي فإنه من السذاجة أن نقبل ما يروجه كتاب التاريخ من أن الهدف الرئيسي لهذه الحملة كان قاصرًا على ضرب المصالح البريطانية في الشرق)[411] ويؤكد أيضًا أن الهدف ليس عسكريًا فقط وأن هناك أسبابًا أخرى فيقول (ومن هنا كانت أهداف الحملة خليطًا من أهداف اقتصادية وتوسعية وسياسية ودينية أو بالأحرى غزو عسكري وفكري ولهذا اصطحب نابليون معه في حملته هذا الحشد الهائل من العلماء) أما رأي الكاتب الكبير جمال بدوي فكتب ما يلي عن هذا الموضوع (لم تكن الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت عام 1798 م تحمل الصبغة الصليبية التي كانت للحملات السابقة التي اجتاحت الشرق الإسلامي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر بل يمكن وصف حملة نابليون بأنها كانت " لا دينية " إذا قورنت بحملة سلفه لويس التاسع.لقد جاء نابليون إلى مصر باسم الثورة الفرنسية الكبرى المناهضة للدين والتي ثارت في وجه الكنيسة ورجالها بنفس العنف الذي واجهت به طبقة النبلاء والإقطاع)[412] ومن هنا نفهم أن نابليون هاجم الكنيسة فهل من المعقول أن يحترم الإسلام، وهكذا عزيزي القارئ وعلى أي حال بدأت الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون وقد تخللها العديد من

الأحداث المثيرة وحدث الصدام الحضاري بين شعب متخلف بائس وجيش متقدم قوي وسنذكر ما حدث بين المماليك والجيش الفرنسي

وكان جيش نابليون مكون من 36 ألف مقاتل[413] وعدد السفن التي نقلتهم حوالي (ثلاثمائة سفينة يحرسها أسطول مؤلف من 55 سفينة حربية)[414]، وكان الأمراء المماليك يحكمون مصر في ظل الحكم العثماني وكما لو كانوا قد توقف بهم الزمن عند أيام أسلافهم من سلاطين المماليك قبل خضوع مصر للحكم العثماني فكانوا يعيشون على ذكريات أمجاد الانتصارات التاريخية القديمة على التتار وغيرهم فلم يدركوا حجم التطور الهائل الذي وصل إليه جيش نابليون بونابرت، فقد وصف الجبرتي عدم اهتمامهم عند سماعهم خبر قدوم الحملة الفرنسية علي مصر بل (ولم يكترثوا به اعتمادًا على قوتهم وزعمهم أنه إذا جاءت جميع الفرنج لا يقفون في مقابلتهم وأنهم يدوسونهم بخيولهم)[415]، وقد وردت تفاصيل عجيبة عن المعركة التي دارت بين المماليك والفرنسيين في الكتاب الخامس من سلسلة كتب –صفحات من تاريخ مصر-[416]ويؤكد المؤرخ جورج يانج في هذا الكتاب أن فن المماليك العسكري قد صار عتيقًا ويقول: وقد نشعر بالعطف على ما أظهره المماليك من الإقدام والبسالة عند مهاجمتهم لنابليون، وقد رأى نابليون أن احتلال مصر عسكريًا لن يكلفه متاعب كبيرة لأن الجيش الفرنسي وعدده حوالي 40000 زحف بطريق الصحراء بشكل مربع مجوف على القاهرة وكان رسل المدنية الحديثة المائة والاثنان والعشرون في قلب الجيش بينما جيش المماليك في عرض الأفق، ووقف المماليك يرمقون العدو بنظرة الاحتقار والإزدراء، وأخيرًا برز أحدهم ظانًا أن عصر الفروسية ما يزال باقيًا وقد لبس عدة الحرب الكاملة المطرزة بالحرير وتقدم إلي الفرنسيين حتى صار على بضع خطوات

منهم، وهنالك طلب مبارزة الكولونيل، ولكن الفرنسيين وقد أضناهم الحر والجوع والعطش – أجابوا على طلب المبارزة بإطلاق الرصاص من بنادقهم فتركوا صاحبنا نصير الفروسية مجرد سلب ملطخ بالدماء، وما كانت معركة الأهرام التي نشبت علي أثر ذلك وحاول فيها المماليك منع دخول الفرنسيين إلى القاهرة سوي تكرار لهذا الحادث ولكن على مقياس أكبر، فقد اشترك فيها نحو 10000 من فرسان المماليك وبضعة آلاف من المشاه الإنكشارية وعدد من المقاتلين المصريين ولكن كان نصيبهم جميعاً الهزيمة ثم الغرق في مياه النيل، هذا في حين أن خسائر الفرنسيين لم تتجاوز المائة، على أن بكوات المماليك لم يجيدوا الكر والفر فقط بل كثيرًا ما اقتحموا مربعات القادة الفرنسيين – ديزيه ورينييه ولكن هذا الاستبسال كانت نتيجته الفناء الأكيد، وجدير بالذكر أن هذه المعركة المعروفة باسم معركة الأهرام أو معركة إمبابة تمت في يوم 21 يوليو سنة 1798 نزل الفرنسيون على بعد ميلين من إمبابة فكانوا بين النيل والأهرام وإمبابة أمامهم، وفيها مراد بك وجنوده وهم بدروعهم البراقة وملابسهم الزاهية، فلما رأى بونابرت حسن استعدادهم التفت إلى جنوده وقال جملته المأثورة:

اعلموا أن خمسين قرنًا تنظر إليكم من قمم هذه الأهرامات وتراقب حركاتكم تنظر ما سيصبح عليه أمركم مع هؤلاء المماليك، ثم أمر فرقة الجنرال ديزيه بالتقدم نحو اليمين والفرق الأخرى نحو اليسار ولكن مراد بك أدرك سر هذه المناورة فأمر أيوب بك الدفتردار بالهجوم، فهجم أيوب بك وهو يصيح: ويل لكم أيها الملاعين، قد ساقكم كبرياؤكم إلى أرضنا، إننا سنملأ القبور بأجسادكم ونجعل هذا اليوم يومًا تذكره أعقابكم من بعدكم، ودارت المعركة إلى أن تقهقر المماليك وقتل أيوب بك وفر مراد بك إلى الصعيد واستولى

بونابرت على إمبابة وبدون الدخول في التفاصيل استطاع نابليون السيطرة على مصر واحتلالها بسهولة.

وتلاحقت الأحداث في مصر خلال الحملة الفرنسية وتطورت الحملة وتوجهت إلى الشام وفشلت في احتلال عكا وعادت إلى مصر ثم وقعت معركة أبو قير البرية بين نابليون والجيش العثماني وانتهت بهزيمة العثمانيين ثم غادر نابليون مصر وترك القيادة للجنرال كليبر الذي حاول التفاوض مع العثمانيين لانسحاب الحملة من مصر دون خسائر ولم يرغب الإنجليز في مغادرة الحملة بهذا الأسلوب حيث رغبت في استسلام الجيش الفرنسي كأسرى حرب فقامت بإفشال المفاوضات بين الفرنسيين والعثمانيين ووقع الصدام بين كليبر والعثمانيين في معركة عين شمس وانتهت بهزيمة العثمانيين ثم قامت ثورة القاهرة الثانية بمساعدة العثمانيين وقام كليبر بقمعها بقسوة أشد من قمع الثورة الأولى التي كانت في عهد نابليون، ووقع كليبر معاهدة مع مراد بك لما كان يسببه من مشاكل وخسائر للجيش الفرنسي في صعيد مصر ولتحييده أثناء قتال العثمانيين، ثم تم قتل كليبر على يد سليمان الحلبي أحد طلبة الأزهر وتم تولى الجنرال مينو قيادة الحملة وأعلن إسلامه وتزوج من فتاة من رشيد ثم واجه التحالف الذي تم بين العثمانيين والإنجليز لطرد الفرنسيين من مصر واستمر الصراع إلى أن قام الإنجليز والعثمانيين بهزيمة الفرنسيين في الإسكندرية وفي الوقت الذي استسلم فيه القائد الفرنسي في القاهرة وانسحب بالقوات الفرنسية تاركًا مينو في الإسكندرية يواجه قوات التحالف الإنجليزي العثماني ثم أجبرته الهزيمة علي توقيع معاهدة استسلام وتم مغادرة الحملة بالكامل إلي فرنسا تاركة عدة قوى تتصارع في

مصر على السلطة، وهكذا انتهت الحملة الفرنسية على مصر، وفيما يلي أبرز القادة خلال الحملة الفرنسية على مصر.

نابليون بونابرت:

ونصل في الحديث إلى القائد الشهير نابليون بونابرت الذي حاول أن يؤسس إمبراطورية ضخمة تكون قاعدتها مصر لما رآه كقائد محنك من أهمية موقعها وإمكانياتها الهائلة وقد حاول نابليون عند حضوره إلى مصر أن يخدع الشعب المصري بأول منشور[417] قام بنشره في مصر بمجرد حضوره، لفت فيه نظر المصريين إلى أهمية هذا الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض مثله علي حد تعبيره وكان نص هذا المنشور كالآتي: (بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه، من طرف الفرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابرته يعرف أهالي مصر جميعًا أن من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية، يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدي فحضر الآن ساعة عقوبتهم، هذه الزمرة المماليك يفسدون في الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها فأما رب العالمين القادر علي كل شيء فإنه قد حكم علي انقضاء دولتهم، يا أيها المصريون قد قيل لكم إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين وأنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالي وأحترم نبيه والقرآن العظيم وقولوا أيضًا لهم: إن جميع الناس متساوون عند الله وأن الشيء الذي يفرقهم عن

بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب.

ماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شيء أحسن فيها من الجواري الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة فإن كانت الأرض المصرية التزامًا للمماليك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم ولكن رب العالمين رءوف وعادل وحليم ولكن بعونه تعالي من الآن فصاعدًا لا ييأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة كلها وسابقًا كان في الأراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك، أيها المشايخ والقضاة والأئمة وأعيان البلد قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضًا مسلمون مخلصون وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبري وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائمًا يحث النصاري على محاربة الإسلام، ومع ذلك الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه أدام الله ملكه - طوبى ثم طوبى لأهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلي مراتبهم طوبي أيضًا للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين ولكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك في محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقًا إلى الخلاص ولا يبقي منهم أثر، المادة الأولى: جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة بثلاث ساعات عن المواضع التي يمر بها عسكر الفرنساوية فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر من عندها وكلاء كيما يعرف المشار إليه أنهم أطاعوا وأنهم نصبوا علم الفرنساوية الذي هو أبيض

وكحلي وأحمر، المادة الثانية: كل قرية تقوم على العسكر الفرنسي تحرق بالنار)

(أراد نابليون إذن أن يجتذب إليه قلوب المصريين ويتودد إليهم ويكسب ثقتهم لأنه كان على يقين أنه ما لم يفز بثقتهم وميلهم فلن يستطيع أن ينشئ على ضفاف النيل دولة عربية تخضع لحكمه مهما أوتي من قوة الجند والسلاح لكن نابليون قد خاب في تحقيق هذا الأمل وكان إخفاقه راجعًا إلى أن الأمة المصرية لم تذعن للحكم الفرنسي ولم تطمئن إليه بحال من الأحوال ولم تخدع في حقيقة الأغراض التي كان يرمي إليها نابليون من الحملة وتلك فضيلة تدل على مبلغ الحيوية الكامنة في الأمة والواقع أن نابليون مع تلك الوعود التي كان يمني بها المصريين في منشوراته وبياناته لم يكن يقصد في الحقيقة إلا فتح مصر وإخضاعها لتكون أداة لتحقيق أطماعه في الشرق والغرب. ولقد دل تاريخ هذا الفاتح العظيم على أنه لم يبر بوعده لأمة من الأمم التي فتح بلادها بل كان يهزأ بحرية الأمم ويتخذ من الشعوب سلعة يساوم بها تحقيقًا لأطماعه في الفتح والسلطان، وقد واجهت الحملة مقاومة عنيدة اعترف بها مؤرخو الحملة من الفرنسيين أنفسهم وفي هذا الصدد يقول المسيو مارتان أحد مهندسي الحملة وأحد أعضاء لجنة العلوم والفنون الذين صحبوا نابليون إلي مصر: بالرغم من احتلال الفرنسيين لعاصمة مصر فإنهم لم يستقر لهم قرار في البلاد وكان مركزهم فيها مزعزعًا ومحفوفًا بالمتاعب ولم يترك الأهالي وسيلة لمقاومة السلطة الفرنسية إلا اتبعوها وقد ذهب كثير من الفرنسيين ضحية هذه المقاومة)[418].

(إن سلوك نابليون مع المصريين خالف في كثير من المواطن ما وعدهم به في منشوراته وبياناته لقد كان ينعى علي المماليك ظلمهم فانظر ماذا فعل هو في إرهاق الأهالي بالضرائب والمغارم)[419] لقد فرض نابليون علي المصريين ضرائب فوق طاقتهم (وقد تفنن الفرنسيون في ابتزاز الأموال ومصادرة الممتلكات بمختلف الوسائل)[420] كما فرض ضريبة لم تكن معروفة من قبل في مصر وهي الضريبة العقارية (ومن مظالم الفرنسيين التي أحرجت الصدور أنهم أخرجوا كثيرًا من أصحاب البيوت من بيوتهم بحجة حاجتهم إليها وهدموا كثيرًا من المباني والآثار والمساجد بحجة تحصين القاهرة)[421] وحاول الديوان الذي أسسه نابليون من المشايخ إلغاء هذه الضرائب أو حتي تخفيفها ولكن فشل (ومن المظالم التي أثارت نقمة الناس اعتقال الفرنسيين للسيد محمد كريم حاكم الإسكندرية الوطني والحكم عليه بالإعدام، والواقع أن الفرنسيين كانوا يسرفون في قتل الناس ليدخلوا الرهبة في قلوب الأهالي ويحملوهم علي الخضوع والإذعان)[422] ونتيجة لكل هذا وغيره قامت الثورة في القاهرة وكان الجامع الأزهر هو المكان الرئيسي لها ومصدرها وتم قتل الجنرال ديبوي حاكم القاهرة والعديد من الجنود الفرنسيين وسيطر الثوار على أبواب القاهرة الرئيسية مثل باب زويلة وباب الفتوح، ووضع نابليون خطة محكمة لقمع هذه الثورة ببشاعة حيث تم ضرب حي الأزهر بالمدافع حتى هدم البيوت علي سكانها من النساء والأطفال والشيوخ الذين لم يشتركوا في الثورة وأوشك الجامع الأزهر نفسه علي الانهيار لولا وساطة المشايخ لرفع الضرب وتعهدهم بوقف الثورة وقد اتخذ نابليون وسائل قاسية في القضاء علي الثورة وكانت مبالغ فيها جدًا وإليك بعض ما كتبه الرافعي عن هذا الموضوع (أسلفنا أن عدد من قتلهم

الفرنسيون من سكان العاصمة في إخماد الثورة بلغ على أرجح الروايات أربعة آلاف ولا جدال في أن قمع الثورة في مدينة اشتهر أهلها بالوداعة والسكينة ما كان يدعوا إلى إفناء هذا العدد الكبير من السكان، على أنك إذا تأملت في الفظائع التي ارتكبها الفرنسيون بعد تسليم المدينة وإخلادها إلى السكينة وجدتها أبعد ما تكون عن مقتضيات الحرب والقتال ولهي أجدر أن تعتبر من ضروب التنكيل والانتقام)[423] وإليك بعض ما كتبه الجبرتي عن أحداث ما بعد الثورة (دخل الإفرنج المدينة كالسيل ومروا في الأزقة والشوارع لا يجدون لهم ممانع كأنهم الشياطين أو جند إبليس وهدموا ما وجدوه من المتاريس. ثم دخلوا إلي الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول وبينهم المشاة كالوعول وتفرقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته وعاثوا بالأروقة والحارات وكسروا القناديل والسهارات وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأواني والقصاع والودائع والمخبآت بالدواليب والخزانات ودشتوا الكتب والمصاحف على الأرض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها وأحدثوا فيه وتغوطوا وبالوا وتمخطوا وشربوا الشراب وكسروا أوانيه وألقوها بصحنه ونواحيه وكل من صادفوه به عروه ومن ثيابه أخرجوه)[424] وقام نابليون بعد الثورة بعدة إجراءات وقائية تحسبًا لقيام ثورة أخرى ومنها أنه أنشأ العديد من القلاع حول القاهرة وكان يقوم بتحويل المساجد الضخمة إلى قلاع مثل جامع الظاهر بيبرس كما قام بتحويل قصر إبراهيم بك الموجود علي النيل والمعروف باسم قصر العيني إلى مستشفي عسكري حصين يسع ألف مريض وجريح، وكانت التحصينات والطوابي التي أنشأها نابليون حول القاهرة تضمن تدمير القاهرة بالكامل في

أي لحظة إذا شاء بحيث سيطرت على المداخل والمخارج بالكامل وكانت على أماكن مرتفعة.

(كان نابليون يعمل جهده لتجنب الحرب مع تركيا وسعي بكل الوسائل في مودتها والتفاهم وإياها)[425] ولكنه فشل في إقناع الدولة العثمانية بالغرض من حملته علي مصر وعندما شعر بخطر الجيش العثماني وزحفه في اتجاه مصر برًا وبحرًا قرر أن يبادر هو باحتلال سوريا وملاقاة أي تهديدات عثمانية قبل وصولها وبالفعل قام بحملة كبيرة علي سوريا وفلسطين واستمر يقاتل ويحقق انتصارات ويكسب أراضي جديدة إلى أن توقف أمام عكا وواليها في ذلك الوقت أحمد باشا الجزار، حيث قام نابليون بفرض حصار على عكا ولكنه فشل في اقتحامها كما نعلم جميعًا وبدون الخوض في التفاصيل ارتد نابليون إلى مصر بعد أن فقد خيرة رجاله تحت أسوار عكا (فقد بلغ عدد القتلى الفرنسيين 2200 قتيل منهم 1200 قتلوا في المعارك وخاصة في حصار عكا و 1000 ماتوا من الأمراض وبلغ عدد الجرحى 2500 جريح ومريض)[426] وكعادته كقائد ناجح لم يهتز نابليون بهذه الكارثة على الأقل أمام جنوده وبرر جميع المواقف لصالحه وأرسل رسالة للشعب المصري يوضح فيها أسباب عودته إلى مصر.

ثم بعد ذلك وصل جيش عثماني بحرًا إلى أبي قير وقام باحتلال قلعتها يوم 17 يوليو سنة 1799 م مما اضطر نابليون إلى التوجه إلى الإسكندرية وهاجم الجيش العثماني بشراسة (وكانت هزيمة العثمانيين في هذه الموقعة أشبه بكارثة فقد فقدوا من القتلى والغرقى والجرحى نحو ثمانية آلاف وبلغ عدد الأسري نحو ثلاثة آلاف وغنم الفرنسيون مدافع الجيش العثماني وذخائره

وفقد الفرنسيون 250 قتيلًا وجرح منهم سبعمائة وخمسون)[427] وبعد هذه المعركة قرر نابليون السفر إلى فرنسا نظرًا لاضطراب الأحوال بها وترك قيادة الحملة إلى الجنرال كليبر كما أعطاه تفويض للتفاوض مع العثمانيين واتخاذ القرار المناسب بل إن نابليون نفسه عرض الصلح علي العثمانيين قبل سفره وترك رسالة بمثابة شرح وافي لجميع التفاصيل لكليبر كما ترك رسائل أخرى لعدة جهات منها الجنرالات والمشايخ وكل رسالة لها مضمون يتناسب مع المرسل إليه، أما أهم هذه الرسائل فتلك التي تركها لكليبر وكان سفر نابليون في البحر بمثابة مخاطرة كبيرة بحياته نظرًا لوجود الأسطول الإنجليزي في البحر المتوسط حيث ذكر لكليبر في نهاية رسالته (أما أنا فإني أغادر مصر والأسف يملأ قلبي.وإن مصلحة الوطن ومجده وواجب الطاعة لندائه والحوادث المحزنة التي وقعت أخيرًا كل ذلك يلجئني إلى أن أغامر بنفسي وسط أساطيل الأعداء لأصل إلى أوروبا على أني سأكون معك بقلبي وفكري)[428]

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجنرال كليبر:

هو الجنرال جان باتيست كليبر - Jean-Baptiste Kléber، ولد في 9 مارس 1753 وقتل في 14 يونيو.

أيقن كليبر أن احتلال مصر والبقاء بها شبه مستحيل مع انقطاع الاتصال مع فرنسا فلا يوجد أسطول قوي يؤمنه هو وجنوده كما أن هناك عداء شديد بين الشعب المصري وبين الحملة الفرنسية ولم تعد تنجح محاولات الخداع والتودد للشعب فقد ظهر الوجه القبيح للحملة الفرنسية ولم يعد ممكنًا وضع

أي نوع من أنواع الأقنعة الزائفة،وبالتالي قرر الصلح مع الدولة العثمانية التي فشلت في إخراج الحملة الفرنسية من مصر وحدها وقررت التحالف مع الإنجليز لطرد الفرنسيين من مصر وكان هذا التحالف بطبيعة الحال من أشد ما يقلق كليبر، وأرسل كليبر رسالة إلى الصدر الأعظم يوسف باشا الذي جاء على رأس جيش ضخم، وبالفعل تم الاتفاق على ما يسمى بمعاهدة العريش التي كانت تنص على أن يغادر الجيش الفرنسي مصر سالمًا بسفن يتم توفيرها من الجانب العثماني وبتكاليف يتم دفعها وجمعها من الشعب المصري، وقد كان شعب مصر سعيدًا بجمع أموال ترحيل الفرنسيين، ولكن لم تتم هذه المعاهدة بسبب الإنجليز حيث كانوا يريدون أن يقوم الجيش الفرنسي بتسليم نفسه كأسري حرب ولا يريدون له الرحيل بهذا الأسلوب، ونجح الإنجليز بالفعل في إفشال المعاهدة مما أدى إلى حدوث معركة بين الجيش العثماني والجيش الفرنسي في منطقة عين شمس حيث كان الجيش العثماني قد اقترب كثيرًا من العاصمة وفي انتظار استلامها من الفرنسيين.

وانتصر كليبر علي الجيش العثماني في معركة عين شمس انتصار ساحق وقام بمطاردته في اتجاه الشرق غير أن مجموعة من الجيش العثماني بقيادة نصوح باشا تركت ساحة القتال وتوجهت إلى القاهرة حيث أثار نصوح باشا الشعب ضد الفرنسيين، فعندما عاد كليبر إلى القاهرة بعد مطاردته للجيش العثماني وجد القاهرة كلها في حالة ثورة عارمة وهي المعروفة بثورة القاهرة الثانية والتي كانت بمساعدة العثمانيين وتحريضهم، حيث قام كليبر بقمع الثورة بشكل وحشي واستخدم ما أعده نابليون من قلاع وتجهيزات حول العاصمة بعد ثورة القاهرة الأولى، وجدير بالذكر أن الثورة لم تكن بالقاهرة وحدها بل امتدت إلى عدة مدن وقرى بطول مصر وعرضها وبالتالي

كانت في منتهى الخطورة مما أدى إلى رد فعل فرنسي عنيف وقاسي، واستطاع كليبر إخضاع الوجه البحري بالكامل أما الوجه القبلي بقيادة مراد بك فقد يأس تمامًا من إخضاعه ولذلك قام بعقد اتفاقية مع مراد بك بحيث يتولى مراد حكم الصعيد ويأمن جانبه بل واتفقا على الدفاع المشترك ضد أي عدوان على أي منهما وهكذا اتضحت حقيقة مراد بك الذي اتفق مع الفرنسيين على أن يقوم بإمداد الفرنسيين بالكميات اللازمة من القمح والشعير والحبوب من الجنوب وكان قبل ذلك يمنع وصولها إليهم، وهكذا قام كليبر بتحييد مراد بك تمامًا.

ولا بد هنا أن نذكر بعض ما ارتكبه الفرنسيون من جرائم لا تمت للإنسانية بصلة بل وتزيد بشكل مبالغ فيه عن متطلبات قمع الثورة، حيث وصفها الجبرتي باستفاضة ملخصها ما يلي (وجرى على الناس مالا يسطر في كتاب ولم يكن لأحد في حساب) وكتب الرافعي (أسرف الفرنسيون في ارتكاب الفظائع لإخماد الثورة ولجأوا إلي الطريقة الوحشية التي اتبعوها في كثير من المواطن وهي إضرام النار في الأحياء الآهلة بالسكان وإرسالها على المدينة وأهلها موتًا أحمر فأحدثت الحرائق تخريبًا فظيعًا في القاهرة واحترقت أحياء برمتها وتهدمت بيوت عامرة ودفنت تحت أنقاضها عائلات بأكملها)[429] وهكذا تم إخماد الثورة (وأصبح الجنرال كليبر حاكمًا بأمره في البلاد وهو الذي كان قبل شهرين يعد معدات الرحيل عنها ولكن السياسة الإنجليزية هي التي غيرت سير الأمور وتسببت في نقض معاهدة العريش ومنعت الجنود الفرنسية من السفر إلى فرنسا فأشعلت نار الحرب ثانية)[430]، واستطاع أحد طلبة الأزهر الشريف وهو سليمان الحلبي أن يقتل الجنرال كليبر وكان هذا العمل من الأعمال التي هزت كيان الجيش الفرنسي بالكامل في مصر بل

وكان ذلك تمهيدًا لنهايتهم في مصر حيث لم يجد الفرنسيون قيادة بعد ذلك علي نفس مستوى نابليون وكليبر مما أدى إلى فشل الحملة في مصر، ووقع هذا الحدث في حديقة منزل القائد العام بالأزبكية وتم محاكمة سليمان الحلبي وبعض طلبة الأزهر الذين اتهمهم الفرنسيون بأنهم علموا نية سليمان الحلبي ولم يقوموا بالإبلاغ عنه، ونص الحكم الذي أصدرته المحكمة (حكمت بإحراق يد سليمان الحلبي اليمني ثم إعدامه على الخازوق وترك جثته تأكلها الطير وإعدام شركائه الأربعة بقطع رءوسهم وإحراق جثثهم بعد الإعدام مع مصادرة أموال المتهم الغائب عبد القادر الغزي" ولم يكن له مال")[431] واعتبر الفرنسيون الجامع الأزهر مصدرًا للعنف، وتولى الجنرال مينو القيادة العامة للجيش الفرنسي في مصر، وتولى الجنرال مينو قيادة الحملة الفرنسية Jacques François Menouوكان مينو قد أعلن إسلامه وتزوج من مسلمة من رشيد أثناء وجوده كحاكم لرشيد وتظاهر بتمسكه بشعائر الدين الإسلامي وأطلق على نفسه اسم " عبد الله جاك مينو " وكان مينو بعد توليه حكم مصر يعتقد أن الفرنسيين لابد أن يقيموا في مصر بشكل دائم فقد كان (من دعاة اتخاذ مصر مستعمرة فرنسية)[432]، وفرض مينو على المصريين ضرائب وإتاوات فادحة وذاق الشعب المصري المرار وكثرت هجرة المصريين من بلادهم هربًا من كثرة المظالم والنهب والإرهاق والتخريب وكانت سياسة مينو بصفة عامة تنم عن أنه قائد دون المستوي[433]..

وتم إجراء استعدادات ضخمة عثمانية إنجليزية لطرد الفرنسيين من مصر ووصلت بالفعل قوات إنجليزية إلى أبي قير واستطاعت هزيمة من بها من الفرنسيين وواصلت الزحف ووقعت معركة شرسة في المنطقة المعروفة حاليًا بسيدي جابر بالإسكندرية وانتهت بهزيمة الفرنسيين هزيمة قاسية على

الرغم من كثرة عدد القتلى الإنجليز وظل الصراع دائر بين الإنجليز والفرنسيين في الإسكندرية مما أدى إلى ارتباك الجنرال مينو بالقاهرة وكان مينو أقل كفاءة بكثير من نابليون وكليبر في القيادة فقام بإصدار أوامر متضاربة وتشتت جيشه في عدة مواقع ومدن (فكانت القوات الفرنسية موزعة بين القاهرة والجيزة والصالحيه والمنصورة وميت غمر ومنوف والبرلس والرحمانية والوجه القبلي ولما تحقق مينو من نزول الإنجليز إلى البر عزم آخر الأمر على السير لملاقاتهم)[434] ووصل مينو ومعه نصف الجيش الفرسي إلى الإسكندرية ولكن بعد أن تم هزيمة الفرنسيين بمعركة سيدي جابر

وهكذا انقسم الفرنسيين تحت قيادتين أحدهما الجنرال مينو في الإسكندرية والثاني الجنرال بليار في القاهرة وكان كل منهم يواجه جيشًا كبيرًا، وكان العثمانيون قد هزموا جيش بليار بالقرب من بلبيس فعاد منسحبًا وتحصن بالقاهرة بينما كان مينو يواجه التحالف العثماني الإنجليزي في الإسكندرية، وجدير بالذكر أن بليار أرسل إلى مراد بك يستنجد به ويطلب منه تنفيذ اتفاقية الدفاع المشترك التي وقعها مع كليبر، ولكن كان مراد بك في ذلك الوقت قد أصابه الطاعون ومات وكان موت مراد بك ضربة كبيرة أصابت آمال الفرنسيين على حد تعبير الرافعي لأنهم فقدوا بموته حليفًا قويًا كان يمكن أن يمدهم بالقوة اللازمة ولم يتمكن الفرنسيين من التحالف مع خليفة مراد بك وكان اسمه عثمان بك الطنبورجي الذي رأى أن كفة العثمانيين والإنجليز هي الأرجح.

واجتمع الجنرال بليار مع مجلس الحرب ليتشاوروا في الموقف الحرج الذي تورطوا فيه وقرروا التفاوض مع العثمانيين والإنجليز وتم بالفعل توقيع اتفاقية الجلاء في 27 يونيو 1801 بعد مفاوضات استمرت أربعة أيام (وأن يكون جلاء الجنود بأسلحتهم وأمتعتهم ومدافعهم وذخائرهم بطريق فرع رشيد ومن رشيد وأبو قير يبحرون إلي فرنسا علي نفقة الحلفاء)[435] وقام العثمانيون والإنجليز بتوفير المراكب والسفن اللازمة لرحيلهم، على أن يسري هذا الاتفاق بين بليار والحلفاء علي الجنرال مينو وجيشه بالإسكندرية في حالة موافقته علي بنوده، ولكن مينو عندما بلغه هذا الاتفاق رفضه تمامًا بل واتهم بليار بالتفريط في الشرف الحربي، واستمر مينو في عناده وقتاله للحلفاء (على أنه لم يمض خمسون يومًا على تسليم القاهرة حتى أذعن الجنرال مينو للتسليم بشروط أسوأ من الشروط التي قبلها الجنرال بليار)[436] وهكذا غادرت الحملة الفرنسية مصر بغير رجعة ولكن بعد أن لفتت نظر بريطانيا العظمى لموقع مصر الذي أصبح حلمًا لبريطانيا قامت بتحقيقه بعد ذلك في سنة 1882 م.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس عشر

أبرز القادة في عصر أسرة محمد علي

أسماء حكام مصر من أسرة محمد علي:

1. والي مصر (محمد علي) باشا فترة الحكم حوالي 43 سنة من17/5/1805 إلي1/9/1848 توفي في 2/8/1849.

2. والي مصر (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) فترة الحكم حوالي شهرين من 2/9/1848إلي10/11/1848توفي في 10/11/1848.

3. والي مصر (عباس حلمي) الأول ابن (أحمد طوسون) باشا ابن (محمد علي) فترة الحكم حوالي 6 سنوات من 10/11/1848 إلى 13/7/1854 اغتيل في يوليو 1854 توفي والده أحمد طوسون باشا في حياة محمد علي.

4. والي مصر (محمد سعيد) باشا ابن (محمد علي) كان أصغر من عباس الأول ابن اخيه وحكم مصر حوالي 8.5 سنة من 14/7/1854إلى 18/1/1863 توفي في يناير 1863.

5. والي ثم خديوي مصر الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) حكم مصر حوالي 15.6 سنة من 19/1/1863 إلى أن تم عزله سنة 26/6/1879 توفي سنة 1895 بالآستانة ودفن بالقاهرة وفي عهده تم افتتاح قناة السويس.

6. خديوي مصر الخديوي (محمد توفيق) ابن الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) حكم مصر حوالي 10.5 سنة من 26/6/1879 إلى 7/1/1892توفي سنة 1892 وفي عهده قامت الثورة العرابية واحتلت بريطانيا مصر سنة 1882.

7. خديوي مصر الخديوي (عباس حلمي) الثاني ابن الخديوي (محمد توفيق) ابن الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) حكم مصر حوالي 22 سنة من 8/1/1892 إلى 19/9/1914 توفي سنة 1944 عزله الإنجليز مع بداية الحرب العالمية الأولى

8. سلطان مصر السلطان (حسين كامل) ابن الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) حكم مصر حوالي 3 سنوات من 19/12/1914 إلي 9/10/1917 أعلنه الإنجليز سلطانًا لتستقل مصر رسميًا عن الدولة العثمانية تمامًا وفرضوا الحماية على مصر وتوفي سنة 1917

9. سلطان ثم ملك مصر الملك (فؤاد) الأول ابن الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) حكم مصر حوالي 19 سنة من 9/10/1917 إلى 28/4/1936 قامت في عهده ثورة 1919 وفي عهده تم رفع الحماية الإنجليزية عن مصر وتوفي سنة 1936

10. ملك مصر الملك (فاروق) الأول ابن الملك (فؤاد) الأول ابن الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي)حكم مصر حوالي 16 سنة من 28/4/1936 إلى 26/7/1952 تنازل عن العرش لابنه تحت ضغط ثورة 23 يوليو

سنة 1952 وتوفي في إيطاليا سنة 1965 ودفن في مصر بمسجد الرفاعي 1936

11. ملك مصر تحت الوصاية الملك (أحمد فؤاد) الثاني ابن الملك (فاروق) الأول ابن الملك (فؤاد) الأول ابن الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) حكم مصر تحت والوصاية سنة واحدة تقريبًا من 26/7/1952 إلى 18/6/1953 تم إعلان الجمهورية يوم 18/6/1953 وكان الملك طفلًا صغيرًا تحت الوصاية[437]

ما سبق كان بيان بجميع أسماء من حكم مصر من أسرة محمد علي، وفيما يلي سنلقي الضوء علي بعض الشخصيات فقط في هذه الأسرة فمنهم شخصيات بارزة ومنهم من عاصر شخصيات بارزة[438] أو حدث في عهده أحداث مهمة قد لا يكون هو شخصيًا سببًا رئيسيًا في حدوثها، وسنبدأ بمؤسس الأسرة بالطبع محمد علي باشا

محمد علي باشا:

خمس سنوات تقريبًا (1801-1805م) هي الفترة بين جلاء الحملة الفرنسية وبين تولي محمد علي باشا حكم مصر وكانت أحوال مصر خلال هذه السنوات الخمسة في غاية الاضطراب فقد تصارعت عدة قوى على الحكم والطريف أن محمد علي شخصيًا كان وراء هذه الاضطرابات والعقل المدبر لها أو على الأقل لمعظمها فكان يستخدم جميع الوسائل المتاحة من قوة ودهاء ليضمن عدم سيطرة أحد الفرق المتصارعة وعدم استقرار الأمور لأي فريق منهم في مصر كما كان يتقرب من الزعامة الشعبية ويراهن عليها

فالشعب هو القوة الباقية التي يمكن أن تمنحه حكم مصر وسط كل هذه الصراعات وكانت الحملة الفرنسية قد أشعلت روح الجهاد في الشعب المصري وتسببت في إفاقته من سباته العميق ربما دون أن تقصد ولكن من هو محمد علي وما هي الأساليب التي استخدمها ليصل إلى حكم مصر وما الذي دار خلال هذه السنوات الخمسة؟

ولد محمد علي سنة 1769 م[439] ونشأ بمدينة قولة من ثغور مقدونيا وكان منذ صغره يبدو عليه النبوغ والجرأة واقتحام المخاطر وروح المغامرة منذ التحق بالجيش وكان يميل إلى حل المواقف والمشاكل الصعبة بطرق غير تقليدية تعتمد على الذكاء الحاد وسرعة البديهة وانتهاز الفرص المناسبة بغض النظر عن أي اعتبارات أخرى، ومارس محمد علي لفترة تجارة الدخان مما جعله يكتسب خبرة كبيرة في المسائل التجارية والاقتصادية وكان لا يعرف القراءة والكتابة.

ثم ترك محمد علي تجارة الدخان وعاد مرة أخرى إلى الحياة العسكرية وعندما قام السلطان العثماني بتجميع جيش كبير لقتال الحملة الفرنسية في مصر طلب من كل حاكم ولاية أن يرسل قوة لتنضم إلى هذا الجيش (صدر الأمر إلى متصرف قولة بتقديم ما لديه من الجنود فألف كتيبة من ثلثمائة جندي انضم محمد علي في سلكها)[440] ووصلت هذه القوة مع مثيلاتها تحت قيادة حسين قبطان باشا إلى أبي قير في شهر مارس سنة 1801 م على متن السفن العثمانية ومنذ ذلك التاريخ شهد محمد على كل الأحداث وحتى جلاء الحملة الفرنسية وكان محمد علي من ذلك الطراز من القادة الذين عرفوا إمكانيات مصر جيدًا وعلى حد تعبير الأستاذ جمال بدوي عنهم (وضعوا

أيديهم على مفتاح شخصيتها فباحت لهم بسرها وجعلت منهم حكامًا يلهج بذكرهم التاريخ)[441]

وعندما تقرأ عن الأحداث التي مرت بها مصر خلال السنوات الخمسة التي أعقبت جلاء الفرنسيين عن مصر تشعر أن محمد علي كان يلعب بالنار في جرأة وشجاعة يحسد عليها، وكان الرجل الثاني في القوة الألبانية الموجودة بمصر ضمن قوات الجيش العثماني.

وقد قام السلطان العثماني بتعيين عدة ولاة على مصر خلال هذه الفترة واحدًا تلو الآخر ولكن لم يصمد أحد منهم وسط الظروف التي كانت تحيط به، وكان أول والي بعد جلاء الحملة الفرنسية مباشرة هو خسرو باشا ثم أحمد باشا ثم علي باشا الجزائرلي أما آخر والي فكان اسمه خورشيد باشا وكل هؤلاء لم يتمكنوا من فرض سيطرتهم علي مصر وقد يكون السبب في ذلك هو محمد علي نفسه.

فيقول عن هذه الفترة المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي (كان محمد علي هو الرأس المدبر للحملة على خسرو باشا ثم علي أحمد باشا ثم على علي باشا الجزائرلي، ولكنه ظل بعيدًا عن الميدان وترك عثمان بك البرديسي " من زعماء المماليك " يأتمر بعلي باشا الجزائرلي ويتولى أمر قتله ليحتمل تبعة هذا العصيان الخطير في نظر الباب العالي إذا ما جاء وقت الحساب، والواقع أن مقتل الجزائرلي كان فيه القضاء على مظهر السلطة العثمانية في مصر وبذلك تخلص محمد علي من إحدى القوتين اللتين كان يعمل على سحقهما ولم يبق أمامه إلا قوة المماليك فبدأ العمل على التخلص منها وتمهيدًا لهذه الغاية ترك لزعماء المماليك السلطة ظاهرًا حتي يحملهم تبعة

الحكم ومساوئه ويجعلهم هدفًا لسخط الشعب)[442] (كانت الفرصة سانحة ليحقق محمد علي آماله ويتولى سلطة الحكم في مصر فالمماليك قد دالت دولتهم والقوة التركية قد تلاشت من البلاد والوالي التركي في القلعة سجين وليس ثمة قوة حربية سوى الألبانيين " الأرناؤوط " الذين تحت قيادته ولكن محمد علي كان طويل الأناة بعيد النظر فرأى ألا يصل إلى سلطة الحكم بقوة الجند وآثر أن ينتظر حتى يصل إلى تلك الغاية بإرادة الشعب وبذلك يبرهن أنه لم يناوئ المماليك لمطامع شخصية بل لمحض الصالح العام فيزداد الشعب تعلقًا به)[443]، (وصل خورشيد باشا إلى بولاق في أواخر مارس سنة 1804 وهو خامس من تقلد ولاية مصر.فأولهم خسرو باشا وقد خلع، ثم طاهر باشا وقد قتل ثم أحمد باشا وقد طرد ثم علي باشا الجزائرلي وقد قتل، ثم خورشيد باشا وفي عهده قامت الثورة)[444]، (وأسقط في أيدي المماليك ورأوا أنفسهم حيال قوتين ثورة الأهالي من جهة وجنود محمد علي من جهة أخرى فلم يجدوا سبيلًا للنجاة سوي الفرار من القاهرة)[445]

(وكان خورشيد باشا سيء الرأي فاسد التدبير ميالًا إلى الظلم غير مكترث بميول الشعب معتمدًا على القوة الغشوم،تعددت مظالمه فتدخل العلماء غير مرة لرفعها عن الناس – ففي عهده قوى سلطان العلماء وبلغ نفوذهم أقصى مداه حتى أثاروا الشعب واقتلعوا بقوته الوالي عن كرسي ولايته وأجلسوا محمد علي مكانه ولم يسبق لهم هذا النفوذ من قبل)[446] وهكذا ثار الشعب على الوالي خورشيد باشا بالقوة وكان زعيم الثورة وقائدها هو السيد عمر مكرم الذي أعطى السلطة لمحمد علي بعد أن أخذ منه العهود والمواثيق أن يعدل بين الناس وأن يحكم البلاد بما يرضي الله، وأرسل الشعب المصري إلى السلطان العثماني يطلب منه تعيين محمد علي واليًا علي مصر

واستجاب السلطان لرغبة الشعب وأرسل فرمانًا بتولية محمد علي حكم مصر، ولم تتوقف الحرب بين الشعب والوالي إلا عند وصول هذا الفرمان من الأستانة يوم 9 يوليو سنة 1805 م[447] ونزل خورشيد باشا من القلعة وهو يعتبر آخر والي تم تعيينه بإرادة السلطان العثماني قبل تولي محمد علي، أما محمد علي فكان تعيينه بإرادة الشعب ممثلًا في زعمائه وقبل كل هذا وبعده إرادة المولى عز وجل

ويقول عبد الرحمن الرافعي: (من الراجح أن محمد علي باشا كان يميل في ذات نفسه إلى التخلص من الزعامة الشعبية التي أجلسته على قمة المجد، لأن هذه الزعامة كانت في هذه السنوات الأولى من حكمه بمثابة سلطة ذات شأن تستقصي عليه وتراقب أعماله مراقبة مستمرة وكانت ملجأ الشاكين ممن ينالهم الظلم.ولئن كان محمد علي مدينًا للزعامة الشعبية بولاية الحكم وتثبيته وتذليل العقبات التي اعترضته وإحباط الدسائس والمؤامرات التي تدبر له فإن السلطة في ذاتها من شأنها أن تطغى صاحبها وتنزع به إلى الاستبداد بالأمر، فمحمد علي بعد أن استقر في الحكم وثبتت أقدامه طمحت نفسه إلى الاستبداد بالأمر وبدأ يشعر بالغضاضة من تدخل العلماء وأهل الرأي في شئون الحكم وسعيهم في دفع المظالم عن الناس)[448].

ويقول الجبرتي: (ولما انقضى هذا الأمر واستقر الباشا وأطمأن خاطره وخلص له الإقليم المصري - - فأول ما بدأ به أنه أبطل مسموح المشايخ والفقهاء ومعافى البلاد التي التزموا بها. واغتروا بذلك واعتقدوا دوامه وأكثروا من شراء الحصص من أصحابها بدون القيمة وافتتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم إلا بمقدار حفظ الناموس مع ترك العمل بالكلية

وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمراء. واتخذوا الخدم والأعوان وانقلب الوضع فيهم بضده وصار ديدنهم واجتماعهم ذكر الأمور الدنيوية والحصص والالتزام وأوقع مع ذلك زيادة عما هو بينهم من التنافر والتحاسد والتحاقد علي الرياسة)[449].

ويؤكد الرافعي أن السيد عمر مكرم لم يخضع لمغريات محمد علي باشا (فلم تلن قناته للمنافع والمغريات ولم تزعزعه الكوارث والتهديدات وقد ظل يمثل النزاهة والاستقامة حتى آخر نسمة من حياته وأيده في مسلكه بعض الشيوخ ولكن أغلبيتهم قد انصرف إلى أسباب المنافع والاستكثار من الأموال والضياع والدور والقصور)[450].

أما المؤرخ الكبير جمال بدوي فكتب يقول عن هذا الموقف ما يلي، (فبعد تولية محمد علي وانفراده بالحكم ونكوصه عن العهود والمواثيق التي أقسم على احترامها كان عليه أن يزيح عمر مكرم ثم ينفيه إلى دمياط وطنطا تنفيذًا لتعليمات مكيافيللي التي تنصح الأمير بأن يطيح بكل الذين ساعدوه على الوصول إلى الحكم ووجد محمد علي تشجيعًا وتأييدًا – بل تحريضًا – من مشايخ الأزهر للخلاص من عمر مكرم مقابل انعامات رخيصة أغدقها عليهم ثم استردها منهم بعد أن استخدمهم في التآمر على زعيمهم وعندما ذهبوا إليه محتجين على إلغاء امتيازاتهم لم يجدوا منه سوى أقذع العبارات وهي نتيجة طبيعية لمن يبيع نفسه ثم يعجز عن استردادها مرة أخرى بعد أن تكون النفس قد تلوثت وفسدت)[451]

وبعد أن كسر محمد علي شوكة المشايخ وقام بنفي كبيرهم السيد عمر مكرم خارج القاهرة بعيدًا عن الأحداث قرر أن يتخلص من الأمراء والقادة

المماليك الذين أعطاهم الأمان وجعلهم يتركون ساحات القتال وسكنوا بالقاهرة وعاشوا حياة كريمة غير متطلعين للحكم فقام بدعوتهم لحضور احتفال ضخم وفخم بالقلعة لوداع ابنه أحمد طوسون باشا الذي كان متوجهًا على رأس جيش لمهمة خارج البلاد وكان يوم الجمعة أول مارس سنة 1811م[452] (وقبل ابتداء الحفلة دخل البكوات المماليك على محمد علي باشا في قاعة الاستقبال الكبري فتلقاهم بالبشر والحفاوة وقدمت لهم القهوة وشكرهم الباشا على إجابتهم دعوته وألمع إلى ما ينال ابنه من التكريم إذا ما ساروا معه في موكبه فأجابوه بالشكر. وعندئذ نهض المماليك وساروا إلى حيث يأخذون مكانهم في الموكب الفخم)[453] وكان الموكب يتواجد به مجموعات من الجنود تسير أمام وخلف مجموعة المماليك، وكان يمر بمنطقة شديدة الضيق بالقلعة وفي نهايتها باب خرج منه مقدمة الموكب ثم تم إغلاقه علي المماليك والجنود وانهال عليهم ضرب النار من أعلى الأماكن المجاورة لهذا الممر الضيق (لم يستطع المماليك دفاعًا عن أنفسهم ولم يكن لديهم الوقت ولا القدرة على الحركة أو الرجوع القهقري أو النزول عن جيادهم لضيق المكان الذي حصروا فيه ولأنهم جاءوا الاحتفال من غير بنادق ولا رصاص ولم يكونوا يحملون سوى سيوفهم وهيهات أن تعمل السيوف في ذلك الموقف شيئًا فانصب عليهم الرصاص وحصدهم حصدًا وجاءهم الموت من كل مكان)[454]، (وهكذا دخل القلعة في صبيحة ذلك اليوم أربعمائة وسبعون من المماليك وأتباعهم قتلوا جميعًا ولم ينج منهم إلا واحد اسمه أمين بك فإنه كان في مؤخرة الصفوف)[455] وقفز بجواده من فوق سور القلعة وتلقى الجواد الصدمة ونجا هو وفر متنكرًا إلى أن وصل سوريا فيما بعد، وكانت المذبحة مؤامرة محكمة من محمد علي استطاع أن يقتل فيها من لم

يستطع أن يقتله في ساحات القتال حيث الأماكن المخصصة للقتل الشريف، أما ما فعله الباشا فهو غدر بكل ما تحمله هذه الكلمة من معاني وقد علق المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي على هذه المذبحة فكتب الآتي: (تلك هي الواقعة الشهيرة بمذبحة القلعة ونحن هنا لا نريد أن ندافع عن المماليك،ولكن مهما بلغت سيئاتهم فإن القضاء عليهم بوسيلة الغدر أمر تأباه الإنسانية ولو أن محمد علي باشا استمر في محاربتهم وجهًا لوجه حتى تخلص منهم في ميادين القتال لكان ذلك خيرًا له ولسمعته)[456]، ويقول المسيو جومار وهو الذي جعله محمد علي باشا مديرًا لأول بعثة مدرسية مصرية في فرنسا (لو أمكن محو تلك الصحيفة الدموية من تاريخ مصر لما صار محمد علي هدفًا لأحكام التاريخ القاسية- ويضيف الرافعي فيقول: ومن جهة أخري فإن الفتك بالمماليك علي هذه الصورة الرهيبة قد كان له أثر عميق في حالة الشعب النفسية لأن مذبحة القلعة أدخلت الرعب في قلوب الناس وكان من نتائجها أن استولت الرهبة علي القلوب فلم يعد ممكنًا إلى زمن طويل أن تعود الشجاعة والطمأنينة إلى نفوس الناس)[457]

وهكذا انفرد محمد علي باشا بالسلطة في مصر[458] وقرر أن يصبح المالك الوحيد لجميع الأراضي الزراعية بل والتاجر الوحيد والصانع الوحيد أيضًا فقد امتلك مصر كلها ونهض بها كمشروع خاص به ولأولاده من بعده وجعلها مصر الحديثة وقد اخترت لك ما كتبه الأديب والمؤرخ إلياس الايوبي (1874-1927) الذي وصف بإيجاز بليغ إنجازات محمد علي باشا فكتب ما ملخصه:

أما ما كان من نقله مصر إلى بيئة غير البيئة التي وجدها فيها فقد عمل ذلك:

أولًا بأن أقلع عن طريقة الحكم التي سبقت عهده فاحتاط بديوان مؤلف من نخبة الرجال المحنكين دعاه الديوان الخديوي

ثانيًا أنشأ من أبناء البلد جيشًا زاهرًا مدربًا على الطريقة الغربية، بالرغم من صعاب كانت الواحدة منها كافية لتفل الحديد وتدك الجبال، وأنشأ بجانب هذا الجيش عمارة بحرية فخمة جولت الراية المصرية مهابة معظمة في مياه البحر المتوسط ومياه البحر الأحمر وأنشأها من العدم وبالرغم من من عدم وجود مادة واحدة لديه من المواد اللازمة لبنائها.

ثالثًا بأن جدد بجدة المعارف بتغييره برامج التعليم وطرقه، ففتح محمد علي المدارس تتري، ابتدائية وثانوية وعالية، فالمدارس الابتدائية كانت سبعًا وأربعون، والمدارس الثانوية والعالية والخصوصية كانت أربعًا وعشرين، منها مدرسة القصر العيني ومدرسة اللغات ومدرسة المعادن ومدرسة الطب البيطري ومدرسة الطب والتوليد ومدرسة الموسيقى... إلخ، ولم يكتف بذلك بل أرسل البعثات تلو البعثات إلى المعاهد الأوروبية، وإضافة إلى المدارس إقامة المعامل والمصانع في طول البلاد وعرضها، لتتمكن البلاد من الاستغناء جل الاستطاعة عن الواردات الأجنبية.

رابعًا بأن غطي وجه القطر بالأشغال والأعمال المفيدة فمن سد أبي قير إلى سد الترعة الفرعونية إلى سد فتحة بحيرة المنزلة إلى تقوية جسر قشيش وهو الذي كان يصون مديرية الجيزة من الغرق إلى بناء جسر لسد قطع في البحر اليوسفي، إلى تعزيز قنطرة اللاهون.

إلى حفر الترع العديدة وأهمها المحمودية والخطاطبة ومسد الخضراء والنعناعية والسرساوية والباجورية والبوهية والمنصورية والشرقاوية إلى إقامة قناطر حاجزة عليها ومسهلة للري، إلى بناء الترسانة وحوض تصليح السفن، وتشييد قناطر بحر شبين، والقناطر الخيرية الكبرى وهي معجزة أعماله، إلي ابتناء الحصون والقلاع على السواحل المصرية وابتناء السرايات العديدة، وأهمها سراي رأس التين، وسراي شبرا، وسراي قصر النيل، إلى الشروع في تحويل الأزبكية إلى منتزه عمومي إلى غير ذلك من الأعمال العظيمة التي غيرت وجه القطر تغييرًا محسوسًا.

خامسًا بأن هدم الحواجز التي كانت العصور السالفة قد أقامتها بين تعامل الغرب والشرق ومكن العالمين من الاختلاط معًا لا بالإتجار الواسع فحسب بل بالاحتكاك اليومي، فحبب إلى الغربيين المجئ إلى القطر واستغلال رؤوس أموالهم في أرضه، وإنشاء مدارس لأولاهم على سطحه، وفتح أمام قومه أبواب السفر إلى الغرب، والتعرف بحاله والاقتباس عنه.

سادسًا بأن سن قانونًا للبلد كل مواده متشربه بالرغبة في فتح عصر جديد للأمه[459]

وهكذا نهض محمد علي بمصر وأصبح مؤسس مصر الحديثة التي كان جيشها من أقوى الجيوش في المنطقة وكان ينفذ أوامر السلطان العثماني ويرسل الجيش حيث يريد السلطان، حتى شعر بمدى ضعف الدولة العثمانية ومدى قوة الجيش المصري الذي كان يقاتل بالنيابة عن الدولة العثمانية وينجح في ما يفشل فيه الجيش العثماني، وبالتالي قرر أن يقاتل الدولة العثمانية ويعلن استقلال مصر وبالفعل استطاع الجيش المصري بقيادة إبراهيم باشا التقدم

نحو سوريا وفلسطين ولبنان وسيطر على مساحات شاسعة من الأراضي حيث كاد يزحف نحو الأناضول في اتجاه عاصمة الدولة العثمانية نفسها، وكان إبراهيم باشا عبقري من عباقرة القيادة العسكرية والخطط الحربية حتى أنه استطاع أن يفتح عكا التي لم يتمكن نابليون من فتحها منذ سنوات قليلة وقد استطاع محمد علي أن يحقق حلم نابليون في تكوين إمبراطورية في الشرق تكون قاعدتها مصر، وبعد انتصارات جيشه المتلاحقة على الجيش العثماني[460] واتساع رقعة ملكه واجه خطرًا كبيرًا لم يتمكن من مواجهته.

وهذا الخطر يتمثل في إنجلترا وفرنسا، ولكن كيف سمحت أقوى دولتين في العالم في ذلك الوقت بانتفاخ محمد علي إلى هذا الحد وتكوين هذه الدولة المصرية القوية الناهضة وهل كان صعود دولة محمد علي تحت مراقبة الدول الكبري وبحساب بحيث يتم إيقافه في أي وقت؟ وقد حدث أن قامت الدول الكبرى بإجبار محمد علي على الانسحاب من كافة الأراضي التي فتحها الجيش المصري عدا السودان بل الأكثر من هذا تم إجباره علي تخفيض عدد الجيش المصري وتم إجباره على عدم تصنيع سفن حربية وتكوين أسطول مصري أي بمعنى أصح تم تقليم أظفاره، وقد يكون الأمر أن محمد علي تم استغلاله لتحقيق أهداف معينة وبعد أن تم تحقيقها قاموا بالقضاء على طموحاته الشخصية وهناك رأي آخر يقول أن الدول الكبرى ساعدت محمد علي في البداية عندما أيقنت أن البعد الديني لديه ليس له حساب وأنه من السهل علمنة الدولة على يديه وإنهاك آخر دولة إسلامية كبرى متمثلة في الدولة العثمانية لتقسيمها فيما بينهم كما حدث بعد ذلك وهناك آراء عديدة مختلفة حول شخصية محمد علي التي حيرت المؤرخين فمثلًا يقول الدكتور علي الصلابي (لقد كان الجبرتي معاصرًا لسياسة الظلم التي مارسها محمد

علي على الشعب المسلم في مصر الذي امتص حقوقه وخيراته وفتح للتجار الأوروبيين الباب على مصراعيه لدخول مصر والهيمنة على اقتصادها، وأصبحت مصر هي المزرعة التي تعتمد عليها أسواق أوروبا من المنتجات الزراعية وارتبطت مصر بأوروبا ارتباطًا حضاريًا وتجاريًا وأصبح اعتماد طبقة التجار الناشئة في مصر على الأسواق الأوربية من الناحية الإقتصادية وبالتالي السياسية إلى جانب تمكين دعاة الثقافة الأوروبية من السيطرة على الحياة الفكرية بعد أن شل دعاة الاتجاه الإسلامي وأوقف مناهج التعليم القائمة علي الدين تنفيذًا لسياسة نابليون الماسونية وهو أمر أكده المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي في قوله " كان محمد علي ديكتاتورًا أمكنه تحويل الآراء النابليونية إلى حقائق فعالة في مصر)[461] وقد ورد أيضًا عن محمد علي أنه قال للفرنسيين وهو يفاوضهم على مسألة احتلالهم للجزائر (ثقوا أن قراري لا ينبع من عاطفة دينية فأنتم تعرفونني أنني متحرر من هذه الاعتبارات التي يتقيد بها قومي)[462]

والجدير بالذكر أن محمد علي بعد أن شعر بالقهر من الدول الكبري ساءت حالته وكان قد كبر سنه

وفقد القدرة على التركيز في آخر أيامه حتي قيل أنه قد أصابه نوع من أنواع الجنون.

(فعقد ابراهيم باشا مجلسًا خاصًا برئاسته واستقر رأى المجلس على أن يتولي إدارة شئون الحكومة بدل أبيه فتولي الحكم في إبريل سنة 1847م وأبلغ الأمر إلى الباب العالي[463] فأرسل إليه في يوليو فرمان التقليد، وقد عني ابراهيم باشا مدة حكمه القصير بتقوية ثغور البلاد وحصونها وتجديد قوتها

الحربية ولكن عاجلته المنية في 10 نوفمبر سنة 1848م، وتوفي وله من العمر ستون سنة هلالية - - وبعد وفاة إبراهيم ولي الحكم عباس باشا الأول، ومازال محمد علي مصابًا بمرضه العضال إلى أن توفي يوم 13 رمضان سنة 1265 هـ " 2 أغسطس سنة 1849 " بسراي رأس التين بالإسكندرية ونقلت جثته إلى القاهرة وشيعت جنازته باحتفال مهيب ودفن بمسجده بالقلعة حيث يرقد رقدته الأبدية)[464] وهكذا مات الرجل الذي صنع من مصر دولة مستقلة ذات سيادة وبعد أن أسس بها مشاريع عملاقة وهو بلا شك شخصية فذة يندر أن تتكرر في التاريخ (على أن من الواجب أن نقرر إثباتًا للحقيقة من جميع نواحيها أن الشعب لم يتحرر من الشقاء في عصر محمد علي، فقد وقع عليه إرهاق ومظالم كثيرة ويحق لنا من هذه الناحية أن نقول إن أعمال الإصلاح التي تمت في عصر محمد علي لم ينتفع بها الجيل الذي عاش في ذلك العصر بل انتفعت منها الأجيال التي توالت من بعده، أما جيل محمد علي فقد فدحته أعمال السخرة والإرهاق ولم يتذوق طعم الحرية الشخصية ولا حق الملكية فلعلك تذكر أن محمد علي قد تملك كل أراضي مصر ووضع نظام احتكار الحاصلات الزراعية وبيعها، كما احتكر التجارة والصناعة وقد أساء هذا النظام إلى الشعب إساءة كبرى لأنه ضرب عليه حجابًا من الفقر والجمود، وإذ تكلمنا عن المظالم التي أرهقت الشعب في عهده فمن الحق أن نقول أنها أخف وطأة من المظالم التي كانت تقع في عصر المماليك)[465] كان هذا جزء من رأي المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي في محمد علي وأضاف أيضًا (فإذا نحن نظرنا إلى تاريخ محمد علي في مجموعه حكمنا من غير تردد أنه مؤسس الدولة المصرية الحديثة ومحقق الاستقلال القومي وباعث نهضة الإصلاح والعمران في مصر وأنه من هذه الناحية أكبر بناء في صرح القومية

المصرية.فلو لم يتولى محمد علي حكم البلاد لبقيت رازحة تحت حكم التقهقر والفوضى كما بقيت سائر ولايات السلطنة العثمانية كالعراق وسورية وفلسطين أو لاحتلتها دولة من دول الاستعمار كما احتلت فرنسا الجزائر سنة 1830م)، وقد تم الاحتلال على أي حال في عهد أحد أحفاد محمد علي[466]

عباس الأول[467] 1848-1854:

ولي عباس الحكم بعد وفاة عمه إبراهيم وفي حياة جده محمد علي إذ كان أكبر أفراد الأسرة العلوية سنًا وبالتالي أحقهم بولاية الحكم بعد إبراهيم، وهو ابن طوسون ابن محمد علي، ولم يرث عباس عن جده مواهبه وعبقريته ولم يشبه عمه إبراهيم في عظمته. وكان محمد علي قد توفي في 2 أغسطس 1849 بسراي رأس التين ونقل جثمانه إلى القاهرة ودفن بمسجده في القلعة، وكان في استقبال جثمانه جميع أفراد الأسرة الباقين على قيد الحياة ولم يتخلف سوى عباس، وخلال الفترة التي حكم فيها عباس والتي استمرت خمس سنوات ونصف غدا عباس غريب الأطوار. سيئ الظن بالناس ولهذا كان كثيرًا ما يأوي إلى العزلة ويحتجب بين جدران قصوره التي كان يتخير لبنائها الجهات الموغلة في الصحراء أو البعيدة عن العمران، من هذه القصور البعيدة عن العمران القصر الضخم الذي شيده في صحراء الريدانية التي سميت منذ ذلك الحين باسم العباسية نسبة إليه.وفي عهد عباس أصبح الفلاح آمنًا في حقله من اللصوص، ذلك أن عباس قد عني باستتباب الأمن فضرب على أيدي الأشقياء وقطاع الطرق وطاردهم وعاملهم بقسوة فخشوا بأسه وانقطع دابرهم وأمن الناس شرورهم، كما أصبح الفلاح آمنًا من تصرفات رجال الجندية وأعمال السخرة وذلك لقلة عدد الجيش ولعدم وجود أشغال

عامة كحفر القناطر، وترتب على قلة المصروفات بسبب هذه الخطة التي اتبعها عباس أن خفت الضرائب، ولم يفرض عباس أي ضرائب جديدة على الفلاحين، وفي ذلك يذكر نوبار في مذكراته أن ناظر المالية اقترح عليه فرض ضريبة جديدة وقد سأله عباس: هل ميزانيتنا متوازنة؟ وجاء الرد أن الميزانية متوازنة بل وهناك فائض في الإيراد وعندئذ قال له عباس: إذن في هذه الحالة ما ضرورة فرض عبء جديد إنها جريمة وخطيئة،حذار من الآن لا تطرح أمامي مثل هذه الاقتراحات

وفي عهد عباس ألغى نظام الاحتكار، فعم الرخاء واغتبط الفلاح بثمرة كده وعمله، ففي سنة 1849 أصدر عباس قرارًا بإلغاء احتكار شراء الكتان من الفلاحين وقد جاء في هذا القرار (طلبًا لرفاهية الأهالي وفائدتهم كان محصول الكتان بمديرية المنوفية يورد للأشوان الأميرية بسعره المعلوم ولكن ظهر بعد البحث والتنقيب أن هذا الصنف إذا لم يورد في الأشوان ويباع بيد أصحابه يكون أفيد وأولى لراحتهم ولرفاهية الرعية ولذلك قرر المجلس المنعقد يوم الأربعاء 26 ذي الحجة 1264هـ في القلعة أن يرخص للأهالي في بيع محصولهم كما يريدون وقد وافق لدينا اتباع ذلك)، وأعقب إلغاء نظام الاحتكار في عهد عباس أن انطلق التجار الشوام واليونانيون إلى أنحاء الريف المصري سعيًا وراء شراء المحاصيل من الفلاحين، ووجد الفلاحون المجال أمامهم واسعًا لبيع حاصلاتهم وتسلم الثمن نقدًا، وشهد عهد عباس تقدمًا من ناحية الإدارة لم يعرفه عهد محمد علي، فقد انتظمت مرتبات الموظفين بفضل سياسة صارمة في التدبير والتوفير وأصبح الموظفون يتقاضون مرتباتهم في موعدها بعد أن كانوا في أيام محمد علي ينتظرون 15 أو 20 شهرًا لتسلم هذه المرتبات، وفي عام 1852 شرع عباس في مد السكة

الحديدية بين الإسكندرية والقاهرة، وقد اعتقد عباس أن جده محمد علي قد أفسح المجال للنفوذ الأوروبي في مصر ولذا فقد مضى في سياسة الحذر من الغرب، فعمل على هدم النفوذ الأوربي في مصر، إذ كان يعتقد أنه إذا ما تحتم عليه الخضوع لأحد فليكن للخليفة العثماني وليس للأوروبيين وكان يري أن النضال بين السلطان والوالي لن يفيد سوى الأوروبيين ولن يؤدي إلا إلى الانهيار التام للإمبراطورية العثمانية بما فيها مصر، وقد نشبت الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا سنة 1853 فطلب السلطان عبد المجيد من عباس أن يمده بالجيش والأسطول فلبى عباس طلبه، وقد أبلى المصريون بلاءً حسنًا في هذه الحرب التي استمرت إلى عهد سعيد فقد استطاع الجيش المصري أن يكسر هجمات الروس في سنة 1854، على الرغم من السلبيات التي شهدها عصر عباس الأول من إهمال للتعليم وإغلاق للمصانع وانحطاط الجيش والبحرية فإن عصره قد تميز بعدم التدخل الأجنبي في البلاد، وعدم اللجوء إلى الاستدانة، ولم يترك أي دين على حكومة البلاد، ولم يثقل خزانة البلاد بالديون الأجنبية التي كبلها خلفاؤه من بعده وكان يجتهد دائمًا في سد عجز الميزانية دون أن يلجأ إلي القروض[468].

أما ما حدث بعد عهد عباس الأول فيما يتعلق بالتدخل الأجنبي في مصر فحدث ولا حرج فإذا كان عباس الأول قد لبي طلب السلطان العثماني وأرسل الجيش لقتال روسيا فإن سعيد باشا قد أرسل الجيش أيضًا ولكن إلى المكسيك وهو موقف تاريخي عجيب رواه الأستاذ جمال بدوي حيث كتب ما يلي: (من الجائز أن تجامل صديقك في أفراحه فترسل إليه بوكيه ورد أو بطاقة تهنئة، ومن الواجب أن تجامله في أحزانه وأزماته بعبارات تنم عن المشاركة الوجدانية، أما أن تجامله بإرسال الجيش ليحارب معه في بلاد

بعيدة، فهذا أغرب أنواع المجاملة التي سجلها تاريخ مصر الحديث، عندما بعث الوالي سعيد باشا بكتيبة من الجيش المصري لتخوض حربًا مع المكسيك مجاملة لإمبراطور فرنسا نابليون الثالث وفاء لروابط الصداقة بينهما.

كان نابليون الثالث يحلم بإقامة إمبراطورية فرنسية في العالم الجديد، فانتهز فرصة قيام ثورة في المكسيك ضد نظامها الجمهوري وعمل على إذكاء نارها، وحاول تحريض إنجلترا وأسبانيا لتدخل بحجة حماية الرعايا الأوروبيين، فلم تأبه الدولتان لتحريضه، فتحمل وحده مسئولية التدخل، بعث بقوات فرنسية تعرضت لهزائم متوالية، فلما تحرج موقفه لم يجد من ينقذه من ورطته سوي صديقه الحميم سعيد باشا، وأبت شهامة الوالي المصري أن يعتذر لصديقه بأن من غير المنطقي أن يذهب الجيش المصري ليحارب في بلاد لا تربطها بمصر صداقة أو عداء من بعيد أو من قريب، وإنما استجاب للاعتبارات الشخصية وقام بتجهيز كتيبة قوامها 1200 جندي وضابط تحت قيادة البكباشي السوداني خيرة الله محمد، وأبحرت الكتيبة إلى المكسيك في عام 1863 وخاضت المعارك التي فرضت عليها في شجاعة تحسد عليها حتى أن القائد الفرنسي وصف أفرادها بأنهم أسود وليسوا جنودًا وبعد أربع سنوات من الحرب اليائسة كانت الكتيبة قد فقدت معظم أفرادها بمن فيهم قائدها، ولم يبق منهم سوي 300 جندي عادوا إلى باريس في صحبة الجيش الفرنسي المهزوم، فاستعرضها الإمبراطور وأشاد بشجاعة أفرادها وخلع عليهم الأوسمة، وبعد وصولهم إلى الإسكندرية استعرضهم الخديوي اسماعيل – بعد وفاة سعيد – في قصر رأس التين وأمر بترقية بعض رجالها اعترافًا بشجاعتهم)[469]

الخديوي اسماعيل:

(تولى اسماعيل باشا ابن إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا حكم مصر سنة 1863م بتقليد من السلطان العثماني عبد العزيز، ولقد وجه إسماعيل باشا "الخديو اسماعيل" عنايته الفائقة إلى جيش مصر، فعمل على رفع مستواه العلمي وأنشأ له المدارس الكبيرة واستقدم بعض الخبراء العسكريين، كذلك نالت البحرية قسطًا كبيرًا من اهتمام الخديو إسماعيل فأخذ في أوائل حكمه يعتني بتجديد الأسطول فبعث النشاط في ترسانة الإسكندرية

وكان إسماعيل باشا يعمل على تكوين إمبراطورية مصرية عظيمة بالتوسع جهة الجنوب في أفريقيا بعيدًا عن حوض البحر المتوسط والمنطقة العربية، حتى لا تعارضه الدول الأوروبية كما عارضت جده محمد علي باشا من قبل، وفي طليعة حملات الجيش المصري فتح دارفور والتوسع في السودان الشرقي، كما أتم توسيع أملاكه السودانية من الجنوب، وعين الكولونيل شارلز جوردون حاكمًا لمديرية خط الإستواء سنة 1874م ومن قبله صمويل بيكر الذي مد نفوذ مصر حتى بحيرة فيكتوريا سنة 1871م، وفي عهد الخديو اسماعيل استقرت السيادة المصرية على جميع شاطئ البحر الأحمر الغربي إلى بربرة في الصومال، أما على النطاق الداخلي في مصر فقد نهض الخديو اسماعيل بالتعليم من أجل التعليم، فأنشئت مدارس الحقوق ودار العلوم بجانب مدرسة المهندسخانة والطب البيطري والفنون والصنائع والألسن والآثار، وأنشئت الجمعية الجغرافية وظهرت العديد من الصحف العلمية والأدبية، وفي أيامه أنشئت مئات من منشآت الري أهمها ترعة الإبراهيمية والإسماعيلية و 200 ترعة أخرى تقريبًا، أما في مجال الزراعة فاهتم الخديو

اسماعيل بزراعة القطن وقصب السكر لسد حاجة أوروبا منهما، وزادت الأراضي الزراعية في عهده مع إصلاح القناطر الخيرية، ومدت خطوط السكك الحديدية في الوجهين القبلي والبحري وأنشأ ما يزيد علي 5000 ميل من الأسلاك التلغرافية، وفي عهده استخدمت الطوابع لتوضع على خطابات البريد بل أنشأ هيئة البريد رسميًا، أما في مجال العمران فقد أنشأ كوبري قصر النيل وكوبري الجلاء ودار الأوبرا ودار الآثار المصرية ودار الكتب المصرية، وتم تمهيد شارع الهرم وشارع محمد علي وبناء جامع الرفاعي وافتتحت الملاحة في قناة السويس رسميًا في حفل بهيج سنة 1869م، وازدهرت المدن بالمباني الحديثة وازدانت بالقصور، مثل سراي عابدين[470]، وسراي الإسماعيلية، وسراي الجزيرة وسراي الجيزة[471] والقصر العالي وسراي الزعفران وسراي رأس التين وسرايات أخرى، مع حبه الشديد لبناء الحدائق والبساتين مثل بستان الجيزة وبستان الجزيرة وبستان الأورمان وبستان الأزبكية.

كما دعا اسماعيل باشا السلطان عبد العزيز[472] لزيارة مصر وهو أول سلطان عثماني يأتي لمصر منذ فتح السلطان سليم الأول لها سنة 1517م، واستغل اسماعيل باشا وجود السلطان وأغدق عليه العديد من الهدايا حتى حصل منه على فرمان سنة 1866م بتعديل نظام الوراثة في حكم مصر ليكون في أكبر أبناء إسماعيل – وكان من قبل في أكبر أبناء أسرة محمد علي بشكل عام – كما منح اسماعيل لقب خديو سنة 1867م، ويعتبر اسماعيل هو أول من وضع تماثيل العظماء في الشوارع مثل تمثال والده إبراهيم باشا، وأنشأ المحاكم المختلطة يشترك في الجلوس على منصاتها مع المصريين رجال القانون الأجانب، وقد أصدر الخديو اسماعيل سنة 1864م قرارًا بتكوين مجلس

شورى النواب وقد افتتحه سنة 1866م وكان عدد أعضائه 75 عضوًا ويعد هذا المجلس أول خطوة في سبيل إشراك المصريين في شئون البلاد[473]

ولتحقيق كل ما سبق كان لابد من توفير الأموال اللازمة فأقدم على اقتراض المال بدون حساب، وكان الخديو يعقد القروض بفوائد باهظة ويدفع عمولة للوسطاء، وفي سنة 1875م بيعت أسهم مصر في قناة السويس "وكانت حصتها 44%من الأسهم" بثمن بخس وهو 4 ملايين جنيه في وقت كانت تساوي فيه أكثر من 40 مليون جنيه ولجأ إلى بيع بعض المصالح الحكومية ورهن البعض الآخر، ومن هنا بدأ القلق يساور حملة سندات الديون المصرية وراجت حقيقة سوء أحوال مصر المالية الأمر الذي أدي إلى وثوب الأجانب، فاضطر اسماعيل لتهدئة خواطر دائنيه وتأمينهم على أموالهم إلى أن يحني رأسه للعاصفة ويتنازل عن كثير من سلطاته ونفوذه ويستدعي الخبراء والبعثات الأجنبية لفحص الحالة المالية في البلاد وطرق إصلاحها، مثل بعثة كييف وبعثة جوشن وجوبير وصندوق الدين ولجنة التحقيق حتى فرض الأجانب علي الخديو التنازل عن أملاكه وتخصيص مرتب سنوي له وتعيين وزارة مسئولة برئاسة نوبار باشا نوبريان الأرمني وعضوية السير رفرز ولسن للمالية ومسيو دي بلنيير للأشغال، ورأى الأجانب –اقتصادًا في المصروفات- توقف المشروعات والإصلاحات لسداد الديون وأرباحها مع زيادة الضرائب على الأهالي.

تقدم الأعيان وأعضاء مجلس شوري النواب إلى الخديو إسماعيل يطلبون وضع حد للتدخل الأجنبي مطالبين بتعيين حكومة وطنية وكانت استجابة الخديو إسماعيل لذلك الطلب حجر الزاوية في ضغط الدول الأوروبية على

السلطان لعزله، خاصة أن ألمانيا على غير انتظار تدخلت، متهمة الخديو إسماعيل بخرق الاتفاقات الدولية.

وخوفًا من إعطاء بسمارك مستشار ألمانيا ذريعة للتدخل في مصر بجانب اشتداد التيار الوطني حملت إنجلترا وفرنسا السلطان العثماني على عزل الخديو سنة 1879م)[474]

ولقد كانت شخصية الخديو اسماعيل ثرية جدًا واختلفت حولها الآراء وإليك بعض ما كتب عنه في بعض المراجع.

فمن ذلك وصف قنصل أمريكا في مصر في الفترة الواقعة بين 1876 حتى 1881 وهو "ألبرت لي فارمان"، المعاصر للسنوات الأخيرة من عهد الخديو إسماعيل؛ الذي استمر من 18 يناير 1863 حتى عزله ونفيه خارج البلاد 26 يونيو 1879، ومن الآثار المفيدة لهذا القنصل كتابه بعنوان:Egypt and its betrayal، ترجمه الأستاذ عبد الفتاح عنايت بعنوان "مصر وكيف غُدر بها"؛ ويقع الكتاب في 377 صفحة و 24 فصلًا يصف القنصل الأمريكي "فارمان" بالتفصيل أول واجب قام به في القاهرة، عند وصوله إليها 1879، وهو زيارة الخديو إسماعيل، في "قصر الجزيرة"[475] الواقع على الشاطئ الغربي للنيل في مواجهة المدينة، بالقرب من حديقة الحيوانات وحدائق النباتات، ويسهب في وصف الخديو إسماعيل: "... رحب بي الخديو في بلاده ولما كان لا يتكلم الإنجليزية فقد كانت محادثاتنا باللغة الفرنسية التي كان يتكلمها بطلاقة. لم يكن إسماعيل باشا جذابًا من الناحية الجسمانية، كان يبلغ من العمر حوالي السابعة والأربعين، قصير القامة، عريض المنكبين، ضخم الجثة، ولون بشرته أكثر سمرة من بشرة الأوروبيين، أما جفونه فكانت مرتخية، وكانت اليسرى

أكثر ارتخاء من اليمنى،وعندما تكون ملامحه ساكنة تبدو عيناه وكأنها نصف مغلقة، وكانت حواجبه فاحمة اللون، خشنة، كثة الشعر وبارزة إلى الأمام، أما لحيته البنية الداكنة فكانت قصيرة، وأذناه كبيرتان وليست من الحسن بمكان" ـ لكنه في محاولة لإنصاف إسماعيل يشهد بأنه: " رغم كل نقائصه و مساوئه الجسمانية كان محدِّثًا ممتعًا، يبتسم في كثير من الأحيان، بشوشًا دائمًا ومُثيرًا للإهتمام. كان صوته هادئًا يبعث على السرور وألفاظه مُنتقاه ومُعبّرة، فائق الذكاء ولديه معلومات دقيقة حتى عن التفاصيل التي تخص حكومته وشئونه الخاصة الشاسعة، وتبرهن نظراته الحادة الثاقبة، حينما تكون عيناه مفتوحتين من أثر حديث شائق، وإجابته السريعة الدقيقة، ومعلوماته الخاصة بموضوعات ليس من المفروض أصلًا أن يكون ملما بها، تبرهن لكل هؤلاء الذين استمتعوا بالحديث معه أنه رجل يمتاز بقدرة غير عادية، أضف إلى ذلك أنه كان يملك القدرة النادرة على أن يكتسب ثقة زائره بأن يزيح عن كاهله كل حرج ممكن ويجعله على طبيعته تمامًا" في نهاية هذا الفصل يقول فارمان: " قبل حفل الإستقبال الرسمي الذي أقيم لي، كثيرًا ماقمت بزيارة الخديو الذي أشعرني بأني على صلة وثيقة بسموِّه وكان ينبغي عليَّ أكثر من مرَّة أن أقوم بواجب غير سار وهو المطالبة غير الرسمية، وإن كانت بطريقة مُلحَّة، بدفع التعويضات الأمريكية ضد الحكومة المصرية، وكانت الحكومة المصرية في ضائقة مالية شديدة ولذا كان مجرد ذكر أي تعويض مالي لابد وأن يسبب بعض الضيق،[476]

ومما كُتِب أيضًا عن الخديوي إسماعيل: (ذهب الخديو -إسماعيل- لحضور المعرض الدولي في باريس وصدرت الصحف الباريسية تبشر بوصول خديو مصر إلى عاصمة الإمبراطورية الفرنساوية ولما كان هذا اللقب جديدًا على

المسامع، أقبل الناس يتساءلون: خديو؟ ما هو الخديو؟ وكان إسماعيل قد ذهب إلى باريس وجيوبه ملأى بالنقود وخزائن المصارف بباريس ولندن تحت أمره وتصرفه ففتح يده بسخاء وبذخ لم يعهدهما العالم الغربي من عاهل من العواهل الذين زاروا المعرض فبات أحدوثة إعجاب الجميع، ووقع في خلد العامة أن الخديو إنما هو أحد ملوك ألف ليلة وليلة بعث إلى الحياة ثانية وأنه خليفة الفراعين على عرش القطرين أكبر ملك حلت قدماه أرض فرنسا)، وتحت عنوان فتاة القصر كتب أيضًا الأستاذ جمال بدوي: (ومن الأحداث التي وقعت خلال زيارة الخديو لباريس، تلك القصة التي رواها الكونت دي لافيزون في مذكراته وهي أن أحد كبار النبلاء دعا الخديو اسماعيل إلى وليمه في قصره بضواحي باريس فأجاب الخديو دعوته وإذا به يرى قصرًا بلغ من الجمال والجلال وفاخر الرياش ما لم يكن أحد يتوقع وجود مثله أبدًا في حوزة غير الملوك فأعجب إسماعيل به أيما إعجاب وبعد تناول الغداء وبينما المحادثة دائرة في قاعة التدخين أبدى لمضيفه استحسانه العظيم لقصره فشكره النبيل على تلطفه وكان قد قيل لإسماعيل إن النبيل في ضيق مالي شديد فأحب مساعدته بشكل لا يتحرج له إحساسه فسأله عما إذا كان يريد بيع قصره وكان الرجل على شدة احتياجه إلى النقود لا يرى في استطاعته التجرد من ملكية ذلك البناء الفخيم، وتحرج أن يقابل لطف الخديو بخشونة الرفض فخطر له أن يبالغ في تقدير الثمن ليحمله علي العدول عن رغبته في المشتري، فأجاب: إني قد أبيعه يا مولاي مقابل خمسة ملايين من الفرنكات – ولم يكن القصر يساوي أكثر من مليون ونصف مليون فرنك، ولكن إسماعيل التقط الكلمة من فم الرجل وهي طائرة وقال: إني اشتريته منك بهذا المبلغ وحرر له في الحال حوالة بثمنه على أحد البنوك بباريس[477] ولم

يجد الرجل مفرًا من قبول البيع غير أن اسماعيل التفت فوجد فتاة هيفاء لا تتجاوز الخامسة عشر ربيعاً وعرف أنها ابنة النبيل فقال بابتسام جميل مخاطبًا والدها: " على أني لا أحسبك تمانع في تحرير عقد البيع للآنسة ابنتك هذه اللطيفة تخليدًا لذكرى استحسان خديو مصر ظرفها وآدابها ولكيلا يقال أني زرتك لأجردك من قصرك ")[478]

(ومن الأقوال المأثورة عن الخديو توفيق في وصف أبيه إسماعيل: لن يأتي الزمن بمثله في أبهة الملك وفخفخته السنية - وهو وصف صحيح يمثل شخصية إسماعيل أصدق تمثيل، وكل ما تسمعه من أوصاف خيالية عن ألف ليلة وليلة تتواضع إلى جانب ليالي إسماعيل وحفلاته الصاخبة وسهراته المخملية، كان إسماعيل يلتمس – بل يفتعل – المناسبات السعيدة لإقامة الحفلات، وإذا كانت احتفالات افتتاح قناة السويس قد بهرت ملوك أوروبا وأميراتها فإن أفراح الأنجال فاقت الأولى في بذخها وإسرافها وتواصلها أربعين يومًا بلياليها، ولا ننسى أن أفراح الأنجال أقيمت بعد أربع سنوات من حفلة القناة، والأنجال الأربعة كانوا ثلاثة ذكور وفتاة، أولهم ولي العهد توفيق وعروسه الأميرة أمينة والثاني الأمير حسين كامل وعروسه الأميرة عين الحياة والثالث الأمير حسن واختار له أبوه عروسه الأميرة خديجة وفاء لوعد قطعه لها، ولهذا الوعد قصة طريفة، بدأت عندما كان الخديو يتفقد الدراسة في مدرسة البلاط التي أنشأها لتعليم الأميرات، ولما وجد التلميذة خديجة أخذ يحثها على الاجتهاد في تحصيل العلم وحفظ القرآن وبعد سنوات ذهب الخديو لزيارة المدرسة وسأل خديجة عما حفظته من القرآن الكريم فأجابت علي الفور: واذكر في الكتاب اسماعيل إنه كان صادق الوعد، وانبسطت أسارير الخديو لذكائها وحسن تصرفها، وضحك قائلًا: أجل أجل لن أنسَ وعدي

واختارها زوجة لابنه حسن، أما الابنة الوحيدة التي احتفل الخديو بزواجها فهي الأميرة فاطمة وهي التي سجلت اسمها في التاريخ بسبب التبرعات القيمة التي قدمتها لإنشاء الجامعة المصرية، ووقائع أفراح الأنجال رواها مؤرخ عصر إسماعيل إلياس الأيوبي نقلًا عن الكتاب الأوروبيين الذين شاهدوا الأفراح، وبدأت الاحتفالات يوم 15 يناير 1873 واستمرت أربعين يومًا بمعدل عشرة أيام لكل واحد من الأنجال، وزينت الشوارع الممتدة من القصر العالي إلى قصر الجزيرة، إلى سراي القبة، بالنجف والفوانيس المختلفة الألوان، وفي نهاياتها أقيمت أقواس النصر تعلوها الشموع، فسطعت الأضواء حتى جعلت القاهرة شعلة من النور، وفي أهم الميادين أقيمت المسارح للفرق الموسيقية والغنائية وأهمها فرقة عبده الحامولي، وفي اليوم الخامس عشر بدأ خروج الهدايا المقدمة من الوالدة باشا وزوجات الخديو إلى العرائس من القصر العالي وبدأ موكب شوار عروس ولي العهد في حراسة صفوف الفرسان وآلاي من المشاة في ملابس بيضاء ناصعة، وكانت الهدايا عبارة عن مجوهرات وقلائد من الماس من نوع البرلنتي ومناطق من الذهب الخالص وأقمشة مطرزة باللؤلؤ وزمرد في حجم البيض وآنية متنوعة من الفضة الصب وكان من بين الهدايا المقدمة من الخديو لولي عهده سرير من الفضة الصب الخالصة محلاه بماء الذهب الأبريز وعواميده الضخمة مرصعة بالماس والياقوت الأحمر النادر والزمرد والفيروز واجتاز الموكب شوارع العاصمة ولم يختلف شوار الأميرات عين الحياة وخديجة وفاطمة عن شوار الأميرة أمينة)[479]

الخديو توفيق:

هو محمد توفيق بن اسماعيل بن ابراهيم بن محمد علي، ولد يوم الخميس 10 رجب سنة 1268 هـ الموافق 30 أبريل سنة 1852 م، ولما شبَّ وترعرع ألحقه والده بمدرسة المنيل فتلقى فيها العلوم الأولية، ثم انتقل إلى المدرسة التجهيزية فتلقى فيها علومها، ودرس اللغات العربية والفرنسية والإنجليزية والتركية والفارسية وتزوج سنة 1873 بالأميرة أمينة إلهامي كريمة الأمير إبراهيم إلهامي نجل عباس باشا الأول، ولم يتزوج من غيرها، ورزق منها سنة 1874 بالأمير عباس حلمي – الخديو عباس حلمي الثاني – وفي سنة 1876 بالأمير محمد علي، ثم رزق منها بالأميرتين خديجة ونعمت، ولما بلغ التاسعة عشرة من عمره قلده أبوه رياسة المجلس الخصوصي الذي كان بمثابة مجلس الوزراء، ثم ولي وزارتي الداخلية والأشغال ومرن قليلًا علي أحكام الإدارات والدواوين، ثم قلد رئاسة الوزراء في 10 مارس سنة 1879 عقب سقوط وزارة نوبار باشا حين اشتد النزاع بين إسماعيل والدول الأوروبية، وكانت هذه الوزارة تضم وزيرين أوروبيين، أحدهما إنجليزي والآخر فرنسي، ولم تدم طويلًا إذ قام الخلاف بينها وبين مجلس شورى النواب، واستهدفت لحركة معارضة قوية انتهت بسقوطها وتأليف وزارة محمد شريف باشا الأولى في سنة 1879، وهي الوزارة التي بقيت تتولى الحكم إلى أن خُلِع إسماعيل، فلما ورد النبأ البرقي بخلعه يوم الخميس 26 يونيه سنة 1879 تلقى توفيق باشا في اليوم ذاته نبأ إسناد منصب الخديوية إليه، وكانت سنه إذ ذاك ثماني وعشرين سنة هجرية إلا ثلاثة أيام، فأقيمت حفلة تنصيب في مساء ذلك اليوم بالقلعة، وكان يومًا مشهودًا، فتوجه من سراي الإسماعيلية إلى القلعة يصحبه في عربته أخواه الأمير حسين كامل باشا – السلطان فيما بعد – والأمير حسن باشا، وشريف باشا رئيس مجلس الوزراء، تتبعه عربات الأعيان

والكبراء وقناصل الدول، وابتدأ إطلاق المدافع إيذانًا بتحرك الموكب من سراي الإسماعيلية، وأطلقت مائة مرة ومرة، اتباعًا للرسوم المعتادة ولما بلغ سراي القلعة جلس في قاعة التشريفات وكان بها كبار العلماء والموظفين والقناصل والأعيان، وتلقى تهاني المهنئين بجلوسه على العرش، وبعد الفراغ من الحفلة أطلقت المدافع ثانية مائة مرة ومرة، وعاد الخديو إلى سراي الإسماعيلية، ولم يكن في ماضي توفيق قبل ولايته الحكم ما يسترعي النظر أو يدل على اتجاه معين في سياسته، على أن هذا الماضي كان يبعث الأمل في أن يكون عهده خيرًا من عهد اسماعيل، فقد شهد المتاعب التي استهدفت لها البلاد بسبب إسراف أبيه وتورطه في القروض، وتولى الوزارة في ظروف اشتد فيها نفوذ الدول الأوروبية بسبب هذا الإسراف، ورأى بعينه ما فرضته إنجلترا وفرنسا على أبيه من أن يكون لهما وزيران يمثلانهما ويحميان مصالح الدائنين من الأوروبيين، وكان له في استقامته الشخصية وميله إلى الاقتصاد ما يجعله بمنأى عن أخطاء أبيه، على أن ثمة ناحية ضعف في شخصيته، وهي أنه كان ضعيف الرأي مترددًا، قليل الشجاعة والحزم، فاستشعر الخوف من النفوذ الأوروبي من يوم توليته الحكم، وكان همَّه الأول طوال عهده النزول على إرادة الدول الأوروبية، ولم يكن مؤمنًا بالنظام الدستوري، بل كان في خاصة نفسه من أنصار الحكم المطلق، ومن ذلك كله تولدت في عهده الأزمات والمشاكل التي جاوزت في خطورتها وعواقبها ما حدث في عهد أبيه، وفي الحق أن إسماعيل كان أكثر شجاعة وإقدامًا من توفيق، ولو كان توفيق يجمع إلى خصاله الطيبة شجاعة أبيه، وجرأته وعلو همته لنجت البلاد من الكوارث التي وقعت في عهده، ولتغير مجرى التاريخ القومي إلى خير مما كان وأقوم، كان محمد شريف باشا، الوزير المشهور

رئيسًا للوزارة حين ولى توفيق باشا الحكم، فقدم استقالته جريًا على العادة المتبعة عند تغيير ولي الأمر، ولكن توفيق باشا رغب إليه في البقاء وتأليف الوزارة مرة أخري، وكتب إليه في هذا الصدد بتاريخ 2 يوليه سنة 1879 كتابًا رقيقًا يؤكد فيه ثقته ويعرب عن آماله في الإصلاح، قال فيه:يا وزيري العزيز، لقد استعفت الوزارة فأكلفك بتشكيل وزارة جديدة، ولا أزيدك بحقيقة الحال علمًا، ولما قضت العناية الأزلية بتوليتي أمر بلادي جعلت على واجبات ليس من همي إلا النهوض بها بأمانة وشهامة على علمي بمقدار صعوبتها وجسامة المطاليب المتراكمة على مع الارتباك والفترة المالية التي انزعجت منها الخواطر إذ وقفت حركة التجارة وأوجدت فترة في البلاد لم تقع في مصر من قبل، على أني عظيم الميل إلى بلادي شديد الرغبة في تحقيق آمال الأمة التي أظهرت السرور بولايتي وفي إخراجها من هذه الحال السيئة، ومع هذه العواطف فإني عازم عزمًا أكيدًا علي بذل الجهد وصرف الهمة إلى التماس أحسن الوسائل لإزالة هذا الاختلال المفسد لكثير من المصالح، وذلك بتقرير الاقتصاد الحق القانوني في نفقات الحكومة ورعاية الأمانة والاستقامة في الخدمة العمومية وإصلاح شئون الهيئة القضائية والهيئة الإدارية، تلك هي الوسائل الأولى التي يهمني اتخاذها لتقوي بها المملكة على استرجاع قوتها وتوسيع موارد ثروتها وإنجاز وعودها ووفاء عهودها، إلا أن إدراكي لهذه الغاية التي هي موضوع آمالي يتوقف على مساعدة الأمة بجملتها ووجود الغيرة الوطنية في قلوب مأموري الحكومة وصدق العزيمة في الذين يساعدونني على إدارة الأعمال مسئولين عما يفعلون، ويقيني أن لا أفقد هاته المساعدات ولا أعدم من الله الكريم مددًا وأنك ستنهض بما كلفتك به على

الوجه الموافق لنيتي وللغاية التي أسعى إليها، فاقبل يا وزيري العزيز تأييد مودتي الصادقة -محمد توفيق[480]

وعندما تولى توفيق حكم مصر كانت تحت سيطرته إمبراطورية أفريقية ضخمة تمتد حدودها (من وادي حلفا شمالًا حتي خط الاستواء جنوبًا ومن مصوع على البحر الأحمر شرقًا إلى حدود دارفور غربًا وهي مساحة تعادل ضعف مساحة ألمانيا وفرنسا مجتمعين بالإضافة إلى دستور مؤجل وهو الذي اقترحه شريف باشا في آخر عهد اسماعيل وتركة مثقلة بالديون تقدر بـ 96 مليون جنيه)[481] ويقال أن توفيق استعان بانجلترا وفرنسا لمعاونته على إصدار توليته حكم مصر من الباب العالي وبعد أن تولى صار أداة طيعة في يد الإنجليز[482]، وقد تنازلت حكومة رياض باشا عن حصة مصر في قناة السويس لسداد ديون مصر وكان ذلك سنة 1880م (وفي نفس العام، تم إنشاء مدرسة المعلمين العليا وعن طريق دانلوب مسئول العلم الإنجليزي تم تحجيم عدد المتعلمين وصياغة عقولهم بالطريقة التي تضمن التراجع والتخلف مقارنة بالتعليم الأوروبي)[483] ومن هنا يتضح مدى التدخل السافر لإنجلترا في مصر استعدادًا لتنفيذ مخططاتها الاستعمارية وكانت مصر في هذا التوقيت في حالة مختلفة تمامًا عن أيام محمد علي ولك أن تتخيل سيطرة الأجانب عليها وقسوة الوزراء وضياع الطمأنينة.

(وفي هذه الأثناء مر على مصر رجل كالأنبياء، قاطع كالسيف واضح كالشمس هو جمال الدين الأفغاني وتعجب من الحال التي وصلت إليها مصر شعب صابر ومسالم وحاكم فاجر وعصابة من اللصوص الأجانب وجلس الرجل الذي كانت الثورة حرفته على مقهى متاتيا بميدان العتبة الخضراء يبث تعاليمه في

تلاميذه الذين التفوا حوله يعدون أنفاسه، ويسجلون كل حرف يخرج من بين شفتيه وكان الرجل يصرخ في وجه تلاميذه عجبي على هؤلاء المصريين يجري النيل في بلادهم بينما أبدانهم المتسخة تفوح برائحة العفن إنكم تعيشون عيشة البهائم بينما جلادوكم يعيشون عيشة الملوك إنه خير لكم لو توقفتم عن شق بطن الأرض لتزرعوها وتشقوا صدور أعدائكم، ولو انتصرتم لغنمتهم كل شيء ولو خسرتم فلن تخسروا إلا البؤس والفاقة، وكانت دائرة التلاميذ تتسع كل يوم حتى ضاق المقهى بالرجل وتلاميذه وكانوا خليطًا من أنواع شتى، طالب الدين محمد عبده، والجندي أحمد عرابي، والشاعر محمود سامي البارودي، والفلاح محمد عبد العال الصعيدي، والصعلوك الظريف عبد الله النديم ولفتت الندوة انتباه السلطة وجذبت رائحتها جواسيس الحكومة)[484] وتم القبض على الأفغاني وإبعاده عن مصر ولكن بعد أن زرع أفكاره بين العديد من الرجال.

(وعهد رياض باشا إلى عثمان رفقي باشا بنظارة الجهادية وهو شركسي متعصب فتمت ترقية الضباط الجراكسة فقط فاشتعلت بذور الفتنة العنصرية في الجيش على أوسع نطاق فقد احتمل ضباط الجيش الكثير حيث تأخرت رواتبهم وجمدت ترقيتهم وألقى بهم في غياهب أفريقيا وتشتت منهم ما لا نستطيع إحصاءه في الحرب الحبشية التي خسرتها مصر وعصف في عهده أيضًا باللائحة الدستورية وتدخلت إنجلترا في الشئون المالية والسياسية ونفذ مخزون الصبر وتقدم أحمد عرابي وعلي فهمي وعبد العال حلمي إلى الخديو بطلباتهم المذكورة عاليه " وفي واقعة غير مسبوقة في تاريخ مصر الحديث " مضافًا إليها زيادة عدد الجيش المصري طبقًا للفرمانات لكي يصبح 18 ألف جندي وعزل رفقي باشا من نظارة الحربية فتم اعتقال عرابي وزميليه

استعدادًا لمحاكمتهم أمام المجلس العسكري في قصر النيل وحين شاع هذا النبأ زحف الجيش إلى نظارة الحربية وتم إخراج عرابي بالقوة وتوجه الجميع إلى سراي عابدين في سبتمبر 1881 م فخرج إليهم الخديوي توفيق وطالبوه بعزل رفقي باشا وتعيين محمود سامي البارودي ناظرًا للحربية وإصلاح البلاد دستوريًا وتشكيل مجلسًا للنواب على النسق الأوروبي فأجاب توفيق بعبارته الشهيرة كما جاءت في مذكرات عرابي " أنا ورثت تلك هذه البلاد عن آبائي وأجدادي وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا " فرد عرابي: لقد خلقنا الله أحرارًا ولم يخلقنا تراثًا أو عقارًا فلن نورث ولا نستعبد بعد اليوم)[485] أما الخديو توفيق في هذا الموقف العصيب وتحت ضغط الجيش تظاهر بالموافقة على المطالب لحين الاستعانة بالإنجليز

وقد كتب الرافعي ملخص رائع عن الثورة العرابية في مقدمة كتابه الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي حيث كتب ما يلي: للثورة العرابية كما لكل ثورة أنصار وخصوم، فلها أنصار يتحيزون إليها ويسوغون مواقفها كلها على السواء، ويدافعون عن رجالها في كل ما عملوا، كأنهم على حق في الخطأ والصواب جميعاً، ولها خصوم يتحاملون عليها فينكرون حسناتها ويعدون عليها السيئات، وإنك لتلمح هذا التحامل أو ذلك التحيز فيما تطالع من مختلف المؤلفات والمذكرات عن الثورة العرابية، ولقد بدا لي إزاء هذه الآراء المتباينة أن أدرس الثورة من غير سابق حكم عليها، لأنتهي إلى رأي يهدي إليه البحث والتمحيص، وهذا ما أدعو إليه كل محب للحقيقة.

وبذلك نجلي الغموض الذي يلابس كثيرًا من حوادث الثورة، ونجعل منها صفحة واضحة من عبر الماضي، فإن التجارب خير هاد إلى ما ينفع الأمم في

حياتها القومية، وهي العلم الذي لا يعلمه إلا الزمن، على أني حين أخذت في دراسة الثورة قد اختلج في نفسي شعور ملازم من العطف عليها، لأنها علي ما كان من نهايتها فإنما قامت في الأصل لغرض نبيل هو إنقاذ الأمة من مظالم الاستبداد، وإقامة قواعد الحكم الدستوري، وتحرير البلاد من التدخل الأجنبي، لكن هذا الشعور لم يصرفني عن تعرف أخطائها وزلاتها، وبخاصة أخطاء زعمائها وأقطابها، لأن هذه الأخطاء كان لها دخل أيما دخل فيما صارت إليه من الحبوط والإخفاق.

وخلاصة ما انتهيت إليه في هذه الناحية أن للثورة مرحلتين مختلفتين، فالمرحلة الأولى تبدأ بظهورها على عهد وزارة رياض باشا في فبراير 1881 ذلك حين اعتقلت الحكومة أحمد عرابي وصاحبيه على فهمي وعبد العال حلمي. فثار زملاؤهم وأطلقوا سراحهم، فاضطربت الوزارة لهذا الحادث الجلل، واضطر الخديو توفيق باشا إلى الإذعان لمطالب الثوار، فاستقال عثمان رفقي باشا وزير الحربية، وعين بدله محمود باشا سامي البارودي الذي كان موضع ثقة العرابيين، فكان ذلك أول انتصار للثورة، وبعد فترة من الهدوء الظاهري عادت الحرب سجالًا بين الخديو والعرابيين فكانت الوقفة الشهيرة للثورة العرابية في ميدان عابدين يوم 9 سبتمبر سنة 1881، وقدموا للخديو مطالبهم، وأهم هذه المطالب سقوط وزارة رياض باشا، وتأليف مجلس النواب، فاضطر الخديو إلى النزول على حكمهم، واستقالت وزارة رياض، ثم عهد الخديو إلى شريف باشا تأليف الوزارة تحقيقًا لإرادة العرابيين، فألف شريف وزارته الدستورية، ودعا إلى إنشاء مجلس نيابي كامل السلطة، فاستجاب له الخديو وأمر بإجراء الانتخابات العامة، وانتخب مجلس النواب، وافتتحه الخديو يوم 26 ديسمبر سنة 1881 فكان افتتاحه يومًا مشهودًا في

تاريخ الحركة القومية، وأخذ يضطلع بمهمته، تتعلق به الآمال وترنو إليه الأبصار، وعرض عليه شريف باشا الدستور الذي وضعه سنة 1879 ليقر ما رآه في شأنه، أي أنه جعل من المجلس جمعية تأسيسية تضع الدستور وتقره، وبذلك نالت البلاد مجلسًا نيابيًا تتمثل فيه سلطتها الدستورية والتشريعية، إلى هنا سارت الأمور سيرًا حسنًا، فكانت على صراطها المستقيم، وانتصرت الثورة على طول الخط، وحققت أمال البلاد، ولكنها استهدفت لدسائس السياسة الاستعمارية التي لم تكن تنظر بعين الرضا إلى قيام النظام الدستوري في مصر،فأخذت الدولتان الإنجليزية والفرنسية تلقيان العقبات والعراقيل في سبيل استقرار هذا النظام، وتنتحلان لأنفسها التدخل في شئون البلاد، وكان أول مظهر لهذا التدخل مذكرة 7 يناير سنة 1882 التي قدمتها الدولتان وقوامها أنهما حيال الحوادث الأخيرة قد أجمعتا على تأييد سلطة الخديو، ثم عارضتا في تخويل مجلس النواب حق تقرير الميزانية، بحجة أن تقريرها يمس حقوق الدائنين أو ينال منها، وهي حجة واهية ظاهرة البطلان، لم تضمنه الدستور من أن المجلس يراعي في تقرير الميزانية العهود والاتفاقات المالية التي ارتبطت بها الحكومة إزاء الدول، واجهت البلاد أزمة سياسية خطيرة نشأت عن تقديم مطالب الدولتين، وكان مجلس النواب ينظر وقتئذ في الدستور الذي عرضه عليه شريف باشا تمهيدًا لإقراره، فرأي شريف باشا، درءًا للأزمة أن يؤجل مجلس النواب قراره النهائي في المادة المتعلقة بالميزانية، ويرجئها إلي حين، حتي تنجلي الغمة ويفاوض الدولتين في مطالبهما، والتأجيل في ذاته لم يكن مضيعاً لحقوق الأمة في الدستور ولا مخلاً به، لأن وضع الدستور في صيغته النهائية قد يستغرق وقتا يطول أو يقصر علي حسب الأحوال والملابسات، فكان من المستطاع اتقاء الأزمة

بتأجيل البت في هذه المادة، ولكن ظهر في الميدان عامل جديد كان له أثره في تطور الأحداث، وهو طموح محمود باشا سامي البارودي في رئاسة الوزراء، ورغبة العرابيين في التخلص من شريف باشا ليجعلوا الوزارة مؤلفة من خاصة رجالهم.

فاتخذوا من طلبه تأجيل البت في مادة الميزانية وسيلة لتوهين مركزه، وبدت منهم الرغبة في إقصائه عن الحكم، مما دعاه إلى تقديم استقالته، فقبلها الخديو وتألفت وزارة البارودي، ومن ثم ابتدأت المرحلة الثانية للثورة، ومن رأيي أن الثورة أخذت تتعثر في سيرها منذ بدء هذه المرحلة، وأن زعماءها أخطؤوا في تنحية شريف باشا عن الحكم لأنه كان أقدر من سواه على معالجة الأزمات وإحباط الدسائس والمؤامرات التي كانت تدبرها السياسة الاستعمارية الإنجليزية، كانت هذه الدسائس والمؤامرات أهم العوامل في إخفاق الثورة العرابية.

إذ لا نزاع في أن الحكومة الإنجليزية قد انطوت على نية نمت عليها الحوادث التي تعاقبت في ذلك العهد وهي خلق الأسباب والذرائع الباطلة لاحتلال البلاد، على أن مصر كانت تستطيع أن تحبط هذه المؤامرات وتنجو من أشراكها أو على الأقل تخفف من عواقبها، ولو أنها عرفت كيف تواجهها، فإنه ما من أمة إلا وهي عرضة لمؤامرات خصومها المتربصين بها، وليست تخلو أمة من أحداث تستهدف لها في حياتها السياسية والقومية، وأنما يختلف مصير الأمم تبعاً لمقدرة كل منها على مواجهة الأزمات والتغلب عليها، وعندي أن أول ما استعانت به السياسة الإنجليزية في تدابيرها هو وقوع الانقسام بين الخديو والعرابيين.

فإن هذا الانقسام قد فتح الثغرات لتدخل الإنجليز، كما أنه أضعف قوة المقاومة في البلاد، إذ انقسمت إلى معسكرين كلاهما يبغي الكيد للآخر ويضمر له، في وقت كان الإنجليز يعدون فيه العدة للقضاء علي المعسكرين معًا، ولا تتسع مقدمة الكتاب للإسهاب في تفاصيل هذا الانقسام، ولكني أذكر هنا خلاصة رأيي في هذا الصدد، وهو أن العرابيين والخديو كلاهما لم يقدر مضار الانقسام ولم يتبين عواقبه، وكلاهما يتحمل تبعته ومسئوليته، ففي الحق أن تبعاتهما من هذه الناحية تكاد تكون متعادلة متكافئة، ولكن من الحق أيضًا أن نقول أن الموقف قد تغير منذ ضرب الإسكندرية[486]، إذ انحاز الخديو إلى الجيش الإنجليزي وساعده علي التغلغل في البلاد، فهو المسئول عن هذا الموقف، على أن الذي يؤخذ على العرابيين في مدة الحرب أنهم لم يبذلوا من المدافعة والاستبسال فيها ما يثير في الأمة روح الإقدام والتضحية مما هو أخص واجبات زعماء الثورة في ساعة الخطر.

وهكذا (سمح الخديو توفيق للجيش البريطاني باحتلال مصر والقضاء علي الثورة العرابية ولم يكن يعرف أن دوره سينتهي بدخول الإنجليز وستصدر جميع القرارات بواسطة الاحتلال فلم يتحمل القهر ومات وعمره أربعين عامًا فقط وعن هذا الموضوع يقول المؤرخ الكبير جمال بدوي رحمه الله وهو يصف عودة الخديو توفيق من الإسكندرية: عاد الخديو الخائن توفيق بالقطار من الثغر المحترق إلى القاهرة المحتلة وكان في استقباله بمحطة العاصمة قادة الجيش البريطاني الذين سبقوه إلى القاهرة ومهدوا له طريق العودة

وانطلق موكب الخديو إلى قصر عابدين عبر الشوارع التي خلت من الجماهير وازدحمت بجيوش الاحتلال لقد خسر الشعب معركته بفعل الخيانة وبفعل القهر المسلح وأضحى الوطنيون بين طريد تتعقبه عيون العملاء والخونة وسجين ينتظر النفي والتشريد والوطن كله ينزف دمًا من جراح الهزيمة وبدأ الظلام ينشر أعلامه السوداء على مصر المحروسة وكان على المصريين أن يعيشوا مرحلة الضياع كالأيتام على مأدبة اللئام لقد مضي ذلك العصر الذي جلجلت فيه صيحات النديم والأفغاني ومحمد عبده وصرخة عرابي في وقفة عابدين وانطوت تلك الصفحة المجيدة من كفاح الشعب وبدأت مرحلة الانحطاط والهبوط إلى أسفل السافلين، بات قصر الدوبارة – مقر المعتمد البريطاني – قبلة الكبراء والوجهاء الباحثين عن الأسلاب والمغانم بين حطام المعركة،وأصبحت مصر نهباً لكل خوان أثيمو بمرور الوقت تعاظم دور بريطانيا في مصر في الوقت الذي تضاءلت فيه سلطة الخديو الفعلية حتي أصبح من الملائم تتويج اللورد كرومر، فإذا كان عهد اسماعيل هو عصر الأحلام الوردية فإن حكم توفيق جسد الكوابيس الاستعمارية التي أفزعته أيضًا ولم يحتملها كثيرًا ووافته المنية عام 1892م عن عمر يناهز أربعين عامًا)[487] وقبل أن نترك الحديث عن الخديو توفيق والثورة العرابية سننقل عدة سطور عن هذا الموضوع من مقدمة كتاب دراسات في تاريخ مصر السياسي منذ العصر المملوكي تأليف فوزي جرجس تقديم جلال السيد.

حيث كتب ما يلي: (رأيت أن أكتب للناس كتابًا يهتدون به إلى تلك الحقيقة المرموقة، تمحيصًا للتاريخ من دون الأهواء الفاسدة والمفتريات الباطلة وسميته: كشف الستار عن سر الأسرار في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية – قيامًا بالواجب علي لأبناء وطني الأعزاء وتصحيحًا للتاريخ)

بهذه الكلمات صدر الزعيم أحمد عرابي مذكراته التي انتهى من كتابتها عام 1910 أي قبل وفاته بعام، وكان قد أدرك منذ عودته من المنفى إلى أرض الوطن استمرار المؤامرة على الثورة العرابية، فلم يكن كافيًا للاحتلال البريطاني والعائلة الخديوية ما حدث من دمار وخراب لمصر ولم يأبهوا بآلاف الشهداء والضحايا ولا بآلاف المواطنين الذين قدموا للمحاكمة في أعقاب الاحتلال البريطاني، بل كانوا يبحثون عن المسببات التي تحول بين المصريين وتطلعهم نحو الثورة، كما حدث في الثورة العرابية، والتي كان من بينها "التاريخ"، فعملوا على تشويه التاريخ المصري خاصة الثورة العرابية وقادتها، وحاولوا أن يوهموا المصريين أن الفتنة والتمرد والعصيان وما قام به عرابي ورفاقه هم سبب البلاء بل بلغ الأمر بأحد كتابهم بأن حمل الزعيم أحمد عرابي جريمة الاحتلال وبلغت الدعاية مداها من كتاب الاحتلال وشعراء القصر حتى أثرت في أحد الشبان المصريين المضللين الذي ما رأى عرابي حتى بصق في وجهه، وقد أدرك المستعمرون – منذ فترة طويلة – خطورة "التاريخ" وأهميته بالنسبة للشعوب وحركتها الجماهيرية، فنجد أن مع جماعات الاستطلاع لغزو المنطقة العربية بدأت عمليات النهب والسرقة للآثار القديمة والمخطوطات العربية والتي مازالت في العواصم الأوروبية شاهدة على جرائمهم وكانت تنفذ هذه العمليات طبقًا لتقارير الرحالة والمستشرقين الذين هجموا على المنطقة منذ القرن السابع عشر.

وأصبح في جامعتي أكسفورد وكمبردج أقسام لدراسة اللغة العربية وآدابها – منذ القرن الثامن عشر – هذا إلى جانب حركة الاستشراق في هولندا وألمانيا وغيرهما، ونحن نعرف أن الحملة الفرنسية عام 1798 لم تقتصر على الجنود والمدافع والذخيرة، بل كان ضمن أفرادها العلماء والمستشرقين والمهتمين

بالتاريخ وهم الذين أعدوا المنشورات لنابليون، وأنتجت هذه البعثة العلمية التي كانت ضمن الحملة الكتاب الشهير والمهم "وصف مصر"

وفي ظل الاحتلال البريطاني دأب رجال الاحتلال علي تشويه تاريخنا من خلال ما كتبه المبشرون والتجار وعملاء المخابرات البريطانية والمعتمدين البريطانيين وكانت الثورة في رأيهم تمرد وعصيان وفتنة والجماهير تعني الغوغاء أما أبناء الشعب فهم الرعاع ولم تكن هذه النظرة قاصرة على الاحتلال وموظفيهم بل شاركهم فيها السياسيون والكتاب والصحفيون الذين كانوا يدورون في فلكهم، وأصبح من بينهم من يدافع عن الاحتلال – صراحة – وعن أعماله "العظيمة"

وسنكتب تلخيص سريع لفترة ما بعد الخديوي توفيق وسيكون التلخيص من موسوعة حكام مصر للدكتور ناصر الأنصاري كالآتي (الخديو عباس حلمي الثاني ابن الخديو توفيق ابن إسماعيل باشا ابن إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا من 8 يناير 1892 وعزل في 19 سبتمبر 1914، ولد سنة 1874 كان أكبر أولاد توفيق وحاول أن ينتهج سياسة إصلاحية ويتقرب إلى المصريين ويقاوم الاحتلال البريطاني فانتهز الإنجليز فرصة بوادر نشوب الحرب العالمية الأولى وكان عباس خارج مصر فطلبوا منه عدم العودة إلى مصر وفرضوا عليها الحماية رسميًا وخلع الإنجليز الخديو في ديسمبر 1914 وقد توفي عباس 1944 - ثم جاء - السلطان حسين كامل بن إسماعيل باشا بن إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا من 19 ديسمبر 1914 إلى أن توفي 9 أكتوبر 1917، ولد 1853، سبق له أن تولى نظارة الأشغال العمومية فأنشأ سكة حديد القاهرة – حلوان ثم نظارة المالية فرياسة مجلس شوري القوانين وهو الابن الثاني

لإسماعيل، أقامه الإنجليز سلطانًا على مصر وبهذا الإعلان من جانب الإنجليز صارت مصر سلطنة وخرجت من سلطان تركيا ولكنها وقعت في ذات الوقت تحت الحماية الإنجليزية، توفي السلطان حسين في أكتوبر 1917، عن ابن واحد هو الأمير كمال الدين حسين وقد تنازل هذا الابن عن حقوقه في تولى السلطنة – ثم جاء - الملك فؤاد الأول ابن إسماعيل ابن إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا من 9 أكتوبر 1917 إلى أن توفي في 28 إبريل 1936 (سلطان ثم ملك) ولد 1868 ابن اسماعيل والشقيق الأصغر للسلطان حسين، قررت انجلترا أن يكون خليفته على عرش سلطنة مصر[488]، قامت في عهده ثورة 1919 بقيادة سعد زغلول اضطر الإنجليز إلى رفع حمايتهم عن مصر بمقتضى تصريح 28 فبراير 1922 الذي اعترفت فيه انجلترا بمصر دولة مستقلة ذات سيادة مع تحفظات، وفي مارس 1922 أصدر السلطان فؤاد أمرًا يعلن نفسه فيه ملكًا علي مصر ثم أصدر الدستور في إبريل من نفس السنة ثم افتتح البرلمان الجديد في إبريل 1924 وتألفت في عهده أول وزارة شعبية برئاسة سعد زغلول – توفي سنة 1936 – ثم جاء - الملك فاروق الأول من 28 إبريل 1936 إلى أن تنازل عن العرش في 26 يوليو 1952، ولد سنة 1921 وعندما توفي والده الملك فؤاد في إبريل 1936 خلفه على العرش ولكنه لم يكن قد بلغ السن التي تؤهله للحكم فتشكل مجلس وصاية من كل من الأمير محمد علي وعزيز عزت باشا وشريف صبري باشا إلى أن تسلم سلطاته الدستورية كاملة في 29 يوليو 1937، ويظل فاروق ملكًا علي البلاد التي ظلت محتفظة باستقلالها غير الكامل عن بريطانيا وتسود الفوضي وينتشر الفساد إلى أن قامت ثورة يوليو 1952 التي أطاحت بفاروق وأجبرته على التنازل عن العرش لابنه الطفل أحمد فؤاد الثاني وتم توقيع هذه الوثيقة

في قصر رأس التين في 26 يوليو 1952 وغادر البلاد إلى إيطاليا حيث توفي هناك 1965 ودفن في مصر في مسجد الرفاعى – ثم جاء - الملك أحمد فؤاد الثاني من 26 يوليو 1952 إلى إعلان الجمهورية في 18 يونيو 1953)[489]

الملك فؤاد:

تعتبر ثورة سنة 1919 م بزعامة سعد باشا زغلول من أهم الأحداث التي وقعت في عهد الملك فؤاد الأول وقد كُتِب الكثير عن هذه الثورة وزعيمها وسنحاول هنا أن نلقي الضوء على بعض هذه الكتابات ونبدأ بما كتبه الدكتور حسين مؤنس حيث كتب ما ملخصه:

لا شك في أن مصر وعالم العرب كانا قبل سنة 1919م يختلفان كل الاختلاف عن مصر وعالم العرب بعدها.

قبل 1919 كان الاستعمار والذل والاستسلام، والمحاولات الضعيفة للخروج من قبضة اليأس المحتوم كالقدر، وبعد 1919 يبدأ السير الحثيث الواعي في طريق النهوض والأمل، ويجرؤ الناس على الاحتلال الإنجليزي بعد أن تحدوه في قوة والذي حدث أن ثلاثة من أهل مصر - سعد زغلول وعبد العزيز فهمي وعلي شعراوي – توجهوا إلى دار المعتمد البريطاني السير ريجينالد وينجت في صباح 13 نوفمبر 1918 وقالوا له إن الأوان قد آن للبحث في مصير مصر. وفهم الرجل أنهم يطلبون الاستقلال لوطنهم وأنهم يريدون أن يسافروا إلى أوروبا لعرض قضية بلادهم على مؤتمرات الصلح التي كان الاستعداد لها يجري على قدم وساق – بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى – وكان يرى أن مصير مصر مسألة تخص الإمبراطورية البريطانية وحدها فهي بلد تحت

الحماية الإنجليزية أي جزء من أملاكها وأراضيها، ولهذا رفض السماح لهم بالسفر وقال إنه ليس لهم الحق في الكلام باسم مصر فسارع الثلاثة إلى أخذ توكيل من الشعب ليتكلموا باسمه وسارع الشعب فأعطاهم التوكيل بالإجماع واعتبرهم وفدًا موكلاً منه للكلام باسمه والمطالبة بحريته، وفي 6 مارس 1919 تلقى الوفد إنذارًا من المعتمد البريطاني يطلب إلى رجاله أن يكفوا عن سعيهم للاستقلال،وفي 8 مارس اعتقل الإنجليز سعد وثلاثة من صحبه، وفي اليوم التالي أرسلوهم منفيين إلى مالطة، وما إن علم الشعب باعتقال رجاله حتى انفجر بركان الثورة في 9 مارس 1919م، وبدأ الإنجليز في التراجع فأفرجوا عن سعد وأصحابه يوم 7 ابريل 1919، وبدأ الكفاح المرير في سبيل الحرية، كفاح شاق حافل بالتضحيات ولكنه كفاح رجال يشحذ الهمم ويقوي النفوس ويزيد العيون بصرًا والقلوب وعيًا ـ وهذه أهمية ثورة 1919 وذلك هو دورها في تاريخنا، فقبل ثورة 1919 كانت مصر وأمة العرب تسيران سيرًا بطيئًا هادئًا نحو الموت، وبعد ثورة 1919 انفتح أمام مصر ثم أمة العرب طريق الحياة وهو طريق طويل عسير حافل بالنكبات والمآسي، مآسي تنفع وتعلم وإن كانت تؤلم وتعطل المسير، قبل 1919 كنا نجاهد لكي نوجد، كانت إنجلترا صاحبة السيادة على بلادنا، تقول أننا غير موجودين منذ الاحتلال البريطاني في سبتمبر 1882، وكانت مشكلة المعتمدين البريطانيين هي:كيف يمكن الاحتفاظ بمصر بدون المصريين؟

بعد موت مصطفي كامل سنة 1908 وخروج محمد فريد من مصر واضطراره إلى حياة النفي في أوروبا بعيدًا عن وطنه وعقابًا له علي حبه إياه، خُيِّل إلى الإنجليز أنهم نجحوا أخيرًا في إخراج المصريين من الميدان حتى كان يوم 13

نوفمبر 1918 والحديث التاريخي الذي دار بين ممثلي مصر وممثل الاحتلال البريطاني في البلاد

لقد كانت دهشة السير وينجت كبيرة وهو يصغى إلى سعد زغلول وعبد العزيز فهمي وعلي شعراوي وهم يتحدثون إليه عن مصر وحقوقها، وتستوقف النظر في ذلك الحديث السطور التالية:

علي شعراوي: إننا نريد أن نكون أصدقاء للإنجليز صداقة الحر للحر لا صداقة العبد للحر.

وينجت:إذن فأنتم تطلبون الاستقلال؟

سعد:ونحن أهل له، وماذا ينقصنا ليكون لنا الاستقلال مثل باقي الأمم المستقلة؟

وينجت:ولكن الطفل إذا أُعطي من الغذاء أزيد مما يلزمه أصيب بالتخمة

هنا – في هذه السطور القليلة من الحوار، نرى الفرق الهائل بين مصر كما كان يريدها الإنجليز ومصر كما أرادها أهلها، هذه السطور تعين لنا نقطة النهاية لقرون طويلة من ضياع مصر والمصريين، ونقطة البداية لوجودها ووجودهم،[490]

ولقد سافر الوفد المصري بالفعل برئاسة سعد زغلول إلى المؤتمر ولكنه لم يحقق ما كان يأمله وعن هذا الموضوع كتب الأستاذ جمال بدوي ما ملخصه: لم تتمتع مصر بالديمقراطية مثلما تمتعت بها الشعوب الأوروبية ولم يكن

طريق الديمقراطية مفروشًا بالورود رغم أن النهج الديمقراطي يقضي بنقل السلطة إلى الشعب بالوسائل السلمية وليس الثورية وتبدد الأمل الذي تطلعت إليه مصر عشية انتهاء الحرب العالمية الأولى واستطاع المعسكر المعادي للديمقراطية أن يعمل على تعطيلها وخنقها عن طريق التآمر والدس والانقلابات ورغم أن هذا المعسكر كان يضم أشتاتًا من عناصر متنافرة إلا أن إرادتهم اتفقت على حرمان الشعب المصري من ممارسة حقه في الديمقراطية ولو بحثت عن الأصول الفكرية والنظرية لهذه العناصر فسوف تكتشف أنهم ينتمون إلى الفكر الغربي الديمقراطي وأنهم من دعاة تقليد النظم الأوروبية بزعم أن فيها الخلاص والأمل في نهضة مصر

فأقطاب حزب الأمة الذين روجوا للديمقراطية الليبرالية بلسان رائدهم أحمد لطفي السيد تنكروا لمبادئهم عندما وضعوا في محك التجربة، وازداد عداؤهم للديمقراطية عندما لفظتهم الجماهير في الانتخابات وتربصوا بالدستور كيد المنون، واشتركوا في الانقلابات التي دبرها القصر لتعطيل الحياة النيابية، ورأينا الملك الجالس علي العرش –أحمد فؤاد- الذي تلقى تعليمه في المدارس الأوروبية وقضى شطر حياته الأولى في العواصم الغربية يتنكر للحياة الديمقراطية التي عايشها شابًا ويأبى أن يكون ملكًا ديمقراطيًا على شعب حر، ورأيناه يستعيد التقاليد الأوتوقراطية التي ورثها عن أبائه، أما الاحتلال الإنجليزي فصار يمثل الضلع الثالث في هذا المثلث المعادي للديمقراطية رغم انتسابه إلى بريطانيا العظمى التي دخلت التاريخ على أنها أم الديمقراطية والنموذج المثالي لكل دولة تتطلع إلى الحياة النيابية الدستورية، ونشأت من هذه القوى (ضفيرة) متشابكة المصالح والأهداف لإخماد رغبة الشعب المصري في الانطلاق والتحرر من التبعية والعبودية

عندما أذنت شمس الحرب العالمية الأولى على المغيب خيل إلى الأمة المصرية أنه قد آن الأوان كي تنال حقها في الاستقلال يحدوها الأمل في أن تجد المساندة من الدول الأوروبية ذات التقاليد العريقة في الحرية، ولكن المحن التي تعرض لها الكفاح الوطني المصري كشفت عن زيف الشعارات والمبادئ التي رفعتها هذه الدول وتبين أن إيمانها بالديمقراطية والحرية هو إيمان عنصري يقتصر على الشعوب البيضاء أما الشعوب المقهورة فلا يحق لها أن ترتفع إلى مستوى الدول الحرة

كانت بريطانيا قد فرضت حمايتها على مصر عشية اندلاع الحرب وتحولت مصر بمقتضى الحماية إلى محمية بريطانية تُحكم بقرارات من دار المعتمد البريطاني بالقاهرة، وبلغت المهانة إلى حد تعيين الأمير حسين كامل سلطانًا على مصر بقرار إداري من قصر الدوبارة، وتكررت نفس المهانة في تعيين السلطان أحمد فؤاد، وكان من شأن هذا الإذلال أن يوغر صدور المصريين ويدفع زعماءهم إلى السعي من أجل إزالة وصمة الحماية، فلما أعلنت الترتيبات لعقد مؤتمر الصلح في باريس وجدها زعماء الحركة الوطنية فرصة لعرض قضية مصر على المؤتمر على أمل أن ينتزعوا من الدول الأوروبية المنتصرة قرارًا برفع الحماية وشجعهم علي ذلك إعلان الرئيس الأمريكي ويلسون مبادئه الشهيرة في مساندة الدول المقهورة وعلى رأسها حق تقرير المصير وتقدم نفر من الساسة المصريين هم سعد زغلول وعلي شعراوي وعبد العزيز فهمي إلى دار المعتمد البريطاني يوم 13 نوفمير 1918 طالبين الإذن لهم بالسفر إلى باريس ولكنه رفض السماح لهم بهذا الحق بحجة إنهم لا يمثلون الأمة وأدى هذا الرفض إلى استفزاز المشاعر الوطنية واستنهاض الهمم لتحرير التوكيلات التي تحولت إلى حركة شعبية عارمة أعطت ثقتها في

هذا (الوفد) باعتباره ممثلًا عن شعب مصر وبدلًا من أن تعترف بريطانيا –أم الديمقراطية- بشرعية هذه التوكيلات ضربت ضربتها باعتقال سعد زغلول وأعضاء الوفد يوم 18 مارس 1919 وفي اليوم التالي اندلعت الثورة في كل أنحاء البلاد وأعربت الجماهير المصرية عن غضبتها على الاحتلال بكل ما تملك من وسائل السخط، وتصدت قوات الاحتلال للمتظاهرين وتساقط الشهداء في كل مكان واضطرت الحكومة البريطانية إلى الإفراج عن سعد وصحبه من منفاهم في مالطة والسماح لهم بالسفر إلى باريس ولحق بهم بقية أعضاء الوفد واكتمل عقد الوفد في عاصمة النور والثقافة والديمقراطية ومهبط أفكار فولتير وروسو ومونتسكيو وغيرهم من آباء الليبرالية الديمقراطية، يحدوهم الأمل في أن تقف أوروبا الديمقراطية إلى جانب الحق المصري، ولكن،، وقع ما لم يكن في حسبانهم ووجدوا هذه الدول تتنكر لمبادئها وتدوس شعاراتها وتنصر الظالم على المظلوم وأصدر مؤتمر الصلح قرارًا يعترف فيه باستمرار الحماية البريطانية على مصر، وكانت تلك أول صدمة واجهت الوفد المصري، أما الصدمة الثانية فكانت في تراجع الرئيس الأمريكي عن مبادئه واعترافه بالحماية البريطانية وتبين أن كلامه عن حق تقرير المصير للشعوب المقهورة لم يكن سوى شعار زائف يضحك به على العالم، وكشف العالم الغربي الحر عن وجهه القبيح وسقطت الأقنعة التي خدعوا بها السذج الذين لم يفطنوا إلى الفجوة الهائلة بين المبادئ والتطبيق، وتبين أن المصالح الاستعمارية أقوى من مبادئ الديمقراطية وأن المدنية الأوروبية لا تتورع عن استخدام نفس الأساليب والأخلاقيات التي كانت سائدة في العصور الوسطي، لقد أصيبت الحركة الوطنية المصرية بصدمة لا يمكن إنكارها ولقد أعرب سعد زغلول عن خيبة الأمل في السياسة الأوروبية في رسالة بعث بها

إلى محمود باشا سليمان رئيس حزب الأمة ووكيل الوفد يقول فيها:منذ وصولنا باريس وجدنا جميع الأبواب موصدة في وجوهنا وكل الجهود والمساعي لم تؤد إلي نتيجة، إن مهمة الوفد قد انتهت ولم يبق أمل في الحصول على الاستقلال التام، وإن كل قول عدا ذلك يعد مغالطة وأن عمل الوفد الآن ما هو إلا تنظيم للهزيمة[491]، كانت كلمات سعد تعبيرًا عن المرارة وخيبة الأمل في دول أوروبا التي باعت مبادئها من أجل مصالحها ولكن سعد زغلول الزعيم الذي حنكته التجارب والمحن لم يستسلم للهزيمة وازداد اقتناعًا بأن الكفاح الحقيقي في مصر وليس في أوروبا وأن عبء الاستقلال يقع على عاتق المصريين أنفسهم وليس على عاتق الأوروبيين أو الأمريكيين[492]

وعاد سعد من الخارج وتم استقباله من الشعب المصري استقبالًا رائعًا وصفه العقاد كالآتي: ملك سعد ناصية الموقف من ساعة وصوله إلى شاطئ الإسكندرية، وثبت في عالم العيان لمن كان في شك من الأمر إن هذا الرجل أقوى قوة في سياسة مصر القومية وأن كل اتفاق بين مصر وانجلترا يتم على الرغم من هذا الرجل أو مع إغفال شأنه وتهوين خطره مستحيل، لقد كان اليوم الرابع من إبريل –يوم وصوله إلى الإسكندرية- يوم الجيل بأسره في العالم بأسره ولك أن تقول وأنت آمن من الغلو أن استقبال سعد في ذلك اليوم وفي اليوم الذي بعده كان أفخم استقبال لرجل من الرجال في أوائل القرن العشرين، فقد انتظمت مصر موكبًا واحدًا للحفاوة به من شاطئ البحر بل من مدخل الميناء إلى عاصمة الديار المصرية وارتفعت الزينات وأقواس النصر من سلم الباخرة إلى حجرته في فندق كلاردج الذي نزل فيه وكان الناظر لا يرى في كل مكان إلا صورة سعد ولا يسمع إلا الهتاف باسمه

وأناشيد المترنمين بذكره، وانقضى أسبوع قبل وصوله والوفود تتزاحم على الاسكندرية من أقصى القطر إلى أقصاه حتى تعذر المبيت في الفنادق ولجأ الناس إلى البيوت يسألون أصحابها أن يؤوهم إلى مكان يسكنون إليه ريثما يحين اليوم الموعود، ولم تبق شرفة في الطريق إلا غالى المستأجرون بثمن الوقفة فيها بضع ساعات حتى نيفت أجرة الشرفة على أجرة البيت، وضاقت الطرقات عن مسير المركبات وأوشكت أن تضيق عن مسير الأقدام من مجاز إلى مجاز، ولما استقل القطار من الإسكندرية إلى القاهرة تلاحقت الجموع على طول الطريق تأبى إلا أن تستوقفه مرات في غير مواضع الوقوف ومنهم من كانوا يترامون على القضبان في بعض القرى الصغيرة ليغتنموا لحظة من الوقت يقف فيها القطار ويطل فيها الزعيم علي المستقبلين، وخرج كل مستطيع الخروج في مدينة القاهرة إلى الطريق ما بين باب الحديد إلى بيت الأمة يترقبون من الصباح ساعة قدوم الرئيس في نحو الخامسة من المساء فلما لاح لهم في سيارته نسوا أنفسهم أفرادًا وذكروا أنفسهم قومًا واحدًا لا اختلاف فيه بين صوت وصوت ولا بين دعاء ودعاء، وبلغ من نسيان النفس وغلبة الوجدان على الإرادة أن أناسًا كانوا يتسلقون الأشجار والأسوار أرسلوا أيديهم ليصفقوا وهم لا يدرون أنهم معتصمون بتلك الأيدي من خطر الوقوع، ولا خطر في الحقيقة من الوقوع حيث لا أرض في طول الطريق إلا وقد غشاها ألوف الواقفين، وتمشت السيارة الهوينا وهي تكاد تزحف من بطء المشية بين الصفوف، وسعد واقف عليها بقامته المديدة وطلعته المهيبة ومحضره المأنوس يُحيي المحيين بكلتا يديه وتسترسل الدموع من عينيه، وتلك طبيعة فيه إذا جاشت نفسه بالشعور واهتزت أريحيته بهزة الجمهور، ولا نطيل في سرد أسماء المستقبلين ووصف

معالم الاستقبال فإنما أردنا الأثر الطبيعي المفاجئ الذي كان لاستقبال سعد في ضمير الأمة مما له دلالة قومية، ولم نرد المراسم والأشكال التي قد تتكرر في كل يوم بغير دلالة، ويكفي أن نقول أن مصر لم تتمثل تمثلًا في موكب الاحتفال بعودة زعيمها الراجع إليها ولكنها كانت كلها موكب احتفال واحد لم يتخلف عنه مصري واحد قادر على حضوره أو المشاركه فيه، وانقضى يوم الوصول إلى الإسكندرية ويوم الوصول إلى القاهرة ولم يحدث في المدينتين الحافلتين بألوف الألوف من أهلهما والوافدين إليهما ولا في طول الطريق بينهما حادث واحد مما يسجله الموكلون بالأمن في سائر الأيام، كأنما غاب الأفراد في غمار (أمة واحدة) فلم يبق بينهم ما يكون بين الأفراد من نزاع واعتداء، فلم يخرج الشعب لفرجة ولكنها قوة أحسها الشعب فانبعث بها إلى حيث تتلاقى أفواجه وتتزخر أمواجه، وذلك الرجل هو عنوان تلك القوة أو لسان تلك القوة أو مناط الأمل المرجو من تلك القوة، وإذا وجدت الشعوب نفوسها واهتدت إلى سريرتها فإنما تجدها وتهتدي إليه في لحظة من لحظات النشوة الوطنية كتلك اللحظة التي استثارها فيها حب الزعيم والشوق إلى مرآه[493].

وتلاحقت الأحداث وأصدرت بريطانيا تحت ضغط كفاح الشعب المصري تصريح 28 فبراير 1922 الذي اعترفت فيه انجلترا بمصر دولة مستقلة ذات سيادة مع تحفظات، وفي مارس 1922 أصدر السلطان فؤاد أمرًا يعلن نفسه فيه ملكًا على مصر ثم أصدر الدستور في إبريل من نفس السنة ثم افتتح البرلمان الجديد في إبريل 1924 وتألفت في عهده أول وزارة شعبية برئاسة سعد زغلول

وكان من المفترض أن تستمر الحياة الدستورية على هذا المنوال ولكن للأسف وقف الملك فؤاد والإنجليز لها بالمرصاد وعن هذا الموضوع كتب الرافعي عندما كتب عن مراحل حياة الملك فؤاد ما ملخصه:

ومن هنا صارت المرحلة الثالثة من حياة الملك فؤاد –وهي معظم سنين حكمه- نضالًا مستمرًا بينه وبين الأمة وقعت فيها ثلاثة انقلابات حطمت الحياة الدستورية، وهذا لعمري مما لا يشرف صفحة الملك، وخاصة إذا لاحظنا أنه لم يبذل مثل هذا النضال ولا أقل منه في ميدان آخر كان هو الجدير به، ونعني به ميدان النضال ضد الجانب البريطاني جانب الاحتلال والعدوان على الاستقلال،بل كان يعمل على مسايرة السياسة البريطانية وتفادي الصدام بها اعتبر ذلك قبل ثورة 1919 وفي خلالها وفي أعقابها، ومن المحقق أيضًا أن هاتيك الانقلابات الثلاثة -على الحياة الدستورية- التي وقعت في عهده كانت تتم باتفاق بينه وبين الجانب البريطاني مع اختلاف في المقاصد والأغراض، فالجانب البريطاني كان يرى فيها عقوبة لمصر على عدم إذعانها لسياسته، والملك والمستوزرون يرون فيها استردادًا للحكم المطلق على حساب سلطة الأمة

ولا ينهض عذرًا للملك فؤاد في مناوأته للدستور ما يدعيه بعض الرجعيين من أن الأمة لم تنضج لهذا النظام، فإن هذه الدعاية إنما ابتدعها الاحتلال منذ سنة 1882 ليسوغ بها عدوانه على استقلال البلاد إلغاء دستورها سنة 1883. ويكفيك للتحقق من بطلانها أن تقارن بين الوزارات التي اختارها الشعب والوزارات التي اختارها الملك فؤاد وفرضها على الشعب فرضًا، سواء في عهد الحماية أو في عهد ثورة 1919 أو في أعقابها فإنك من غير تردد أو تحيز

تقطع بأن اختيار الشعب في مجموعه كان خيرًا من اختيار الملك فهذا دليل ناطق على أن الشعب ناضج للحياة الدستورية كفء لأن يختار الحكومة التي يرضاها[494]

والجدير بالذكر أن الملك فؤاد كان يهتم بالإجانب وما لهم من امتيازات أكثر من اهتمامه بالمصريين وهناك قصيدة طريفة لبيرم التونسي يسخر فيها من اهتمام الملك بأحياء الأجانب في حين تعاني الأحياء الشعبية المصرية من الإهمال وإليك ما جاء في هذه القصيدة:

وحول منازل الغرباء عنا

غرست الورد ثم الياسمينا

وأخضلت الغصون لهم سماء

ومهدت الرخام الجذع حينا

وما قرموا للحم الطير حتى

منحتهم الأوز العائمينا

تفجر تحت أرجلهم عيونا

وتفقأ وسط أعيننا عيونا

وترضى عنهم وتصد عنا

وقد سخطوا ونحن الشاكرونا

فمر بها علينا كل عام

بحي الأشقياء البائسينا

ترى الوحلات جاثمةَ وفيها

بنات قد تعلمن العجينا

إذا كنت الطبيب ونحن ومرضى

فأوص الناس خيرًا بالبنينا

وقد عانى الشعب المصري كثيرًا في ذلك العصر من تمتع الأجانب بالامتيازات، وقد كتب الدكتور جمال حمدان عن هذا الموضوع ما ملخصه:

كانت خطوط الملاحة، وكل أنواع السفن تنقل حمولاتها البشرية النهمة، لتلقي بها على أرصفة الإسكندرية، التي أصبحت بوابة الاستيطان وأكبر مراكزه، كذلك فلعل منها عناصر طيبة صالحة بالمستوي العلمي والفني أو بالمقياس الأخلاقي، لكن تلك هي الأقلية النادرة، والاستثناء الشاذ، فالمسلم به حتي بإجماع المؤرخين الأوروبيين أنفسهم، أنها في معظمهما تمثل مجاج الشمال ونفاية أوروبا وحثالة البحر المتوسط، فتقريبًا معظم هؤلاء المهاجرين الأوروبيين كانوا من المغامرين والأفاقين، وأصحاب السوابق والمزورين واللصوص والمجرمين والهاربين من يد العدالة من كل صنف بلا تعليم أو

حرفة أو مهنة غالبًا وبلا أخلاق على الأغلب وعلى الأفضل من المرابين والسماسرة وأصحاب الأعمال المشبوهة والكل تقريبًا لا هدف له إلا أن يصنع ثروة بالحلال أو الحرام، والحرام بالدرجة الأولى، وذلك في ظل الامتيازات الأجنبية وعصر القناصل أو العصر الذهبي للقناصل

ومما له دلالته أن بعضهم كان يغير اسمه في مصر ومعظمهم يخفي اسم عائلته وحتى أكثرهم احترامًا بين المستعمرة الأوروبية لم يكن فوق الشبهات وكان من أصل مشكوك فيه،ويكاد المرء يخلص من هذا كله إلى أننا إلى حد بعيد إزاء مافيا عظمى، إلا أنها للتناقض والأسف مافيا فوقية لا سفلية، على قمة المجتمع الضحية، لا في قاعه كما ينبغي على الأقل، وهذا بدوره ما يضع أيدينا على خلاصة الاستعمار الاستيطاني في مصر، وعلى الجملة يمكن القول إن الجاليات الأوروبية في مصر كانت تمثل وجه أوروبا القبيح بمثل ما أن الاستعمار عمومًا هو الوجه القبيح للحضارة الأوروبية الحديثة

وإذا صح أن الامتيازات الأجنبية كانت جديرة بأن تفسد رجالًا أفضل منهم، فالصحيح أيضًا أنهم كانوا عناصر فاسدة بالأصل، وإذا كان البعض يزعم أنه لم يكن بديل لهذه الجاليات كأداة للتحضر والاحتكاك الحضاري والأوربة فإنه حقًا لثمن باهظ جدًا بل ورهيب ذلك الذي دفعته مصر ماديًا ومعنويًا، إنسانيًا وبشريًا في سبيل الحصول على الحضارة الحديثة، فعلى المستوى المعنوي والاجتماعي فإن المستعمرة الأوروبية رغم أصولها الاجتماعية السفلى جاءت لتفرض نفسها في مصر أرستقراطية طبقية دخيلة على قمة الهرم الاجتماعي الوطني، كمجتمع فوق المجتمع، بل ولتتحول بفضل الامتيازات الأجنبية ونظام الحماية والمحاكم المختلطة إلى دولة داخل الدولة تكاد تمثل في مواطنها

الجديدة نوعًا من الامتيازات الإقليمية التي عرفتها مواني الشرق الأقصي في وقت معاصر من ناحية أخرى، وبحكم الحاجز الديني فإنهم كانوا وظلوا أيضًا مجتمعًا معزولًا مغلقًا على نفسه، أشبه بالمعسكرات، غير قابلة للاختلاط -التزاوج- أو الذوبان في المجتمع الوطني حتى مع الأقباط، والنتيجة الصافية هي مجتمع منقول بكامل جذوره وبيئته ومناخه الحضاري والاجتماعي باختصار جزر أوروبية فرضت على الأرض المصرية، قطعة من أوروبا في مصر، التي لم تصبح بهم على أية حال قطعة من أوروبا[495]

وعن تدهور الحالة الإجتماعية للشعب المصري في ظل الاحتلال البريطاني كتب الرافعي ما ملخصه:

والطبقة الفقيرة من الفلاحين والعمال وهم أغلبية الشعب قد ساءت حالتهم في عهد الاحتلال، فهو المسئول الأول عن انتشار الجهل والأمية بينهم، وهو بسياسته التعليمية قد حال دون تعليمهم وتهذيبهم وتثقيفهم، فحرموا نور العلم والتربية الأخلاقية والدينية وساءت حالتهم المادية والمعنوية وأهمل الاحتلال حالتهم المادية والصحية والمعنوية وانتشرت فيهم الأمراض،واجتمعت إلى ذلك رعاية الحكومة[496] للآفات الاجتماعية التي جاءت من أوروبا ورعاها الاحتلال وحماها، فعمت طبقات الشعب على السواء، كبيرها ومتوسطها وصغيرها، وأولى هذه الآفات الربا، فقد انتشر انتشارًا ذريعًا، وساعد على ذيوعه ما فطر عليه معظم الطبقات في بلادنا من قصر النظر وعدم تقدير العواقب وحب الظهور والإسراف، ووجد المرابون من هذا الضعف ومن النظم والقوانين ورعاية المحاكم المختلطة ما جعلهم يتغلغون في مختلف الأوساط في العواصم والبنادر والقري القريبة والبعيدة فكبلوا

الأهلين بالديون، مما أفضى إلى ضياع ثروات الكثيرين منهم، وانتشار الفقر والبؤس في الطبقات الكبيرة، ثم المتوسطة والصغيرة، وانتشرت الخمور الفتاكة بين سكان المدن، ثم سكان الريف، وصارت محلات المسكرات تفتح علنًا في القري بين الفلاحين، وفي الأحياء الآهلة بالعمال في المدن، برعاية الحكومة وحمايتها، وفي كنف الامتيازات الأجنبية، ففتكت بهم فتكًا ذريعًا، وأفسدت عليهم صحتهم ودينهم وأخلاقهم، ونقصت مقدرتهم على العمل والإنتاج، وساعدت على ازدياد حوادث الإجرام والإخلال بالأمن العام

فبينما الحكومات الأوروبية والأمريكية التي لا تحرم الخمور تحاربها وتمنع انتشارها وبخاصة بين الفلاحين والعمال وتعقد المؤتمرات الدولية وتنشئ اللجان والنظم لمكافحتها والحد من أضرارها، كانت هذه الآفة تلقى من الحكومة الرعاية والتنشيط، وصار تجار الخمور في المدن والأرياف ذرائع للتسليف بالربا الفاحش واستلاب أموال الأهلين وإفساد أخلاقهم،وانتشرت أيضًا آفة الميسر إلى جانب آفة الخمر فساءت حالة الشعب الاجتماعية تبعًا لذلك، لم تتقدم إذن حالة الشعب الاجتماعية في عهد الاحتلال بل ساءت وصارت وبالًا وزادته هذه الآفات بؤسًا وانحلالًا وفي ذلك يقول الأمير (السلطان) حسين كامل في حديث له نشرته جريدة ذي إجبشيان استاندرد – اللواء المصري – (عدد 20 أكتوبر سنة 1908) يصف بؤس الفلاح: إن الفلاح يقضي حياته مثقلًا بالدين، لا يزيد إيراده على الضرائب المفروضة عليه وفوائد الديون المطلوبة منه وهو لكي يسد حاجات زراعته في مواعيدها مضطر دائمًا إلى الاستدانة بالربا الفاحش، فلهذا العسر من جهة، ولخلوه من المال من جهة أخرى، ولكثرة من يعولهم من جهة ثالثة قد بقي الفلاح غريقًا في بحار الضنك لا يعرف لنفسه مخلصًا منها

وصفوة القول أن سياسة الاحتلال كانت من أهم أسباب تأخر البلاد الاجتماعي[497]

وكل ما سبق يفسر فرحة الشعب المصري بثورة 23 يوليو سنة 1952 التي قام بها الجيش المصري وأطاح بأسرة محمد علي، ثم اختفى الاحتلال البريطاني نتيجة لاختلال ميزان القوى في العالم كما ذكرنا وصعود قوى جديدة هي الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع عشر

أبرز القادة في العصر الجمهوري

قام تنظيم الضباط الأحرار بقيادة الزعيم جمال عبد الناصر بحركة الجيش في 23 يوليو 1952 وقد سُميت هذه الحركة بالحركة المباركة ثم استقر اسمها ثورة 23 يوليو لما لاقته من ترحيب واسع من كافة طوائف الشعب المصري وقد اختار الضباط الأحرار اللواء محمد نجيب[498] لقيادة هذه الحركة وقد كان اختيارًا موفقًا بكل تأكيد لما له من شعبية كبيرة داخل الجيش المصري وكان ينافس مرشح الملك على رئاسة نادي الضباط فكان الضباط يحبونه ويحترمونه، وتعد موافقته على قيادة هذه الحركة من عوامل نجاحها لأن الضباط الأحرار بالتأكيد ليسوا جميع ضباط الجيش المصري فكان الضباط الذين ليسوا أعضاء في هذا التنظيم يؤيدون الحركة لمجرد معرفتهم بأن قائدها هو اللواء نجيب فسهل ذلك على ما يبدو من سرعة انتشار التأييد داخل الجيش، كما أن اللواء نجيب كان رجلًا ناضجًا وله وزنه ومعروف، وبالتالي فإن التفاوض معه من جانب القصر ومجلس الوزراء سيكون أفضل لمعرفة أهداف الحركة التي تدرجت من إصلاحات داخل الجيش إلى تنازل الملك عن العرش ومغادرة البلاد إلى أن انتهت بالإطاحة بحكم أسرة محمد علي بالكامل، وكما ذكرنا أن بريطانيا لم تعد أقوى دولة في العالم بعد الحرب الثانية[499] وبالتالي لم تتمكن من إنقاذ الملك والسيطرة على العاصمة كما فعلت من قبل مع الثورة العرابية والخديو توفيق، وقد كان لبريطانيا قاعدة عسكرية ضخمة في قناة السويس تضم أكثر من ثمانين ألف مقاتل بريطاني

ومزودين بأحدث الأسلحة ولكنها رأت أن تستشير الولايات المتحدة الأمريكية قبل أن تحرك جندي واحد في اتجاه القاهرة كما يؤكد ذلك ما جاء في الوثائق السرية البريطانية التي نشرها الأستاذ محسن محمد في كتابه الممتع سقط النظام في أربعة أيام – ثورة يوليو بالوثائق السرية – وهذا الكتاب يلقي الضوء على مجموعة من البرقيات التي تم إرسالها بين عدة اتجاهات من السفير البريطاني في القاهرة إلى قائد القاعدة البريطانية في القناة وإلى وزارة الخارجية البريطانية في لندن ومنها إلى السفير البريطاني في الولايات المتحدة الأمريكية وجميع هذه البرقيات تؤكد عدم رغبة الولايات المتحدة في تدخل بريطانيا عسكريًا فيما حدث كما لو كانت تعلن للجميع أن بريطانيا قد انتهي دورها في المنطقة، وبالتالي فقد كان الموقف الدولي في صالح ثورة يوليو، وهكذا قامت الثورة وإليك نص البيان الأول لثورة يوليو 1952 من اللواء محمد نجيب إلى الشعب المصري وقد ألقى هذا البيان الرئيس الراحل محمد أنور السادات عضو مجلس قيادة الثورة في ذلك الوقت: (اجتازت مصر فترة عصيبة في تاريخها الأخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم، وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش وتسبب المرتشون والمغرضون في هزيمتنا في حرب فلسطين، وأما فترة ما بعد هذه الحرب فقد تضافرت فيها عوامل الفساد وتآمر الخونة على الجيش وتولى أمره إما جاهل أو فاسد حتى تصبح مصر بلا جيش يحميها، وعلي ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا وتولى أمرنا في داخل الجيش رجال نثق في قدرتهم وفي خلقهم وفي وطنيتهم ولابد أن مصر كلها ستتلقى هذا الخبر بالابتهاج والترحيب، أما من رأينا اعتقالهم من رجال الجيش السابقين فهؤلاء لن ينالهم ضرر، وسيطلق سراحهم في الوقت المناسب، وإني أؤكد للشعب المصري أن الجيش اليوم

كله أصبح يعمل لصالح الوطن في ظل الدستور، مجردًا من أي غاية، وأنتهز هذه الفرصة فأطلب من الشعب ألا يسمح لأحد من الخونة بأن يلجأ لأعمال التخريب أو العنف، لأن هذا ليس من صالح مصر، وإن أي عمل من هذا القبيل سيقابل بشدة لم يسبق لها مثيل، وسيلقي فاعله جزاء الخائن في الحال، وسيقوم الجيش بواجبه هذا متعاونًا مع البوليس، وإني أطمئن إخواننا الأجانب على مصالحهم وأرواحهم وأموالهم، ويعتبر الجيش نفسه مسئولًا عنهم، والله ولي التوفيق)[500]

ومما سبق يتضح أن قادة الثورة حرصوا حرصًا شديدًا علي أرواح الأجانب حتى يفوتوا الفرصة على بريطانيا إذا أرادت التدخل لحمايتهم وسيكون ذلك مبررًا قويًا لها

وسوف نستعرض معًا أبرز القادة في العصر الجمهوري وسنبدأ بالطبع بالزعيم جمال عبد الناصر

الزعيم جمال عبد الناصر:

(15 يناير 1918 - 28 سبتمبر 1970).هو ثاني رؤساء مصر. تولى السلطة من سنة 1954، بعد الرئيس محمد نجيب، إلى وفاته سنة 1970. وهو العقل المدبر لثورة 23 يوليو 1952، ومن أهم نتائج الثورة خلع الملك فاروق عن الحكم، وبدء عهد جديد في مصر والاهتمام بالقومية العربية[501] والتي تضمنت فترة قصيرة من الوحدة بين مصر و سوريا ما بين سنتي 1958 و 1961، والتي عرفت باسم الجمهورية العربية المتحدة. كما أن عبد الناصر شجع عدد من الثورات في أقطار الوطن العربي وعدد من الدول الأخرى في آسيا

وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. ولقد كان لعبد الناصر دور قيادي وأساسي في تأسيس منظمة في سنة.

وفي عهده تم تأميم قناة السويس وتشييد السد العالي وغير ذلك من الإنجازات، ويعتبر الزعيم جمال عبد الناصر من أهم الشخصيات السياسية في الوطن العربي وفي العالم للقرن العشرين والتي أثرت تأثيرًا كبيرًا في المسار السياسي العالمي.عرف عن عبد الناصر قوميته وانتماؤه للوطن العربي، وأصبحت أفكاره مذهبًا سياسيًا سمي تيمنًا باسمه وهو الناصرية والذي اكتسب الكثير من المؤيدين في الوطن العربي خلال فترة الخمسينيات والستينيات. وبالرغم من أن صورة جمال عبد الناصر تأثرت إلي حد ما إبان نكسة 67 إلا أنه أستطاع استعادتها جزئيًا من خلال حرب الاستنزاف التي أعقبت النكسة وسبقت حرب 6 أكتوبر.، ولا زال ينظر إليه بشكل عام كرمز للكرامة العربية والحرية من الاستعمار

وقد يكون من المناسب أن ننقل هنا بعض ما جاء في خطبة الزعيم جمال عبد الناصر التي تضمنت قرار تأميم قناة السويس لنقترب منه أكثر وإليك بعض مقتطفات منها:

أيها المواطنون:نحتفل اليوم باستقبال العيد الخامس للثورة.. باستقبال السنة الخامسة للثورة، بعد أن قضينا أربع سنوات نكافح ونجاهد ونقاتل؛ للتخلص من آثار الماضى البغيض.. للتخلص من آثار الماضى الطويل.. للتخلص من آثار الاستعمار الذى استبد بنا قرونًا طويلة، وللتخلص من آثار الاستبداد الذى تحكم فينا، وللتخلص من آثار الاستغلال الأجنبى والاستغلال الداخلى.إننا اليوم - أيها المواطنون - ونحن نستقبل العام الخامس للثورة نستقبله أشد عزمًا،

وأمضى قوة، وأشد إيمانًا.نعم - أيها المواطنون - لقد اتحدنا وثرنا وكافحنا وقاتلنا وجاهدنا وانتصرنا. واليوم ونحن نتجه إلى المستقبل.. اليوم - أيها المواطنون - ونحن نتجه إلى المستقبل، بعد سنوات أربع من الثورة، نتجه بقوة وعزم وإيمان، نعتمد على الله وعلى أنفسنا، نعتمد على الله وعلى عزيمتنا، نعتمد على الله وعلى قوتنا؛ من أجل تحقيق الأهداف التى قامت من أجلها هذه الثورة. من أجل تحقيق هذه الأهداف التى جاهد من أجلها الآباء والتى كافح من أجلها الأجداد، نتجه إلى المستقبل ونحن نشعر أننا سننتصر - بعون الله - انتصارات متتالية.. انتصارات متتابعة؛ من أجل تثبيت مبادئ العزة، ومن أجل تثبيت مبادئ الحرية، ومن أجل تثبيت مبادئ الكرامة، ومن أجل إقامة دولة مستقلة استقلالًا حقيقيًا، لا استقلالًا زائفًا.. استقلالًا سياسيًا، واستقلالًا اقتصاديًا.أيها المواطنون:حينما نتجه إلى المستقبل نشعر أن معاركنا لم تنته، فليس من السهل.. ليس من السهل أبدًا.. مش سهل أبدًا إن إحنا نبني نفسنا في وسط الأطماع.. الأطماع الدولية المتنافرة، والاستغلال الدولي، والمؤامرات الدولية.. مش سهل أبدًا إن إحنا نبني نفسنا.. نبني وطنا، ونحقق استقلالنا السياسي، ونحقق استقلالنا الاقتصادي. قدامنا - أيها الإخوة - معارك طويلة سنكافح فيها.. قدامنا معارك طويلة لنعيش أحرار، لنعيش كرماء، لنعيش أعزاء.-مبادئ باندونج العشرة - اللي قررت في العام الماضى - بتقول: من الطبيعي أن يكون لجميع الأمم الحق في أن تختار بحرية نظمها السياسية والاقتصادية وطريقة حياتها؛ وفقًا لأغراض ومبادئ وميثاق الأمم المتحدة، وبالتحرر من الشك والخوف، وبالثقة وحسن النية المتبادلين، يجب على الأمم أن تمارس التسامح، وأن تعيش معًا فى سلام.. يجب على الأمم أن تعيش جيرانًا صالحين، يعملون لتمكين التعاون الصادق على الأسس

الآتية:.. دي الأسس اللي وضعها مؤتمر باندونج للعلاقات بين الدول:-أولًا: احترام حقوق الإنسان الأساسية وأغراض ومبادئ ميثاق الأمم المتحدة.، ثانيًا: احترام سيادة جميع الأمم وسلامة أراضيها.، ثالثًا: الاعتراف بالمساواة بين جميع الأجناس، وبين جميع الأمم كبيرها وصغيرها.، بعدين.. الامتناع عن أي تدخل في الشئون الداخلية لبلد آخر.، وبعدين.. احترام حق كل أمة فى الدفاع عن نفسها انفراديًا أو جماعيًا.، ثم الامتناع عن استخدام التنظيمات الدفاعية الجماعية لخدمة المصالح الذاتية لأية دولة من الدول الكبرى.. كالأحلاف اللى بيعملوها وبيدخلوا فيها تحت اسم الدفاع علشان تخدم مصالحهم.، وبعدين.. امتناع أي بلد عن الضغط على غيره من البلاد.، بعدين.. تجنب الأعمال أو التهديدات العدوانية أو استخدام العنف ضد السلامة الإقليمية، أو الاستقلال السياسي لأى بلد من البلاد.، وبعدين.. تسوية جميع المنازعات الدولية بالوسائل السلمية.، وبعدين.. تنمية المصالح المشتركة والتعاون المتبادل.، وبعدين.. احترام العدالة والالتزامات الدولية.، دي المبادئ اللي أقرها مؤتمر باندونج للعلاقات بين الدول؛ حتى لا تستخدم الدول الكبرى الدول الصغرى ألعوبة في يدها.. تستخدمها كمخلب للقط تنفذ بها سياستها من أجل السيطرة ومن أجل النفوذ.، هذه المبادئ التي أقرها مؤتمر باندونج أعاد مؤتمر بريوني تأكيدها، وأعلن تمسكه بها، وأعلن أن هذه المبادئ يجب أن تكون أساس العلاقات بين الدول -إحنا لن نكرر الماضى أبدًا، ولكن سنقضي على الماضي؛ سنقضي على الماضي بإننا نستعيد حقوقنا في قنال السويس. هذه الأموال أموالنا، هذه القنال ملك لمصر؛ لأنها شركة مساهمة مصرية، حفرت قنال السويس بواسطة أبناء مصر، ١٢٠ ألف مصري ماتوا وهم بيحفروها.، شركة قنال السويس - اللي قاعدة في باريس - شركة مغتصبة؛

اغتصبت امتيازاتنا.. "ديلسبس" أما جا هنا كان جاي زي ما جا "بلاك" علشان يتكلم معايا، نفس العملية.. التاريخ لن يعيد نفسه، بل بالعكس حنبني السد العالى، وسنحصل على حقوقنا المغتصبة.. حنبني السد العالي زي ما إحنا عايزين، هنصمم على هذا.. ٣٥ مليون جنيه كل سنة بتاخدها شركة القنال.. ناخدها إحنا، ١٠٠ مليون دولار كل سنة بتحصلها شركة القنال لمنفعة مصر.. نحقق هذا الكلام، يبقى الـ ١٠٠ مليون دولار نحصلهم إحنا لمنفعة مصر برضه.، لهذا.. لهذا.. إننا اليوم - أيها المواطنون - حينما نبني السد العالى نبني أيضًا سد العزة والحرية والكرامة، ونقضي على سدود الذل والهوان، ونعلن مصر كلها جبهة واحدة.. كتلة وطنية.. متكاتفة.. متحدة.. مصر كلها ستقاتل لآخر قطرة من دمائها.. كل واحد من أبنائها زي ما قلت لكم - زي صلاح مصطفى وزي مصطفى حافظ - كلنا سنقاتل لآخر قطرة من دمائنا في سبيل بناء بلدنا، وفي سبيل بناء مصر. لن نمكن منا تجار الحروب، لن نمكن منا المستعمرين، لن نمكن تجار البشر، سنعتمد على سواعدنا وعلى دماءنا وعلى أجسامنا.، إحنا أغنياء.. كنا متهاونين في حقوقنا بنستردها، وقلت لكم في الأول: معركتنا مستمرة، نسترد هذه الحقوق خطوة خطوة، وسنحقق كل شيء.. سنبني مصر القوية، وسنبني مصر العزيزة.، لهذا قد وقعت اليوم، ووافقت الحكومة على القانون الآتى:

قرار من رئيس الجمهورية بتأميم الشركة العالمية لقنال السويس البحرية. (تصفيق وهتاف).

باسم الأمة.. باسم الأمة

رئيس الجمهورية..

مادة ١: تؤمم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية شركة مساهمة مصرية، وينتقل إلى الدولة جميع ما لها من أموال وحقوق وما عليها من التزامات، وتحل جميع الهيئات واللجان القائمة حاليًا على إداراتها، ويعوض المساهمون وحملة حصص التأسيس عما يملكونه من أسهم وحصص بقيمتها، مقدرة بحسب سعر الإقفال السابق على تاريخ العمل بهذا القانون فى بورصة الأوراق المالية بباريس، ويتم دفع هذا التعويض بعد إتمام استلام الدولة لجميع أموال وممتلكات الشركة المؤممة.

مادة ٢: يتولى إدارة مرفق المرور بقناة السويس مرفق عام ملك للدولة.. يتولى إدارة مرفق المرور بقناة السويس هيئة مستقلة تكون لها الشخصية الاعتبارية، وتلحق بوزارة التجارة، ويصدر بتشكيل هذه الهيئة قرار من رئيس الجمهورية، ويكون لها - في سبيل إدارة المرفق - جميع السلطات اللازمة لهذا الغرض، دون التقيد بالنظم والأوضاع الحكومية.

ومع عدم الإخلال برقابة ديوان المحاسبة على الحساب الختامي، يكون للهيئة ميزانية مستقلة، يتبع في وضعها القواعد المعمول بها في المشروعات التجارية، وتبدأ السنة المالية في أول يوليو، وتنتهي في آخر يونيو من كل عام، وتعتمد الميزانية والحساب الختامي بقرار من رئيس الجمهورية. وتبدأ السنة المالية الأولى من تاريخ العمل بهذا القانون وتنتهي في آخر يونيه سنة ١٩٥٧. ويجوز للهيئة أن تندب من بين أعضائها واحدًا أو أكثر لتنفيذ قراراتها أو للقيام بما تعهد إليه من أعمال، كما يجوز لها أن تؤلف من بين أعضائها أو من غيرهم لجانًا فنية؛ للاستعانة بها في البحوث والدراسات. يمثل الهيئة رئيسها أمام الهيئات القضائية والحكومية وغيرها، وينوب عنها في معاملتها مع الغير.

مادة ٣: تجمد أموال الشركة المؤممة وحقوقها في جمهورية مصر وفى الخارج، ويحظر على البنوك والهيئات والأفراد التصرف في تلك الأموال بأي وجه من الوجوه، أو صرف أي مبالغ أو أداء أية مطالبات أو مستحقات عليها إلا بقرار من الهيئة المنصوص عليها فى المادة الثانية.

مادة ٤: تحتفظ الهيئة بجميع موظفي الشركة المؤممة ومستخدميها وعمالها الحاليين، وعليهم الاستمرار في أداء أعمالهم، ولا يجوز لأى منهم ترك عمله أو التخلي عنه بأي وجه من الوجوه، أو لأي سبب من الأسباب؛ إلا بإذن من الهيئة المنصوص عليها في المادة الثانية.

مادة ٥: كل مخالفة لأحكام المادة الثالثة يعاقب مرتكبها بالسجن والغرامة توازى ثلاثة أمثال قيمة المال موضوع المخالفة. وكل مخالفة لأحكام المادة الرابعة يعاقب مرتكبها بالسجن، فضلًا عن حرمانه من أي حق في المكافأة أو المعاش أو التعويض.

مادة ٦: ينشر هذا القرار في الجريدة الرسمية، ويكون له قوة القانون، ويعمل به من تاريخ نشره، ولوزير التجارة إصدار القرارات اللازمة لتنفيذه.[502]

وهكذا عادت قناة السويس للمصريين كما عاد إليهم حكم مصر بعد 2294 سنة كما ذكرنا وعاد مع حكم مصر طبيعة هذا الحكم الذي تتوحد فيه مصر مع حاكمها لتصبح هي حاكمها لأن جمال عبد الناصر قد وضع الدستور الذي رآه مناسبًا لذلك العصر وأصبحت له صلاحيات شبه مطلقة وبالتالي انفرد بالسلطة وقام بإلغاء جميع الأحزاب السياسية واستبدلها بالاتحاد الاشتراكي، وكما يقال صلاحيات كاملة تعني مسئولية كاملة فإن جميع الإنجازات التي

تمت خلال فترة حكم جمال عبد الناصر تنسب له وحده وكذلك الإخفاقات أيضًا، ولقد وجد الشعب المصري فيه ضالته وتعلقت به الآمال، فكانت خطبه تلهب الحماس وترفع الروح المعنوية للشعب ويتعجبون كيف يخاطب بريطانيا العظمي بهذا الشكل وهي التي قهرت الشعب المصري ونهبت ثرواته وأذلته، ويبدو أن الزعيم جمال عبد الناصر كان على دراية بالموقف الدولي فأيقن أن بريطانيا العظمى لم تعد عظمى وأن العالم أصبح له سادة جدد

وقد كان هناك رد فعل بلا شك من بريطانيا وفرنسا وبالتنسيق مع إسرائيل تم العدوان الثلاثي على مصر سنة 1956 ولكنه قد فشل فشلًا ذريعًا لعدة أسباب منها بالطبع المقاومة الشعبية والتفاف الشعب حول قائده، ورغم أن هذا العدوان قد تم بعلم الولايات المتحدة الأمريكية، لكن الاتحاد السوفييتي كان له رأي آخر إذ يذكر الرافعي

في كتابه ثورة 23يوليو سنة 1952 وتحت عنوان الإنذار الروسي 5نوفمبر 1956 ما يلي:

(منذ أن أممت مصر شركة القناة وقفت روسيا بجانبها تؤيد حقها في التأميم، ولم تقف هذا الموقف انتصارًا لحقوق الشعوب بل استجابة لنزعة التنافس الاستعماري بينها وبين الكتلة الغربية، وعندما وقفت الدول الغربية موقفها العدائي وظهر في الأفق احتمال اتخاذ إجراءات حربية ضد مصر، حذرت روسيا العالم الغربي من القيام بأي عمليات حربية "غير حكيمة" نتيجة لتأميم مصر للقناة، وأعلنت أن استخدام القوة مع مصر يهدد السلام العالمي تهديدًا خطيرًا، وحذرت دول الغرب المرة بعد المرة من عواقب استخدام القوة، وفي مؤتمر لندن وقف شيبلوف مندوب روسيا يدافع عن حق مصر في تأميم

القناة، وكان موقفه تأييدًا كاملًا لمصر واستنكارًا لسياسة بريطانيا وفرنسا، ولما شنت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل عدوانها الغادر علي مصر، طلبت روسيا من أمريكا أن تتعاون الدولتان على وقف العدوان، وقال المارشال بولجانين رئيس وزراء روسيا وقتئذ إنه إذا لم يتوقف القتال فورًا فقد يؤدي إلى حرب عالمية ثالثة فأصمت أمريكا آذانها عن الاستجابة لهذا النداء، وزعمت أمريكا أن اشتراك أية قوة جديدة في مصر في تلك الظروف يعد خرقًا لميثاق الأمم المتحدة يستوجب معارضة الأمم الأعضاء ومنها أمريكا، واطمأنت الدول الباغية إلى أن روسيا لا تستطيع أن تتدخل بمفردها في الميدان ولا تعرض نفسها لحرب عالمية من أجل مصر، وخاصة لأنها كانت مشغولة في ذلك الحين بقمع الثورة الشعبية في المجر، ولكن الحوادث أثبتت أن تقدير الدول الباغية كان قائمًا على الأوهام، ذلك أن روسيا وجهت في 5 نوفمبر سنة 1956 إنذارًا بلسان بولجانين رئيس وزرائها إلى كل من بريطانيا وفرنسا أعلن فيه تصميم الحكومة الروسية على استخدام القوة للقضاء علي عدوانهما، وقال في إنذاره لهما إن بريطانيا وفرنسا قد تُستهدفان لهجوم من دولة أقوى منهما كثيرًا تستطيع أن تضربهما لا بالسفن والطائرات بل بالصواريخ الموجهة)[503]

ولا شك أن هذا الإنذار الحاسم قد غير مجرى الأحداث وعلمت بريطانيا وفرنسا أن الاتحاد السوفييتي لن يقبل تدخلهما العسكري في مصر والشرق الأوسط بشكل عام، وقد كان هذا العدوان من بريطانيا وفرنسا هو آخر محاولة منهما للتدخل العسكري في الشرق الأوسط، ولم يمض وقت طويل حتى قامتا بإخلاء جميع المستعمرات التي كانت تحت الاحتلال البريطاني والفرنسي، أما إسرائيل فقد غيرت على ما يبدو استراتيجيتها تجاه بريطانيا

واتجهت نحو الولايات المتحدة الأمريكية لتحمي مصالحها فقد انتهى دور بريطانيا عندما كانت عظمى في قيام دولة إسرائيل وقد جاء الوقت لتقوم الولايات المتحدة بالعمل على تأمين هذه الدولة فيما يبدو

ولقد كانت الحرب الباردة فرصة عظيمة للعديد من الدول للنهوض والتقدم مستغلة معادلة توازن القوى في العالم

وكانت مصر من بين دول عدم الانحياز

الرئيس محمد أنور السادات:

تولى رئاسة مصر من 28 سبتمبر 1970 إلى أن استشهد في 6 أكتوبر 1981 م، واتخذ الرئيس السادات قرارًا حاسمًا بالقضاء على مراكز القوي في15مايو عام 1971 وهو ما عرف بثورة التصحيح وفي نفس العام صدر دستور جديد لمصر[504]، وقام في عام 1972 بالاستغناء عن ما يقرب من 17000 خبير روسي في أسبوع واحد، ولم يكن خطأ استراتيجي ولم يكلف مصر الكثير إذ كان السوفييت عبء كبير على الجيش المصري، وكانوا من قدامى العسكريين السوفيت والمحالين للتقاعد، وقد أقدم على اتخاذ قرار مصيري وهو قرار الحرب ضد إسرائيل في أكتوبر 1973 عندما استطاع الجيش تدمير خط بارليف وعبور قناة السويس فقاد مصر إلى أول انتصار عسكري على إسرائيل.، ثم قام بافتتاح قناة السويس للملاحة البحرية[505] وكانت هذه أكبر شهادة للعسكرية المصرية التي كانت تؤمن الملاحة في قناة السويس في منطقة من أكثر المناطق توترًا في العالم

وبتاريخ 19 نوفمبر 1977 قام بزيارته الشهيرة لإسرائيل ليدفع بيده عجلة السلام وقام برحلته الشهيرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية في 1978 من أجل التفاوض لاسترداد الأرض وخلال هذه الرحلة قام بتوقيع اتفاقية كامب ديفيد ثم تم توقيع معاهدة السلام مع إسرائيل في عام 1979 والتي على أساسها انسحبت القوات الإسرائيلية من سيناء، وقد حصل على جائزة نوبل للسلام مناصفة مع رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحم بيجين وذلك على جهودهما الحثيثة في تحقيق السلام في منطقة الشرق الأوسط، وقد استشهد في يوم احتفاله بانتصارات أكتوبر سنة 1981

وكما أوردنا مقتطفات من خطاب الزعيم جمال عبد الناصر فسننقل أيضًا فقرة من خطاب نصر أكتوبر للرئيس السادات بتاريخ 16 أكتوبر 1973، حيث قال: لست أظنكم تتوقعون مني أن أقف أمامكم لكي نتفاخر معًا ونتباهي بما حققناه في أحد عشر يومًا من أهم وأخطر بل أعظم وأمجد أيام تاريخنا، وربما جاء يوم نجلس فيه معا لا لكي نتفاخر ونتباهى،ولكن لكى نتذكر وندرس ونعلم أولادنا وأحفادنا جيلا بعد جيل، قصة الكفاح ومشاقة، ومرارة الهزيمة و ألامها، وحلاوه النصر وآماله، نعم سوف يجيء يوم نجلس فيه لنقص ونروي ماذا فعل كل منا في موقعه.... وكيف حمل كل منا أمانته وأدى دوره،كيف خرج الأبطال من هذا الشعب وهذه الامة في فترة حالكة ساد فيها الظلام، ليحملوا مشاعل النور وليضيئوا الطريق حتى تستطيع أمتهم أن تعبر الجسر ما بين اليأس والرجاء، إن القوات المسلحة المصرية قامت بمعجزة على أي مقياس عسكري، لقد أعطت نفسها بالكامل لواجبها، استوعبت العصر كله تدريبًا وسلاحًا، وعلمًا واقتدارًا

وحين أصدرت لها الأمر أن ترد على استفزاز العدو وأن تكبح جماح غروره فإنها أثبتت نفسها، وأن هذه القوات أخذت في يدها بعد صدور الأمر لها زمام المبادأة وحققت مفاجأة العدو وأفقدته توازنه بحركتها السريعة

ولست أتجاوز إذا قلت أن التاريخ العسكري سوف يتوقف طويلًا بالفحص والدرس أمام عملية السادس من أكتوبر 1973 حين تمكنت القوات المسلحة المصرية من اقتحام مانع قناة السويس الصعب واجتياح خط بارليف المنيع وإقامة رؤوس جسور لها على الضفة الشرقية من القناة بعد أن أفقدت العدو توازنه كما قلت في ست ساعات، إن هذا الوطن يستطيع أن يطمئن ويأمن بعد خوف أنه قد أصبح له درع وسيف، وقد كنا نطمئن بعطف العالم ونحن الآن نعتز باحترامه، وأقول لكم بصدق وأمانه أنني أفضل احترام العالم ولو بغير عطف، على عطف العالم إذا كان بغير احترام، وأحمد الله[506]

وقد رفع هذا النصر بلا شك الروح المعنوي للشعب المصري بل وللشعوب العربية كلها وقد تضامن العرب مع مصر وسوريا في حربهما ضد إسرائيل ومنعوا تدفق البترول إلي الدول الداعمة لإسرائيل، وما من شك أن هذه الحرب قد نالت اهتمام ومتابعة القوى العظمى ووقفت كل قوة منهما تتابع سير أعمال القتال على الجبهة لتتدخل في الوقت المناسب إذا احتاج الأمر وقامت الولايات المتحدة الأمريكية بتقديم دعم كامل لإسرائيل، ولم يعكر صفو هذا العبور العظيم سوى حدوث ثغرة في دفاعات الجيش المصري استغلتها إسرائيل لصالحها وقامت بالعبور العكسي إلى غرب القناة وحاصرت مدينة السويس التي قامت بمقاومة باسلة، ولكي نلقي الضوء على متابعة الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة لأعمال القتال وخاصة بعد حدوث ثغرة

الدفرسوار سننقل بعض ما كتبه المؤرخ العسكري اللواء جمال حماد عن الرسالة المباشرة التي أرسلها الرئيس السوفييتي بريجينيف إلى وزير الخارجية الأمريكي هنري كيسنجر أثناء حرب اكتوبر 1973، كما ورد بكتابه المعارك الحربية على الجبهة المصرية حيث كتب ما يلي:

ولكن كيسنجر في غمرة مناوراته الملتوية نسي أن زعماء الكرملين في موسكو كانوا يدركون جيدًا حقيقة أهدافه ومراميه في سبيل خدمة إسرائيل، ولذا أدركته الدهشة حينما نقل إليه القائم بالأعمال السوفييتي مذكرة عاجلة موجهة إليه من الرئيس السوفييتي بريجينيف، إذ إن ذلك الإجراء لم يسبق حدوثه من قبل، فإن بريجينيف وفقًا للأعراف الدبلوماسية لا يوجه رسائله إلا إلى الرئيس الأمريكي نيكسون، وفهم كيسنجر على الفور أن الرئيس السوفييتي يريد أن يلفت نظره بهذه الرسالة المباشرة المرسلة إليه، إلى أنه يدرك جيدًا حقيقة الدور الذي يلعبه في الخفاء لكي يخدم إسرائيل، وسجل بريجينيف في رسالته أن القوات الإسرائيلية تتحرك جنوبًا بمحازاة الضفة الغربية لقناة السويس وأن هذه الأعمال الإسرائيلية غير مقبولة وتمثل خداعًا وتحايلًا فاضحًا، ولذا فهو يقترح اجتماعًا عاجلًا لمجلس الأمن ظهرًا لإعادة تأكيد وقف إطلاق النار وإصدار الأمر للقوات الإسرائيلية بالعودة إلى المواقع التي كانت عليها لحظة صدور القرار رقم 338 في اليوم السابق، وفور تلقي كيسنجر رسالة بريجينيف سارع بالاتصال بالسفير الإسرائيلي في واشنطن سيمحا دينتز لإبلاغه بهذا التطور، وخلال دقائق معدودات كانت جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل على سماعة الهاتف تطلب كيسنجر من تل أبيب وأخبرها كيسنجر بأن الولايات المتحدة لن تتمكن من الاعتراض على مشروع قرار يتقدم به الاتحاد السوفييتي إلى مجلس الأمن لعودة القوات المتحاربة

إلى خط 22 أكتوبر وفقا لقرار رقم 338 الذي اشتركت الولايات المتحدة نفسها في صياغته وتقديمه، وعندما لاحظ كيسنجر قلقها أخذ يهدئ من روعها فقال لها وفقًا لما ورد في مذكراته بالحرف (إنني اقترح عليك أن تنسحب قوات إسرائيل في هذه الحالة مئات قليلة من الياردات من أي مواقع تكون قد وصلت إليها الآن، ثم تقف وتقول إن هذا هو خط 22 أكتوبر)، وأضاف كيسنجر متهكمًا لرئيسة وزراء إسرائيل: (كيف يمكن لأي شخص أن يعرف على الإطلاق أين كان يوجد خط 22 أكتوبر في الصحراء)، وهكذا أعطى كيسنجر الضوء الأخضر لإسرائيل لكي تمضي قواتها في عملياتها الحربية منتهكة قرار وقف إطلاق النار دون خوف من العقاب، إذ إن الحل بسيط فيما لو تأزمت الأمور، هو أن تنسحب قوات إسرائيل بضع مئات من الياردات وتقول: هذا هو خط 22 أكتوبر، لقد كان هنري كيسنجر هو وزير خارجية إحدى القوتين العظميين، ويمكنها أن تعرف بسهولة بوسائلها المتطورة في الاستطلاع الجوي أين كان يوجد خط 22 أكتوبر على وجه التحديد[507].

وجدير بالذكر أن القوات الإسرائيلية بعد حدوث الثغرة لم تتمكن من الصمود غرب القناة لفترة طويلة وتم انسحابها بالكامل إلى شرق القناة بعد مباحثات الكيلو 101 التي جرت بين القادة المصريين والقادة الإسرائيليين بينما استمرت القوات المصرية في مواقعها شرق القناة دون انسحاب جندي واحد بعد العبور العظيم

وسوف ننقل أيضًا من نفس الكتاب ملحمة السويس الخالدة يوم 24 أكتوبر 1973 فعن هذه الملحمة كتب المؤرخ العسكري اللواء جمال حماد في كتابه الممتع المعارك الحربية على الجبهة المصرية ما ملخصه:

ولم تكتف القوات الإسرائيلية بالحصار البري الذي ضربته على السويس بقطع كل الطرق المؤدية إليها ولا بالحصار البحري بقطع الطريق المائي المؤدي إلى الخليج والبحر الأحمر، بل عمدت إلى توجيه أقسى أساليب الحرب النفسية ضد سكانها وبغير شفقة أو رحمة بقصد ترويعهم والضغط على أعصابهم لحملهم على التسليم، ولهذا تم لها قطع ترعة السويس المتفرعة من ترعة الاسماعيلية والتي تغذي المدينة بالمياه الحلوة، كما دمرت شبكة الضغط العالي التي تحمل التيار الكهربي من القاهرة إلى السويس، وقطعت بعد ذلك أسلاك الهاتف التي تربط المدينة بالعالم الخارجي وكانت القيادة الإسرائيلية على يقين بأن أهل السويس سوف يقابلون دباباتهم ومدرعاتهم بالأعلام بالبيضاء حال ظهورها في الشوارع بعد أن أصبحوا في هذه الظروف المعيشية التي لا يمكن لبشر أن يتحملها فلا مياه ولا طعام ولا كهرباء ولا معدات طبية أو أدوية للمرضى والمصابين ولا اتصالات هاتفية مع الخارج، وفضلًا عن ذلك ركزت مدفعيتها قصفها العنيف على أحيائها السكنية وانطلقت طائراتها تملأ سماء المدينة لتصب على مرافقها ومنشآتها الحيوية وابلًا من صواريخها لتشعل في المدينة النار والدمار وليخر تحت قصفها المدمر مئات من الشهداء وآلاف من الجرحي حتى ضاق المستشفى العام بالجرحى والمصابين وأصبحوا لفرط الازدحام يوضعون على الأرض في طرقات المستشفى، وكان الهدف من هذه الحرب النفسية الشرسة هو إقناع الجميع في السويس بأنه لا جدوى من المقاومة وأن الحل الوحيد للخلاص من كل متاعبهم هو الاستسلام للغزاة، كان أول نبأ رسمي يصل إلى بدوي الخولي محافظ السويس وقتئذ عن التحركات الإسرائيلية حول المدينة هو التبليغ الهاتفي الذي تم له تلقيه عن طريق العقيد فتحي

عباس مدير مخابرات جنوب القناة في الساعة الخامسة والنصف مساء يوم 23 أكتوبر فقد أبلغه أن الدبابات الإسرائيلية وصلت إلى منطقة شركات البترول بالزيتية وأنها في طريقها إلى ميناء الأدبية وبناء على دعوة المحافظ انعقد مؤتمر عسكري بالمحافظة - لبحث إجراءات الدفاع عن المدينة وتأمين مداخلها - ورغم الظروف العصيبة التي كانت تواجه السويس كان الأمل ما يزال قويًا في قهر العدوان الذي أوشك أن يطبق على المدينة فلقد كان من بين مواطنيها فتية آمنوا بربهم ووطنهم وصمموا على الدفاع عن مدينتهم الخالدة حتى آخر رمق في حياتهم، وكان العميد أح/ يوسف عفيفي يتولى قيادة الفرقة 19 مشاة التي كانت تحتل مساحة كبيرة من رأس كوبري الجيش الثالث شرق القناة، وعندما أدرك الخطر الذي باتت تتعرض له السويس قرر بمبادرة شخصية منه ضرورة الدفاع عن المدينة التي ارتبطت بها فرقته بأوثق الروابط منذ سنوات طويلة، وفي يوم 23 أكتوبر أرسل سرية مقذوفات موجهة ضد الدبابات بقيادة المقدم حسام عمارة لصد العدو على طريق المعاهدة وقد قامت السرية بالاشتباك مع دبابات العدو، وبالإضافة إلى هذه السرية أرسل قائد الفرقة إلى السويس صباح يوم المعركة طاقم اقتناص دبابات بقيادة الملازم أول عبد الرحيم السيد،وعلي الرغم من أن الدفاع عن السويس كان خارج مهمة الفرقة القتالية فقد تم للفرقة 19 احتلال السواتر الترابية على ضفتي القناة وتم توجيه بعض مواسير مدافع الميدان لتغطية بعض القطاعات الحيوية غرب القناة، واستعدت الشرطة بأقسامها ووحداتها للمعركة وأصبحت غرفة عمليات الدفاع المدني بميدان الأربعين مقرًا لقيادة أعمال الدفاع الشعبي، وبذلت أجهزة الإطفاء والإنقاذ جهودا جبارة خلال الغارات الجوية، كما فتحت الشرطة مخازن السلاح لإمداد

المتطوعين بالأسلحة والذخائر، وأصبحت الشبكة اللاسلكية الخاصة بشرطة النجدة هي حلقة الاتصال الوحيدة بين السويس والقاهرة.

لم تنم المدينة الباسلة وظل جميع أبنائها ساهرين طوال الليل في انتظار وصول الأعداء وعندما نادى المؤذن لصلاة الفجر اكتظت المساجد بالناس وفي مسجد الشهداء بجوار مبنى المحافظة أم المصلين الشيخ حافظ سلامة وعقب الصلاة ألقى المحافظ كلمة قصيرة أوضح فيها للناس أن العدو يستعد لدخول السويس وطالبهم بالهدوء وضبط الأعصاب وأن يسهم كل فرد بما يستطيعه واختتم كلمته بالهتاف (الله أكبر) وارتفع الدعاء من أعماق القلوب إلي السماء، وابتداء من الساعة السادسة صباحًا بدأت الطائرات الاسرائيلية في قصف أحياء المدينة لمدة ثلاث ساعات متواصلة في موجات متلاحقة وبشدة لم يسبق لها مثيل وكان الغرض هو تحطيم أي مراكز للمقاومة داخل المدينة والقضاء على أي تصميم على القتال لدى أهل السويس، وتنبه أفراد المقاومة إلى ظاهرة مهمة، وهي أن الطائرات في أثناء هجماتها الشرسة تتجنب إصابة الشوارع الرئيسية في المدينة والتي تمثل امتداد المحاور الثلاثة التي اعتزم العدو التقدم عليها بمدرعاته، (محور المثلث – محور الجناين – محور الزيتية) وعبرت قوة مدرعة منطقة المثلث وأخذت تجتاز الطريق في ثبات وتؤدة وقد بلغت ثقة الإسرائيليين بعدم تجرؤ أحد من أهل المدينة على مقاومتهم إلى الحد الذي جعل قادة الدبابات يقفون جميعًا ليطلوا من أبراج دباباتهم المفتوحة للفرجة على الشوارع التي يمرون من خلالها ووصلت الموجة الأولى إلى ميدان الأربعين دون أن تصطدم بأي مقاومة، وأمسك البطل إبراهيم سليمان بالقاذف أر بي جي 7 وعندما أصبحت الدبابة الأولى التي تتقدم الرتل المدرع على بعد حوالي 12 متر صوب بدقة نحوها لتنطلق

القذيفة وتستقر أسفل برج الدبابة التي اختل توازنها وتوقفت ومالت ماسورة مدفعها إلى الأرض، وفي الوقت الذي توقفت فيه مدرعات الموجه الأولى أمام قسم شرطة الأربعين بتأثير المفاجأة خرجت آلاف حاشدة من الجنود والمواطنين إلى الميدان والشوارع المحيطة بقسم الشرطة وهم يهتفون في حماسة (الله أكبر، الله أكبر) وأخذوا في إطلاق نيران بنادقهم ورشاشاتهم على أطقم الدبابات بينما ألقى البعض بقنابله اليدوية داخل أبراج الدبابات التي أخذت تنفجر ويشتعل بعضها بالنار حتى تحولت المنطقة إلى قطعة من الجحيم.

وعندما أبصرت دبابات الموجتين الثانية والثالثة ما لحق بمدرعات الموجة الأولى من فتك وتدمير حاولت الاستدارة إلى الخلف في ارتباك شديد للعودة إلى منطقة المثلث ونظرًا لضيق الشارع اصطدمت بعضها بالبعض وأثناء عودتها خرجت حشود ضخمة من البيوت المهدمة على طول الشارع وأخذوا يطلقون النيران ويقذفون الدبابات بالقنابل اليدوية وهي تفر أمامهم كالفئران المذعورة

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الخاتمة

ذكرنا في هذا الكتاب العديد من الحكام البارزين الغير مصريين الذين حكموا مصر واستعرضنا معًا ما اتخذوه من قرارات مصيرية تجاه مصر وشعبها بعد أن وضعوا أيديهم على مفتاح شخصيتها وباحت لهم بسرها[508] وكان أمامهم إحدى خيارين فاختار بعضهم البقاء في مصر واتخاذها عاصمة للملك، واختار البعض الآخر العودة إلى عاصمة ملكه ولكن بعد أن يتخذ ما يراه من الإجراءات التي يضمن بها عدم استقلال مصر عن دولته الكبرى لأن بها جميع مقومات الاستقلال والنهوض وشعبها يمتلك خصائص تؤهله لصنع الكثير إذا تم توجيهه التوجيه الأمثل، وسوف نبلور معًا في هذا الفصل كلا الاختيارين ونذكر أهم الحكام الذين اتخذوا قرار البقاء والذين اتخذوا قرار العودة.

أشهر الحكام غير المصريين الذين اختاروا البقاء في مصر:

ملوك الهكسوس، الملك شاشنق الأول، الملك بعنخي، الملك قمبيز، بطليموس الأول، أحمد ابن طولون، أبو بكر الإخشيد، المعز لدين الله الفاطمي، صلاح الدين الأيوبي، سلاطين المماليك، نابليون بونابرت، محمد علي باشا.

أشهر الحكام غير المصريين الذين غادروا مصر بعد اتخاذ مجموعة من الإجراءات:

الإسكندر المقدوني، الإمبراطور أغسطس، خلفاء دولة الراشدين والدولة الأموية والدولة العباسية، السلطان سليم الأول العثماني

مصر دولة ذات طابع خاص على مر التاريخ:

ومما سبق يتأكد لنا أننا نعيش في وطن لا يمكن مقارنته بأي بقعة أخرى على وجه الأرض وهذا بشهادة شخصيات غير عادية على مر التاريخ وهذه الشهادة ترجموها لأفعال وإجراءات على الأرض وليس مجرد شهادة للتاريخ وهكذا يمكن القول أنه لا يشعر بقيمة الأوطان الغير عادية على مر التاريخ إلا قادة غير عاديون مثل صانع الحلي والمجوهرات الخبير الذي يقدر الجواهر والأحجار الكريمة مهما علاها التراب أو اختفت وسط الرمال ولم يلحظها أحد فينفض عنها التراب فتخطف الأبصار ويدرك الناس حقيقتها

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المراجع

- محمد علي وأولاده (جمال بدوي)
- فضائل مصر وأخبارها وخواصها (ابن زولاق)
- صقر قريش (علي أدهم)
- من هدي القرآن (أمين الخولي)
- (مصر من تاني) محمود السعدني دار أخبار اليوم (طبعة 1998)
- (ضرب الإسكندرية في 11 يوليو) بقلم عباس محمود العقاد
- وصف مصر تأليف علماء الحملة الفرنسية – ترجمة زهير الشايب
- شخصية مصر للدكتور جمال حمدان
- (سعد زغلول – سيرة وتحية) بقلم عباس محمود العقاد
- في محراب الفكر لجمال بدوي
- سيرة القاهرة تأليف ستانلي لين بول – ترجمة د /حسن إبراهيم حسن، د / علي إبراهيم حسن، إدوار حليم

- المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور لمحمد بن أحمد بن إياس الحنفي
- القاهرة رحلة في المكان والزمان تأليف عرفه عبده علي–تقديم جمال الغيطاني
- مختارات 2 من شخصية مصر – دراسة في عبقرية المكان – د /جمال حمدان
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – تأليف جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (813-874) - قدمه وعلق عليه محمد حسين شمس الدين
- من نفسي - أنيس منصور – دار الشروق – الطبعة السابعة
- (مختارات3- من شخصية مصر) –د /جمال حمدان - مكتبة مدبولي
- القاهرة – د /جمال حمدان
- فتح الشبابيك على أحوال المماليك – محمد عرموش
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي
- (صفحات من تاريخ مصر) - يحيى حقي

• (موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلى اليوم مع صورهم وأعلامهم ورموزهم) تأليف د/ ناصر الأنصاري – الطبعة الخامسة – 1994- دار الشروق

• طبيعة الأمة المصرية (جمال بدوي)

• معالم تاريخ وحضارة مصر من أقدم العصور حتى الفتح العربي – د /سيد الناصري – د/ سيد توفيق

• مصر في العصور الوسطي (الأوضاع السياسية والحضارية) (د/محمود الحويري) عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية (طبعة سنة 2003)

• موسوعة مصر القديمة (سليم حسن)

• مصر الفرعونية "أحمد فخري"

• تاريخ الحركة القومية في مصر القديمة – تأليف عبد الرحمن الرافعي

• موسوعة تاريخ مصر للأستاذ أحمد حسين

• هؤلاء حكموا مصر - من مينا إلى مبارك - إعداد حمدي عثمان – المراجعة العلمية د ناصر الأنصاري – الهيئة المصرية العامة للكتاب – الطبعة الثانية 2012

• دراسات في العصر الهللينستي، إعداد د/ فادية محمد أبو بكر أستاذ مساعد التاريخ القديم كلية آداب جامعة الإسكندرية – دار المعرفة الجامعية

- المسيحية والإسلام في مصر (د /حسين كفافي)
- عبقرية محمد (صلى الله عليه وسلم) (عباس محمود العقاد)
- عبقرية خالد (عباس العقاد)
- تاريخ مصر الإسلامية (د /جمال الدين الشيال)
- عندما دخلت مصر في دين الله (د/ محمد عمارة)
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام الحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي دار الغد العربي
- تاريخ الخلفاء للإمام الحافظ جلال الدين السيوطي راجعه وعلق عليه جمال محمود مصطفى دار الفجر للتراث (الطبعة الأولى)1999
- (تاريخ الأدب العربي) عصر الدول والإمارات – مصر – تأليف د/ شوقي ضيف – دار المعارف
- أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم (لأبي عبد الله محمد بن علي بن حماد) تحقيق ودراسة د/ التهامي نقرة والدكتور عبد الحليم عويسدار الصحوة
- تاريخ المجاعات في مصر (المختار من إغاثة الأمة بكشف الغمة) تقي الدين أحمد بن علي المقريزي مكتبة الأسرة 1999

- تاريخ المدارس في مصر الإسلامية – إعداد د/ عبد العظيم رمضان – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأسرة 2000

- صلاح الدين الأيوبي (د/ جمال الدين الرمادي) العدد 25 من كتاب الشعب سنة 1958

- مؤرخو مصر الإسلامية (محمد عبد الله عنان)

- الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط (د/ علي محمد محمد الصلابي)

- مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية تأليف محمد عبد الله عنان 1896-1986 – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأسرة 1998

- (فصول من تاريخ مصر الإقتصادي والإجتماعي في العصر العثماني) د/ عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم – من سلسلة كتب (تاريخ المصريين) رقم 38 – الهيئة المصرية العامة للكتاب طبعة سنة 1990

- طومان باي آخر سلاطين المماليك (د عبد المنعم ماجد)

- تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعى)

- عجائب الآثار في التراجم والأخبار عبد الرحمن الجبرتيتحقيق د /عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم

- تاريخ مصر من عهد المماليك إلي نهاية حكم اسماعيل – تأليف المستر جورج يانج – تعريب: علي أحمد شكري – الطبعة الثانية 1996 – مكتبة مدبولي

- عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي)

- محمد علي سيرته وأعماله وآثاره بقلم إلياس الايوبي

- (المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر)- د/ يونان لبيب رزق- المجلس الأعلى للثقافة – الفصل الرابع (مصر بين عهدي محمد علي واسماعيل)- عبد الله محمد عزباوي

- حديث عيسي بن هشام– محمد المويلحي

- أنا المصري- جمال بدوي – هيئة الكتاب - مكتبة الأسرة 2000

- الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي – تأليف عبد الرحمن الرافعي – دار المعارف

- أسرة محمد علي (سهير حلمي)

- (مصر من نافذة التاريخ) تأليف جمال بدوي

- دراسات في ثورة 1919- للدكتور حسين مؤنس – دار الرشاد- الطبعة الثانية سنة 2005

• في محراب الفكر – للأستاذ جمال بدوي – الهيئة المصرية العامة للكتاب – 1998

• (سعد زغلول سيرة وتحية) لعباس محمود العقاد

• في أعقاب الثورة المصرية – ثورة 1919 – لعبد الرحمن الرافعي –دار المعارف

• مقدمات ثورة يوليو سنة 1952- عبد الرحمن الرافعي – دار المعارف

• ثورة يوليو سنة 1952 –تاريخنا القومي في سبع سنوات 1952-1959 لعبد الرحمن الرافعي-الطبعة الثانية دار المعارف

• المعارك الحربية علي الجبهة المصرية- للمؤرخ العسكري اللواء جمال حماد - دار الشروق

• سقط النظام في أربعة أيام – ثورة يوليو بالوثائق السرية – محسن محمد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


متميزون
للكتب النصية
E-Book

<u>Group Link – لينك الانضمام الى الجروب</u>

<u>Link – لينك القنـــــاة</u>

الفهرس..

Notes

[←1]

محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة 33

[←2]

قد تكون هناك شخصية بارزة بالنسبة للبعض ولا تكون كذلك للبعض الآخر، وبالتالي فإن الشخصيات البارزة ممن حكموا مصر المذكورين في هذا الكتاب تم اختيارهم طبقاً لاجتهاد شخصي بحت والمجتهد قد يخطئ وقد يصيب وأرجو من القارئ أن يلتمس لي العذر عن ذلك ويفترض حسن النية وربما يكون هذا الكتاب بما يحتويه من مصادر دافعاً للقارئ للبحث عن معلومات أكثر غزارة ودقة، وسوف نذكر أيضاً بعض الحكام الغير بارزين ولكن وقعت في عهودهم أحداث بارزة

[←3] من أهم وأشهر ملوك الهكسوس خلال عصر الاضمحلال الأول الفرعوني

[←4]

ملك ليبي الأصل

[←5]

ملك نوبي

[6→]

(51) سورة الزخرف

[←7]

(137) سورة الأعراف

[←8]

[9←]

الشعراء 57، 58

[←10]

سورة مريم 94، 95

[11←] صقر قريش (علي أدهم) صـ 74 باختصار

[←12] من هدي القرآن (أمين الخولي) صـ 48 (مكتبة الأسرة)

[←13]

(258) سورة البقرة

[←14]

(26) سورة آل عمران

[←15]

(127) سورة الأعراف

[←16]

(128) سورة الأعراف

[17←]

نقلاً عن كتاب (مصر من تاني) بقلم الكاتب الساخر الكبير محمود السعدني رحمه الله – صفحة 110، 111

[←18]
نقلاً عن كتاب (ضرب الإسكندرية في 11 يوليو) بقلم عباس محمود العقاد – صفحة 75 – الطبعة الثانية 1983 – دار المعارف - بتصرف

[←19] نقلاً عن كتاب وصف مصر تأليف علماء الحملة الفرنسية

[←20] نقلاً عن كتاب وصف مصر تأليف علماء الحملة الفرنسية

[←21]
ستلاحظ عزيزي القارئ أنني في الفصل الثالث من هذا الكتاب سأحشد فضائل مصر من عدة كتب كما يقول د جمال حمدان لأنني مصري علي أي حال

[←22]

نقلاً عن كتاب شخصية مصر للدكتور جمال حمدان

[←23] نقلاً عن كتاب شخصية مصر للدكتور جمال حمدان

[←24] من مقدمة كتاب (سعد زغلول – سيرة وتحية) بقلم عباس محمود العقاد

[←25] نقلاً عن كتاب في محراب الفكر لجمال بدوي.

[←26]

ولد المؤرخ والرحالة البريطاني ستانلي لينبول في مدينة لندن في الثامن عشر من شهر ديسمير سنة 1854 ودرس في جامعة أكسفورد وجامعة دبلن وبدأ حياته العملية كمؤرخ وباحث في الآثار، وقد زار مصر أكثر من مرة وعمل بها وله مؤلفات عديدة تتناول تاريخها وتوج في سنة 1902 سلسلة مؤلفاته في تاريخ مصر بكتاب (سيرة القاهرة) أو تاريخ القاهرة The Story of Cairo والذي قام بترجمته كل من د حسن إبراهيم حسن و د علي إبراهيم حسن وإدوار حليم وفي هذا الكتاب وصف رائع للعاصمة المصرية.

[←27]

قد يكون ما كتبه المؤرخ ستانلي لين بول صحيحًا إلى درجة كبيرة بل وقد يكون مستمر حتى الآن فالكثيرين من هذا الشعب يتميزون بروح الدعابة ومن السهل تسليتهم ولا أدري هل هذا الوصف يعتبر من المزايا أم من العيوب فقد يمكن لأي حاكم إذا أراد أن يستغل ذلك بسوء نية فيشغل الشعب عن قضاياه الأساسية بأمور ثانوية يظل يدور في فلكها دون أن يشعر بما هو فيه مثل مباريات كرة القدم أو الأعمال الفنية والمهرجانات والاحتفالات وغيرها

[←28]
نقلًا باختصار عن كتاب سيرة القاهرة تأليف ستانلي لين بول – ترجمة د حسن إبراهيم حسن، د علي إبراهيم حسن، إدوار حليم – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأسرة طبعة 1997

[←29] مقتطفات مختصرة من مقدمة كتاب المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور لمحمد بن أحمد بن إياس الحنفي.

[←30]
نقلًا عن كتاب القاهرة رحلة في المكان والزمان تأليف عرفه عبده علي–تقديم الأديب الكبير جمال الغيطاني – الهيئة المصرية العامة للكتاب 2009

[31←]

نقلًا باختصار عن كتاب – مختارات 2 من شخصية مصر – دراسة في عبقرية المكان – د جمال حمدان، مكتبة مدبولي، صفحات 72-73-74

[←32]

نقلاً باختصار عن كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – تأليف جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (813-874) - قدمه وعلق عليه محمد حسين شمس الدين – دار الكتب العلمية - صفحة 42، 43

[←33] نقلاً عن كتاب – من نفسي - للكاتب الكبير أنيس منصور – دار الشروق – الطبعة السابعة – صفحة 242-243

[←34]
نقلاً عن كتاب (مختارات3- من شخصية مصر) – مكتبة مدبولي

[←35] نقلاً عن كتاب مختارات (3) من شخصية مصر للدكتور جمال حمدان - الفصل الخامس – وحدة مصر الوطنية -مكتبة مدبولي

[←36] نقلاً باختصار عن كتاب مختارات من شخصية مصر 3 للدكتور جمال حمدان – مكتبة مدبولي- مقتطفات مختصرة من صفحة 20 وما بعدها

[←37]

القاهرة – د جمال حمدان – صفحة 85

[←38] نقلاً عن كتاب فتح الشبابيك علي أحوال المماليك – محمد عرموش

[←39]

نقلاً عن كتاب شخصية مصر – د جمال حمدان

[←40]
نقلاً عن كتاب حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي

[←41]

من كتاب (صفحات من تاريخ مصر) للكاتب الكبير يحيي حقي

[←42]

حكم هذا الملك الوجه القبلي وسيطر عليه لمدة عامين مع وجود الاحتلال الفارسي في الشمال وانتهي حكمه تماماً سنة 341 قبل الميلاد فإذا شئت اعتبرت انتهاء حكم المصريين لمصر عند بداية الاحتلال سنة 343 (نقلاً عن كتاب هؤلاء حكموا مصر لحمدي عثمان-المراجعة العلمية د ناصر الأنصاري)

[←43]

طبيعة الأمة المصرية (جمال بدوي) صـ 67

[←44]

ومن الطريف أن دخول المصريين الجيش في عصر أسرة محمد علي أدي إلي الإطاحة بحكم أسرة محمد علي

[←45]

طبيعة الأمة المصرية (جمال بدوي) صـ 67

[←46]
القسم الثاني من كتاب معالم تاريخ وحضارة مصر صفحة 75– د سيد الناصري

[←47]

موضوع التواريخ الدقيقة لن يشغلنا كثيرا، فلن نحاول أن نغرق في التفاصيل، فكم من حدث جلل ضاعت عبرته بسبب الغرق في التفاصيل، ولكن قد تكون دقة التاريخ نفسه هي أهم ما في حدث تاريخي معين، ولكن بالنسبة لتاريخ الأسرة 18 والفراعنة عموماً كلها تواريخ تقريبية فلن نجعلها تعوقنا عن الهدف الذي ننشده

[←48] موسوعة حكام مصر (ناصر الأنصاري) صـ 37

[←49] راجع التواريخ في جدول حكام مصر

[←50]

وقد نفهم من كلام د جمال حمدان أن سر تماسك الدول الإسلامية المتعاقبة كان عدم الاهتمام بالحساسيات القومية والنعرات الإقليمية وإعلاء قيمة القومية الإسلامية فوق هذه القوميات المختلفة، وربما يكون إثارة هذه النعرات والقوميات هو الأسلوب الذي انهارت به آخر دولة إسلامية وهي الدولة العثمانية حيث عمل أعداءها علي إثارة هذه القوميات والنعرات كالقومية العربية والقومية التركية والقومية المصرية.....إلخ

[51←]
نقلاً عن كتاب مختارات (3) من شخصية مصر للدكتور جمال حمدان - الفصل الثاني – شخصية مصر السياسية - مكتبة مدبولي

[←52] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 103، 104

[←53]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 104

[54←]
نقلا عن (موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلي اليوم مع صورهم وأعلامهم ورموزهم) تأليف د ناصر الأنصاري – الطبعة الخامسة – 1994- دار الشروق - باختصار

[←55]
(أما كلمة فرعون فقد أتت من اللفظ المصري القديم "برعو" أي القصر العظيم "قارن الباب العالي والبيت الأبيض") معالم تاريخ وحضارة مصر –القسم الأول – د سيد توفيق صفحة 53

[←56]

وردت عدة أسماء للفرعون الأول موحد القطرين منها (مني = مينا= منا = نعرمر = نارمر) وقد استخدم هنا الدكتور سيد توفيق اسم "مني" للفرعون الأول كما ورد في تاريخ مانيتون وبردية تورين وقائمة أبيدوس بأن الفرعون الأول هو "مني" بمعني الخالد أو المثبت

[←57]
موسوعة مصر القديمة (سليم حسن) الجزء الأول صـ 267

[←58]

موسوعة مصر القديمة (سليم حسن) الجزء الأول صـ 267

[←59] موسوعة مصر القديمة (سليم حسن) الجزء الأول صـ 267

[←60]

كان مانيتون كاهنًا مصريًا في معبد في سمنود واشتهر بعلمه ومعرفته لتاريخ مصر ولغتها وأراد بطليموس الثاني " حوالي 280 ق م " أن يستفيد من علمه وذلك بتكليفه بكتابة تاريخ لمصر استقي مصادره مما كان في المعابد ومكاتب الحكومة من وثائق ومما يبعث على الحزن أن تاريخ مانيتون الأصلي فقد في حريق مكتبة الإسكندرية ولم يعثر حتى الآن على أي نسخة كاملة أو ناقصة منه وكل ما وصل إلى أيدينا ليس إلا مقتطفات من ذلك التاريخ نقلها المؤرخ اليهودي يوسيفوس -- ووصل إلينا أيضًا من تاريخ مانيتون جداول بأسماء الأسرات والملوك وعدد سني حكمهم في مؤلفات بعض الكتاب المسيحيين وخاصة جوليوس الإفريقي "217 ميلادية " ولكن أفضل النصوص وأدقها هو ما جاء في الكتاب الذي قام بجمعه جيورجيوس سينكلوس (صفحة 66-67 مصر الفرعونية "أحمد فخري")

[←61]

حصل على هذه البردية الرحالة الإيطالي دروفني في أوائل القرن التاسع عشر وقيل إنه عثر عليها في منف وكانت البردية في حالة جيدة عندما تسلمها دروفني ولكنها تهشمت بعد ذلك ونقلت إلى إيطاليا عقب الحصول عليها ووضعت في متحف تورين منذ ذلك الوقت وكانت تحتوي هذه البردية علي أكثر من ثلاثمائة اسم من أسماء الملوك وتحت اسم كل منهم عدد سنوات حكمه وهي تبدأ بالآلهة الذين حكموا مصر - وتنتهي أسماء الملوك قبيل الأسرة الثامنة عشرة (صفحة 65 مصر الفرعونية "أحمد فخري")

[←62]

تم استخدام اسم (جُسر -DJOSER) للملك زوسر في كتاب معالم تاريخ وحضارة مصر للدكتور سيد توفيق وكلمة جسر تعني المقدس باللغة المصرية القديمة

[←63]

مصر الفرعونية (أحمد فخري) صفحة 92

[64←]
معالم تاريخ وحضارة مصر –القسم الأول – د سيد توفيق صفحة 56-57

[←65]
(عيد السد= كان هذا الاحتفال معروفًا في مصر دون شك قبل الأسرة الأولي بزمن كبير، ويرجع أصله إلى عادة ما زالت تمارسها بعض الشعوب الإفريقية حتى الآن، وهي تحديد ثلاثين سنة لحكم أي زعيم، لأن رخاء الناس يتوقف على قوة ذلك الزعيم، فإذا امتد عمره أكثر من ذلك قضوا عليه في حفل ديني - - كما تقدم البعض الآخر في تفكيره وقبل من الزعيم أن يثبت قوته باصطياد أسد أو قتل عدو فيشتري بذلك سنوات أخرى من الحياة، وتقدم آخرون أكثر من ذلك فجعلوا الزعيم يحصل على سنوات أخرى باسترضائه للإله بتشييد معبد جديد أو تقديم قرابين خاصة في حفل يثبت فيه هذا الزعيم استمتاعه بالصحة الوفيرة، ويظهر أن هذه العادة كانت معروفة ومتبعة في مصر في وقت مبكر قبل عصر الأسرات، ووصلت إلى مرحلتها الأخيرة وهي تجديد الحق في البقاء في الحكم قبل أن تنتهي فترة الثلاثين سنة ويكون ذلك في احتفال وفق مراسيم خاصة يثبت فيها الزعيم قوته، ويشيد لهذه المناسبة بعض المباني الخاصة -- وظل ملوك مصر منذ الأسرة الأولي حتي آخر أيام حضارتها، مخلصين لهذا التقليد وكثيرًا ما نرى الإشارة إليه، ونرى بعض طقوسه على جدران المعابد في جميع العصور حتى ما شيد منها في أيام الرومان) من كتاب (مصر الفرعونية - موجز تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى عام 332 قبل الميلاد) للمؤرخ الكبير (أحمد فخري) صفحة82-83 مكتبة الأنجلو المصرية (الطبعة الثامنة) 1995

[←66]

معالم تاريخ وحضارة مصر –القسم الأول – د سيد توفيق صفحة 66

[←67]

مصر الفرعونية (أحمد فخري) صفحة 98

[←68]

مصر الفرعونية (أحمد فخري) صفحة 101

[←69]

[←70] ماريت هو عالم آثار أجنبي وكان يعمل في مجال الحفائر والاكتشافات الأثرية الفرعونية

[←71]
لاحظ أن المصري القديم كان يعتقد أن ما يوجد في مقبرته من صور حياته اليومية والطعام والشراب والأثاث كل هذا هو الذي سيضمن له السعادة في الآخرة ومن الطريف أن هذا ينطبق ظاهريًا فقط مع قول الشاعر " لا دار للمرء بعد الموت يسكنها - إلا التي كان قبل الموت يبنيها، فإن بناها بخير طاب مسكنه -وإن بناها بشر خاب بانيها " وهذا الشعر بالطبع يعبر عن وسيلة البناء التي تعبر عن الأعمال الصالحة في الدنيا ورضا المولي عز وجل وليس ما كان يفعله المصري القديم من صور وتماثيل وتحنيط لأن كل هذا لا ينفع بشيء في الآخرة إنما الذي يبقى هو العمل الصالح ودعاء الأبناء والصدقات الجارية والله أعلم

[72←]
معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول- د سيد توفيق مقتطفات من صفحة 103 وما بعدها

[←73]
كتب سليم حسن عن سنفرو ما يلي (وكانت كل القوة مجتمعة في يد الملك الذي حل محل رؤساء القبائل، ولما كان الملك هو الوارث لمعبود القبائل أصبح القوم يعتقدون فيه أنه إله حقيقي) موسوعة سليم حسن - مصر القديمة –الجزء الأول- صفحة 284

[74←]

(في أواخر أيام الأسرة الخامسة المصرية أو ربما في أوائل الأسرة السادسة كان يقوم في معبد من معابد العاصمة في منف حجر لا يقل طوله عن مترين ويزيد ارتفاعه عن سبعين سنتيمترًا نقش وجهاه بنقوش في سطور رأسية كتبت فيها أسماء جميع من حكموا مصر منذ أيام ما قبل الأسرة الأولى مع مدة حكم كل منهم، مقسمًا إلى سنوات وأهم ما حدث في كل سنة ولأمر ما حطم هذا الحجر إلى قطع صغيرة عثر حتى الآن على ستة منها أكبرها وأهمها موجودة في صقلية منذ 1859 ونقلت إلى متحف مدينة بالرمو في عام 1877 وما زالت هناك حتى الآن) (صفحة 63-64 مصر الفرعونية "أحمد فخري")

[←75]

معالم تاريخ وحضارة مصر –القسم الأول – د سيد توفيق صفحة 68

[←76]

[←77]

[←78]
موسوعة سليم حسن - مصر القديمة –الجزء الأول-صـفحة 285، 286

[←79]

يعتقد بعض علماء الآثار أن من أسباب بناء هذا الهرم أن الملك قرر تأمين شعبه ضد البطالة وخاصة في الفترات التي تتوقف فيها أعمال الزراعة ولذلك كان يتم العمل في الهرم في هذه الفترات فقط من السنة وهي فترات مرتبطة طبعا بتوقيتات حدوث فيضان النيل

[←80]

[81←]
موسوعة مصر القديمة (سليم حسن) الجزء الأول صـ 294 (مكتبة الأسرة)

[←82] موسوعة مصر القديمة (سليم حسن) ج 1 صـ 295 (م الأسرة)

[←83]

بالطبع لا يوجد شيء اسمه غلبة إله على إله ولكن الموضوع كان له علاقة بالمصالح المرتبطة بالكهنة أنفسهم فكل معبد له ما يشبه الأوقاف من الأراضي والماشية تدر مبالغ كبيرة لكهنة المعبد وكلما زادت أهمية أحد المعابد زاد بالتالي دخله ولتسهيل الموضوع يمكن إعطاء مثال أن كهنة كل معبد كانوا يديرون مشروعات تدر أرباحاً ضخمة كما لو كانت شركات وأسماء الآلهة عبارة عن أسماء لهذه الشركات (شركة رع – شركة حورس وهكذا) ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (22) سورة الأنبياء

[←84] معالم تاريخ وحضارة مصر –القسم الأول – د سيد توفيق صفحة 82-83

[←85]

مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ 189

[86←]

أحمد فخري(23 مايو -)لقب بكبير وشيخ الأثريين. كما لقب أيضًا براهب الصحراء. ومن أشهر مؤلفاته: المصرية - مصر الفرعونية - – واحة - دراسات في تاريخ الشرق القديم - بين آثار - ماضيها وحاضرها - رحلة أثرية إلى اليمن، كما أن له عدة اكتشافات أثرية منها معابد عين المفتلة، كما اكتشف مقبرة هضبة السوبي واكتشافات أثرية أخري

[87←]

مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ 192

[88←]

(مصر الفرعونية) – أحمد فخري – صفحة 192 وصفحة 240

[←89]

مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ 233

[90←] صفحة 218 وما بعدها بكتاب مصر الفرعونية لأحمد فخري

[←91] نقلاً عن كتاب تاريخ الحركة القومية في مصر القديمة – تاليف عبد الرحمن الرافعي – صفحة 53

[92←] الجزء الأول من موسوعة تاريخ مصر للأستاذ أحمد حسين صفحة 80 وما بعدها وتحت عنوان امنمحات الثالث حوالي 1842 قبل الميلاد

[←93]
نقلاً عن كتاب تاريخ الحركة القومية في مصر القديمة – تاليف عبد الرحمن الرافعي – صفحة 54

[←94]

مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ 271

[←95] مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ 272

[←96]
تتكون الأسرة 18 من الملك أحمس الأول – أمونحتب الأول – تحتمس الأول – تحتمس الثاني –حتشبسوت- تحتمس الثالث –امونحتب الثاني – تحتمس الرابع –امونحتب الثالث – امونحتب الرابع (اخناتون) –سمنخ كا رع – توت عنخ آمون – آي – حور محب

[←97]

مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ 274

[←98]

مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ 274

[99←]
نقلاً عن كتاب مصر الفرعونية لأحمد فخري - بتصرف من صفحة 271 –
والصورة للملك أحمس الأول

[100←] نقلاً باختصار عن كتاب هؤلاء حكموا مصر – حمدي عثمان – الطبعة الثانية – الهيئة المصرية العامة للكتاب

[←101]
لاحظ عزيزي القارئ أن الألقاب عند الفراعنة في غاية الأهمية ولذلك كانوا يحرصون علي تدوينها في مقابرهم

[←102]
نقلاً باختصار عن كتاب هؤلاء حكموا مصر - من مينا إلي مبارك - إعداد حمدي عثمان – المراجعة العلمية د ناصر الأنصاري – الهيئة المصرية العامة للكتاب – الطبعة الثانية 2012

[←103] الصور المدرجة من صفحة من عجائب تاريخ مصر وهي في الأساس تم تجميعها من موسوعة ويكيبيديا وغيرها

[←104]
ملخص ما ورد عن الملك تحتمس الثالث بالجزء الأول من موسوعة تاريخ مصر للأستاذ أحمد حسين من صفحة 103 وما بعدها تحت عنوان حكم تحتمس الثالث – حوالي سنة 1468 قبل الميلاد

[←105]

مصر الفرعونية – أحمد فخري صفحة 297

[←106]

مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ 305

[←107]
نقلا عن كتاب مصر الفرعونية – أحمد فخري، وكتاب هؤلاء حكموا مصر – حمدي عثمان

[←108]

مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ 307

[←109]
(ومن أشهر الآثار الباقية من عهده، اللوحة الجرانيتية التي ترجع للعام الأول من حكمه وهي المقامة للآن بين مخالب تمثال أبو الهول بالجيزة، ويقص علينا تحتمس الرابع من خلال نص منقوش عليها، أنه ذهب عندما كان شابًا ليحتمي بظل أبو الهول وذلك بعد رحلة صيد مرهقة فغلبه النعاس فرأى فيما يرى النائم الإله حور-ام-أخت "المجسد في تمثال أبو الهول" يبشره بتاج مصر عندما يحرره من الرمال التي عليه، ويبدو أن الملك تحتمس الرابع قد حقق للإله حور-ام-أخت رغبته بعد توليته العرش مباشرة، هذه القصة تؤكد أن تحتمس الرابع لم يكن الوريث الشرعي ولهذا اختلق هذه النبوءة لكي يفسر لنا أن اختياره قد تم بواسطة الإله حور –ام-أخت)معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق- صفحة 189، وقد تكرر هذا الموضوع مع أكثر من ملك من ملوك العصر الفرعوني المشكوك في صحة توليهم العرش حيث يقوم الملك باختلاق قصص وينسبها للآلهة الفرعونية ليؤكد أحقيته بالعرش كما فعل تحتمس الرابع عند أقدام تمثال أبو الهول

[←110]
معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق- صفحة 190

[←111]

مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ 309

[←112] (وتوضح لنا مراسلات تل العمارنة – أن الملكة تي أم أمنحوتب الرابع قد أرسلت للملك الميتاني توشراتا خطاب تبلغه فيه بموت زوجها أمنحوتب الثالث وترجوه أن يستمر في صداقته وعلاقته الودية مع ابنها فرعون مصر الجديد أمنحوتب الرابع وقد أجاب توشراتا –وهو ابن الملك السابق - علي خطاب تي بأن عليها أن تقنع ابنها بالمحافظة علي هذه العلاقات الودية بين مصر ودولة الميتاني وقد يستدل من هذه الخطابات أن أمنحوتب الرابع لم يعتل عرش مصر إلا بعد وفاة والده – أي لم يكن شريكا معه في الحكم - وفي نفس الوقت برهان علي قوة نفوذ الملكة تي سواء في السياسة الداخلية أو الخارجية) معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق- صفحة 198

[←113]

مصر الفرعونية (أحمد فخري)صـ 317

[←114]

[←115] مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ 326 وكتاب هؤلاء حكموا مصر لحمدي عثمان

[←116]

مصر الفرعونية (أحمد فخري)صـ 340

[←117] معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق- صفحة 211، كتاب مصر الفرعونية (أحمد فخري) صفحة 340

[118←]

نقلاً عن كتاب (تاريخ الحركة القومية في مصر القديمة)– من فجر التاريخ إلى الفتح العربي- تأليف عبد الرحمن الرافعي – دار المعارف - صفحة 102، 103 – وكتاب هؤلاء حكموا مصر – حمدي عثمان – صفحة 67

[←119] مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ 369

[←120]

معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق- صفحة 224-225

[←121]
نقلا عن كتاب هؤلاء حكموا مصر – حمدي عثمان وكتاب مصر الفرعونية – أحمد فخري وكتاب معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول– د سيد توفيق

[←122]

موسوعة حكام مصر (ناصر الأنصاري) صـ 34

[←123]

مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ 389

[←124]

(إذ نعرف مجموع ما امتلكه معبد آمون من أراضي زراعية وصل إلى 10% من مجموع الأراضي في حين أن نصيب جميع الآلهة الأخرى لا يزيد عن 5% من هذه الأراضي، فقد كان يتبع معبد آمون في طيبة بمفرده 86486 خادمًا و 421362 رأسًا من الماشية كبيرها وصغيرها وكان عدد الأرغفة التي تقدم في الأعياد 2844357 والطيور 126250 كما كان يمتلك مناجم للذهب والفضة هذا فضلاً عن العديد من المصانع التي تنتج له، وقد يوضح هذا مدى ما وصل إليه نفوذ كهنة الإله آمون في عهد رمسيس الثالث) معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق- صفحة 230

[←125] نقلاً عن كتاب معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق، وكتاب مصر الفرعونية – أحمد فخري

[←126] من كتاب (معالم تاريخ وحضارة مصر - من أقدم العصور حتي الفتح العربي) – القسم الأول – د سيد توفيق- صفحة 232، 233- دار النهضة العربية (الطبعة الثانية) 1980

[←127]

مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ 420

[←128] نقلاً عن كتاب تاريخ الحركة القومية في مصر القديمة – تأليف عبد الرحمن الرافعي – صفحة 123 وكتاب مصر الفرعونية – تأليف أحمد فخري – صفحة 420

[←129] نقلاً عن كتاب (مصر الفرعونية) أحمد فخري صفحة 428

[130←] موسوعة حكام مصر (ناصر الأنصاري) صـ 36

[←131] مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ 447

[←132] نقلاً عن كتاب (مصر الفرعونية) – أحمد فخري – صفحة 447 بتصرف

[←133] نخت انبو الثانيبالإنجليزية Nectanebo II، ويُعرف أيضاً بإسمنخت حورب، كان ثالث وآخر ملك في الأسرة المصرية الثلاثون وكان أيضاً آخر حاكم مصري وطني في القدم.

[←134] موسوعة حكام مصر (ناصر الأنصاري) صـ 37

[←135]

مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ 462

[←136] موسوعة حكام مصر (ناصر الأنصاري) صـ 38

[←137]
معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق- صفحة 259

[←138]

نقلاً عن كتاب - معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق- وكتاب موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري)

[←139]
وهذا يؤكد أن الإسكندر اكتشف ما لمصر من إمكانيات تؤهلها للاستقلال فاتخذ فيها إجراءات خاصة تختلف عن باقي الولايات الخاضعة لحكمه.

[←140]

نقلاً باختصار عن كتاب دراسات في العصر الهللينستي، إعداد د فادية محمد أبو بكر أستاذ مساعد التاريخ القديم كلية آداب جامعة الإسكندرية – دار المعرفة الجامعية.

[←141] نقلاً باختصار عن كتاب هؤلاء حكموا مصر - من مينا إلي مبارك - إعداد حمدي عثمان – المراجعة العلمية د ناصر الأنصاري – الهيئة المصرية العامة للكتاب – الطبعة الثانية 2012 - صفحات 111، 112، 113

[←142] نقلاً باختصار عن كتاب هؤلاء حكموا مصر من مينا إلي مبارك إعداد حمدي عثمان – المراجعة العلمية د ناصر الأنصاري –الهيئة المصرية العامة للكتاب – الطبعة الثانية- صفحة 114-115

[←143] معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني (د سيد الناصري)صـ 86، 87

[144←] موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلي اليوم (د ناصر الأنصاري) صـ 40

[←145] نقلاً عن كتاب (موسوعة سليم حسن – مصر القديمة) الجزء السادس عشر (من عهد بطليموس الخامس إلي نهاية عهد بطليموس السابع) مكتبة الأسرة 2001 بتصرف من صفحة 241 – 244

[←146]

ربما فكر قادة روما أنه في حالة احتلال مصر سيقوم الوالي الروماني المعين عليها بإرسال أموال وقمح مصر إلي روما بصفة رسمية وطبقا لحسابات خاصة بولايات الإمبراطورية ولكنه بالطبع لن يضطر إلي إرسال هدايا ورشاوى شخصية للقادة في بيوتهم أما الزمار فكان يرسل ما يفيد روما بشكل عام ويفيد القادة بشكل خاص وبالتالي هذا الوضع قد يكون أفضل من الاحتلال ولهذا كانت مصر هي آخر ما سقط من تركة الإسكندر في يد الرومان

[←147] معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني (د سيد الناصري)صـ 105

[←148] معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني (د سيد الناصري)صـ 114

[←149] نقلا بتصرف عن كتاب -معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني (د سيد الناصري)

[150←]
من كتاب معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني (د سيد الناصري)
صـ 143

[←151]

موسوعة حكام مصر (ناصر الأنصاري) صـ 45

[←152]

موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صـ 52

[←153]

معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني (د سيد الناصري) صـ 123

[←154]

ويسري هذا القرار حتي علي آل البيت الإمبراطوري الحاكم

[155←] من كتاب (معالم تاريخ وحضارة مصر - من أقدم العصور حتي الفتح العربي) – القسم الثاني – د سيد الناصري – صفحة 123

[←156]

نقلاً عن كتاب (هؤلاء حكموا مصر – من مينا إلى مبارك) إعداد حمدي عثمان – المراجعة العلمية د ناصر الأنصاري – الهيئة المصرية العامة للكتاب – الطبعة الثانية 2012 – مقتطفات مختصرة من صفحة 138 إلى صفحة 141

[←157]

نقلاً عن كتاب (هؤلاء حكموا مصر – من مينا إلي مبارك) إعداد حمدي عثمان – المراجعة العلمية د ناصر الأنصاري – الهيئة المصرية العامة للكتاب – الطبعة الثانية 2012 –صفحة 144

[←158]
نقلا عن كتاب (هؤلاء حكموا مصر) (إعداد حمدي عثمان)

[←159] موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صـ 47

[←160]
معالم تاريخ وحضارة مصر (القسم الثاني) (د سيد الناصري) صـ 210

[161←] معالم تاريخ وحضارة مصر (القسم الثاني) (د سيد الناصري) صـ 218

[162←]
نقلًا عن كتاب (هؤلاء حكموا مصر) حمدي عثمان – صفحة 167، 168 – الهيئة المصرية العامة للكتاب

[←163]

من ضمن الإجراءات المالية توحيد العملة علي مستوي الإمبراطورية بالكامل بما فيها مصر ولم تعد لمصر العملة الخاصة بها وقام هذا الإمبراطور بنسف كل ما تبقي من إجراءات الإمبراطور أغسطس في مصر والمعروفة بسر الإمبراطورية

[←164]

من أهم الإجراءات العسكرية التي قام بها هذا الإمبراطور هو انسحاب القوات الرومانية من حدود الإمبراطورية إلي خطوط أقوي

[←165]

موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صـ 50

[←166]

معالم وتاريخ حضارة مصر (القسم الثاني) (د سيد الناصري)صـ254

[←167]
معالم وتاريخ حضارة مصر (القسم الثاني) (د سيد الناصري)صـ 255

[←168]

معالم وتاريخ حضارة مصر (القسم الثاني) (د سيد الناصري)صـ 261

[←169] معالم وتاريخ حضارة مصر (القسم الثاني) (د سيد الناصري)صـ 262

[←170] المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفافي) صـ 41

[←171] المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفافي) صـ 52

[←172]
معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني (د سيد الناصري) صـ 263

[←173] موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صـ 52

[←174] معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني (د سيد الناصري) صـ 263 -

[←175] معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني (د سيد الناصري) صـ 266

[←176]
معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني (د سيد الناصري) صـ 285

[←177]

المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفافي) صـ 93

[←178]

المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفافي) صـ 94

[←179] المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفافي) صـ 95

[←180]

المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفافي) صـ 101.

[←181]

عبقرية محمد (عباس محمود العقاد) صـ9

[←182]

عبقرية محمد (عباس العقاد) صـ 9

[←183]

البقرة 126-129

[←184]

عبقرية خالد (عباس العقاد) صـ 6

[←185]

عبقرية خالد (عباس العقاد) صـ 11

[←186]
وصل العرب إلى أرض مصر في الشهر الأول من سنة 19 للهجرة " يناير 640 م وأبحرت جنود الروم إلى بلادها في 17 سبتمبر سنة 642 م

[←187]

المدينة المنورة عاصمة دولة الخلفاء الراشدون وقد بلغ عدد ولاة مصر ستة ولاة في عصر الراشدين الثلاثة (عمر وعثمان وعلي) رضي الله عنهم أجمعين، وأول والي كان بالطبع أبو عبد الله عمرو بن العاص فاتح مصر تولي من سنة 640 م إلي سنة 646 م ثم عزله عنها سيدنا عثمان بن عفان وتولي مصر عبد الله بن سعد من سنة 646 م إلى سنة 656 م ثم محمد ابن أبي حذيفة بن عتبة من سنة 656 م إلي سنة 657 م ثم قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ثم الأشتر مالك بن الحارث النخعي في ديسمبر 657 م ولكنه مات قبل وصوله إلي مقر ولايته ثم محمد ابن أبي بكر الصديق حتي يوليو 658 م والجدير بالذكر أن عمرو بن العاص تولي حكم مصر مرتين مرة بعد فتحها في عصر الراشدين والمرة الثانية مع بداية الدولة الأموية في عصر معاوية بن أبي سفيان

[←188]
دمشق عاصمة الدولة الأموية التي استمرت من سنة 40 هجريًا 661 ميلاديًا إلي سنة 132 هجريًا 750 ميلاديًا أي حوالي 89 سنة، تولى فيها الخلافة 12 خليفة وتولى خلالها على مصر 25 واليًا كان أولهم عمرو بن العاص الذي عينه معاوية وظل واليًا إلى أن توفي بها سنة 664 ميلاديًا، وأشهر من تولي حكم مصر في العهد الأموي من الولاة عمرو بن العاص وعتبة ابن أبي سفيان أخو معاوية وعبد العزيز بن مروان بن الحكم في خلافة أبيه ثم أخيه، وقرة بن شريك العبسي في خلافة الوليد بن عبد الملك وأيوب بن شرحبيل في خلافة عمر بن عبد العزيز، وبشكل عام كانت ولاية مصر من الأمور المهمة جداً في الخلافة الأموية، أما أشهر خلفاء الدولة الأموية بعد معاوية، ابنه يزيد وعبد الملك بن مروان وأولاده الوليد بن عبد الملك الذي بني في عهده المسجد الأموي الشهير في دمشق وسليمان بن عبد الملك ويزيد بن عبد الملك وابن عمهم عمر بن عبد العزيز بن مروان ومن الأمور المهمة التي حدثت في مصر خلال العصر الأموي أن عبد الله بن عبد الملك بن مروان أحد ولاة مصر في هذا العصر أمر الدواوين فنسخت باللغة العربية في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان وكانت تكتب حتي عهده باللغة.

[←189]

بغداد عاصمة الدولة العباسية وقد أسسها العباسيون علي ضفة نهر دجلة واتخذوها عاصمة لهم وكانت مركزًا تجاريًا عظيمًا، وقد أحدث قيام الدولة العباسية تغيرات وتطورات سياسية واجتماعية وثقافية بعيدة الأثر في الدولة الإسلامية وبلغت الدولة العباسية أوجها في عصر هارون الرشيد وبانتهاء عصره زادت الفتن مما أدي إلي ضعف شأن الخلافة إلى أن غزاها المغول وقضوا علي الأسرة العباسية في 656 هـ / 1258 موقد حدث أن قامت دولتان في مصر تعترفان بالخلافة العباسية وهما الدولة الطولونية والدولة الإخشيدية وسوف يأتي الكلام عنهما في حينه إن شاء الله، وتولى حكم مصر في عهد الدولة العباسية بما فيها هاتين الدولتين (96) واليًا.

[190←]

تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج1 صـ 14

[←191] عندما دخلت مصر في دين الله (د محمد عمارة) صـ 29

[←192] عندما دخلت مصر في دين الله (د محمد عمارة)صـ 34 .

[←193] عندما دخلت مصر في دين الله (د محمد عمارة) صـ 35.

[←194] عندما دخلت مصر في دين الله (د محمد عمارة) صـ 53

[←195] عندما دخلت مصر في دين الله (د محمد عمارة) صـ 53

[←196]

تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج1 صـ 59

[←197]

تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج1 صفحة 92

[198←]

نقلًا باختصار عن كتاب هؤلاء حكموا مصر من مينا إلى مبارك إعداد حمدي عثمان – المراجعة العلمية د ناصر الأنصاري –الهيئة المصرية العامة للكتاب – الطبعة الثانية- صفحة 214-215

[←199] مقتطفات مختصرة نقلاً عن كتاب – القاهرة رحلة في المكان والزمان – تأليف عرفه عبده علي –تقديم الأديب الكبير جمال الغيطاني – الهيئة المصرية العامة للكتاب 2009

[←200]

تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج1 صـ 65

[←201]

[←202]

[←203]

ومن الأمور الجديرة بالذكر أن عبد العزيز بن مروان أحد ولاة مصر في العصر الأموي بني مدينة حلوان وجعلها مقرًا له وبني مقياسًا للنيل بها كما تم بناء مقياس كبير في الروضة في خلافة سليمان بن عبد الملك، وكان اهتمام الولاة بالنيل وأنظمة الري اهتمامًا كبيرًا، وعملوا على زيادة المحاصيل وتشجيع الزراعة والصناعة

[←204] مقتطفات مختصرة من صفحة 226، 227 من كتاب هؤلاء حكموا مصر لحمدي عثمان

[←205]

تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 208

[←206]

[←207]

تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 208

[←208]

[←209]

تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 211، 212

[210←]

الخليفة المأمون هو ابن الخليفة العباسي الشهير هارون الرشيد الذي يعد من أبرز الشخصيات في العصر العباسي فيقول عنه السيوطي (وكان هارون الرشيد من أميز الخلفاء وأجل ملوك الدنيا وكان كثير الغزو والحج كما قال عنه أبو المعالي الكلابي:فمن يطلب لقاءك أو يرده - فبالحرمين أو أقصي الثغور، وكان أبيض طويلًا جميلًا مليحًا فصيحًا له نظر في العلم والأدب وكان يصلي في خلافته في كل يوم مائة ركعة إلى أن مات لا يتركها إلا لعلة ويتصدق من صلب ماله كل يوم بألف درهم وكان يحب العلم وأهله ويعظم حرمات الإسلام ويبغض المراء في الدين والكلام في معارضة النص - قال عنه أبو معاوية الضرير: ما ذكرت النبي بين يدي الرشيد إلا قال: صلى الله على سيدي، وحدثته بحديثه " وودت أني أقاتل في سبيل الله فأقتل ثم أحيي فأقتل " فبكى (الرشيد) حتي انتحب وكانت أيام الرشيد كلها خير كأنها من حسنها أعراس، وكانت دول العالم تهاب الدولة العباسية وكانت هذه السيطرة تتمثل في دفع الجزية إلى الخليفة العباسي وتصب في صالح الأمة الإسلامية

[←211]

تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 245

[←212]

[←213]

[←214] نقلاً عن كتاب (تاريخ الأدب العربي) عصر الدول والإمارات – مصر – تأليف د شوقي ضيف – دار المعارف صفحة 45

[←215]

ولعل من أخطر الأحداث تأثيرًا هو استبدال الجنود العرب بجنود أتراك وقد لاحظنا من قبل أن أي دولة تعتمد في حروبها على عناصر أجنبية يصل بها الحال إلى سيطرة هذه العناصر عليها مع مرور الوقت وازدياد قوتهم وطبعًا مع فارق التشبيه يمكن أن نتذكر معًا ما حدث عندما استعان الفراعنة بالمرتزقة الليبيين والإغريق، فبالرغم من دخول الليبيون والإغريق الديانة الفرعونية في ذلك الوقت إلا أنهم سيطروا على مقاليد السلطة بالبلاد وصار مصيرها بين أيديهم، وطبعًا مع الفارق الكبير بين هذا المثال وبين ما نحن فيه، لأن الجنود في الجيش الإسلامي كانوا مسلمين والإسلام دين شامل وللعالم أجمع ويستوعب جميع الجنسيات، ولكن كان يُفضل الاحتفاظ بالجنود العرب كعنصر رئيس في الجيش الإسلامي طالما أن الدولة عربية في الأساس، وقد اصطفي المولى عز وجل العرب من دون الناس ليبعث منهم نبيه صلى الله عليه وسلم، وكذلك نزل القرآن الكريم بلغتهم وبالتالي أصبح العرب مسئولين عن الدعوة لهذا الدين والذود عنه ويساعدهم في ذلك من أسلم من الجنسيات الأخرى بالطبع، وقد اقتضت الصراعات السياسية في ذلك الوقت الاستعانة بجنود غير عرب وخاصة ما حدث في عهد الخليفة المعتصم الذي استكثر من الجند الأتراك في عاصمة الدولة (ثم لم يلبث أن أرسل إلي كيدر نصر بن عبد الله واليه علي مصر"217هـ-219هـ " وأمره بإسقاط من في ديوان مصر من العرب وقطع أعطياتهم ففعل ذلك " ومنذ ذلك الحين أصبح جند مصر من العجم والموالي

[←216]

لقد وصل الأمر بأحد الخلفاء العباسيين إلى أن أنشد شعرًا يعبر عن أحواله كما ورد بكتاب تاريخ الخلفاء للسيوطي.

أليس من العجائب أن مثلي
يري ما قل ممتنــعًا عـــــــليه
وتؤخذ باســمه الدنيا جميعا
وما من ذاك شيء في يديه
إليه تحمــــل الأموال طـــــرًا
ويمنع بعض مــا يجبي إليه

[←217]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 101

[←218]

تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج1 صفحة 58

[←219]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 102

[←220]

قد يكون القاسم المشترك بين كبار القادة الذين حكموا مصر هو الانفراد بالسلطة، فهل هذا هو الأسلوب الأفضل لحكم مصر وتحقيق الإنجازات بها

[←221]
مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 103

[←222]

تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 44

[←223]

تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 44

[←224]

وكانت صدقاته علي أهل المسكنة والستر وعلي الضعفاء والفقراء وأهل التجمل متواترة، وكان راتبه لذلك في كل شهر ألفي دينار... سوى ما يطرأ عليه من النذور وصدقات الشكر علي تجديد النعم، وسوى مطابخه التي أقيمت في كل يوم للصدقات في داره وغيرها، يذبح فيها البقر والكباش، ويغرف للناس في القدور الفخار والقصاع، على كل قدر أو قصعة لكل مسكين أربعة أرغفة في اثنين منها فالوذج والاثنان الآخران على القدر، وكانت تعمل في داره وينادي: من أحب أن يحضر دار الأمير فليحضر وتفتح الأبواب ويدخل الناس الميدان، وابن طولون في المجلس الذي تقدم ذكره ينظر إلى المساكين ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون فيسره ذلك فيحمد الله على نعمته، ولقد قال له مرة إبراهيم بن قراطغان وكان علي صدقاته: أيد الله الأمير، إنا نقف في المواضع التي تفرق فيها الصدقة، فتخرج لنا الكف الناعمة المخضوبة نقشًا والمعصم الرائع فيه الحديدة والكف فيها الخاتم، فقال: يا هذا، كل من مد إليك يده فأعطه، فهذه هي اللطيفة المستورة التي ذكرها الله سبحانه وتعالي في كتابه فقال (يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ) (273-سورة البقرة)، فاحذر أن ترد يدا امتدت إليك وأعط كل من يطلب منك

[←225]
مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 109

[←226] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 109، 110

[←227]

موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة 78

[←228]

موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة 79

[←229]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 111

[←230]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 111

[←231]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 111

[←232]

مصر من تاني (محمود السعدني) صفحة 25

[←233]

لاحظ معي عزيزي القارئ أهمية الحاكم القوي في استقرار الأمور ومدي تأثر البلاد بالحاكم الضعيف إلي درجة انعدام النظام فيها

[←234]

موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة 82

[←235]

موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة 82

[←236]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 125

[←237]

[←238]

تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 309

[←239] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 130، 131

[←240]

كان للإخشيد عبد أسود خصي اسمه كافور وكان كافور هذا مربي أولاد الإخشيد ومعلمهم وأستاذهم وكان شديد الإخلاص للإخشيد ولدولته، كما كان قائداً لبعض المعارك التي خاضها جيش الدولة الإخشيدية وغاية القول عن هذا الرجل أنه كان رجل دولة وكان عبدًا ولكنه كان فلتة من فلتات الزمن ونادرة من النوادر، فبالرغم من أنه عبد إلا أنه كان يتميز بصفات تؤهله للقيادة والإمارة بلا مبالغة، ويكفي أن أقول لك عزيزي القارئ أن كافور هذا قد أصبح وصياً علي أولاد الإخشيد بعد موته وكان محافظًا علي الدولة بعد موت مؤسسها وبوفاة كافور انتهت الدولة الإخشيدية واقتحم الجيش الفاطمي مصر أي أن الدولة الإخشيدية كانت عبارة عن شخصين فقط هما الإخشيد نفسه ثم كافور وبوفاة آخرهما انتهت الدولة

[←241]

موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة 85

[←242] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 127 (نقلاً عن المقريزي)

[←243]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 133

[←244]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 134

[←245]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 135

[←246]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 136

[←247]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 129

[←248]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 130

[←249]

من كتاب (مصر من تاني) تأليف (محمود السعدني) صفحة 27

[←250]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 145

[←251]

ذكرنا أنه عند ظهور شخصية بارزة على مسرح الأحداث تتغير الأحداث، ولكن يبدو أن اختفاءه أيضًا يغير الأحداث، فلم يقرر أو إن شئت فقل لم يجرؤ المعز لدين الله أن يرسل جيشه بقيادة جوهر الصقلي إلى مصر إلا بعد أن تأكد من وفاة كافور

[←252] موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة 86، 87

[←253]

ولبثت القاهرة منذ قيام الدولة الفاطمية في مصر عاصمة الملك والخلافة، وبلغت أيام الفاطميين من الضخامة والرونق والبهاء مبلغًا عظيمًا بل إنه لم يمض نصف قرن فقط على قيام القاهرة المعزية حتي كانت بقصورها ومرافقها تكون مدينة من أعظم مدن الإسلام وكانت القصور الفاطمية قد نمت وبلغت منذ أوائل القرن الخامس الهجري منتهي الضخامة والبذخ وكان القصر الخليفي الكبير أو القصر الشرقي يقع في وسط المدينة في منطقة خالية وأمامه من الناحية الغربية يقع القصر الغربي أو القصر الصغير وهو الذي أنشأه الخليفة العزيز بالله وخصص فيما بعد لإقامة ابنته الأميرة ست الملك، وبين الصرحين ميدان شاسع هو ميدان بين القصرين الشهير وهو الذي كانت تجتمع فيه الجيوش المسافرة أو الحرس الخليفي أو طوائف الشعب أيام الأعياد والأحداث العامة وكان الجامع الأزهر وهو جامع القاهرة الرسمي، يحتل مكانه الخالد، الذي يقوم فيه حتي اليوم، وسط المدينة فيما بين الشرق والغرب، وقد وصف لنا الشاعر والرحالة الفارسي ناصري خسرو الذي زار القاهرة سنة 438هـ -1046م- القصر الفاطمي الكبير بقوله:إنه قصر شاسع تراه من خارج المدينة كأنه جبل نظرًا لضخامة مبانيه وارتفاعها، ولا يمكن أن تراه من داخل المدينة إذ تحيط به أسوار شاهقة الارتفاع، ويقال إن هذا القصر يضم من الحشم اثني عشر ألف نفس، ومن ذا الذي يستطيع أن يقول كم يضم من النساء والبنات، وهم يؤكدون أنه يضم ثلاثين ألف شخص، ويتكون القصر من عشرة أجنحة وله عشرة أبواب تفضي إلي الحرم ثم يقول ناصري خسرو إن القاهرة لها خمسة أبواب وهي ليست محصورة في رقعة محصنة ولكن المباني والمنازل مرتفعة جداً حتي أنها تبدو أعلي من الحصن وكل منزل وكل قصر يمكن اعتباره قلعة ومعظم المنازل تضم خمس أو ست طبقات، وقد بنيت منازل القاهرة بمنتهي العناية والترف حتي ليمكن أن يقال إنها قد بنيت من الأحجار الكريمة وليس من الآجر أو الأحجار العادية والمنازل كلها منعزلة بحيث أن الأشجار القائمة في أحدها لا تصل أغصانها إلي المنزل الآخر ويستطيع كل إنسان أن يهدم داره وأن يبنيها دون أن يضار أحد، وتضم القاهرة ما لا يقل عن عشرين ألف حانوت كلها من أملاك الخليفة ومنها عدد عظيم يؤجر الحانوت منه بعشرة دنانير معزية في الشهر والقليل منها يؤجر بأقل من ذلك كذلك يوجد منها عدد عظيم يصعب حصره من الخانات والحمامات وغيرها من الأبنية العامة وهذه أيضًا كلها من أملاك الخليفة إذ لا يسمح لإنسان أن يمتلك منزلًا أو عقارًا إلا ما كان من أبنية الخليفة نفسه

[←254]

ينسب إلي هذا الوزير اسم حي الجمالية حاليًا بالقاهرة الفاطمية

[←255] المقصود هنا أن الحسب والنسب هما القوة والمال ومن يمتلك القوة والمال يمتلك السلطة

[←256]
أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم (لأبي عبد الله محمد بن علي بن حماد)
صفحة 11

[←257]

أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم (لأبي عبد الله محمد بن علي بن حماد) صفحة 11

[←258]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 173، 174

[←259]

تاريخ مصر الإسلامية ج 1 (د جمال الدين الشيال) صفحة 144

[←260]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 171

[←261]
(- أسهب المؤرخون في وصف مظاهر الترف والبذخ والثراء التي عرفها العصر الفاطمي بصورة لا نجدها في مصر في سائر العصور، ويتجلى بذخ الخلفاء في القصور التي بنوها ومن أشهرها القصر الشرقي الذي بناه جوهر الصقلي للخليفة المعز لدين الله الفاطمي والقصر الغربي الذي بناه الخليفة العزيز بالله - ومما يدل علي مظاهر الثروة والأبهة عند الخلفاء الفاطميين الوصف الذي أورده المؤرخ الصليبي وليم الصوري رئيس أساقفة صور عند زيارة سفير عموري الأول ملك بيت المقدس - في عهد الخليفة العاضد آخر خلفاء الدولة الفاطمية فقد جاء فيه " وقد استقبل السفيران بحفاوة، فاجتازوا الردهات والأبواب التي يقف عليها حراس سودانيون أشداء بسيوفهم اللامعة وكذلك الحدائق المليئة بالحيوانات والطيور النادرة، وأخذا يسيران من قاعة إلي أخري حتي ظهرت أمامهما قاعة العرش الذهبي، وقد أسدل عليها ستارة من الحرير مرصعة بالذهب واللآلئ، ومثلت عليها صور بشرية كثيرة وهيئات طيور وحيوانات تتألق بأحجار الزمرد والياقوت والأحجار الكريمة من كل نوع، ثم فتحت الستارة فظهر الخليفة جالسًا على مقعد من الذهب والأحجار الكريمة وقد ارتدي ملابس فاخرة لم يتح لكثير من الملوك إذ ذاك لبسها -)مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 170، وكان الصليبيون قد سيطروا علي بيت المقدس وأصبحت لهم مملكة صليبية فيه خلال العصر الفاطمي حيث كان بيت المقدس تحت سيطرة الفاطميين في ذلك الوقت

[←262]

مصر من تاني (محمود السعدني) صفحة 32

[←263]

مصر من تاني (محمود السعدني) صفحة 34

[←264]

مصر من تاني (محمود السعدني)

[←265]

أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم لأبي عبد الله محمد بن علي بن حماد صفحة 34

[←266]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 166

[←267]

قصور النيل معناه قلة الماء فيه

[←268]
إغاثة الأمة بكشف الغمة (المقريزي) صفحة 52، 53

[←269]
صاحب مسجد الصالح طلائع المواجه لباب زويلة بالقرب من الغورية والخيامية

[←270]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 166

[←271] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 157 (نقلًا عن المقريزي)

[←272] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 157 (نقلًا عن ابن الأثير)

[←273]

سبب نجاح الحملات الصليبية من وجهة نظر الدكتور محمود الحويري: يعتبر نجاح الصليبيين في تأسيس كيان لهم ببلاد الشام (لا يرجع إلي تفوق جيوشهم في العدد والعدة ولا إلي كفاءتهم الحربية، وإنما يرجع أساسًا إلى انعدام المقاومة الإسلامية وتراخي المسلمين في الذود عن أراضيهم بسبب تبعثر قواهم وافتقارهم إلى الوحدة والتماسك، فأمراء السلاجقة لم يكن من بينهم بعد وفاة أعظم سلاطينهم " ملكشاه " سنة 485 هـ " 1092 م" من يستطيع أن يتولي قيادتهم ويوجه جهودهم لقتال الصليبيين، في الوقت الذي انكمشت فيه الخلافة الفاطمية في مصر ولم تكن في حال يسمح لها بأن تنهض بدور فعال في إنقاذ بلاد الشام من براثن الصليبيين - وإذا كان من الثابت أن الفاطميين اشتبكوا مع الصليبيين ببلاد الشام، ولكن الفاطميين ظهروا أمامهم في صورة العاجزين، وأخفقوا في استرداد بيت المقدس)، وهكذا لم يعد في الأمة الإسلامية قائد من الوزن الثقيل حتي ظهرت شخصية قوية وهو عماد الدين زنكي (الذي وضع نصب عينيه أن التغلب على الصليبيين وطردهم من بلاد الشام لا يمكن أن يتم إلا بتوحيد الجبهة الإسلامية وهي المهمة التي بدأها بنفسه وأتمها ابنه نور الدين محمود ومن بعده صلاح الدين الأيوبي -) مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 161

[←274]
مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 160

[←275]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 185

[←276]

تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني صفحة 14

[←277]

تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني صفحة 15

[←278]

تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني صفحة 15

[←279]

تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني صفحة 18

[←280]

تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني صفحة 18

[←281]
جدير بالذكر أن كل من حكم مصر بعد ذلك سكن القلعة حتى عهد الخديوي إسماعيل من أسرة محمد علي والذي نزل من القلعة وأقام بقصر عابدين واتخذه مقراً له

[←282]
تم كتابة أسماء ملوك الدولة الأيوبية من كتاب موسوعة حكام مصر للدكتور ناصر الأنصاري صفحة 89، صفحة 90

[←283]

تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج 2 صفحة 78

[←284]
تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج 2 صفحة 78

[←285]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 159

[←286]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 159

[←287]

تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج 2 صفحة 80

[←288]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 219

[←289]

حدثت مجاعة واحدة في العصر الأيوبي بسبب نقص شديد في مياه النيل وكانت في عهد السلطان العادل وتبع ذلك غلاء ووباء

[←290]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 225

[←291]
نقلاً عن كتاب تاريخ المدارس في مصر الإسلامية – إعداد د عبد العظيم رمضان – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأسرة 2000

[←292]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 193

[←293]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 192

[←294]

وسبحان الحي الذي لا يموت

[←295]
مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 195

[←296]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 195

[←297]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 196

[←298]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 196

[←299]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 199

[←300]
مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 199

[←301]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 200

[←302]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 201

[←303]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 201

[←304]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 202

[←305]
مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 203

[←306]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 204

[←307]
مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 205

[←308]
مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 206 (نقلاً عن السيوطي)

[309←]
صلاح الدين الأيوبي (د جمال الدين الرمادي) العدد 25 من كتاب الشعب سنة 1958 صحفة 80، 81

[←310]

صلاح الدين الأيوبي (د جمال الدين الرمادي) العدد 25 من كتاب الشعب سنة 1958 صفحة 105

[←311]

تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج 2 صفحة 89

[←312]

نقلاً عن كتاب (تاريخ مصر الإسلامية) تأليف (د جمال الدين الشيال)
الجزء الثاني

[←313]

تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج 2 صفحة 94

[←314]
تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج 2 صفحة 97

[←315]

تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج 2 صفحة 98

[←316]

تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج 2 صفحة 98

[←317]

كانت تتم عادةً هذه المراسلات بين الملوك والقادة خلال المعارك بشكل طبيعي مع تأمين الرسل تماماً أثناء قيامهم بمهامهم وهو عُرف قديم ومعروف

[←318]

تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني 102

[←319]

تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني صفحة 101

[←320]
وهذا يذكرنا بالعصر الفرعوني عندما ينتهي نسل الذكور من الأسرة الفرعونية يقوم أحد القادة بالزواج من إحدى أميرات الأسرة ويؤسس أسرة جديدة حتي يجري دماء الفراعنة في نسله، فشرعية الحكم في عهد الفراعنة مرتبطة بالدماء الملكية، ولكن مشكلة المماليك أن ليس لديهم دماء ملكية فالجميع متساوون في النشأة والبيئة

[←321]

تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج2 صفحة 115

[←322]

تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج2 صفحة 116

[←323]

تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج2 صفحة 116

[←324]

موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلي اليوم (د ناصر الأنصاري) صفحة 93

[←325]

موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلي اليوم (د ناصر الأنصاري) صفحة 94

[←326]

لقد كان المماليك في ذلك الوقت قوة لا يستهان بها علي مستوي العالم في الوقت الذي كانت الأمة الإسلامية في أمس الحاجة لقوة تدرأ عنها الأخطار المحدقة بها من كل جانب

[←327]

تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج2 صفحة 119

[←328]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 240

[←329]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 288

[←330]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 290

[←331]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 290

[←332] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 291، 292

[←333]
(إذا كان المماليك قد كونوا طبقة عسكرية شديدة البأس - فقد أدي ذلك إلى ظهور علماء الدين المصريين الذين وقفوا أمام استبداد المماليك، وتكلموا بلسان الشعب المصري باعتبارهم من أبنائه، ودافعوا عنه ضد كل طغيان، وبلغ رجال الدين في دولة المماليك مكانة سامية، جعلت سلاطين المماليك يستمعون إلى شكواهم ويجيبون طلباتهم، بل توجسوا من بعضهم خيفة، وليس أدل على ذلك من أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام كان يزجر السلطان الظاهر بيبرس عن المظالم وينهاه عنها) كما أن (قاضي قضاة الحنفية شمس الدين الحريري كان شديد السطوة لا تأخذه في الله لومة لائم وكانت الأمراء تخافه ولقد ذكر لابن بطوطة أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قال يوماً لجلسائه: " إني لا أخاف أحداً إلا شمس الدين الحريري " ومن هذا المنطلق كان المماليك يقربون علماء الدين والقضاة المصريين، حرصًا منهم على تدعيم سلطتهم بالنفوذ الديني)، (وكثيرًا ما كان السلطان المملوكي يرجو نصح علماء الدين باعتبارهم أهل الحل والعقد ولا يقوم بحرب أو يتخذ قرارات عليا هامة تمس أمور الدولة إلا بعد استشارتهم، هذا في الوقت الذي كان رجال الدين يعتبرون سلاطين المماليك درع الأمة الإسلامية وأن احترامهم من احترام الإسلام -)

[334→]

مؤرخو مصر الإسلامية (محمد عبد الله عنان) صفحة 76

[←335]

مؤرخو مصر الإسلامية (محمد عبد الله عنان) صفحة 76

[←336]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 292

[←337]

على الرغم من أن المماليك كانوا طبقة حاكمة تميل إلى البطشٍ والقسوة والقوة إلا أنهم كانوا رعاة للفنون التي لم تشهد لها مصر مثيلاً منذ عصر البطالمة، وتمتعوا بذوق راق وحب للفنون فملؤوا سماء القاهرة بالتحف الهندسية الرائعة ولازالت القاهرة تزخر بالمساجد والمدارس والقباب والخوانق والأضرحة والقصور والأسبلة والحمامات والبيمارستانات وغيرها من التحف المعمارية، وقد عني سلاطين المماليك وأمرائهم عناية تامة منذ قيام دولتهم بتشييد المنشآت العامة حتي كاد يخطئها العد

[←338]

كان للمستعصم وزير اسمه مؤيد الدين العلقمي وهو شيعي رافضي وكان يحاول هدم الخلافة السنية وإقامة خلافة شيعية

[←339]

باطن التتار أي اتفق معهم علي معاونتهم ضد الخليفة سرًا

[←340]

[←341]

[←342]

دست الوزارة = منصب الوزارة

[←343]

تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج2 صفحة 122

[←344]

[←345]

[←346]

تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج2 صفحة 122

[←347] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج2 صفحة 122، 123

[←348]

تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج2 صفحة 123

[←349]

[←350]

تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 134

[←351]

تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 138

[←352] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 138، 139

[←353]

تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 149

[←354]

[←355]

تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 156

[←356]

[←357]

تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 167

[←358]

[←359]
خرج كل أمير من أمراء الشام بقوة كبيرة ليقابل جيش السلطان عند عكا وجدير بالذكر أن هذه المعركة اشترك فيها المجاهدين المسلمين وليس المماليك فقط

[←360]

تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 169

[←361]

نقلاً باختصار عن كتاب هؤلاء حكموا مصر – حمدي عثمان – الهيئة المصرية العامة للكتاب

[←362]

هذه المدرسة تعد بحق من روائع العمارة الإسلامية فقد جمعت بين فخامة البناء وجمال الهندسة الدقيقة المتناسقة وروعة الزخرفة سواء المنقوشة منها على الحجر أو الرخام أو الخشب، أو تللك المحفورة على النحاس المطعم بالذهب والفضة أو المرسومة على الزجاج المموه بالمينا، جاءت آية فنية في جمالها وجلالها لا مثيل لها في العمائر الإسلامية بالشرق وقد شُيدت هذه المدرسة سنة 1358م بعد أن استغرق العمل فيها حوالي عشر سنوات تكلف خلالها أموالاً طائلة، وتبلغ مساحة المدرسة (المسجد) حوالي فدانين

[←363]

عن أهمية الخيول في العصر المملوكي كتب الكاتب الكبير جمال الغيطاني في كتابه الممتع ملامح القاهرة في ألف سنة ما ملخصه:نتجه إلي ميدان الرميلة الممتد تحت قلعة الجبل، ربما كان التجول في سوق الخيل مدخلًا طبيعيًا إلى عالم رحب وثيق الصلة بكافة تفاصيل الحياة خلال العصور الوسطى، لم يتغير موقع هذا السوق طوال العصر الوسيط، ترتفع صيحات الدلالين والمنادين، وأنواع عديدة من الخيول لكنها موزعة علي ثلاثة أقسام رئيسية، الخيول العربية، أنفسها وأغلاها قيمة مطلوبة للسباق وللحاق، مصدرها بلاد الحجاز ونجد واليمن والشام والعراق ومصر وبرقة، والنوع الثاني تركي أو أعجمي، وكانت تسمي الهماليج أو الأكاديش، مرغوبة لصبرها علي السير الحثيث وسرعة المشي،النوع الثالث مولد بين العربية والأعجمية، إذا كان الأب أعجميًا والأم عربية قيل له هجين وهي وسط بين النوعين السابقين، أما الخيول الإفرنجية فهي أفشل الأنواع وأرخصها ثمناً هنا، ولا يقبل عليها أحد، الخيول العربية نفسها تنقسم إلي عدة أنساب، الحجازية أشرفها، والنجدي أيمنها والمصري أفرهها، والغربي أنسلها، وعندما ترد السوق خيول مؤصلة فإنها تعرض علي السلطان، وكان السلاطين مهتمين جدًا باقتناء أنفس الأنواع وأنقى الأنساب -،كان الناصر بن قلاوون شغوفًا بجلب الخيول العربية، وأفرد لها دفاتر تسجل أنساب الخيل كما تسجل أنساب الآدميين، وعندما مات ترك خلفه ما يقرب من ثمانية آلاف فرس في اصطبلاته، أما السلطان برقوق - فقد خلف وراءه ستة آلاف فرس، كان اقتناء الخيول والاهتمام بها مظهرًا من مظاهر القوة والجاه، ولا عجب، فقد قام النظام المملوكي علي دعامتين، الفارس والفرس، ربما كان هذا سبباً قوياً في أهمية سوق الخيل وقربه من قلعة الجبل مركز الحكم ورمز السلطة في مصر وقتئذ، في السوق نري ألواناً عديدة، غير أن الألوان الأساسية أربعة، وما عدا ذلك متفرع منها: الأول: اللون الأبيض وكان سلاطين المماليك يفضلونها، ويطلقون عليها الفرس البوز، ويذكر ابن إياس في بدائع الزهور أن السلطان الغوري كان يخرج في المواكب ممتطياً فرس بوز أبيض الثاني: هو الأسود، وكل فرس شديد السواد كان يطلق عليها أدهم والثالث: هو اللون الأحمر، ويسمي الكميت، واللون الرابع هو الأصفر ومعرفة ألوان الخيل ضرورية بالنسبة للفرسان - وأحيانًا كان بعض الفرسان يحرصون علي ركوب فرس ذات لون معين في كل يوم - - - ولهذه الألوان علاقة بالتفاؤل، ولا يقتصر التفاؤل والتشاؤم على اللون العام للفرس، وإنما يتعلق الأمر ببعض العلامات في جسده، فالغرة، أي البياض الذي يكون في وجه الفرس، إذا

استدارت أو كانت تشبه حرف الحاء فإنها تدل علي اليمن والبركة، وإذا أصاب البياض خدًا دون الآخر فإن الفرس يكون مكروهًا ويتشاءم به، كذلك إن غطت عيناً دون الأخرى، فيصبح من المتوقع أن تقتل مع صاحبها، أما إذا غطت العينين فإنها تقهر مع فارسها، وإن مالت إلى اليمين تدل على الشؤم، وإلى اليسار فإنها تدل علي المكاسب، وإن وصلت إلى الأنف فإنها تدل علي البركة والخير وفي سنة 802هـ 1399م، كسر الأمير تنم وسقط أسيرًا، واستفسر المؤرخ ابن تغري بردي عن سبب وقوع الأمير عن فرسه ثم أسره، فقالوا كان في فرسه شؤم، وأشاروا إلي هذه العلاقة، وقالوا: إن أصحابه نهوه عن ركوبه فأبي وفي سوق الخيل نلاحظ أن المشترين والفاحصين يطلبون التحديق لاختبارها وفحصها والتفرس له قواعد، فلابد أن ينظر إلى الفرس في جميع حالاته خاصة أثناء الجري والفرس الجيد يعرف من شدة نفسه، وحدة نظره، وصغر كعبيه، ورقة جحافله، وقصر ساقيه، وقلة التوائه، ولين التفاته، وإذا نظر الإنسان إلي آثار قوائمه وقت جريه وقاس ما بينهما، فإذا كانت ستة أذرع يكون فرسًا سباقًا - -كما يجب أن يكون صافيًا عن الصهيل فهذا دليل علي صحة الرئتين، وعلامات أخرى عديدة كان المتفرسون يعرفونها وسجلتها كتب الفروسية، نقلاً باختصار عن كتاب ملامح القاهرة في ألف سنة للكاتب الكبير جمال الغيطاني،، الناشر نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع - الطبعة الخامسة سبتمبر2007، مقتطفات من صفحة 54 إلي صفحة 56

[←364] نقلاً عن كتاب تاريخ المدارس في مصر الإسلامية – إعداد د عبد العظيم رمضان – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأسرة 2000

[←365]

نقلاً عن كتاب هؤلاء حكموا مصر لحمدي عثمان صفحة 318

[←366]

نقلا عن كتاب هؤلاء حكموا مصر – حمدي عثمان، وكتاب (مصر في العصور الوسطي - الأوضاع السياسية والحضارية) (د محمود الحويري)

[←367] الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط (د علي محمد محمد الصلابي) صفحة 149، 150

[←368]
الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط (د علي محمد محمد الصلابي)صفحة 151

[←369]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 274

[←370] تم إدراج هذا الوصف لعودة السلطان من الحج لما يحتويه من تفاصيل تلقي الضوء على جانب كبير من حياة المماليك في ذلك العصر

[←371] كتاب مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية تأليف محمد عبد الله عنان 1896-1986 – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأسرة 1998 – مقتطفات من صفحة 202 وما بعدها

[←372] نقلا عن كتاب (المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور) تأليف محمد بن أحمد بن اياس الحنفي – مكتبة الأسرة 1996 صفحة 56،57

[←373]

من كتاب (فصول من تاريخ مصر الإقتصادي والإجتماعي في العصر العثماني) د عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم – من سلسلة كتب (تاريخ المصريين) رقم 38 – الهيئة المصرية العامة للكتاب طبعة سنة 1990 صفحة 121 وما بعدها

[←374]

مطالعة = رسالة مكتوبة

[←375]

[←376]

[←377]

كان نائب الشام سيباي بك قائد الميمنة بينما كان خاير بك نائب حلب هو قائد الميسرة وقد تم قتل سيباي بك أثناء القتال وانسحب خاير بك بدون سبب أثناء المعركة وهناك من أوقع الخلاف بين المماليك القرانصة والمماليك الجلبان في أحرج مواقف المعركة

[←378]
المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة 35، 36

[←379]

المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة 38

[←380]

مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 280

[←381]

طومان باي آخر سلاطين المماليك (د عبد المنعم ماجد) صفحة 41

[←382]
طومان باي آخر سلاطين المماليك (د عبد المنعم ماجد) صفحة 53

[←383]
طومان باي آخر سلاطين المماليك (د عبد المنعم ماجد) صفحة 59

[←384] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة 80 ولاحظ معي أسلوب ابن إياس في وصف المصيبة التي حلت بسلطان مصر ويبدو أن ابن اياس الحنفي كان شاعر ومثقف وعلي قدر عالي من الوعي وله أسلوب شيق في الكتابة

[←385]
المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة 82

[←386]
المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة 92

[←387]

المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة 106

[←388]

المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي)صفحة 111

[←389]

مصر من تاني (محمود السعدني) صفحة 67

[390←]
(اتفق المؤرخون على أن عظمة الدولة العثمانية قد انتهت بوفاة السلطان العثماني سليمان القانوني عام 974 هـ وكانت مقدمات ضعف الدولة قد اتضحت في عهد السلطان سليمان) وكانت هزيمة العثمانيين في معركة ليبانتو عام 979 هـ أزالت السيادة العثمانية عن البحر المتوسط (من كتاب الدولة العثمانية – عوامل النهوض وأسباب السقوط) (د علي الصلابي) صفحة 635

[←391]

الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 89

[←392]

الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 239

[←393]

الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 217

[←394]

الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 218

[←395]

الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 218

[←396]

الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 225

[←397]

موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة 104

[←398]
قام البعض في ذلك الوقت بإطلاق لقب خاين بك علي خاير بك لأنه خان السلطان الغوري

[←399]

موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة 105

[←400]

تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعى) ج1 صفحة 37

[←401]

[←402]

عجائب الآثار (الجبرتي) ج2 صفحة 604

[←403]

تاريخ الحركة القومية (الرافعى) ج1 صفحة 65

[←404] تاريخ الحركة القومية (الرافعى) ج1 صفحة 67، 68

[←405]

تاريخ الحركة القومية (الرافعى) ج1 صفحة 69

[←406]

تاريخ الحركة القومية (الرافعى) ج1 صفحة 69

[←407]

تاريخ الحركة القومية (الرافعى) ج1 صفحة 70

[←408]

تاريخ الحركة القومية (الرافعى) ج1 صفحة 71

[←409]

تاريخ الحركة القومية (الرافعى) ج1 صفحة 73

[←410]

الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 388

[←411]

الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 388

[←412]

مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة 27

[←413]

تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج1 صفحة 82

[←414]

تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج1 صفحة 84

[←415]

عجائب الآثار في التراجم والأخبار (الجبرتي) ج5 صفحة 2

[←416]

وهو بعنوان تاريخ مصر من عهد المماليك إلي نهاية حكم اسماعيل – تأليف المستر جورج يانج – تعريب: علي أحمد شكري – الطبعة الثانية 1996 – مكتبة مدبولي

[←417]
(ولم يكن المصريون وحدهم هم الذين فضحوا زيف نابليون، فالعلماء والقادة وكبار الضباط الذين صحبوه في حملته كانوا يعلمون مدى كذبه، وكانوا يسخرون منه وهو عاكف على ظهر الأسطول يدبج صيغة المنشور قبل أن يدفع به إلى المطبعة العسكرية لتطبعه بالعربية والتركية والفرنسية، وتحفظ السجلات الفرنسية رسالة القائد البحري " جوبير " إلي وزير بحرية فرنسا والتي يقول فيها: " لعلكم أيها الباريسيون تضحكون حين تقرءون هذا المنشور الإسلامي الذي وضعه قائدنا الأعلى ولكنه لم يعبأ بكل سخريتنا من المنشور "، بل إن نابليون نفسه، اعترف في أخريات أيامه، بأن هذا المنشور كان قطعة من الدجل " ولكنه دجل من أعلى طراز " وعندما كان يجتر ذكرياته وهو سجين في سانت هيلانة، اعترف لأحد أخصائه بما فعل، وبرر سلوكه بأن " علي الإنسان أن يصطنع الدجل في هذه الدنيا لأنه السبيل الوحيد إلي النجاح " وتلك طبيعة الطغاة الذين يستخفون بالشعوب، ولا يدركون الحقيقة إلا بعد أن يزول عنهم السلطان فيموتوا كمدا) مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة 30

[←418] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج1 صفحة 152، 153

[←419]

تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج1 صفحة 260

[←420]

تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج1 صفحة 261

[←421]

تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج1 صفحة 265

[←422]

تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج1 صفحة 267

[←423]

تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج1 صفحة 281

[←424]

[←425]

تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج2 صفحة 20

[←426]

تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج2 صفحة 33

[←427]

تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج2 صفحة 68

[←428]

تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج2 صفحة 87

[←429]

تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج2 صفحة 150

[←430]

تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج2 صفحة 152

[←431]

تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج2 صفحة 170

[←432]

تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج2 صفحة 179

[433←]

إن إدراج هذا النموذج من القادة في هذا الكتاب يوضح بلا شك الفرق الكبير بينه وبين القادة البارزين

[←434]

تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج2 صفحة 197

[←435]

تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج2 صفحة 217، 218

[←436]

تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج2 صفحة 223

[437←] نقلاً عن كتاب موسوعة حكام مصر للدكتور ناصر الأنصاري

[←438] مثل أحمد عرابي وسعد باشا زغلول وباقي زعماء الحركة الوطنية

[←439]
تاريخ الحركة القومية ج2 (عبد الرحمن الرافعي) صفحة 256 [وهذه السنة ولد بها نابليون أيضاً]

[←440]

تاريخ الحركة القومية ج2 (عبد الرحمن الرافعي) صفحة 258

[←441]

محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة 33

[←442]

تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج2 صفحة 285

[←443]

تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج 2 صفحة 293

[←444]

تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج 2 صفحة 294

[←445]

تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج 2 صفحة 293

[←446]

تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج 2 صفحة 296

[←447]

تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج 2 صفحة 314

[←448]

عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة 81

[449←]

عجائب الآثار (الجبرتي) ج7 صفحة 113، 114

[←450]

عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة 83

[←451]

محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة 13، 14

[←452]

عصر محمد علي (الرافعي) صفحة 108

[←453]

عصر محمد علي (الرافعي) صفحة 109

[←454]

عصر محمد علي (الرافعي) صفحة 110

[←455]

عصر محمد علي (الرافعي) صفحة 111

[←456]

عصر محمد علي (الرافعي) صفحة 114

[←457]

عصر محمد علي (الرافعي) صفحة 114صفحة 115

[←458]

لقد كانت مصر على موعد مع محمد علي باشا لينفض عنها التراب وليعرف الجميع إمكانياتها الحقيقية وإمكانيات شعبها، وإن كان الغرض من نهوضه بها ليس بالضرورة رفاهية الشعب المصري والله أعلم

[←459] مقتطفات مختصرة جدا نقلاً عن كتاب محمد علي سيرته وأعماله وآثاره بقلم إلياس الايوبي

[←460]

تعتبر معركة نصيبين هي المعركة الكبري التي انتصر فيها الجيش المصري علي الجيش العثماني وكانت في 24 يوليو 1839 م

[←461]

الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 414

[←462]

الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 409

[←463]

الباب العالي مقصود به السلطان العثماني وحكومته وهو مجرد إجراء شكلي لا يؤثر في تولية ابراهيم باشا حكم البلاد والله أعلم

[←464] عصر محمد علي (الرافعي) صفحة 573، 574

[←465]

عصر محمد علي (الرافعي) صفحة 562، 563

[←466]

قامت بريطانيا باحتلال مصر سنة 1882 في عهد الخديو توفيق

[←467]

تم إدراج عباس الأول في هذا الكتاب بالرغم من إجماع المؤرخين على أنه من أسوأ حكام مصر من أبناء محمد علي تقريبًا ولكنني أعتقد أن الفلاح المصري لم ينعم ببعض الحرية والانتعاش الاقتصادي في عصر أسرة محمد علي بالكامل إلا في عهد عباس الأول ولذلك بالطبع أسبابه التي تتلخص في أن عباس لم يقم بعمل أي إنجازات ضخمة وبالتالي لم يطلب من الشعب أي شيء سواء مجهود بدني أو أموال وضرائب فالتقط الفلاح المصري أنفاسه واستمتع بناتج ما يزرعه في حقله والله أعلم

[←468]

نقلاً باختصار عن كتاب (المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر)- د يونان لبيب رزق- المجلس الأعلي للثقافة – الفصل الرابع (مصر بين عهدي محمد علي واسماعيل)- عبد الله محمد عزباوي

[←469]

نقلاً عن كتاب (محمد علي وأولاده) تأليف المؤرخ الكبير جمال بدوي

[←470]
كان الخديوي اسماعيل أول من ترك قلعة صلاح الدين وأقام في قصر
وقبل ذلك كانت القلعة هي مقر حاكم مصر منذ العصر الأيوبي

[←471]

ويقول محمد بك المويلحي في كتابه حديث عيسى بن هشام عن هذه السراي بعد أن تحولت حديقتها لتصبح حديقة الحيوان:

ووصلنا إلى قصر الجيزة ومتحف الآثار وملتقي السيارة من سائر الأقطار فدخلنا روضة تجري من بينها الأنهار كأنها الجنة بعينها تحسب أرضها مفروشة ببسط منقوشة، ثم شاهدنا قصرًا يكل عنه الطرف ويقصر دونه الوصف فسرنا نرتاد خلاله ونتفيأ ظلاله فإذا الأسود مقصورات في المقاصير، فقلت سبحان الله القادر العظيم، هذا بيت اسماعيل بن إبراهيم، طالما كانت حجراته مطالع للأقمار ودرجاته منازل للأقدار، كان إذا نادى صاحبه: يا غلام – شقيت أقوام وسعدت أقوام

[←472] يوجد شارع باسمه إلي الآن بالقاهرة

[←473]

وقد كتب الأستاذ جمال بدوي عن هذا المجلس في كتابه الممتع محمد علي وأولاده ما يلي: (هل كان اسماعيل وهو يضع لبنات مجلس شوري النواب يتوقع أن ينقلب الهزار إلى جد؟ وأن يتحول هذا المجلس الضعيف المسالم إلي شريك مخالف شرس؟ وأن يصيح أحدهم في وجه الطاغية حين أراد فض المجلس دون النظر في الميزانية: أننا هنا سلطة الأمة ولن نخرج من هنا إلا بقوة الحراب (!!) قالها عبد السلام المويلحي في صباح يوم الخميس 27 مارس 1879 م عندما توجه رياض باشا وزير الداخلية ورمز الاستبداد وهو منتفخ الصدر إلي قاعة مجلس النواب بالقلعة ليتلو قرار فض الدورة حتي تكتمل المؤامرة التي دبرها رئيس الوزراء نوبار باشا مع الوزيرين الدخيلين – الإنجليزي والفرنسي – لإعلان إفلاس مصر كحل أخير لأزمة الديون الأجنبية وعلمت العناصر الوطنية في المجلس بما تدبره الحكومة في الخفاء، فأعدوا مشروعًا مضادًا يقضي أن يلتزم المصريون بتسديد الديون من دخلهم القومي بشرط تنظيم الشئون المالية وإصلاح مفاسد الإدارة بعيدًا عن الوزيرين الأجنبيين) وبالرغم من مغادرة رياض باشا المجلس غاضبًا ظل المجلس في حالة انعقاد وتناوب الأعضاء على المبيت في القاعة حتى استقالت الحكومة

[474←] نقلًا باختصار عن كتاب هؤلاء حكموا مصر - من مينا إلى مبارك - إعداد حمدي عثمان – المراجعة العلمية د ناصر الأنصاري – الهيئة المصرية العامة للكتاب – الطبعة الثانية 2012

[←475]

فندق ماريوت حاليًا

[476←] نقلا عن مقدمة لعرض كتاب قنصل أمريكا في عهد الخديو إسماعيل

[←477]
كان من أهم القرارات التي اتخذها أصحاب الديون هو فصل الميزانية الخاصة بالخديو اسماعيل عن ميزانية الدولة وتخصيص راتب خاص به ينفق منه دون التعرض لأموال الدولة أنه لم يكن هناك فرق بين ما يملكه الخديوي وممتلكات الدولة

[←478]

محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة 231

[←479] نقلاً باختصار عن كتاب –أنا المصري- للمؤرخ الكبير جمال بدوي – هيئة الكتاب - مكتبة الأسرة 2000 – مقتطفات مختصرة من صفحة 101 وما بعدها

[←480]

نقلا عن كتاب - الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي – تأليف عبد الرحمن الرافعي – دار المعارف

[←481]

أسرة محمد علي (سهير حلمي) صفحة 229

[←482]

أسرة محمد علي (سهير حلمي) صفحة 230

[←483]

أسرة محمد علي (سهير حلمي) صفحة 231

[←484]

مصر من تاني (محمود السعدني) صفحة 111

[485←]

أسرة محمد علي (سهير حلمي) صفحة 235، 236

[←486]

(في الساعة السابعة من صبيحة الثلاثاء 11 يوليو 1882 أعطى الأميرال سيمور إشارة الضرب فانهالت قذائف الأسطول البريطاني علي مدينة الإسكندرية، كانت القنابل تنطلق بدقة وإحكام، فتصيب أهدافها إصابات مباشرة أما مدافع الحصون والطوابي المصرية، فكانت ضعيفة خائرة متراخية فتسقط قنابلها في مياه البحر، دون أن تصل إلى البوارج الإنجليزية واستمر إطلاق الحمم حتي قبيل غروب الشمس، وهي فترة كانت كافية لتدمير المدينة وتحويل أحيائها الآهلة إلى أطلال تتراكم فيها الجثث وتنعق البوم بعد أن فر سكانها وهاموا علي وجوههم نحو الريف بحثًا عن مأوى بقيهم نار الجحيم، كانت مجزرة بشرية رهيبة، ارتكبتها بريطانيا العظمي عقابًا للشعب المصري لأنه رفض الاستسلام للنفوذ الأوروبي الذي تغلغل في أنحاء الديار المصرية وبات يشكل خطرًا على روحها وشخصيتها وأخلاقها واستقلاها الوطني، كان حكام مصر من سلالة محمد علي قد فتحوا أبواب البلاد علي مصاريعها أمام الأجانب ومنحوهم امتيازات وحصانات جعلتهم بمنأى عن المساءلة إذا ارتكبوا أحط الجرائم ولم يكن هؤلاء الأجانب في مستوي الطبيب الشهير كلوت بك أو القائد العسكري الكولونيل سيف وإنما كان معظمهم من حثالات البشر المكدسين في الموانئ الأوربية من الأفاقين والمرابين وتجار الأعراض فلما تسامعوا عن الخير الوفير في مصر المحروسة شدوا إليها الرحال طمعًا في الثراء الرخيص وامتهنوا أحقر المهن وانتشروا في خدمة الحانات والخمارات وبيوت الدعارة فلما كثرت النقود في أيديهم وظفوها في الربا واستطاعوا تملك الأراضي الشاسعة والعقارات الثمينة) وهناك تعليق للمسيو جون نينيه السويسري عن هذه المجزرة البشعة حيث قال (ويجب أن نعترف بأن هذه مجزرة همجية لم يكن لها أي مسوغ وليس الباعث عليها سوي الشهوة الوحشية المتعطشة إلى القتل وسفك الدماء) كما أن الأستاذ جمال بدوي علق علي موقف فرنسا من هذه المجزرة (فقد اعتبرت الحكومة الفرنسية مجزرة الإسكندرية وما تبعها من احتلال عسكري عملاً من أعمال البطولة تستحق عليه بريطانيا التهنئة الحارة وكان جواب حكومة لندن علي التهنئة: " إن انتصارنا هو انتصار أوروبي ولو انهزم الإنجليزي لكان ذلك كارثة علي كل الدول التي تحسب حسابًا للتعصب الإسلاميويضيف الأستاذ جمال بدوي في استنكار واضح (التعصب الإسلامي !! أنعم النظر في هذه العبارة الغريبة حتي يتملكك الغيظ، بريطانيا العظمي تحرك في نفس شريكاتها النعرة الصليبية المقيتة وتري في دفاع أمة صغيرة عن حريتها واستقلالها وكرامتها مظهراً للتعصب الديني أما امتصاص دماء

المصريين ونهب ثرواتهم وإذلال كرامتهم فهو عين التسامح الديني الذي تريده الدول العظمى !!، منطق غريب جداً ولكنه منطق الذئاب الضارية مع الحمل الوديع في كل عصر) مقتطفات من كتاب (مصر من نافذة التاريخ) تأليف المؤرخ الكبير جمال بدوي رحمه الله – صفحة 98، 99، 100 مكتبة الأسرة طبعة 1995

[←487]
نقلًا عن كتاب (مصر من نافذة التاريخ) تأليف جمال بدوي صفحة 112،
وكتاب (أسرة محمد علي) تأليف (سهير حلمي) صفحة 246

[←488]

يقول عنه بيرم التونسي (ولما عدمنا في مصر الملوك - - - جابوك الإنجليز يا فؤاد قعدوك)

[←489] موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة 124، 125

[490←]
نقلًا باختصار عن كتاب – دراسات في ثورة 1919- للدكتور حسين مؤنس – دار الرشاد- الطبعة الثانية سنة 2005

[←491]
ربما يكون ما قاله سعد باشا زغلول قد اشتهر بين المصريين بكلمة (مفيش فايدة)

[←492]
نقلًا باختصار عن كتاب في محراب الفكر – للأستاذ جمال بدوي – الهيئة المصرية العامة للكتاب – 1998- مقتطفات من صفحة 65 وما بعدها

[←493]
نقلًا عن كتاب (سعد زغلول سيرة وتحية) لعباس محمود العقاد

[←494] نقلًا عن كتاب في أعقاب الثورة المصرية – ثورة 1919 – لعبد الرحمن الرافعي – الجزء الثاني –دار المعارف

[←495]
من كتاب مختارات من شخصية مصر للدكتور جمال حمدان

[←496]

كانت الحكومات التي يفرضها القصر والاحتلال فرضًا على الشعب تنفذ سياسة الملك والإنجليز، أما الحكومات الدستورية التي تأتي عبر انتخابات بإرادة الشعب فقد كانت تعمل لصالح الشعب في المقام الأول ولذلك كان القصر ينقلب عليها ويأتي بحكومات موالية له

[497←]
نقلًا عن كتاب في أعقاب الثورة المصرية – ثورة 1919 – لعبد الرحمن الرافعي – الجزء الثاني –دار المعارف

[←498]

اللواء أركان حرب محمد نجيب 1901 - - 1984 سياسي وعسكري مصري، أول رئيس لجمهورية مصر بعد إنهاء الملكية وإعلان الجمهورية في18 يونيو 1953، كما يعد قائد ثورة 23 يوليو 1952 التي انتهت بعزل الملك فاروق ورحيله عن مصر،تولى منصب رئيس الوزراء في مصر خلال الفترة من8 مارس 1954 18 أبريل 1954، وتولى أيضًا منصب القائد العام للقوات المسلحة المصرية ثم وزير الحربية عام 1952.ولد محمد نجيب بالسودان، والتحق بـكلية غردون ثم بالمدرسة الحربية وتخرج فيها عام 1918، ثم التحق بالحرس الملكي عام 1923. حصل على ليسانس الحقوق في عام 1927وكان أول ضابط في الجيش المصري يحصل عليها. حصل على دبلوم الدراسات العليا في الاقتصاد السياسي عام 1929 ودبلوم آخر في الدراسات العليا في القانون الخاص عام1931.في ديسمبر 1931 رقي إلى رتبة اليوزباشينقيب ونقل إلى سلاح الحدود عام 1934 في العريش، ثم أصبح ضمن اللجنة التي أشرفت على تنظيم الجيش المصري في الخرطوم بعدمعاهدة 1936، وقد أسس مجلة الجيش المصري عام 1937 ورقي لرتبة الصاغرائدفي 6 مايو 1938. قدم محمد نجيب استقالته عقب حادث 4 فبراير 1942 الذي حاصرت فيه الدبابات البريطانية قصر الملك فاروق لإجباره على إعادة مصطفى النحاس إلى رئاسة الوزراء، وقد جاءت استقالته احتجاجاً لانه لم يتمكن من حماية ملكه الذي أقسم له يمين الولاء، إلا أن المسؤولين في قصر عابدين شكروه بإمتنان ورفضوا قبول استقالته. رقي إلى رتبة القائمقام عقيدفي يونيو 1944. وفي تلك السنة عين حاكماً إقليمياً لسيناء، وفي عام 1947كان مسؤولا عن مدافع الماكينة في العريش. ورقي لرتبة الأميرالاي عميدعام 1948. شارك في حرب فلسطين عام 1948 وأصيب 7 مرات، فمنح نجمة فؤاد العسكرية الأولى تقديراً لشجاعته بالإضافة إلى رتبة البكوية، وعقب الحرب عين مديرا لمدرسة الضباط، وتعرف على تنظيم الضباط الأحرار من خلال الصاغ عبد الحكيم عامر، وفي 23 يوليو عام 1952 نفذت الحركة خطة يوليو والتي سميت بـ(الحركة التصحيحة) وانتهت بتنازل الملك فاروق عن العرش لوريثه ومغادرة البلاد، وفي عام 1953 أصبح نجيب أول رئيس للبلاد بعد إنهاء الملكية وإعلان الجمهورية. أعلن مبادىء الثورة الستة، وحدد الملكية الزراعية، لكنه كان على خلاف مع ضباط مجلس قيادة الثورة بسبب رغبته في إرجاع الجيش لثكناته وعودة الحياة النيابية المدنية،ونتيجة لذلك قدم استقالته في فبراير، ثم عاد مرة ثانية بعد أزمة مارس، لكن في 14 نوفمبر 1954 أجبره مجلس قيادة الثورة على

الاستقالة،ووضعه تحت الإقامة الجبرية مع أسرته في قصر زينب الوكيل بعيداً عن الحياة السياسية ومنع أي زيارات له، حتى عام 1971 حينما قرر الرئيس السادات إنهاء الإقامة الجبرية المفروضة عليه، لكنه ظل ممنوعاً من الظهور الاعلامي حتى وفاته في 28 أغسطس 1984، بالرغم من الدور السياسي والتاريخي البارز لمحمد نجيب، إلا أنه بعد الإطاحة به من الرئاسة شُطب أسمه من الوثائق وكافة السجلات والكتب ومنع ظهوره أو ظهور أسمه تماما طوال ثلاثين عام حتى اعتقد الكثير من المصريين أنه قد توفي، وكان يذكر في الوثائق والكتب ان عبد الناصر هو أول رئيس لمصر، وأستمر هذا الأمر حتى أواخر الثمانينيات عندما عاد اسمه للظهور من جديد وأعيدت الأوسمة لأسرتة، وأطلق اسمه على بعض المنشآت والشوارع

[←499]

بعد الحرب العالمية الثانية تغيرت خريطة القوي العظمي في العالم وأصبح انسحاب بريطانيا وفرنسا من الشرق الأوسط مسألة وقت

[500←] نقلًا عن كتاب –مقدمات ثورة يوليو سنة 1952- عبد الرحمن الرافعي – دار المعارف

[←501]
إذا كان زعماء الشعب مصطفي كامل ومحمد فريد وسعد زغلول وغيرهم قد أعلوا من شأن القومية المصرية ورفعوا شعار مصر للمصريين فإن جمال عبد الناصر قد أعلى من شأن القومية العربية لتصبح بديلًا لها أعم وأشمل

[←502]

مقتطفات نقلًا عن خطاب الزعيم جمال عبد الناصر

[←503]
نقلًا عن كتاب ثورة يوليو سنة 1952 –تاريخنا القومي في سبع سنوات 1952-1959 لعبد الرحمن الرافعي-الطبعة الثانية دار المعارف صفحة 309

[←504]

وكما أصدر من قبل الزعيم جمال عبد الناصر الدستور الذي رآه مناسبًا لمصر في ذلك العصر أصدر الرئيس السادات كذلك دستور يتناسب مع عصره

[←505]
لقد اختار الرئيس الساداد يوم الخامس من يونيو لافتتاح القناة ليمحو أثر ذلك اليوم الذي يذكر المصريين بنكسة سنة 1967

[←506]

مقتطفات من خطاب الرئيس السادات بتاريخ 16 أكتوبر 1973

[←507]

نقلًا عن كتاب المعارك الحربية علي الجبهة المصرية- للمؤرخ العسكري اللواء جمال حماد - دار الشروق

[←508]

على حد تعبير الأستاذ جمال بدوي